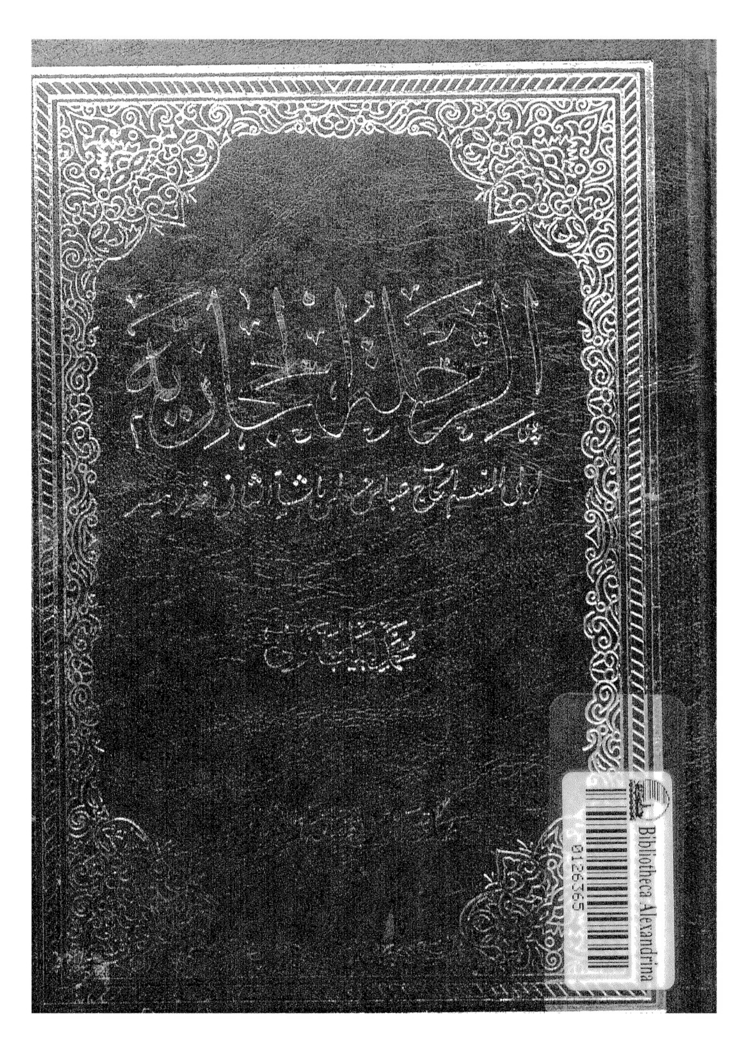
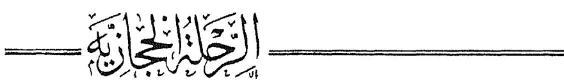

الرحلة الحجازية
Bibliotheca Alexandrina
0126365


الرحلة الحجازية





مكتبة الثقافة الدينية

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بورسعيد الظاهر
تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠



BOEHME & ANDERER, CAIRO.



الى سمو ولى النعم الافخم

لقد شرفني مولاى حفظه الله بخدمة ركابه العالى في حجه المبرور لذلك رأيت قياما بواجب شكر آلائه وحمد نعمائه ان أمثل صورة هذه الرحلة الميمونة في هذا السفر وأن أكتب معها كلمة عما في هاتيك الارجاء الشريفة من المواقف المقدسة يرى المطلع عليها كل ما تهمه معرفته منها .

وها أنا يامولاى أرفعها لاعتابكم السنيه بيد الاجلال والاعظام هدية للاسلام والمسلمين وخدمة للعلم والتاريخ .

وغاية المأمول اسعادها بالقبول ؟

العبد المخلص

محمد لبيب البتنوني

ـــ كتاب صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار الى المؤلف ـــ

تفضل صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار فأرسل الى صاحب كتاب الرحلة الحجازية بكتاب ثناء على مؤلفه يرى المطلع من خلال كلماته ذلك النور الذى يضئ للناس المحجة التى تسلكها هذه الحكومة السعيدة السعيدية لترقية الامة بتنشيط المعارف وتربية المدارك والنهوض بالهمم الى الدرجة التي تتناسب مع الحياة الصحيحة . فهو اذا شكر الكاتبين وحمد المجتهدين فانما يشكر نفسه ويحمد اهتمامه بمصلحة البلاد من الطريق الانفع والسبيل الاصلح . جزاه الله عن الامة خير الجزاء .

وانا نتشرف بأن نذكر هنا هذا الكتاب الكريم بكل اجلال وتعظيم ووجودنا كله شكر لعطوفته على هذه العناية الكبرى والرعاية العظمى :

القاهرة فى ٢٦ ذى الحجه سنة ١٣٢٨ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠

عزيزى لبيب بك

أمعنت النظر فى كتابكم الجديد الموسوم بالرحلة الحجازية فرأيت فيه آيات البراعة فى التحرير والتحبير واعجبنى منكم التعويل على التحقيق والتدقيق ، وأملى وطيد فى أن ينسج الكاتبون على منوالكم المفيد حتى يكون القارئ مشاركا للكاتب فى عواطفه مرافقاً له فى حله وترحاله ، وتلك عندى افضل وسيلة لتربية الملكات وترقية المدارك . أما ما زينتم به صحائف الكتاب من الرسوم فقد زاد فى قيمته الثمينة ، وقد تجلت بها تلك المعاهد المقدسة للانظار وتمثلت تلك المشاهد المباركة للعيان ، هذا فضلا عن المباحث العمرانية فى فلسفة الحج فقد افضتم فيها بقلمكم السيال وجردتم هذا الموضوع الجليل مما اعتوره من الشوائب على طول الزمان وابرزتموه فى حلته الاولى وبهجته الصحيحة ، وفقكم الله للقيام بأمثال هذه الخدمة للأمة والسلام

رئيس مجلس النظار

محمد سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من ارسل رحمة للعالمين أما بعد فقد شرفني مولاى الخديو الاعظم بتعييني مندوبا خصوصياً فى خدمة ركابه العالي مدة سفره الى الاقطار الحجازية وبعد عودة سموه بسلامة الله اسعدني بصدور أمره الكريم الى هذا العاجز بوضع شيء عن هذه الرحلة المباركة .

ولما كانت هذه البلاد غير معروفة للآن كما يجب لذوى البصيرة والعرفان مع أنه يقصدها سنوياً أكثر من مائتى الف نفس من المسلمين وكل ما كتب عن رحلة الحاج اليها لا يخرج عن بعض المناسك التى يضل المطلع فى كثرة شعابها ووعورة طرقها ومجاهلها مما يزيده ارتباكا وجهالة ، رأيت ان اضيف الى الرحلة الخديوية كلمة عن المشاعر الدينية المقدسة مبتعدا عن الترهات التى الحقتها بها مبالغة الوهم أو مغالبة الغرض مما اتخذه اعداء المسلمين وسيلة الى الطعن عليهم فى دينهم الذى جل ما تعرفوا به منه انما أخذوه عن أولئك الجهلاء الذين رزىء بهم الاسلام فيكيلون لهم الكلام جزافا من غير ما يشعرون بأنهم به يتحرون ! ! !

لذلك سلكت فى هذا الطريق مسالك التحقيق والتدقيق حتى جاءت كلمتى فيه والحمد لله مسفرة عن حقيقة الحج مبينة الغرض منه شارحة مناسكه بعبارة هينة لينة سهلة على كل مسترشد وضرورية لكل من قصد سفرا اليه أو معرفة به .

وانى قياما بهذا الواجب الاقدس لم أقتصر على الكلام فى النقط الدينية بل تناول بحثي ما يهم القارىء من المسائل العمرانية والاجتماعية والجغرافيه والتاريخية مما لم يسبقنى اليه أحد ممن كتب عن هذه الديار راجياً بذلك الخدمة العامة للعلم والاسلام وتتميماً للفائدة قد وضعت فى هذا السفر المبارك كثيرا من الخرط الجغرافية والرسوم النظرية التى وضعتها بنفسى أو الصور الفوطوغرافية التى أخذت بمعرفة بعض من كان فى معية الجناب العالي الخديوى أو سواهم من أفاضل المصورين الذين سبق لهم السفر الى تلك الارجاء من مصريين وغيرهم ووضعت للحرمين الشريفين رسما نظريا معتمدا على الابعاد التي وضعها لها المرحوم محمد صادق باشا المصرى ورسمت كروكى مكة ومنى وعرفة والمدينة مستمدا من بعض الرسوم القديمة المأخوذة عن الكروكيات التي وضعها بوركارت فى أوائل القرن الماضى لهذه الجهات التى لم تختلف كثيرا في هيئتها ونظام ابنيتها وعمارتها عما كانت عليه من قرون مضت . والله تعالى المسئول ان ينفع به بمنه وكرمه م؟

محمد لبيب البتنونى

تمهيد

لما كانت بلاد العرب، يقصدها سنويا نحو ربع مليون من المسلمين لتأدية فريضة الحج ، رأيت أن أكتب عنها كلمة تمحضها مما ألصقته بها الاوهام، وشوهته الرواة على مدى الايام . وقد رأيت أن أقسم الكلام فيها إلى قسمين : قسم نتكلم فيه عن أمة العرب وأصلها وقبائلها وبطونها ودولها قبل الاسلام وبعده، باختصار جمع اليه ما تشتت من الحقائق في كتب التاريخ ، وقسم نتكلم فيه عن صفة جزيرة العرب الحاضرة وعشائرها وحكوماتها مما تغمض معرفته على كثير من الناس، فنقول وبالله التوفيق .

الامة العربية

الامة العربية من أبعد الامم وجوداً ، وأطولها عمراً ، وأوسعها سلطاناً ، بل من أقدم الامم مدنية وعمرانا . ولقد كان لها قبل الاسلام من الدول ما يتحلى جيد التاريخ بذكره، كما كان لها بعده ذلك الملك الشاسع الاطراف ، البعيد الاكناف ، الذى كان له الشأن الاول في سياسة العالم بأسره مدة من الزمن طويلة .

وقد رأيت أن أقسم الامة العربية بالنسبة لاصولها الى ثلاثة أقسام : القسم الاول العماليق أو العرب البائدة ، الثانى العرب القحطانية ، الثالث العرب العدنانية :

العماليق

العماليق هم أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وأول ما وصلنا من أمرهم أنهم كانوا يسكنون على حالة بداوة في الصحراء التى بين العراق والعقبة . وكانوا ينقسمون الى فصائل صغيرة تتنقل من جهة الى أخرى وراء الكلأ ،وكانت لهذه الفصائل مشيخات منها تقوم بطبيعة الحال بتدبير أمورهم ، وكان ذوو العصبية منهم يشتغلون بنقل التجارة بين بابل ومصر . وما زالوا على هذه

البداوة حتى كبرت عصبيتهم، وتغلبوا على بابل، وقامت بها منهم فى القرن الخامس والعشرين قبل المسيح دولة يسمونها دولة الساموآبيين من (بنى سام بن نوح). وما زالوا بها حتى ظهر منهم فى القرن الثالث والعشرين قبل المسيح ملك اسمه حورابى، فتغلب على مملكة آشور وما حولها، وأصبحت له مملكة واسعة، بلغت فى زمنها أسمى ما وصلت اليه أية دولة لذلك العهد فى الرقىّ الادبى والمادى، وسميت بمملكة حورابى. واستمرت هذه الدولة حاكمة الى أواخر القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد: يعنى مدة أربعة قرون تقريبا. وقد عثر النقابون الذين يعملون فى آشور وبابل لهذه الدولة على كثير من الآثار التى تدل على رقيهم فى مدنيتهم، مكتوبة بالخط المسمارى(١)، مما حكموا معه بأنهم أبعد الامم رقياً فى حضارتهم.

ولما وصلت هذه الدولة الى سن الشيخوخة بطبيعة الحال، ضعف أمرها وانفصلت عنها أطرافها، واستقلت آشور. ولم تقف هذه المملكة الاخيرة عند هذا الاستقلال، بل نهضت بحكومتها حتى استولت على بابل فى سنة ١٢٨٠ ق م مدة الملك تغلاب بلسّر. وأخذ الآشوريون يعاملون العرب معاملة قاسية، فلم يقبلوا البقاء على الضيم، كما هى شيمتهم فى كل زمان، وهاجر قسم كبير منهم الى جنوب جزيرة العرب والى غربها.

— الشاسو (الهكسوس) وهم عرب الشرق أو عرب الرعاة —

بينما كانت الدولة الحورابية قائمة فى بابل، دخلت الهكسوس الى مصر من برزخ السويس فى القرن الثالث والعشرين قبل المسيح، واستولوا على الوجه البحرى وكوّنوا لهم به دولة كان مركزها فى مدينة صان. وأوّل ملوكهم يسمى سلاطيس وهو رأس العائلة السابعة عشرة المصرية. ومكث عرب الرعاة بمصر الى أن أجلاهم عنها الملك تُحتمُس ملك طيبة فى (الوجه القبلى)، حوالى سنة ١٧٠٠ ق م. وليست لهم بها آثار تذكر، اللهم الا بعض

(١) الخط المسمارى أخذه العماليق عن السومريين الذين كان لهم الملك قبلهم على بابل. وانما سمي بذلك لانهم كانوا يكتبونه أولا برؤوس المسامير نقشاً على الطين. وكثيراً ما كانوا يحرقونه بعد ذلك حفظاله على كرور العصور. ولقد أدخل العرب على هذا الخط تحسينات كثيرة تهذب بها شكله وكثرت فائدته، وكان لا يزال يقرأ قبل الاسلام فى اليمن ولكنه تلاشى أمره بانتشار الخط النبطي الذي كان يكتب به الحجازيون.

تماثيل لمبودانهم وخصوصاً لمبودهم سوتيخ . و يقال ان منهم فرعون ابراهيم ، والعرب يسمونه سنان بن الاشل ، وفرعون يوسف و يسمونه الريان بن الوليد ، وفرعون موسى و يسمونه الوليد بن مصعب . و يؤكد بعضهم ان هذا الاخير مصرى الجنس ودليلهم على ذلك ان الاولان كانا يعطفان على الاجانب ، أما الثالث فكان ينقم عليهم .

— دولة عاد الأولى —

لما نزح عرب الشمال بعد سقوط الدولة الحمورابية الى جنوب جزيرة العرب ، فى القرن العشرين قبل المسيح كما قلنا ، كوّنوا دولة عاد الاولى . وكانت مواطنهم بأحقاف الرمال بين اليمن وعمان . ومؤرخو العرب يزعمون أن عاداً أقدم الامم : ولذلك فانهم يطلقون وصف «عادى» على كل شئ قديم لا يعلم لهم تاريخه . و يذكرون لهم أموراً من الغرابة بمكان : كقولهم ان عاداً عاش ١٢٠٠ سنة وولد له ٤٠٠٠ ولد ذكر لصلبه ! وغير ذلك مما يمكنك مراجعته فى تواريخهم . وذكروا أن عاداً لما مات تملك بعده بنوه : شديد ، ثم شداد ، ثم ارم . وقالوا ان شداداً هو الذى بنى مدينة إرم ذات العماد ! وقالوا فى وصفها ما تقف الغرابة نفسها باهتة أمامه !! على أن بعض المفسرين قالوا فى تفسير قوله تعالى « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » انها ذات الرفعة ، وان إرم اسم جدهم : و به تكون ذات العماد وصفاً لعاد . و يؤيد ذلك نسبتهم الى إرم : فيقولون عاد إرم وثمود إرم . ولا يبعد أن كان لعاد من شامخ البنيان فى مملكتهم هذه ما كان لغيرهم فى ذلك الوقت فى ممالك الشام ومصر والهند وسواها ، يدل على ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء خطاباً لهم : « أتبنون بكل ريع (مرتفع) آية (فسروها بالبناء الفخيم) تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » !

و فى مدة شداد بغت عاد وأكثروا من الظلم والفساد ، فأرسل الله تعالى اليهم هوداً . فدعاهم الى ترك الاوثان وعبادة الرحمن ، فكذبوه وتمادوا فى ضلالهم . فانقطع عنهم المطر مدة ، فأرسلوا وفدا منهم الى مكة يستسقون ، ولكنهم استمروا فى طغيانهم . ولما رأى هود أن سخط الله نازل بهم لا محالة ، اعتزلهم وابتعد عنهم مع من آمن به . وسخر الله عليهم ريحاً مدة سبع ليال وثمانية أيام حسوما (متتابعات) فأهلكتهم .

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن عاداً الاولى انما هم من فل عرب الرعاة بعد طردهم من مصر : وعليه يكون ابتداء حكمهم بالاحقاف فى العصر السابع أو السادس عشر قبل الميلاد .

ولما هلكت عاد بقى هود ومن آمن معه . وانضم اليهم لقمان بن عاد الذى كان ذهب بوفدهم الى مكة(١)، ولحق بهم خلق كثير قاموا بدولة جديدة يسمونها عاداً الثانية ، دام ملكها ألف سنة، ثم تغلب عليهم القحطانيون فانمحت دولتهم وانقطع ذكرهم .

وعلى كل حال فان النقابين لم يكشفوا لنا للآن شيئاً من أخبارهم، وغاية ما ذكروه أنهم اعثروا فى تلك الاحقاف على مغائر محفورة فى الصخور التى تراكمت عليها طبقة كثيفة من الرمال . ولعلهم يبيدون لنا قريباً هذه الحجب التى اختفت من ورائها أخبار دولة كبيرة لا يبعد انها خدمت الانسانية خدمة نذكرها لها مع الشكر .

المَعينيّون

المعينيون أو بنو معين قوم كانوا يسكنون شرق بلاد اليمن فوق حضرموت، وكانت لهم بها دولة كبيرة . ومؤرخو العرب لم يحدثونا بكلمة عن هذه الامة . والذى أخبرنا بأمرهم انما هم أولئك المستشرقون ، وعلى الخصوص هاليفى الفرنساوى ، الذى أوفدته بلاده الى اليمن سنة ١٨٦٩م، واكتشف كثيراً من آثارها أهمها مدينة معين . وسار على أثره غلاذر الالمانى وغيره ، وحدثونا بشئ من أخبار هذه الدولة . وقالوا ان بنى معين كانوا ذوى مدنية وكان اشتغالهم بالزراعة فى سفوح جبال اليمن وسهول حضرموت . وانهم أقاموا هنالك السدود وفتحوا الخلجان وسيروا الماء الى مزارعهم . وقد اختلفوا فى تقدير عمر هذه الآثار : فبعضهم ذهب الى أنها من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وذهب آخرون الى أنها من القرن

---

(١) . اذا اعتبرنا ان عادا لم تنزح الى بلاد اليمن الا فى القرن العشرين على أبعد ما ذكره المؤرخون المصريون ، كان وفدهم الى مكة للاستسقاء انما كان بقصد الاستغاثة بالكعبة بعد بناء ابراهيم لها ، لا كما قال بعض مؤرخي العرب من ان وفدهم كان قبل ذلك.

الثامن أو السابع . وقد كتب الاستاذ هومل بالالمانية كتابا فى لغتهم ولغة سبأ .

ولما كانت الخطوط التى على تلك الآثار مسمارية ولغتها بابلية، كان المعينيون من غير شك من عمالقة الشمال . ولا يبعد أنهم هم عاد الثانية، ان لم يكونوا نزحوا الى هذه البلاد فى تيار قدوم عاد الاولى اليها ، وربما كانت لهذه الغلبة عليهم، ولهذا لم يذكر اسمهم معها . وعلى كل حال فمادام المنقبون لا يفترون عن البحث عن آثارهم، فلا يبعد أن ينكشف لنا أمرهم فى القريب العاجل ان شاء الله .

طسم وجديس

هما أمتان يذكرهما مؤرخو العرب بانهما من العرب البائدة . وقد كانتا تسكنان فى اليمامة شرق بلاد العرب . وكانت لطسم الكلمة السائدة لكثرة عصبيتها . وكان مركز ملكها فى مدينة تسمى القرية وهى مدينة الحجر، ولا تزال بها آثارهم الى الآن . و يوجد فى مدينة جمدة قصر يعبرون عنه بالعادى (و يعنون أنه قديم جداً) . وربما كانت لهذه الصفة نسبة صحيحة، وان هاتين الامتين انما قدمتا الى هذه البلاد مع عاد أو بعدها بزمن قليل . وربما كان لعاد الحكم عليهم، فلما هلكت بقيتا فى عزلة حتى دخلتا فى حكم التبابعة . وما زالتا حتى تملك من طسم رجل ظالم فاجر . فقضى بأن لا تزف فتاة من جديس الى بعلها قبل دخولها عليه . فاهتمت لذلك جديس وتمالئوا على قتله : فدفنوا اسلاحهم فى الرمل ودعوه الى وليمة عندهم، فحضر فى خاصة قومه . فهجموا عليهم وقتلوهم عن آخرهم . فذهب نفر من طسم واستصرخوا بتبع حسان أبى سعد . فساق جنده على جديس . وقالت له طسم ان باليمامة امرأة تسمى الزرقاء تنظر من بعد ثلاث ليال، فنخشى ان هى أبصرتنا أخبرت قومها فيستعدون لنا . فأمر كل واحد من رجاله أن يأخذ فرعا من شجرة و يجعله أمامه . فلما فعلوا وأبصرتهم الزرقاء قالت لقومها :

انى أرى شجراً من خلفه بشر * فكيف تجتمع الاشجار والبشر

ثوروا بأجمعكم فى وجه أوّلهم * فان ذلك منكم فاعلموا ظفر

فاستخفوا عقلها ولم يصدقوا قولها ، فدهمتهم خيل تبع فأفنوهم عن آخرهم . ثم أصاب

مابقى من طسم ماتشتت به شملهم ، وتفرقوا الى جزائر البحرين وغيرها، وبه قضى على ذكرهم . وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس للمسيح .

ثمود

ومن أمم العمالقة ثمود . نزحت من اليمن الى الشمال فنزلوا مدائن صالح، ثم كانت لهم بها دولة كبيرة، وآثارهم فيها الى الآن، وأهمها مايسمونه قصر البنت، الذى لا تزال توجد عليه نقوش يصعد تاريخها الى قبيل ميلاد المسيح . ولقد اختلف المؤرخون فى انهم كانوا أصحاب السلطان على النبطيين الذين كانوا يسكنون فى بطرة، أو انهم كانوا تابعين لحكم عرب الانباط، مما هو مشروح فى آخر باب من هذا الكتاب عند الكلام على مدائن صالح .

القحطانية

القحطانيون هم بنو قحطان بن سبأ الاكبر بن سام بن نوح . وكانوا يسكنون فى شمال جزيرة العرب، ونزحوا الى بلاد اليمن فى القرن الثامن قبل المسيح فى من نزح اليها بعد تحكم الآشوريين فيهم . وربما كانوا معاصرين للمعينيين، وانتهى أمرهم بالتغلب عليهم، وقاموا فى اليمن بدولة جديدة يسميها مؤرخو العرب بسبأ الاولى .

ولقد ذكرها أغلبهم عرضاً عند الكلام على سد مأرب . والهمدانى أول من شرحه لنا شرحاً وافياً . وأتى من بعده أرنو، وهاليفى، وغلازر، فى القرن الماضى فأيدوا قوله وزادوا عليه مما أخذوه من الآثار التى نقلوا شيئاً كثيراً منها الى متاحف أوروبا بعضها منقوش على أحجار وبعضها على برنز .

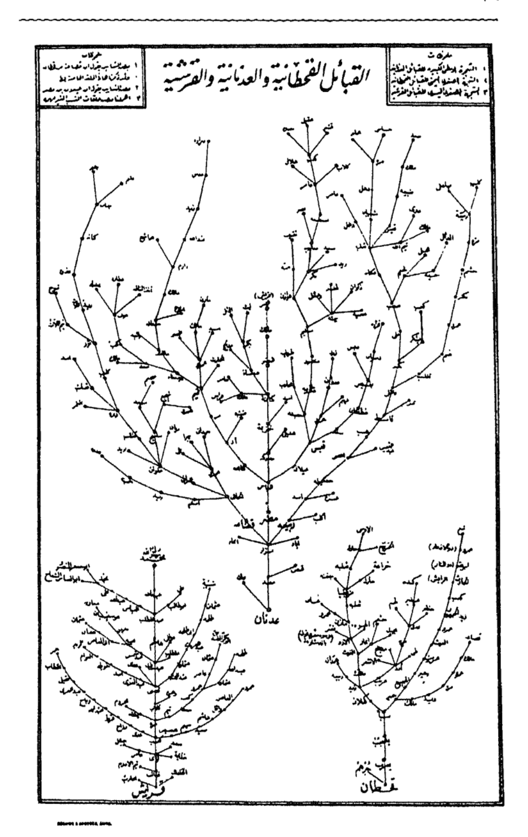
ويفهم من مجموع ماقالوه ان مياه الامطار كانت تتكون فى بلاد اليمن بجبالها المرتفعة ، ثم تنزل على هيئة سيول كبيرة فى وديان الى الشرق والغرب . والوديان التى كانت تنزل الى شرق مدينة مأرب كانت تجتمع فى واد يسمونه الميزاب ، يرتفع عن سطح البحر بالف ومائة متر ، ويحيط به جبال من كل جهاته . وهذا الوادى يضيق من جهته الشرقية الشمالية وينحصر بين

جبلين يسمونهما بلق الايمن و بلق الايسر فى مسافة ذكر الهمدانى انها ٦٠٠ خطوة، أى ٤٠٠ متر تقريبا ، وهنالك يسمى وادى أذينة، و بعده ينفرج الوادى انفراجا عظيما وتضيع فيه هذه السيول بلا فائدة . فاقام السبئيون على مسافة قليلة من مضيق هذا الوادى سدا من الحجر، طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعا كوّن مع جانبي البلقين الخارجين مجرى عموديا على مضيق أذينة يحوّل الماء عن مجراه الاصلى الى ذات اليمين وذات اليسار . وجعلوا الفتحتيه من جهتيه سدوداً ، فيها وراءها مجار يسير فيها الماء الى الجهة التى يراد سوقه اليها على حسب ارتفاعها أو انخفاضها . وهذا السد هو ما يدعونه بسد العرم . وأول من بناه يثعمر ملك سبأ فى القرن السادس قبل المسيح . ووجدوا اسمه أخيرا منقوشا على جبل بلق فيما يقابل السد المذكور . وزاد فيه خلفاؤه بما كان يزيد فى فائدته . ولقد حصل من وراء هذا السد وترتيب المياه بواسطته، تنظيم الزراعة فى تلك الصحراء بما أتى بالخير الجسيم لبلاد اليمن الشرقية :لانه حولها من قفر بلقع الى رياض وجنان، حتى كانوا يعبرون عن الارض التى كانت فى يمناه بالجنة اليمنى، والتى فى يسراه بالجنة اليسرى .

وما زال هذا السد[1] حتى انكسر فحصل منه خراب جسيم قضى على دولة سبأ، وتشتت أهلوها فى جزيرة العرب : فنزلت خزاعة مكة ، ونزلت الاوس والخزرج يثرب (المدينة)، ونزلت الازد عمان واليمامة، وسار مزيقيا الى الشام فكان منهم الغسانيون ،ونزحت لخم الى العراق وكان منهم المناذرة . و بذلك انتهى أمر سبأ الاولى وفى المثل: تفرقوا أيدى سبأ .

وقد ورد تاريخ سبأ بالتفصيل فى القرآن الكريم قال تعالى « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط[2] وأثل وشيء من سدر

(١) بعد كسر هذا السد بناه ملوك حمير وكانوا يتعهدونه بالعمارة ويقيمون ما اعتل منه . وآخر ما وصلنا من أمره أثر لابرهة الاشرم محفور على بعض جهاته نقرش قرأها غلازر : وفيها كيفية دخول اليمن فى ملك الاحباش، وقد ذكر فيها ان سد مأرب كسر فبناه ابرهة (انظر كتاب العرب قبل الاسلام لجورجي زيدان) . ثم كسر قبل الاسلام فاهمل ،ولا تزال آثاره موجودة وخصوصاً الغربية منها . (٢) خمط : حامض وقيل هو الاراك أو الغضا .


القبائل القحطانية والعدنانية والقرشية
عدنان
قحطان
قريش

قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور . وجعلنا بينهم و بين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » .

دولة سبأ الثانية أو حمير

لما انهدم بنيان دولة سبأ الاولى ، وتلاشت مدينة مأرب عاصمة ملكهم ، صارت السلطة ببلاد اليمن متفرقة فى أيدى من بقى فيها . وكان لكل كفر أوقرية أومدينة أو قصر رئيس منها . وهؤلاء الرؤساء كانوا يسمونهم الأذواء : وكانوا يعرفون فى الغالب باضافة اسم بلدهم اليهم (بلفظ ذو) فيقال ذو ناعط ، وذو ريدان ، وذو ظفار مثلا يعنى صاحب ناعط وصاحب ظفار الخ . وأشهر ماوصلنا من أسماء هذه القصور و بالغ شعراء العرب ومؤرخوهم فى وصفها وخصوصاً الهمدانى : قصر ناعط ، وقصر سلحين ، وقصر كوكبان ، وقصر غمدان ، وقصر بينون الخ .

وكان القوى من هؤلاء الاذواء يتغلب بطبيعة الحال على بعض البلاد التى فى جواره و يكون له الحكم فيها ، وهنالك يسمى مجموع مملكته مخفدا ، وصاحبه يسمى قيلا . و ربما اجتمعت جملة مخافد فى حكم شخص واحد فيسمونها مخلافا وحاكمها يسمى ملكا : وعلى هذا كان شأن الدولة فى حمير فى صغرها وضخامتها .

وما زالت الحال فى هذه البلاد على هذا النظام حتى قام صاحب ريدان (ظفار) واسمه علهان ، فى نهاية القرن الاول قبل المسيح ، وتغلب على جملة مخاليف ومخافد تكونت منها مملكة حمير الثانية [1] . ومازالت هذه المملكة تكبر فى زمن خلفائه حتى دخل فى دائرتها

(١) ذكر حمزة الاصفهانى ان ملوك حمير ستة وعشرون ملكا ، مدة حكمهم ١٧٠٠ سنة . وهم : الحارث الرايش ومدة حكمه ١٢٥ سنة . أبرهه ذو المنار وحكمه ١٨٣ سنة . افريقش بن ابرهة وحكمه ١٦٤ سنة . العبد ذو الاذعار وحكمه ٢٥ سنة . هدهاد بن شرحبيل وحكمه ٧٥ سنة . بلقيس بنت هدهاد وحكمها ٢٠ سنة . ناشر بنعم وحكمه ٨٥ سنة . شمر يرعش وحكمه ٣٧ سنة . أبو مالك وحكمه ٥٥ سنة

حضرموت وماوالاها من البلاد شرقا مدة حكم شمر يرعش، فى نهاية القرن الثالث للميلاد، وبها قامت دولة التبابعة (واحدها تُبّع) ومعناه ملك الملوك، وهو فى قوة لفظ امبراطور عند الرومان. واستمر الحكم فيها لخلفائه الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد، أى مدة ٢٣٠ سنة، تولى الحكم فيها جملة ملوك منهم [1].

وأشهر ملوك التبابعة الهدهاد، وكان يحكم من سنة ٣٤٥ الى سنة ٣٧٤ بعد الميلاد. ثم أبو كرب أسعد وكان يحكم من سنة ٣٨٥ الى سنة ٤٢٠ بعد الميلاد. وحسان بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٠ الى سنة ٤٥٥. وذو نواس وحكمه من سنة ٥١٥ الى سنة ٥٢٥.

ولقد كانت حكومة التبابعة فى غاية الرقى، وكانت بلادهم تسمى عند الرومان ببلاد العرب السعيدة، والعرب يسمونها اليمن الخضراء وكانت حضارتهم لا تقل عن حضارة الآشوريين وغيرهم من الممالك التى كانت فى شمال جزيرة العرب ان لم تزد عنها: وذلك لاحتكاكهم بتجار

تبع بن الاقرن وحكمه ٥٣ سنة. ذو جيشان وحكمه ٧٠ سنة. الاقرن بن أبي مالك وحكمه ١٦٣ سنة. كليكرب وحكمه ٣٥ سنة. أسعد أبو كرب وحكمه ١٢٠ سنة. حسان بن تبع وحكمه ٧٠ سنة. عمرو بن تبع وحكمه ٦٣ سنة. عبيد كلال وحكمه ٧٤ سنة. تبع بن حسان وحكمه ٧٨ سنة. مرثد بن عبيد وحكمه ٤١ سنة. وليعة بن مرثد وحكمه ٧٣ سنة. ابرهة بن الصباح وحكمه ٠٠٠ صهبان بن محرث وحكمه ١٥ سنة. حسان بن عمرو بن تبع وحكمه ٥٧ سنة. ذو شناتر وحكمه ٢٧ سنة. ذو نواس وحكمه ٢٠ سنة. ذو جدن وحكمه ٨ سنين وعليه يكون أولهم وهو الحارث الرايش كان يحكم فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد. وقد سار المؤرخ نويل دى فرجيه على نحوه فى كتابه تاريخ العرب، ويخالفهما فى ذلك أبو الفداء وغيره من مؤرخي العرب.

(١) في عدد ملوك التبابعة وأسمائهم ومدة حكمهم خلاف بين مؤرخي العرب والمؤرخين المصريين الذين بنوا حكمهم على ما عثروا عليه من آثارهم. وملوك التبابعة على ما جاء في كتاب العرب قبل الاسلام هم: شمر يرعش وحكمه من سنة ٢٧٥ ميلادية الى سنة ٣٠٠. ثم ذو القرنين الصعب (افريقش) وحكمه من سنة ٣٠٠ الي ٣٢٠. وعمرو زوج بلقيس وحكمه من ٣٢٠ الي ٣٣٠. بلقيس وحكمها من ٣٣٠ الي ٣٤٥ (وهي غير بلقيس سليمان لان هذه كانت فى العصر العاشر ق م). الهدهاد أخو بلقيس وحكمه من ٣٤٥ الي سنة ٣٧٤. مليكرب ينعم وحكمه من ٣٧٤ الي ٣٨٥. أبو كرب اسعد وحكمه من ٣٨٥ الي ٤٢٠. حسان بن أسعد وحكمه من ٤٢٠ الي سنة ٤٢٥. شرحبيل يعمر بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٥ الي سنة ٤٥٥. شرحبيل ينوف وحكمه من سنة ٤٢٥ الي سنة ٤٧٠. معد يكرب ينعم وابنه لحيعه (لعله لهيعه) وحكمهما من سنة ٤٧٠ الي سنة ٤٩٥. مرثد اللات ينوف وحكمه من سنة ٤٩٥ الي سنة ٥١٥. ذو نواس (دميانوس) وحكمه من سنة ٥١٥ الى سنة ٥٢٥. ذو جدن وحكمه من سنة ٥٢٥ الي سنة ٥٣٣.

الهنود والفرس والاحباش والمصريين والسوريين. وكانت الزراعة متقدمة فى بلادهم التى كانت لذلك العصر كلها مزارع وبساتين ورياضا وغياضاً. وكانوا يستخرجون من جبالهم المعادن المختلفة كالذهب والفضة والاحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والعقيق. وبذلك كان السبئيون والحِمْيَرِيّون من أغنى أهل الارض وأكثرهم حضارة ورفاهية: فكانت لهم القصور الفاخرة، والرياض الزاهرة، والرياش الباهرة، وحسبك ماقاله الشعراء وذكره المؤرخون فى وصف قصورهم، نذكر لك بعض ماقاله الهمدانى فى وصف قصر كوكبان: «كان موَزَّر الخارج بالفضة، وما فوقها حجارة بيض، وداخله ممرّد بالعرعر والفسيفساء والجزع[1] وصنوف الجوهر». وقيل فى وصف قصر بينون:

واسأل بينون وحيطانها * قد نُطّقت بالدر والجوهر

ولم يقتصر حكم التبابعة على اليمن بل امتد الى بلاد الحجاز واليمامة وما بينهما من قبائل العرب العدنانية وغيرها، بل تعدت فتوحاتهم فى زمن أسعد أبوكرب وولده حسان الى الشام وبلاد الفرس والهند. وكانوا يعينون على العرب حكاما منهم يسمونهم ملوكا: كزهير بن حباب الكلبي وغيره. وكانت وفود العرب تفد عليهم من جميع أطراف الجزيرة، يبثون اليهم شكواهم، أو يستمطرون من جدواهم. ومازال حكم التبابعة قائماً فى اليمن حتى نقم ذونواس على نصارى نجران، فأساء معاملتهم، وأخذ يقتل فيهم ظلما لانهم على غير ملته، وكان يهوديا. ثم بالغ فى نقمته عليهم فخدّ (حفَر) لهم أخدودا (حفرة) وأضرم فيه النار، وكان يرمى فيه كل من لم يرجع عن النصرانية. وقد وردت قصة أصحاب الاخدود اشمئزازاً مما أصابهم من الاعتساف فى سورة البروج: قال تعالى «قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود الخ». واستنجد أهل نجران بنجاشى الحبشة وكان نصرانياً فأرسل الى اليمن جيشاً عليه أرياط، وكان من ضباطه رجل يقال له أبرهة الاشرم. فلما علم ذونواس بهم قابلهم وقاتلهم قتالا شديدا، ولكنه انهزم وخاف من سقوطه فى يد عدوه فأغرق نفسه. وبذلك تم للاحباش الاستيلاء على أغلب بلاد اليمن. ومات أرياط بعد أن حكم البلاد عشرين سنة، فتولى

---

(١) حجر يمانى يشبه العقيق وهو ما يسمونه عين الهر.

عليها أبرهة ، وجعل عاصمته صنعاء . وكان منه ما كان فى حملته على مكة و رجوعه الى اليمن مقهوراً ، فرض ومات بعد أن حكم ٤٣ سنة . وتولى الملك بعده ابنه يكسوم وكان حكمه عشرين سنة كلها ظلم وجور . ثم ملك بعده أخوه مسروق بن أبرهة وكان أكثر ظلماً من أخيه . ولما هلك ذو نواس قام أمير من قرابته اسمه ذو يزن (جدن) واستولى على بعض البلاد واستمر ملكه فيها نحو ثمان سنين . ثم تغلب عليه الحبشة فقتل نفسه ، وفر ابنه سيف الى قيصر الروم يستنجده ، وأقام ببابه سبع سنين ، فأبى أن ينجده . فسار الى كسرى أنوشروان فوعده بمساعدته ، و وجه معه رجلا اسمه وهرز فى جيش من المسجونين وقال « ان هم فتحوا كان لنا وان هم هلكوا كان لنا » . وركب وهرز ومن معه البحر فلما وصلوا الى اليمن التقوا بيكسوم و رجاله ، فكانت الدائرة على الاحباش : وقتل يكسوم فى الواقعة وانهزم جيشه . وتبعهم الفرس فاثخنوا فيهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا . و بذلك دانت لهم البلاد ، وجلس سيف بن ذى يزن على كرسيها . وأتته وفود العرب تهنئه بالملك ، وأتاه عبد المطلب سيد قريش فى نفر من قومه فاكرم وفادتهم . و بعد مدة من حكمه قتله حُجّابه وكانوا من الحبشة . و به كان آخر حكم التبابعة فى اليمن التى صارت بعد ذلك تابعة لمملكة الفرس . حتى اذا كانت السنة التاسعة للهجرة أسلم أهل اليمن ، وأرسلوا وفداً منهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . فأرسل اليهم معاذ بن جبل وجعل له الامارة عليهم ، وأوصاه بهم خيرا . وكان عامل كسرى عليهم اسمه بازان فأسلم و به صار حكم اليمن الى المسلمين .

دولة كندة

كندة بطن من كهلان ، كانت نزحت من اليمامة فى أوائل القرن الخامس من الميلاد وسكنت فى شمال حضرموت فى بلد سميت باسمهم . وكان سيدهم حجر بن عمرو المشهور باكل المرار ، له علاقة بحسان بن تبع ملك حمير ، لانه كان من أعوانه فى فتوحاته بشمال جزيرة العرب ، فولاه ملكا على قومه . وكان حجر ذا همة وشجاعة ودراية . فاستنجدت به بكر بن وائل على اللخميين ملوك العراق ، وكانوا غلبوهم على بلادهم وأجلوهم عنها . فسار مع بكر اليهم وحاربهم واستنقذ منهم أرض بكر فولاه حسان ملكا على العرب . فسار الى نجد وجعل مقامه

بها فى بطن عاقل، ومازال به حتى مات . وتولى بعده ابنه عمرو، و يسمونه المقصور لاقتصاره على ملك أبيه . ثم خلفه ابنه الحارث . واتفق ان قباذ ملك الفرس نقم على المنذر بن ماء السماء فطرده عن الحيرة، وأقام الحارث مكانه على مُلكها . فلما ملك أنوشروان، أعاد المنذر وطرد الحارث فهرب الى ديار كلب ومات بها . وكان للحارث ولد اسمه حُجر كان ولاه على أسد، فتنكروا له وقتلوه فى دمون باليمن فاستنجد عليهم ابنه امرؤ القيس الشاعر المشهور بكر وتغلب، فساروا لنجدته وهربت أسد من وجهه . ولما علم به المنذر بن ماء السماء سار فى طلبه فتفرقت جموعه . فاستنجد امرؤ القيس بابن ذى جدن ملك حمير وسار الى المنذر فى جمع من العرب . وكانت الدائرة على ابن حجر، فانهزم وسار يتنقل من قبيلة الى أخرى حتى قصد السموأل بن عاديا، وترك عنده قوسه ودروعه، ثم سار الى قيصر الروم يستنجد به فلم ينجده . فرجع من عنده خائباً ومات من الحزن فى سنة ٥٦٠ للميلاد، وهو آخر ملوك كندة .

دولة تنوخ بالعراق

اختلف النسابون فى أصل تنوخ: فنهم من يجعلهم قحطانيين ومنهم من يجعلهم عدنانيين . ومع أننا أخذنا بالقول الثانى فى شجرة القبائل العربية ، فاننا ذاكروهم هنا لانهم هم الذين شادوا الدولة العربية فى العراق، وخلفهم عليها اللخميون بلا فاصل بين الدولتين: وذلك ان تنوخ (١) لما نزلت بالعراق كونوا فيها لهم دولة عظيمة فى أوائل القرن الثالث للمسيح . وأول من قام بها مالك بن فهم أول ملوكهم . ثم خلفه عليها ابنه جُذيمة الابرش، المشهور بدهائه وقوته وشجاعته وحسن رأيه . وكانت له حروب مع ملك من العمالقة اسمه عمرو بن الظرب، كان ملكه فى مشارف الشام، و بعضهم ذهب الى أن عاصمة ملكه كانت مدينة تَدْمُر، فقتله جذيمة . وكانت لعمرو بنت اسمها الزّبّاء (واليونان يسمونها زينوبى ولعله محرف عن زنوبه) فاحتالت على جذيمة فقتلته فى ثار أبيها . وكان جذيمة لم يعقب نسلا . وكان زوّج أخته رقاش

(١) كان لتنوخ فرع تولى الحكم فى مشارف الشام للرومانيين ولم تطل مدتهم حتى تملك عليها بنو سليح وهم بطن آخرى من قضاعة . وما زال هؤلاء حتى غلبهم عليها الغسانية .

برجل من لخم اسمه عدى وكان من ندمانه، فولدت له ولداً نجيباً اسمه عمرو، فكفله خاله ورباه أحسن تربية. فلما قتل جذيمة تولى عمرو بن عدى الحكم بعده على الحيرة. وبه انتقل الملك من سرح الى لخم.

وأراد عمرو أن يأخذ بثار خاله فاحتال هو أيضاً على الزباء بواسطة عبد له اسمه قصير: فجدع قصيراً نفسه، وسار الى الزباء يشكو اليها ابن عدى. وأرسل عمرو بالرجال اليه في صناديق، وقصير يوهم أنها أمواله. فلما كان الليل خرجت الرجال ووضعوا السيف في قوم الزباء فهربت ولحق بها ابن عدى. فلما تحققت فتكه بها، كان بيدها سم فتناولته قائلة «بيدى لا بيد عمرو».

دولة اللخميين بالعراق

كانت ملوك الحيرة تابعة لدولة الفرس. وكانوا يستعملونهم في الوقوف في وجه من يقصدهم من الرومان من جهة الغرب، كما كان الرومان يستعملون الغسانية لصد هجمات من يقصدهم من جهة الشرق. وكان للخميين (ويسمونهم بني نصر) دالة كبيرة على الملوك الساسانيين، ولهم عندهم مكانة اجلال واحترام، وكانوا يلقبونهم بملوك العرب: فعظم جاههم واشتهر أمرهم بين قبائل العرب، وقدمت عليهم وفودها، وقصدهم شعراؤها وانقطع لمدحهم جملة منهم النابغة الذبياني، وطرفة، والمتلمس، وحسان وغيرهم.

وأغلب ملوك اللخميين من ذوى الهمة والعزة والسلطان. وأشهرهم ذكرا عند العرب النعمان بن المنذر لقرب عهده بالعصر الاسلامى. وحكمت هذه الدولة العربية الزاهرة من سنة ٢٦٨ الى سنة ٦٢٨ ميلادية.

وهاك جدولا بملوكهم وتواريخ حكمهم مع ما اشتهروا به من الاعمال:

﴿ جدول بملوك اللخميين بالحيرة ﴾

﴿ إسم الملك ﴾	مدة الحكم من سنة م	إلى سنة م	﴿ أعماله ومناقبه ﴾
عمرو بن عدى بن نصر	٢٦٨	٢٨٨	هو الذى كون دولة اللخميين فى العراق .
امرؤ القيس بن عمرو	٢٨٨	٣٢٨	اتسع سلطانه وامتد على قبائل العرب غربا وجنوبا، ودخل فى حكمه قبائل مذحج وربيعة ومضر، وحارب شمّر ملك حمير. وقد وجدوا اسمه مكتوبا بالعربية على قبر فى حوران ولعله كان ذهب اليها فى غزوة فمات ودفن بها .
عمرو بن امرئ القيس	٣٢٨	٣٧٧	ملك نحو نصف قرن وكان معاصراً لسابور ذى الاكتاف، وكانت مدته كلها خير ورخاء .
أوس بن قلام	٣٧٧	٣٨٢	ليس من اللخميين ولكنه تغلب عليهم واستمر على ملك الحيرة حتى قتله رجل من بنى نصر فرجعت الدولة اليهم .
امرؤ القيس بن عمرو الثانى	٣٨٢	٤٠٣	ليس له عمل يذكر .
النعمان الاعور بن امرئ القيس	٤٠٣	٤٣١	كان مهيباً حازما كثير الحروب، غزا الشام مرارا . وكان يغزو كل قبيلة من العرب لا تدين له . واجتمع له من الاموال مالم يجتمع لاحد من سلفه . وهو صاحب قصر الخَوَرْنَق، بناه له سنمّار، فلما أعجبه قطع يده حتى لا يبنى لغيره مثله وكان بينه وبين زهير بن قيس العبسى صلة نسب . وفى آخر أيامه زهد الملك وهام على وجهه فى القفار ولم يعلم من أمره شئ بعد ذلك .
المنذر بن النعمان بن امرئ القيس	٤٣١	٤٧٣	كان من أعوان ملوك الفرس . وكان معاصرا ليزدجرد (يزدكرد) وبهرام، وحارب جيوش الروم الذين كانوا يقصدون فارس وانتصر عليهم انتصارا باهرا .
الاسود بن المنذر بن النعمان	٤٧٣	٤٩٣	استصرخ به عمرو بن أذ . ة فى أخذ ثار خال له قتله الغسانيون فسار اليهم وحاربهم .

جدول بملوك اللخميين بالحيرة

إسم الملك	مدة الحكم من سنة م	مدة الحكم الى سنة م	أعماله ومناقبه
			وأسر كثيرا من وجوههم وقتلهم فيه .
المنذر بن المنذر بن النعمان	٤٩٣	٥٠٠	ليس له ما يستحق الذكر .
النعمان بن الاسود	٥٠٠	٥٠٤	أمضى مدة حكمه فى حرب الروم بالشام وغيرها
علقمة أبو يعفر	٥٠٤	٥٠٧	من غير آل نصر وليس له ما يذكر .
امرؤ القيس بن النعمان	٥٠٧	٥١٤	ليس له ما يذكر .
المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء .	٥١٤	٥٦٣	هو أشهر ملوك اللخميين . وقد حصل بينه و بين قباذ ملك الفرس خلاف أفضى الى تولية قباذ للحارث الكندى على الحيرة . فهرب المنذر وما زال مختفيا حتى مات قباذ وتملك ولده أنوشروان . فتقدم عليه المنذر فرحب به وولاه الحيرة ثانيا . وكان له يومان (١) يوم بؤس و يوم نعيم : فمن وفد عليه فى بؤسه قتله ، ومن وفد فى يوم نعيمه أهال عليه عطاياه . وحارب المنذر بكر بن وائل فى يوم أوارة ثم قتل فى حرب بينه و بين الحارث بن جبلة الغسانى فى واقعة يسمونها ذات الخيار أو يوم اباغ .
عمرو بن هند مضرط الحجارة ابن المنذر بن ماء السماء	٥٦٣	٥٧٨	كان ذا همة علياء وشيمة شماء ، وكان صاحب خيلاء وكبرياء . دعا كبراء العرب يوما فوفدوا عليه ، ووفد عليه عمرو بن كلثوم التغلبى مع أمه بدعوة منه . فلما دخلت أم كلثوم على هند ، أرادت هند أن تستخدمها فقالت واذلاه !! فسمعها ابنها فاستل سيف بن هند وهو معلق فى السرادق وقتله به ، ثم خرج مع من كان معه من تغلب .
قابوس بن المنذر	٥٧٨	٥٨١	كان ضعيفا وله يوم طخفة مع بنى يربوع .
المنذر بن المنذر بن ماء السماء	٥٨٢	٥٨٥	قتل يوم حليمة فى حرب بينه و بين الغسانية .

(١) ذكر بعض المؤرخين ان الذي كان له هذان اليومان هو النعمان بن المنذر أبو قابوس .

جدول بملوك اللخميين بالحيرة

إسم الملك	مدة الحكم من سنة م	مدة الحكم الى سنة م	أعماله ومناقبه
النعمان بن المنذر أبو قابوس	٥٨٥	٦١٣	بلغت الدولة فى أيامه منتهى الشرف . ونقم عليه كسرى وطلبه فهرب الى طئ وطلب منها أن تمنعه فابت . فنزل على هانئ بن مسعود سيد بنى شيبان . وكان هانئ عزيزاً ، فأودعه أهله وسار الى كسرى فأمر به فسجن حتى مات فى طاعون سنة ٦١٣م . وهو صاحب يوم الشلان بينه وبين بنى عامر بن صعصعة .
إياس بن قبيصة الطائى	٦١٣	٦١٨	لما سجن أبو قابوس استعمل كسرى اياسا سيد طئ على العراق . فأرسل الى هانئ بن مسعود وطلب منه ما استودعه النعمان فابى . فاخبر كسرى وسار اليه بجمع كبير . فثبت لهم بنو شيبان وانتصروا على الفرس انتصارا بينا بذى قار . وكان ذلك سنة ٧ قبل الهجرة .
زاديه (زادويه)	٦١٨	٦٢٨	ليس له مايذكر .
المنذر بن النعمان المغرور	٦٢٨	٦٣٢	وهو آخر ملوك الحيرة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة ٦ للهجرة ، أرسل العلاء الحضرمى الى البحرين ليدعو أهلها الى الاسلام أو الى الحرب . وأرسل معه كتابا الى المنذر يدعوه الى الاسلام فاسلم ، وأسلم معه جميع من هناك من العرب . وولى رسول الله العلاء على البحرين ومكث بها حتى كانت خلافة أبى بكر فارتدت العرب . فاستنجد أهل البحرين بالمنذر فحضر اليهم وحاصروا العلاء فى حصن الجوثاء ، ومازال محصوراً حتى غافلهم وخرج عليهم ليلا وأوقع بهم وقتل المنذر فى هذه الواقعة وكان ذلك سنة ١٢ للهجرة وفيها انتهى حكم المناذرة باستيلاء المسلمين على العراق .

الغسانية

كانت الروم تستعمل العرب الذين كانوا يسكنون بادية الشام للاستعانة بهم على عرب العراق الذين كانوا يستعملهم ملوك الفرس فى مناوأة الرومان . فاستعملوا أولاً بطناً من تنوخ، ثم استعملوا اسليحا، ثم الضجاعمة، وكلهم من قضاعة . حتى اذا نزح الغسانيون الى بلاد الشام تغلبوا على بنى ضجعم وأقاموا فى البلقاء، وصارت لهم الكلمة فى تلك البادية بحكم العصبية، فاقامهم الرومانيون على المحافظة على حدودهم وعلى حروبهم مع الفرس وغيرهم . وقد اختلف مؤرخو العرب فى عدد ملوك الغسانية: فقال حمزة الاصفهانى انهم ٣٢ ملكا حكموا من سنة ٢٢٠ للميلاد، وقال آخرون غير ذلك . وذهب المؤرخ نولدكى الى أنهم عشرة فقط، وأن ملكهم يبتدئ من أواخر القرن الخامس للمسيح كما هو مبين فى الجدول الآتى :

سنة الوفاة	إسم الملك	سنة الوفاة	إسم الملك
٥٠٠	جبلة أبو شمر .	(من سنة ٥٨٣ الى سنة ٦١٤)	الحارث الاصغر ابن الحارث الاكبر .
			» الاعرج ابن الحارث الاصغر .
٥٦٩	الحارث بن جبلة .		النعمان بن الحارث الاصغر .
٥٨٢	المنذر أبو كرب بن الحارث .		عمرو بن الحارث الاصغر .
			حجر بن عمرو .
٥٨٣	النعمان بن المنذر الغسانى .	٦٣٦	جبلة بن الايهم .

ولما كان التاريخ الذى حكم فيه جبلة أبوشمر يقرب من الزمن الذى وضعه له حمزة وغيره من مؤرخى اليونان ، كان اختلافهم فى تاريخ مبدأ هذه الدولة مبنياً على الوقت الذى ابتدأت فيه ضخامتها فى عهد جبلة المذكور .

وأشهر هؤلاء الملوك هو الحارث بن جبلة، وكانت له منزلة كبيرة عند الروم لشجاعته وشدة بأسه وعظيم سلطانه على العرب . ولما مات تولى ابنه المنذر مكانه فحارب قابوس

ملك الحيرة وانتصر عليه . وذهب المنذر الى القسطنطينية فألبسه الامبراطور طيباريوس التاج ولم يلبسه أحد قبله من الغسانيين . واستمرت سوريا فى يد الغسانيين حتى حمل الفرس عليها وافتتحوها سنة ٦١٣م ، فذهبت دولة العرب منها ، وكان عليها حجر بن عمرو. فلما نهض هرقل لاسترجاع سوريا من الفرس ظهر من الغسانية جبلة بن الايهم . وهو الذى وفد على عمر بن الخطاب فى أشراف قومه وأسلم معهم ، وبينما هو يطوف حول الكعبة وطئ إزاره أعرابى فلطمه جبلة . فاشتكى الاعرابى الى عمر . فاستدعاه وخيّره بين القصاص أو استرضاء الاعرابى حتى ينزل عن حقه . فاستمهله جبلة حتى يرى رأيه وفر ليلا الى فلسطين وركب البحر الى القسطنطينية وأقام بها حتى مات .

وللغسانية كثير من آثار العمارة فى بلاد الشام : خصوصاً فى أذرح ، ونجران ، ومعان . ومن أسماء قصورهم : صرح الغدير ، والقصر الابيض ، وقصر المشتى ، والقلعة الزرقاء ، وقصر منار . وقد عثروا أخيراً على بعض آثار هذه القصور فى حوران .

العدنانية

لما أتى اسماعيل عليه السلام الى مكة تزوج بها وولد له اثنا عشر ولدا ، ومازال نسله يتكاثر ، وكانوا يسمونهم بالاسماعيلية ، حتى أنتج بعد نحو عشرين بطنا حفيده عدنان . فولد له معد . وولد لمعد نزار فانجب أنمارا ، ومضر ، وقضاعة ، وربيعة ، وأيادا . وبارك الله تعالى فى نسله فكان منهم العرب العدنانية . وكانت منازل هذه البطون الخمسة حول مكة فى مبدأ أمرها . ثم اضطرتهم الحالة المعاشية الى طلب الرزق فى جهات جزيرة العرب فنزحت قضاعة الى نجد ، وتفرعت الى بطون كثيرة منها : تيم اللات وقد نزحت الى البحرين ، وتزيد نزلت عبقر بأرض الجزيرة ، وسليم نزلت مسارح الشام وفلسطين ، وأسلم نزلت الحجر شمال المدينة ، وتفرعت فى جهاته أفخاذها الاربعة : عذرة ، ونهد ، والحواتكة ، وجهينة . ثم تنوخ وقد نزلت الى أرض الحيرة . وربان بن حلوان نزحوا الى بادية الشام . وبلى أقامت جنوب العقبة . وبهراء وقد لحقت باليمن . ولقد تفرعت من هذه البطون أفخاذ كثيرة كانت أمهات لقبائل كبيرة مشهورة .

وأما انمار فانها نزحت الى جبال السروات فملكوها وكان منها بطنان: بجيلة وخثعم. وقد تفرقت أفخاذهما فى جهات الجزيرة . ونزلت اياد العراق ، وكانوا يغيرون على بلاد الفرس فأجلاهم أنوشروان عنها، فتفرقوا فى أرض الروم و بلاد الشام .

و لم تقم من العدنانية قبل الاسلام دول تستحق الذكر ، ولكن كانت ملوك اليمن تعطى لقب ملك لبعض سادات العرب وتوليهم الزعامة على القبائل: ومن هؤلاء الملوك زهير ابن جناب الكلبي، ولاه أبرهة الاشرم على قبائل العرب ، فخرجت عليه بكر وتغلب، فسار اليهم وغزاهم وأسر وجوههم ومنهم وائل بن ربيعة المشهور بكليب وأخوه مهلهل، وعاد بهم الى بلاده . ومكث كليب وأخوه عنده مدة حتى هب قومهما وأنقذوهما من الاسر . وكان زهير قد أسن وعجز وتولى بعده عبد الله بن أخيه حكيم . ولما رجع كليب الى قومه أخذ يستميل اليه العرب و يعمل فيهم بكمال درايته وحسن ادارته وكثير كرمه وجوده ، وجمع اليه معدا وأفهمهم مقدار ما يصيبهم من تبعيتهم لملوك اليمن . وسار بهم وحارب ابن حكيم، فانتصر عليه فى واقعة عظيمة يسميها العرب يوم خزاز، وكان ذلك فى أواخر القرن الخامس للميلاد: وبذلك خرج العدنانية من تبعيتهم لملوك اليمن، ونادوا بكليب ملكا على العرب . ومازال أمر كليب يكبر حتى قتل ناقة لامرأة اسمها البسوس، كانت نزيلة على ابن عمه جساس، فقتله بها غيرة على جواره، وقامت لذلك حروب هائلة بين بكر وتغلب مكثت أربعين سنة و يسمونها حرب البسوس .

ومن ملوك العرب أيضاً قيس بن زهير العبسى وله حروب مشهورة . وفى آخر أيامه اعتزل الملك وذهب الى عمان ، وترهب فيها ومات بها . وكان له ولد اسمه فضالة وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه .

وأما قريش فقد كانت لهم فى جزيرة العرب الزعامة الدينية العامة لاستيلائهم على الكعبة وكان لهم بذلك فى العرب كلهم منزلة اجلال واعظام لا تقل عن منازل الملوك ان لم تزد عنها.

ومازالت القبائل العدنانية على بداوتها حتى ظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش، ونشر دين الاسلام فى قومه، ثم هاجر الى المدينة، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر فى

قبائل بلاد العرب كلها، ومالبث أن تجاوزها شرقا وشمالا وغربا، واستولى العرب فى حكم الراشدين الذين كان مركزهم المدينة، على بلاد فارس والشام وأرمنيا والقوقاز ومصر وبلاد المغرب . وفى مدة الامويين انتقل مركز الخلافة الى دمشق . ووصلت فتوحاتهم الى المحيط الاطلانطيقى، ودخلت جنودهم الى أوروبا من بوغاز جبل طارق، ومازالت تفتح فى بلادها حتى وصلت الى قلب فرنسا . بل نفذت سراياهم الى قلب أوروبا لتوطيد عرش من كان يطلب حمايتهم من ملوكها . وفى ذلك العهد كنت ترى تجار المسلمين يسيرون بتجارتهم من بغداد الى القسطنطينية ، ومنها الى شمال اوروبا . وهناك كانوا يتقابلون مع اخوانهم من التجار الاندلسيين، فيتبادلون تجارة بعضهم البعض ثم يعودون فى أمان الله وحماية حكوماتهم الى بلادهم . وبقيت العرب فى الاندلس أربعة قرون، وكانت لهم بها دولة راقية جدا ، كانت سبباً فى رقى المدنية الاوروبية الحالية فى أخلاقها وعلومها وصناعاتها .

وحُكم العرب فى الاندلس يبتدئ من سنة ٩٢ بعد الهجرة وهى التى دخل فيها طارق الى بلادها من مضيق الزقاق (بوغاز جبل طارق)، ثم تبعه سيده موسى بن نصير . ومازالا يفتحان فى البلاد حتى خافهما الوليد بن عبد الملك فاستدعاهما ونكبهما . ومازالت الاندلس تابعة للدولة الاموية ، وكانوا يولون عليها ولاة بلقب أمير الى سنة ١٣٨ هـ . وفيها استولى عليها عبد الرحمن بن معاوية الاموى واستقل بها . والسبب فى ذلك أنه لما سقطت دولة الامويين بدمشق . وقامت دولة العباسيين على يد السفاح أخذوا يتعقبون الامويين بالقتل ولم يفلت منهم الا القليل ومنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . فدخل الى الاندلس ولذلك يسمونه بالداخل ، فاجتمع عليه الناس وبايعه أهل أشبيلية وقرطبة وغيرهما . وتم استيلاؤه على الاندلس فى سنة ١٤١ ، فجعل عاصمته قرطبة، وقطع الخطبة عن العباسيين، وبنى بها القصر والمسجد الجامع . ومازال بنوه عليها حتى اذا تربع ثامنهم عبد الرحمن الناصر فى دست الامارة سنة ٣٠٠، لقبوه بأمير المؤمنين، وبه ابتدأت الخلافة العربية بالاندلس . وحكم الناصر خمسين سنة استفحل فيها ملك بنى أمية بهذه البلاد، وارتقت فيها العلوم والاداب والصناعات وخصوصا بقرطبة التى صارت تناظر بغداد فى

نخامتها وضخامتها. و بنى عبد الرحمن مدينة الزهراء، وأنشأ بها من القصور ما لا يصل اليه الوصف. و بالجملة فقد كانت مدته كلها نوراً وعرفانا وعزة وسعادة. وتولى بعدها بنه الحكم سنة ٣٥٠، وكان محباً للعلوم: ولقد شيد داراً للكتب لم يشيد مثلها أحد من الملوك، وقالوا ان عدد كتبها نيف وأربعمائة ألف مجلد، وكان لها أربعة وأربعون فهرستا. وخلفه ابنه هشام سنة ٣٦٦، ومازالت الخلافة تنتقل فى بنيه حتى تولاها أمية بن عبد الرحمن فى سنة ٤٢٢. وكانت الفتنة قد كثرت فى البلاد واشتدت فى مدته، فهرب ومات فى هربه، وهو آخر خلفاء بنى أمية فى الاندلس وعددهم ١٦ خليفة: كانت دولتهم من أحسن الدول شأنا، وأضخمها سلطانا، وأعلاها ذكرا، وأكثرها ثروة. ولا يزال من آثارهم قصر الحمراء فى غرناطة، والقصر المشهور بالكازار و بجانبه المنارة التى كانوا يرصدون عليها الكواكب فى أشبيلية، والمسجد الجامع فى قرطبة: وكلها آثار حية تفوق حد الاتقان فى صناعتها و زخرفها وفخامتها مما لا تصل الى تصويره مقدرة الواصفين، و يقف أمامه الحاضر باهتا لقدرة الانسان الغابر فى ذلك الزمن الزاهر! وسبحان من بيده الملك.

وقامت بعدها بالاندلس دولة العلويين فى سنة ٤٠٧، واستمرت الى سنة ٤٦٠. وأول ملوكها على بن حمود الادريسى. ولما بايعوه تلقب بالناصر لدين الله. وضعفت الخلافة فى مدتهم حتى صارت لا هيبة لها! فكان ذلك سببا لانقسام ملك الاندلس بين ملوك الطوائف: فقام بأشبيلية محمد بن عباد و بنوه من بعده. وقام ببطليوس محمد بن عبد الله المعروف بالافطس وأولاده من بعده. وقام بطليطلة ابن يعيش، ثم اسماعيل بن ذى النون. وقام بسرقسطة سليمان بن هود الجذامى. وقام بطرطوشة لبيب العامرى. وقام فى بلنسية المنصور المغافرى. وقام بسهلة عبود بن زرير بن البربرى. وقام بدانية الموفق العامرى. وقام بمرسية بنو طاهر، ثم استولى عليها ابن عباد. وقام بالمرية خيران العامرى. وقام بمالقة بنو حمود. وقام بغرناطة حبوس الصنهاجى. الا أن الافرنج ابتدأوا يستعملون هؤلاء الرؤساء أسلحة بعضهم فى نحور البعض الاخر. ثم أخذوا بعد هذا الانشقاق يستولون على الاندلس بلدا بلدا، حتى استولوا على أشبيلية فى سنة ٦٤٥. فانحازت العرب الى غرناطة

والمريّة ومالقة وضاق الملك بهم بعد اتساعه .

وكانت هـذه البقية الباقية يتدافع عليها ابن هود مع محمد بن الاحمر، و فى أثناء ذلك كان عـدوّهم ينتقض على أطرافها شيئاً فشيئاً، حتى أخرجهم الى سيف البحر . وهناك اجتمع عليهم جموع من المسلمين، وزحف اليهم رجال من البربر، فاستولوا على بعض النواحى . ولكنهم مالبثوا أن استولى الاسبانيون على غرناطة عاصمة ملكهم صلحا فى سنة ٨٩٧، بعـد أن أمنوا المسلمين على أنفسهم وأموالهم واعراضهم . ولكنهم أخفروا عهدهم وأذاقوهم صنوف العذاب ، خصوصاً بعد أن تشكلت محكمة القسوس المسماة بمحكمة التفتيش (الانكيز سيون) ، فقتلوا النفوس، وسلبوا الاموال، وهـدموا الاثار، وأحرقوا القصور والمساجد ، التى لم يبق منها الا ماوارته عن أعينهم يد الزمن!!! وتشتت المسلمون الى بلاد المغرب ، ولم يبق فى الاندلس منهم الا المستضعفون الذين قعدت بهم حالهم عن الهجرة، وما زالوا يسامون سوء العذاب حتى دانوا بدين البلاد . وللآن ترى بعض الاسماء بأسبانيا عربية محضة مثل: الفارس، والقائد، ورمانه، وزيدان، وفران، ورمضان، ونصار، وميمون الخ .

هذا ما كان من أمر الدولة العربية الغربية . أما دولتهم الشرقية، فقد كانت فى صدر الخلافة العباسية فى أعز أيامها ، وأرفع أعلامها، وخصوصاً فى مدة الرشيد وولده المأمون، اللذين قاما بكل ما فيه رقى الافكار ، ونشر العرفان ، وتنشيط الصناعات : حتى صارت الدولة الاسلامية فى مدتهم مشكاة يستنير بها العالم الشرقى ، فى حين ما كانت الدولة العربية الاسلامية بالاندلس نبراسا يضىء ماحوله من الكائنات .

فلما كانت خلافة المعتصم العباسى فى سنة ٢١٨ جمع كثيراً من المماليك الى خدمته: حتى بلغ عنده من التركمان والجركس ما يزيد عن خمسين ألفا واتخذ منهم حراسا لنفسه، وولاهم محافظة الثغور . فاخـذت شوكتهم تزداد يوما فيوما حتى تغلبوا على الدولة، وصارت الخلفاء ألعوبة فى أيديهم، يولون من يشاءون، ويعزلون من يريدون، حتى اذا كانت خلافة المعز بالله استولى أحمد بن طولون[1] على مصر سنة ٢٥٤ . ثم أخذت عمال النواحى تتغلب على أطراف الدولة

(١) هو الذى كون الدولة الطولونية بمصر ومكثت قائمة بها من سنة (٢٥٤هـ) الى سنة (٢٩٢هـ) . وفيها

شيئا فشيئاً حتى اذا كانت سنة ٣٢٢ ضعف أمر الخلافة العباسية بالمرة : فـكانت فارس فى يد بنى بويه[١]، والموصل وديار بكر فى يد بنى[٢] حمدان، ومصر والشام فى يد الاخشيديين، والاندلس فى يد بنى أميـة، والمغرب وافريقيـة فى يد الفاطميـين، والبصرة فى يد ابن رائق، وماوراء النهر فى يد بنى سامان[٣]، وطبرسـتان وجرجان فى يد الديلم[٤]، وجهة البحرين واليمامة فى يد القرامطة[٥]، ولم يبق فى يد الخليفـة الا بغـداد وضواحيها. وبذلك أصبحت الخلافة كأن لا وجود لها بالمرة.

قامت الدولة الاخشيدية الي سنة ٣٥٨هـ وفيها تغلبت عليها الدولة الفاطمية الي سنة ٥٦٧هـ. وفيها استولت عليها الدولة الايوبية الى سنة ٦٤٨هـ. ثم قامت بها دولة المماليك البحرية الي سنة ٧٨٤هـ ثم دولة المماليك البرجية (دولة الجراكسة) الى سنة ٩٢٢هـ. وفيها استولت عليها الدولة العلية العثمانية. وفى سنة ١٢٢٠ تولاها محمد على باشا جد العائلة الخديوية وصارت ارثا ثابتا لبنيه من بعده.

(١) هم من الديلم قاموا بدولة ملكت العراقيين وفارس والاهواز على يد عماد الدولة بن بويه سنة ٣٢٢هـ، فساسها أحسن سـياسة وأدارها بعقل وحكمة حتى عظم شأنه واستولى على بغداد سنة ٣٣٤، ثم استولى على كثير من الجهات ومنها جرجان واصفهان وخوزستان، وخطب له على المنابر في بغداد وغيرها، وكان وزيره الصاحب بن عباد، وما زال الملك فى بنيه الى سنة ٤٤٧ حيث نزعه منهم طغرل السلجوقي. واستمرت الدولة السلجوقية الي سنة ٥٩٠ وفيها ظهرت الدولة الخوارزمية، وأول من قام بها محمد خوارزم شاه الذى بعد ان تغلب على سلاجقة ايران استولى على بغداد ومازال خلفاؤه بها حتي تغلب عليها التتار.

(٢) ظهرت دولة بني حمدان فى الموصل سنة ٢٩٣، ولقد عظم شأن هذه الدولة حتى امتد سلطانها على الجزيرة والشام، وبلغ من أمر ملوكها انهم استبدوا بالدولة العباسية وصارت لهم فيها الـكلمة النافذة. وأشهر ملوكها سيف الدولة الذي كان حكمه من سنة ٣٣٠ الى سنة ٣٥٦، وفيها مات. ولـكن مناقبه بقيت منشورة على صفحات شعر المتنبي الذى قصر حياته على مدائحـه. وممن اشتهر من بنى حمدان أبو فراس الشاعر المشهور.

(٣) بنو سامان كانوا ولاة من العجم على ماوراء النهر للعباسيين، فلما ضعفت الخلافة العباسية استقلوا بها حتي غلبتهم عليها الدولة الغزنوية في سنة ٩٩٩ م.

(٤) بعد تغلب الديلم على جرجان وطبرستان استولوا على بغداد حتي غلبتهم عليها الغزنوية.

(٥) القرامطة نسبة الى رجل يقال له قرمط قام بالبحرين ودعا قوما من أهل البادية الي دين جديد ذهب فيه الي ان عيسى المسيح انما هو أحمد بن محمد بن الحنفية، وكانت الصلاة عندهم أربع ركعات: ركعتين قبل طلوع الشمس، وركعتين قبل غروبها. وكانت كلمة توحيدهم أشهد أن لااله الا الله وأن ابراهيم رسول الله، وأن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، وان الصلاة الي بيت المقدس، وان الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شيء، وان يصام يومان في السنة يوم المهرجان

وفي خلافة الطائع لله ظهرت الدولة الغزنوية[١] سنة ٣٦٦. وفي خلافة المقتفي لامر الله قامت الدولة الغورية[٢] سنة ٥٤٣، ثم ظهر أمر الغز[٣] سنة ٥٤٨.

وفي سنة ٦٥٦ استولى التتار[٤] على بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي، ومن ثم انقطعت الخلافة العباسية ثلاث سنوات، وفي سنة ٦٤٦ وصل من فرّ من العباسيين الى مصر فاستقبلهم الملك الظاهر بيبرس أحسن استقبال وأقام بها الخلافة باسمهم. ومات هولاكو سنة ٦٦٢ بعد أن ملك الشام والعراق وفارس وماوراء النهر. واقتسمت مملكته بين بنيه وبين اخوته وما زالوا حتى انقرض حكم ملكهم بتغلب تيمورلنك التترى على بغداد في سنة

ويوم النوروز، وان النبيذ حرام والخمر حلال، ولا غسل من جنابة، وان الوضوء كوضوء الصلاة وان يؤكل كل ذي ناب وذي مخلب. وظهر أمر القرامطة سنة ٢٧٨ هثم استفحل ملكهم حتى استولوا على مكة والبصرة والكوفة وهاجموا الخليفة في بغداد. وفي سنة ٣٢٩ ضعفت شوكتهم وانحصرت سلطتهم في بلاد هجر حتى تلاشى أمرهم.

(١) الغزنوية أسسوا دولة في شرق بلاد العجم سنة ١٦٦ه على يد محمود بن سبكتكين غلام اسحاق صاحب جيش غزنة للسامانية، واتخذ غزنة عاصمة له، وفتح بلاداً كثيرة في الهند واستمر الملك في بنيه الى سنة ٥٧٨. وقامت بالملك بعدها الدولة الغورية.

(٢) الدولة الغورية قامت بالملك بعد الدولة الغزنوية وامتد ملكهم الي الهند والسند واستمر حكمهم الى سنة ٦٠٤، ومن أحسن ملوكها غياث الدين الغوري الذي كان يلقب بقسيم أمير المؤمنين.

(٣) الغز طائفة من الترك كانوا فيما وراء النهر ثم نزحوا الي خراسان وكانوا كفارا ومن أسلم منهم كان ترجمانا بينهم وبين المسلمين. فلما أسلموا اسموا بالتركمان، وحاربهم السلطان سنجر السلجوقي فكسروه وهزموه شر هزيمة واستولوا على خراسان سنة ٥٥١.

(٤) التتار لفظ يطلق على مجموع قبائل كثيرة في أواسط أسيا واشتهر أمرهم في القرن السابع والثامن والتاسع للهجرة. وأول من اشتهر من ملوكهم جنكيزخان في أول القرن الحادي عشر للهجرة. وكان يدخل في ملكه خوارزم وخراسان وكرمان وفارس وأذربيجان والعراقين العربي والعجمي والجزيرة. وبعد وفاته انقسمت مملكته بين بنيه، وفي مدة ملكهم سار هولاكو أحدهم الي بغداد بتواطئ مع مؤيد الدين العلقمي وزير المستنصر بالله العباسي، وحصلت بينه وبين جنود المستنصر واقعة انتهت بانهزام جنود الخليفة سنة ٦٥٦، ودخل التتار بغداد ونهبوها وقتلوا الخليفة المستنصر العباسي مع من فيها من الاشراف، وسبوا نساءها وفتكوا بأهلها، وكانت خزائن بغداد عامرة بالكتب النفيسة فاخذها هولاكو وعمل بها جسرا في الدجلة مرت عليه جنوده!!

واستمرت دولة التتار قائمة الي سنة ٧٩٧، وفيها استولي تيمورلنك (تيمور الاعرج) المغولي عليها. ودخل بغداد وفتك بأهلها فتكا ذريعاً.

٧٩٨ . ولما مات سنة ٨٠٨ اقتسم بنوه مملكته : فاستقلت بلاد فارس [١] والتركستان [٢]، وأخذ ملوك بنى عثمان [٣] الذين كان لهم الحكم فى أسيا الصغرى كلها فى التغلب على مادونها شيئاً فشيئاً ، حتى اذا دخلت الشام فى حكم السلطان سليم سنة ٩٢٢، سار الى مصر من سنته ودخلها فاتحا ، ومكث بها حتى رتب أمورها ونظم حكومتها ثم سافر الى بلاده ، وأخذ معه محمد المتوكل على الله الخليفة الثامن عشر العباسى . ثم تنازل له المتوكل عن الخلافة الاسلامية . ومن هذا الوقت وهى فى أيدى ملوك بنى عثمان . ومن ثم انحصر ملك العرب فى بلاد المغرب . ولهذا رأينا أن نقول كلمة صغيرة عن كل قسم من أقسامها لتكمل به الفائدة .

---

(١) فارس كانت فى يد الخلفاء الي أن قامت بها الدولة الغزنوية من سنة ٣٨٧هـ الي سنة ٥٤٥هـ. ثم وقعت في يد السلجوقيين الى سنة ٧٤٥هـ. ومن ثم تجزأ حكمها الي جملة خانات ثم استولي عليها التركمان في سنة ٨١٠هـ الى سنة ٩٠٧هـ ثم ظهرت بها الدولة الصفوية الي سنة ١١٣٥هـ ثم تداولها جملة أمراء . وفى سنة ١١١٢هـ استولت عليها عائلة قاجار الحالية، وانفصلت عنها فى مدتهم بلاد الافغانستان سنة ١١٦٠هـ

(٢) بلاد تركستان التى من أهم مدنها بخارى لم يتم فتحها الا ليد قتيبة بن مسلم الخراساني في سنة ٨٧ ثم دخلت في ولاية بنى سامان حكام خراسان من سنة ٢٠٤ الى سنة ٣٨٩، ثم تولي عليها ايلك التركي. ثم دخلت فى حكم السلجوقية . ثم استولى عليها جنكيزخان . ثم تغلبت عليها حكومة ازبك التركية مدة قرن ونصف . ثم انقسمت الي خانيات مستقلة منها خانية بخارى ، وخانية سمرقند ، وتاشقند ، وخيوة . ودخلت هذه الخانيات في حكومة الروسيا واحدة واحدة في نحو نصف القرن التاسع عشر من الميلاد .

(٣) أول ظهور هذه الدولة انه لما اضمحلت دولة السلجوقيين فى سنة ٦٩٩ تغلبت على ملكها دول كثيرة صغيرة . وكان من ضمنها دولة الترك، وفى سنة ٦٩٩ ظهر أمر السلطان عثمان التركي في الاناضول واشتهر بفضله وعدله وبلغت فتوحاته الي بحر الروم غربا والدردانيل والبوسفور شمالا ثم فتح بورصة سنة ٧٢٦ . ولما مات استولي على ملكه ابنه أورخان فقطع البحر الي أوربا واستولى على مدينة غاليبولي وتولى بعده ولده مراد الاول فسار الى أوربا وأوغل فى بلاد الصرب والبلغار والبانيا . وخلفه ابنه بايزيد وكسر ملوك فرنسا والمجر وألمانيا الذين تحالفوا عليه، ثم قصد فتح القسطنطينية فبلغه ان تيمور لنك ملك المغول قصد بلاده فسار اليه وحاربه فوقع فى أسره ومازال به حتى مات . وقام بالملك بعده ولده السلطان محمد بن بايزيد فاسترد ملك أبيه ومات سنة ٨٢٣ وتولي بعده أحفاده وما زال ملكهم حتى افتتح السلطان محمد القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ ثم افتتح البوسنه والهرسك وطربزون واستولى على كثير من جزر الارخبيل . وما زال ملك بني عثمان حتى تملك السلطان سليم الاول فاستولى على ديار بكر وكردستان وحارب الفرس وانتصر عليهم ثم تركها الى حرب مصر فاستولى عليها سنة ٩٢٢ . وما زال خلفاؤه يتوارثون عرش الدولة العلية حتى آل أمرها الي سلطانها الدستوري (محمد الخامس) في ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٢٧هـ الموافق ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ م حفظه الله وجعل أيامه كلها خيرا وبركة .

طرابلس

كانت طرابلس أولا فى يد البربر ، ثم دخلت تحت الحكم الرومانى حتى افتتحها العرب سنة ٢٢هـ : وتولاها الاغالبة ثم العبيديون ثم الصنهاجيون، ثم استولى عليها صاحب صقلّية واستردها منه الموحدون . ثم استولى عليها الاسبانيون ، و فى سنة ٩٥٠ حضرت الاساطيل العثمانيه وطردوهم منها واستولوا على البلاد وهى فى قبضتهم الى الآن .

ومما نذكره مع الاسف الشديد أن دولة ايطاليا التى تمنى نفسها من زمن بعيد باحتلال هذه البلاد ، قد اعتدت بلا سبب على الدولة العلية، وأشهرت عليها الحرب على غرّة منها وسيرت أساطيلها الى طرابلس، وكانت الدولة فى شاغل بحروبها الداخلية عن تقوية ثغورها . وطلب الطليان من حاكم طرابلس أن يسلمهم المدينة فلم يقبل . فأطلقوا نيرانهم على قلاعها فى يومى ٨ و ٩ شوّال سنة ١٣٢٩، فانسحبت الحامية الى داخلية البلاد استعدادا للحرب ونزل الطليان الى البر واحتلوا المدينة فى يوم ١٥ منه الذى نكتب فيه كلمتنا هذه . ولا يعلم الا الله مصير هذه البلاد من بعد ذلك، ولعل الدائرة تدور على الباغى . ولا حول ولا قوة الا بالله .

بلاد الجزائر

أصل هذه البلاد من قبائل زناته وصنهاجه من البربر . وفتحها الرومان فى سنة ٥٣٤ م، ثم فتحها المسلمون فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان . و فى مدة العباسيين قامت بها الدولة الزيرية من سنة ٣٦١ الى سنة ٥٤٣ ، ثم استظهر عليها صاحب صقلّية روجير الثانى النورماندى . و فى سنة ٥٥٤ هـ استولت عليها دولة الموحدين المراكشية الى سنة ٦٦٩، حيث تغلب عليها بنو زيان من الصنهاجيين ، وجعلوا تلمسان عاصمة ملكهم . ثم استولى عليها الاسبانيون سنة ٩١٥، وطردهم منها أهل البلاد سنة ٩٢٢ بمساعدة القرصان الذين كانت مراكبهم تغدو وتروح فى البحر الابيض المتوسط متعقبة مراكب الاسبانيين، موقعة بهم كلما عثرت على شئ منهم . وكان رئيس القرصان يسمى باربا روس وكان على جانب عظيم

من الشجاعة، فظهر أمره وهابته دول الفرنجة، ومازال حتى مات سنة ٩١٩ وتولى عمله أخوه خير الدين باربروس . وكانت مدينة الجزائر فى يد الافرنج مع بعض السواحل الغربية، فحاربهم خير الدين وأجلاهم عنها، وصارت له الكلمة فى كل بلاد الجزائر. وكثرت فتوحاته واتسع ملكه الى داخل افريقية .

و فى هذا الوقت كانت الدولة العثمانية قد استولت على الشام ومصر و بلاد الحرمين . فبادر خير الدين وأرسل بالهدايا الفاخرة مع مفاتيح البلاد الى السلطان سليم ، فأقره عليها . ومن ذلك العهد أخذت تزداد مكانته و يعظم سلطانه . وسافر خير الدين الى الاستانة فى مدة السلطان سليمان ، فأكرمه كل الاكرام وأنعم عليه بلقب باشا . و فى مدة اقامته بها قام شارلكان ملك فرنسا بجيش عظيم ومعه كثيرون أهل أسبانيا وهجم على بلاد الجزائر . فقابلهم حسن أغا نائب خير الدين على البلاد بجأش رابط ، وحاربهم وهزمهم شر هزيمة . فنزلوا الى البحر منهزمين الى بلادهم بعد أن غرق أغلب سفنهم . و فى تلك الاثناء صدرت الارادة السنية بتعيين خير الدين باشا رئيسا للبحرية العثمانية . ومن ثم أخذت الدولة العلية تعين ولاتها على الجزائر . ومازالت فى يدها حتى استولى عليها الفرنساويون سنة ١٢٤٧ هـ (سنة ١٨٣١م) وهى فى أيديهم الى الآن .

تونس

هذه الولاية كانت قديما فى يد البربر واستولى عليها الفنيقيون وأسسوا فيها مدينة قرطاجنة فى القرن التاسع ق م، ولا تزال تشاهد آثارها قرب مدينة تونس . وكانت لهم بها دولة راقية استمرت الى منتصف القرن الثامن ق م . ثم استولى عليها الرومانيون الى أن فتحها العرب سنة ٢٧ هـ . وكانت هذه البلاد أولا فى أدارتها تابعة لولاية مصر، حتى قامت بها دولة بنى الاغلب فى سنة ١٨٤ هـ ، فاستقلوا بها واستمرت فى يدهم الى سنة ٢٩٦ هـ . وفيها قامت دولة العبيديين (العلويين) ، ومازالوا بها حتى استولوا على مصر سنة ٣٥٥ فى مدة المعز لدين الله . وسار المعز اليها سنة ٣٦١ وجعلها مقرّه ، ونزل بالقاهرة التى اختطها جوهر سنة

٣٥٨ ، وجعل على افريقية يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجى . واستمرت فى يد الصنهاجيين الى سنة ٥٤٢ . وفيها استولى ملك صقلية على أغلب ثغور تونس . فسار اليها الامير يوسف ابن عبد المؤمن صاحب مراكش بجيوش الموحدين، فطردهم منها واستولى على تونس فى سنة ٥٥٥ . ومازالت فى يد خلفائه الى سنة ٦٠٣ . وفيها قامت بها دولة الحفصيين ومازالوا عليها الى سنة ٩٨٢ هـ . وفيها استولت عليها أساطيل الدولة العلية ومازالت تولى عليها ولاتها باسم دايات (مفرده داى) حتى صارت الولاية لمولاى حسن ابن على باشا رأس الدولة الحسينية الحالية سنة ١١١٧ . ومازالت فى بنيه حتى تولى عليها منهم الباى محمد الصادق باشا سنة ١٢٧٦ . وفى مدته أخذت فرنسا تعمل لضم بلاده الى حكومة الجزائر واستعملت لهذا الغرض وزيره مصطفى بن اسماعيل ، وكانت أمّلته ان هو سعى جهده فى وضع تونس تحت الحماية الفرنساوية اقامته بايا عليها . فاخذ هذا الدنئ فى خلق القلاقل وبذر بذور الفتن فى البلاد . ومازال يخيف الصادق من الدولة العلية من جهة ، ومن أهل البلاد من اخرى، حتى طلب حماية فرنسا وعملت بينه وبينها معاهدة بردو وأمضاها فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ . وفى ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٨٢ مات محمد الصادق وتعين مكانه ولى عهده مولانا على باى الموجود الآن على منصنها، ساعده الله على ما فيه خير بلاده وصلاحها .

مراكش

مراكش يسمونها بالمغرب الاقصى ، وأهلها من قبائل صنهاجة والبربر . استولى عليها الرومانيون سنة ٥٣٤ م، وكمل فتحها للمسلمين سنة ٨٨ هـ، وتم اسلام البربر سنة ١٠٠ هـ وفى سنة ١٧٢ وصل الى هذه البلاد ادريس بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على كرم الله وجهه فاراً من وجه العباسيين . فالتف عليه أهل المغرب من البربر وقاموا بالدعوة له وجعل مقره مدينة وليلى . ولما تمكن بها قدمه كوّن فيها دولة الادارسة، وما زال الملك فى بنيه الى سنة ٣٧٥ . وبعدها دخل المغرب الاقصى فى حكم العبيديين الى ان

قامت به دولة المُلَثَّمين أو المرابطين من صنهاجه سنة ٤٦٢ على يد يوسف بن تاشفين . ولما اتسع ملكه وعظمت شوكته اشترى مكان مدينة مراكش وبناها قاعدة له . وبنى فيها القصور الرفيعة والدور الواسعة وجعلها مقر سلطانه . وبعد أن مكن دعائم سلطنته فى المغرب، زحف الى الاندلس بدعوة من أهلها . ووقعت بينه وبين الفُونس السادس (الاذفونش) ملك قشتاله حرب نصر الله فيها ابن تاشفين فى واقعة الزلاقة، وهى أكبر واقعة حصلت فى الاندلس ، واستولى بعدها على غرناطة ، ثم تغلب على ملوك الطوائف، وصار له ملك الاندلس والمغرب جميعا الى أن توفى سنة ٥٠٠ ، وتولى بعده بنوه بالاندلس الى سنة ٥٤٢ .

وكانت قامت بالمغرب الاقصى فى سنة ٥١٤ دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت الملقب بالمهدى . وبعد موته فى سنة ٥٢٤، خلفه بعهد منه وزيره عبد المؤمن بن على . ولما ظهر أمره وتمكن سلطانه سير جنوده الى الاندلس، فاستولى عليها تماما فى سنة ٥٤٥ . وهو الذى بنى مدينة جبل طارق سنة ٥٥٥، ثم تقدم بجيوشه فافتتح الجزائر وتونس والمهدية ، ومازال يتسع سلطانه حتى مات سنة ٥٥٨، واستمر خلفاؤه الى سنة ٦٧٤ . ثم تولى المغرب الاقصى دولة بنى مُرين الى سنة ٨٩٠ . ثم دولة بنى طاوس الى سنة ٩٦١ . ثم دولة الاشراف السعديين الى سنة ١٠٦٩ . ثم دولة الاشراف السجلماسيين وهم الحاكمون الى الآن .

وقد كانت البلاد على تمام الاستقلال فى مدنيتهم حتى كان ما كان من تداخل الاجانب فى بلادهم، وكثرة الثورات الاهلية بها، ثم عقد مؤتمر الجزيرة، وعزل السلطان مولاى عبد العزيز ، وتعيين مولاى السلطان عبد الحفيظ ، ثم ظهور فرنسا بالكلمة فى بلاده بمظاهرة الانكليز لها ، ووقوف ألمانيا فى طريقها للحصول على نصيبها هى الاخرى من هذه الغنيمة التى لم يذق حرارتها غير الفرنساويين . والدولتان لا تزالان الى يوم كتابتنا هذه الكلمات بين وعد ووعيد وصلح وتهديد وتراخ وتشديد وتقريب وتبعيد . وعلى كل حال فقد قضى على استقلال هذه البلاد الاسلامية التى بقيت حافظة له مدة ثلاثة عشر قرنا، وهى آخر الدول العربية والله يرث الارض ومن عليها، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

صفة جزيرة العرب

بلاد العرب يحدها شمالا بادية الشام الكبرى، وشرقا البحر الاحمر، وغربا بادية العراق وخليج فارس و بحر عمان، وجنوبا المحيط الهندى.

وأرض هذه البلاد فى الغالب رملية وخصوصاً فى وسطها فيما بين نجد وحضرموت والحجاز وعسير و بلاد عمان، حيث توجد الصحراء الكبرى التى يسمونها بالدهناء. وطولها اكثر من درجتين جغرافيتين وعرضها نحو درجة ونصف، وهى ما يسمونه بالربع الخالى: وهى قفر بلقع لا نبات فيها ولا ماء، اللهم الا بحار من تلك الرمال الناعمة التى تنقلها الرياح على الدوام من جهة الى أخرى، واذا صادفت حركتها مرور بعض القوافل التى تخاطر بنفسها فى السير على حافاتها التهمتهم وأغرقتهم فى جوفها وقبرتهم فيه كأنهم ما كانوا. و يمتد من شمال هذه الصحراء لسان يسير بين بلاد الحسا والقصيم، ثم يميل نحو الغرب حتى يمر ببلاد الجوف و يتصل ببادية الشام التى يسمونها بالنفود الصغرى.

أما سواحل البلاد فهى عامرة بالسكان وفيها كثير من المزارع. و يقطع بلاد العرب من الشمال الى الجنوب جبال السروات، وفيها العيون والانهار والبساتين النضرة والمزارع الكثيرة. و فى سفوح جبال اليمن يزرع البن الذى هو أحسن أنواعه فى جميع العالم. وأشهر جبال الحجاز جبل الهدى وكرا بالطائف، وأشهر جبال عمان الجبل الاخضر، و فى نجد جبل العارض وجبل طويق، و فى شمّر جبل سلمى: وكل هذه الجبال عامرة بالسكان كثيرة الخير والبركة.

وتنقسم بلاد العرب الى ستة أقسام: الحجاز. اليمن و يتبعها عسير. حضرموت. عمان. البحرين. نجد و يتبعها الحسا.

أما الحجاز فهو اقليم مستطيل يحده غربا البحر الاحمر، وشرقا البادية الكبرى، وجنوبا بلاد عسير. وشمالا بادية الشام، وطوله من الشمال الى الجنوب يبلغ ١٥٠٠ كيلومتر، وعرضه من الغرب الى الشرق يبلغ ثلثمائة كيلومتر. و يقطعه من الشمال الى الجنوب جبال السراة و يبلغ

ارتفاع بعضها ٨٠٠٠ قدماً، وفيهامياه كثيرة وغابات وبساتين وقرى آهلة بالسكان من الاعراب . ومنحدرات هذه الجبال يتصل بهاسهل الى البحر يسمونه تهامة، وأرضه رملية وبعضها صالح للزراعة، ويزرع فيها الحبوب وغيرها من الخضر .

وبلاد الحجاز ولاية عثمانية منذ سنة ٩٢٢ هجرية . وكانت قبل الاسلام تتبع فى الغالب لحكومة مكة لاسيما بعد ظهور قريش ، وكانت تتداولها بعده ولاة مكة والمدينة الى أن دخلت البلاد فى يد الدولة العلية : فصارت تعين الولاة من قبلها، وتكون أمور البلاد المالية والادارية فى أيديهم، وتعين على أمارة مكة اميراً من الاشراف لينظر فى أمور العرب . وكان مركز الوالى أولا جدة فانتقل الى مكة سنة ١٢٨٧ . وللولاية مجلس ينظر فى أمورها الهامة : يتركب من قاضى مكة، والدفتردار ، ومدير الحرم، والمكتوبجى (كاتب أسرار الولاية) ، ومن نقيب الاشراف، ونائب الحرم، وصاحب سدانة البيت المعظم، ومفتى الحنفية، وقائمقام الشريف فى مكة ، ومدير الصحة، ونقيب السادة الحسينية . ويوجد بمكة ديوان تميز أى محكمة نظامية تنظر فى الدعاوى المدنية والجنائية فى الدرجة الأبتدائية، وأحكامها تستأنف فى محاكم الاستانة . وتتركب هذه المحكمة من نائب الشرع الشريف، وثلاثة أعضاء منتخبين من أهالى مكة ، وقائمقام الشريف . وقاضى مكة يعين من قبل الدولة لسنة واحدة قمرية ، أمانائب الشرع فيعين لسنتين . ولهذه الولاية نواح وأخطاط يسمى متوليها مدير ناحية ، وحاكمها يلقب بقائمقام : ومنها الطائف، ورابغ . ولكل قائمقامية مجلس يتركب من القائمقام ومن نائب الشرع الشريف ومأمور المالية (و يسمونه مال مديرى) ومن بعض الاهالى الذين ينتخبهم شريف مكة . وايرادات الولاية تنحصر فى رسوم المحاكم النظامية و بيع ورق البول (وهى أوراق مثل طوابع البريد تلصق على الاوراق الرسمية بدل التمغة فى مصر) .

أما القبائل فلهم مجالس عُرْفيّة تنظر فى أمورهم ابتدائية واستئنافية، وتتألف من القاضى و بعض الشيوخ و رؤساء القبائل مع من يختاره الطرفان للاشتراك معهم فى الحكم .

ولاصحاب القضايا حق رفض أحكام هذه المجالس واستئنافها عنـد الشريف ، وهواما يؤيد أحكامها أو يُعـدِّلها و يكون حكمه نافذ المفعول ، ولهم الحق أيضا فى انابة من يدافع عنهم امام هذه المحاكم .

وأهل الحجاز يقدرون باثنين مليون و نصف من النفوس، وكلهم الا أهل مكة وجدة بدو يعيشون من ماشيتهـم فى الجبال، اما أهل السواحل فهم يعيشون من صيدهم و زوارقهم . وهم فى الغالب شوافع المذهب .

اليمن

اليمن ولاية عثمانيـة واقعة فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب ، وطوله من الشمال الى الجنوب نحو ٧٥٥ كيلومتر، ومن الغرب الى الشرق نحو ٤٠٠ كيلومتر. و يقدرون أهله بار بعة مليون من النفوس، كلهم مسلمون على مذهب الزيديه الا القليل فهم من اليهود، أما أهل عسير فهم وهابيون . وأرض اليمن تنقسم الى قسمين قسم السهول وتسمى تهامة وهى الى البحر، وقسم الجبال وهى سلسلة من جبال السروات متصلة ببعضها من الشمال الى الجنوب، وأعلاها جبل كوكبان و يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٣٠٠٠ مترا، وجميع هذه الجبال عامرة بالسكان وفيها عيون كثيرة تتكون منها أنهار تسـير فى وديان خصبة: منها ما يسير الى الغرب وتصب فى البحر الاحمر وأكبرها وادى مشرف، ووادى كانون جنوب القنفذة، ووادى عاشور عند ثغر حلى، ووادى السهام قرب الحديدة، ووادى هندان الذى يمر بمدينة تعز، والوادى الكبير قرب مُخا

أما الانهار التى تصب فى المحيط الهنـدى فهى وادى الميدان و يصب قرب ميناعدن، ووادى داما، ووادى الشارد اللذان يجريان قرب صنعاء و ينحدران الى الصحراء أحدهما مار بخرائب مأرب والثانى بخرائب تميـين، ثم وادى نجران، ووادى بيشة وغـيرها . و بعض هـذه الانهار تنعـدم مياهه فى الصحراء ولا تصل الى البحر الا فى زمن شدة الامطار التى تكاد لا تنقطع فى هـذه البلاد مدة الشـتاء والربيعين، و بعضها يسير الى جهة الشمال والشرق ولا تلبث ان تتلاشى فى جوف الرمال .

وقد عمل اليمنيون في جميع الازمان لهذه الانهار وفروعها سدوداً كثيرة على حسب ما سمح به نظاماتهم الزراعية، وكان أكبرها في الزمن السابق سد مأرب الذي تقدم الكلام عليه: لهذا ترى ان هذا الاقليم زراعى، وكلما صعدت فيه الى أعالى الجبال وجدتها مكسوة ببساط أخضر مما يوجد عليها من المزروعات المختلفة، التي ترى الى جوارها غابات من الاشجار المثمرة أو غير المثمرة كالساج والعرعر وغيرهما.

وحاصلات اليمن الزراعية هي الدخن، ويزرعونه في الجهات العالية وعليه مدار حياة الاهالى، والقمح، والشعير، والعدس، والسمسم، والذرة، والفول، والقطن، والنيلة، والتبغ، والخضر بجميع أنواعها، والفاكهة الكثيرة: ومنها الامبا (المانجو) واللوز والبرقوق ويسمونه بُخارى والتين الشوكى ويسمونه البرشومى أو الصابور، وأهم حاصلات اليمن البن.

وتنقسم اليمن في ادارتها الى أربع لواآت: لواء صنعاء، ولواء تعز، ولواء الحُدَيدة، ولواء عسير. وفيها نحو ١٩٠٠ قرية.

وحيث انا تكلمنا على تاريخ الدول التي قامت في هذه البلاد قبل الاسلام، فيجدر بنا ان نقول كلمة على الدول التي قامت بها بعده فنقول:

لما أسلمت اليمن في السنة العاشرة من الهجرة وسار بذلك وفدهم الى المدينة: ولى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل. وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم صارت اليمن تابعة للخلافة الاسلامية الى سنة ٢٠٤. وفيها أعلن محمد بن زياد عامل العباسيين عليها استقلاله، وسميت دولته بالدولة الزيادية وكان مركزها زبيد. واستمر حكم بنيه عليها الى سنة ٤٠٩ هـ. وفي أثناء ذلك قامت دولة اليعافرة في صنعاء من سنة ٢٤٧ الى سنة ٣٨٧. ثم قامت الدولة النجاحية في زبيد من سنة ٤١٢ الى سنة ٥٥٣. ثم الدولة الصليحية في صنعاء من سنة ٤٢٩ الى سنة ٤٩٢. وكانت قامت في صعدة الدولة الرّسية في سنة ٢٤٦، واستمرت الى سنة ٦٨٠ وكان أمراؤها من الزيدية، وينسبون الى الهادى يحيى حفيد قاسم الرسىّ أحد غلاة الشيعة في زمن المأمون. ثم قامت في عدن الدولة الزريعية من سنة ٤٧٦ الى سنة ٥٦٩. وفي هذه السنة دخلت اليمن برمتها في حكم الايوبيين الى سنة ٦٢٥، وفيها

قامت الدولة الرسولية الى سنة ٨٥٠ وفيها قامت الدولة الطاهرية الى سنة ٩٠٦، وفيها استولى عليها قانصوه الغورى . ومازالت تابعة لحكم المماليك حتى دخلت فى حكم العثمانيين فى عهد السلطان سليمان القانونى حوالى سنة ٩٥٠ . ولكنها انسحبت منها سنة ١٠٤٣ لكثرة الثورات الداخلية التى كانت تقوم بها . فعادت حكومتها الى الائمة، وكانوا نقلوا مركزهم الى صنعاء . وحوالى سنة ١٢٦٠هـ زحف الامام محمد ابن يحيي على تهامة (اليمن) وكانت فى سلطة شريف مكة واستولى عليها، ودخلت زبيد والحديدة فى سلطته . فانتهز الباب العالى هذه الفرصة و بعث حملة تحت قيادة توفيق باشا الى اليمن، فتخلى الشريف له عنها، وتخابر توفيق باشا مع الامام واتفقا على صلح فحواه: اعتراف الامام بسيادة الدولة ، وأن يرتب له ٣٧ ألف ريال شهريا يأخذها من ايرادات اليمن والباقى يقسم مناصفة بينه و بين الدولة ، وأن تقام فى صنعاء قوة عثمانية مركبة من ألف جندى . فلما علم اليمنيون بذلك ثاروا وقتلوا الحامية العثمانية، وانسحب توفيق باشا مجروحا الى الحديدة ومات فيها من جراحه . و بقيت سلطة العثمانيين فى هذه البلاد على الساحل الغربى لليمن أكثر من عشرين سنة . و بعدها جردت الدولة حملة على صنعاء مدة السلطان عبد الحميد المخلوع فاحتلتها، وحجزت الامام فى صنعاء ورتبت له مرتبات شهرية ومازال بها حتى مات ، وتولى بعده رجل من أقاربه اسمه السيد حميد الدين ثم تولى بعده ولده الامام يحيي الحالى، و فى مدته كثرت المخاصمات بينه و بين الدولة وقامت من أجلها حروب كثيرة بين اليمنيين والجند العثمانى كانت صنعاء تقع أثناءها فى يد هؤلاء تارة، وفى يد أولئك أخرى .

و بعد الدستور العثمانى قامت فتنتان باليمن: واحدة بزعامة الامام يحيي، وأخرى بعسير بزعامة الادريسى . فأرسلت الجنود العثمانية تلو الجنود الى اليمن لمحاربة الامام ، والى العسير لمحاربة الادريسى . فسارت فرقة اليمن من الحديدة الى صنعاء التى استولت عليها بعد وقائع شديدة . واستعصم الامام برجاله فى الجبال وأقام فى مدينة شهاره، ومن ثم لم يصل اليناشئ من أخبار اليمن يعول عليه، اللهم الا ما ورد فى التلغرافات العمومية من أن الدولة فوضت لقائد الحملة

اليمنية المخابرة مع الامام في الصلح ولم يعلم شيء مما آل اليه أمر ذلك الى الان . اللهم الا ما ورد في تلغرافات رويتر بتاريخ ١٦ شوال سنة ١٣٢٩ من ان الامام عرض على الدولة العلية بمناسبة حربها مع الطليان لاعتدائهم على طرابلس، مساعدته لها بمائة ألف مقاتل من اليمن : وهو أكبر دليل على انضمام أطراف الدولة الى جسمانها في الشدائد التي يجب ان تُنسى معها الاختلافات التي أوجدتها بعض الظروف بحق أو بغير حق ، ويد الله مع الجماعة .

أما فتنة عسير فقد سار اليها الشريف حسين باشا من مكة في أوائل ربيع الثاني سنة ١٣٢٩ ، بعد أن استنفر معه قبائل عرب الحجاز . ولما وصل الى قنفذه أتته رؤوس قبائل عسير وقدمت له الطاعة فأمنهم ، الا قبيلة خرشان فانها أبت ان تذعن لامره . فأرسل الامير اليهم ينذرهم بسوء العاقبة ان هم أصروا على عنادهم وعصيانهم، فلم يسمعوا له . فجهز عليهم جيشاً بقيادة ولده الشريف عبدالله بك، فهزمهم بعد قتال شديد وأسر كثيرا من وجوههم، وكان ذلك في ١٩ جمادى الاولى من السنة المذكورة . ثم سار الشريف مع عسكر الدولة فدخل مدينة أبها عاصمة عسير يوم ١٩ رجب، ومعه نشأت باشا قائد الجنود العثمانية بعسير، وبعد أن أقام بها خمسة عشر يوما رتب فيها أمورها ووكد نظاماتها، بارحها عائدا الى مصيفه بالطائف على طريق غامد . ولكن بعد سفره وردت أخبار بمحاصرة العرب لها من جديد . ثم أعقبتها أخبار بعرض الادريسي للدولة مساعدته في حربها مع الطليان، والله يلهم ولاة أمور المسلمين ما فيه مصلحتهم وبه تكون حياتهم .

وأكبر ثغور الدولة باليمن الحديدة وسكانها ٤٠ ألفا من أجناس مختلفة منهم الحبشي والسومالي والهندي والجاوي والفرسي والسوداني . وهواؤها ردي لكثرة رطوبتها وحمياتها . والطريق منها الى صنعاء بين جبال عالية يصعب السير فيها جدا ، وأشهر البلاد التي في هذا الطريق مناخة وتبعد بمسافة ١٥٠ كيلومترا عن الحديدة، وبمسافة ١٠٠ كيلو متر عن صنعاء التي بها مركز الولاية والتي ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٥٠٠ متر . وعدد أهالي صنعاء ٢٥ ألفا منهم ٢٠ من العرب و٣ من الاتراك وألفان من الهنود ، وجوّ هذه المدينة حار ومطرها كثير .

وأهم موانى بلاد اليمن عدن وهى فى يد الانكليز من سنة ١٨٣٩م . وهى الآن مركز تجارى مهم جداً بين الشرق والغرب . وموقعها الطبيعى من أمنع بلاد الدنيا : لانها فى وسط جزيرة صخرية تتصل بالقارة بلسان من الرمل . وقد حصنها الانكليز بما لا يقل عن تحصين جبل طارق ، وبذلك كانت لهم الكلمة النافذة فى البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر . وميناء عدن تبعد عن مدينتها قليلا ، وهى من الاهمية بحيث تراها على الدوام غاصة باساطيل الانكليز وبكثير من المراكب التجارية وخصوصا التى تسير بينها وبين البصرة أو بينها وبين بومباى ويقدرون عدد السفن التى رست بميناها فى سنة ١٩٠٨م بنحو ١٨٠٠ سفينة ، وبلغت وارداتها فى السنة المذكورة سبعة ملايين وسبعمائة ألف ليرة . ومدينة عدن مشهورة بصهاريجها القديمة المنحوتة فى الصخور والتى تملؤها مياه الامطار . ويبلغ عدد سكانها الآن ٥٠ ألف نفس ، وكانوا عند استيلاء الانكليز عليها لا يزيدون عن عشر هذا العدد . وأغلب سكانها من الهنود والسوماليين والاحباش واليهود وقليل من العرب . وعلى مقتضى المعاهدة التى عملت بين الباب العالى وحكومة الانكليز سنة ١٩٠٤ ، جعلت أملاك الانكليز فى جنوب بلاد العرب ممتدة من بوغاز باب المندب الى نهر باناشرقا : وهو ما لا يقل عن مائتين وعشرين كيلومترا طولا على ساحل المحيط الهندى ، وخمسين كيلومترا فى داخل البلاد . ومما يدخل فى سلطة الانكليز فى جنوب بلاد العرب واحة الشيخ عثمان المشهورة بسلطنة لحج (ومركز سلطانها الحوطه) ، ثم جزيرة بريم الواقعة فى مدخل بوغاز باب المندب ومساحتها ٨٠ ميلا مربعا وهى مركز تجارى مهم ، ثم جزائر كوريامور يا على ساحل حضرموت .

وكل هذه الجهات تابعة ادارتها لحكومة عدن التى هى تابعة لامبراطورية الهند . وللانكليز عدا ذلك شبه سيادة على الحكومات الصغيرة التى فى سواحل حضرموت ، لانها تعطى ملوكهم مرتبات بدعوى عدم تنازلهم للممالك الاخرى عن شئ من أملاكهم : وأهمها سلطنة المكلّه ، وسلطنة مَهْره ، والشِّحر ، وتَرِيم .

وهذه البلاد على الساحل الجنوبى لحضرموت الا تريم فانها تبعد عنه بنحو ٢٠ كيلومترا

واهلها يتكلمون بلغة يسمونها بالعُقَيْلية ، وهى غير العربية ولعلها مستمدة من لغة البلاد الاصلية التى يسمونها بالمسند وهى لغة حمير .

عمان

حكومة عمان وتسمى امامة مسقط واقعة فى الزاوية الجنوبية الشرقية من بلاد العرب . وكل ساحل عمان عامر بالبلاد والسكان ، وطوله من ثغر مربط الى بحيث جزيرة القطر نحو ٢٢٠٠ كيلومتر . وعرضه فى داخل البلاد الى الغرب نحو ٣٠٠ كيلومتر ، وعاصمتها مسقط . وتنقسم البلاد الى البطنة (تهامة) ولا تمتد اكثر من ٤٠ كيلومترا أغلبها مغطى بالنخيل المشهور بجودة ثمره ، ثم الى قسم الجبال وأكبرها الجبل الاخضر وارتفاعه نحو ٣٠٠٠ متر ، وفيه كثير من الغابات والاحراش . ويوجد بين هذه الجبال وديان كثيرة خصبة تسقى بواسطة مجارى ماء لها خزانات وسدود ، كما كان شأنها فى هذه البلاد من قديم الزمان . وأهم حاصلات عمان التمر والحنطة والذرة والشعير والبرسيم والنيلة والخضر وكثير من انواع الفاكهة لا سيما الجوز الهندى والمانجو ، ومن محاصلها خشب الند والصندل والصمغ العربى والصبر والتنباك . وفى جبال هذا الاقليم كثير من المعادن وبالاخص الحديد والرصاص والنحاس والكبريت والملح الجبلى . وعلى سواحلها مغاصات كثيرة للؤلؤ وأشهرها فى مدن صحار ، ودمار ، ومسقط . وأهل السواحل يشتغلون بصيد السمك ويصدرون منه كميات كبيرة الى بلاد العجم وغيرها ، ويجففون منه كميات كثيرة ، ومابقى من التصدير يغذون منه البقر ويسمدون به الارض . وهذه البلاد مشهورة بخيلها وبقرها وغنمها ، وجوها حار كثير الجفاف .

وعدد أهالى حكومة عمان يبلغ مليونا وستمائة ألف شخص . ومساحتها لا تقل عن ثمانين ألف ميل مربع ، وعاصمتها مسقط أومسكت وسكانها ٢٥ ألف نفس ، وبينها وبين مكة أكثر من ألفين كيلومترا . ولها ميناء صغيرة ترسو السفن فيها . وتنقسم سكانها الى قسمين : البدو أوسكان الخيام وهم قوم رُحّل وراء المرعى وفى الغالب من العرب العدنانية ، ثم المتحضرون ويقال لهم العُمّانيون وهم خليط من الهنود والعجم والبلوچستان والعرب والزنوج .

وأهل عمان على مذهب الاباضية المنسوب الى عبد الله بن أباض المرّى (من المرّية من أعمال طرابلس الغرب) الذى استولى على افريقية الشمالية سنة ١٥٢ هـ وادعى فيها الخلافة .

وكانت عمان تابعة لحكم التبابعة ، وأسلمت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت الخوارج تلجأ اليها هربا من خلفاء بنى أمية والعباسيين ، لبعدها عن العمران الاسلامى . وكان تجارها ينتقلون فى جزر المحيط الهندى مثل جاوة وسومطرة وغيرها من سواحل أفريقيا الشرقية . ومن كثرة احتكاكهم بأهالى تلك البلاد اذاعوا فيهم دين المسلمين وقبحوا لهم الوثنية فنشا فيهم الاسلام . وكثر توارد العرب الى تلك الجهات وتقربوا من أهلها بالمصاهرة ومازالوا حتى أصبحت لهم الكلمة فيهم والسيادة عليهم .

وفى سنة ١٥٠٨ م استولى البورتغاليون على سواحل عمان واتخذوا مسقط قاعدة لغاراتهم البحرية ، ووجهوا عنايتهم لتحصينها . ولما استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز سنة ١٦٢٢ ، لجأ أهلها الى مسقط فازدادت بهم أهميتها . وفى سنة ١٦٥٨ ثار أهالى مسقط على البورتغاليين وطردوهم من أرضهم . وبعد مدة استولى الهولانديون على مسقط فطردهم أهلها . ثم أتى الايرانيون بقصد فتح بلادهم فاستصرخ العمانيون بأحمد بن سعيد حاكم الشحر ، فحضر وساعدهم على طردهم ، فبايعوه ونادوا به سلطانا عليهم فى سنة ١١٦٧ هـ . وامتد حكم ابن سعيد شمالا الى جزيرة القطر وجزائر البحرين ، وجنوبا الى حضرموت وظفار ، ثم توفى سنة ١١٨٨ هـ ، وتولى مكانه ابنه عبد الصمد . ولما مات تولى بعده ابنه سلطان بن عبد الصمد . ولما مات تولى عمه سعيد بن أحمد بن سعيد . فأدرك أهمية مركز بلاده الجغرافى وعرف أن مستقبلها مرتبط بالقوة البحرية . فانشأ أسطولا مركبا من ثلاثين سفينة حربية ، وسلحها بالمدافع واستولى بقوته على جزيرة هرمز فى الخليج العجمى ، ثم استولى على جزيرة سوقطرة وجزيرة زنجبار ، ثم وضع يده على سواحل زنجبار وراس غاردافوى : وبذلك أصبح له السلطان المطلق فى خليج العجم والبحر الهندى . وأنشأ طرقا كثيرة فى بلاده التى أصبحت محط الرحال التجار من الهند وفارس وشرق أفريقيا ومصر . وكان الوهابيون قبل هذا الزمن قد أغاروا على عمان ووضعوا خراجا

سنو يا على صاحبها، ولكن السلطان سعيد امتنع من أدائه اليهم . فاغاروا عليه وأحرقوا كثيرا من بلاده ولم ينقذه منهم الا تحولهم عنه الى حرب ابراهيم بن محمد على باشا الذى قضى عليهم القضاء المبرم . بعد ذلك مال سعيد الى الراحة، فباع اسطوله وقسم مملكته بين أولاده الثلاثة: فجعل زنجبار وما يليها من سواحل افريقيا وجزيرة سوقطرة الى ولده ماجد، وجعل القسم الشمالى من مملكته وهو جزائر خليج البصرة وما يليه من الساحل العربى لابنه الاكبر التوينى ، وجعل القسم الجنوبى الى ابنه تركى .

ولما توفى سعيد طلب التوينى من أخيه ماجد أن يؤدى اليه خراجا سنويا فلم يقبل . فقامت بينهما الحرب مدة سنتين حتى تداخل الانكليز وأصلحوا بينهما على أن يستقل ماجد بزنجبار ، وأن يؤدى فى نظير ذلك الى أخيه التوينى كل سنة أربعين ألف ريال .

ثم نازع التوينى أخاه تركيا فى نصيبه فنقم الناس عليه وانفضوا من حوله وبايعوا أخاه تركيا، وساعده الانكليز على دخوله مسقط . فهرب التوينى الى فيصل الوهابى، فارسل معه جيشاً بقيادة ابنه عبدالله واستولى على بلاد عمان وسلمها الى التوينى، وانفرد بالحكم فيها حتى توفى سنة ١٢٨٥ هـ . وخلفه ابنه سالم فقبض على عمه تركى وسجنه ، ثم أخلى سبيله بمداخلة الانكليز فسافر الى بومباى . أما سالم فانه ثار عليه فى السنة الثالثة من حكمه رجل من قرابته اسمه عزان، ونزع منه الملك . فبلغ ذلك تركيا وهو فى بومباى فاسرع الى بلاده وقتل عزان واستولى على عمان سنة ١٢٨٧ . وكان أخوه ماجد قد مات فى زنجبار، فعين أخاه برغشا سلطانا عليها .

ومن ثم بقيت حكومة عمان على غاية الصفا مع الانكليز . ومن سنة ١٧٩٨ م الى الآن عقدت بين الحكومتين جملة معاهدات تضمن بها للسلطان مرتباً شهريا من خزينة الهند وتكفل له استقلاله وحفظ الامن فى داخلية بلاده، وذلك كله فى نظير عدم تنازله عن شىء من بلاده الى حكومة أخرى .

ومن هذا الوقت أخذت يد الانكليز تمتد الى أطراف هذه المملكة واحدا بعد الآخر: فاستولت على جزائر كوريا موريا سنة ١٨٥٤م، وعلى جزائر خشم الواقعة فى مضيق هرمز

سنة ١٨٧٦، و فى هذه السنة نفسها أعلنت حمايتها على جزيرة سوقطرة . وكان سلطان زنجبار تنازل سنة ١٨٩٠ لالمانيا عن قسم من بلاده يبتدئ من مصب نهر روفوما جنوبا و ينتهى الى ونغاشما الا فى مقابل ٤ ملايين مارك . فبادرت انكلترا فوضعت يدها على ما بقى لسلطنة زنجبار من السواحل، ثم أعلنت حمايتها على جزيرة زنجبار نفسها ، وبعدها عقدت معاهدة مع ايطاليا استولت هذه بموجبها على قسم مما يلى بلاد السومال .

جزائر البحرين

أهم هذه الجزائر جزيرة عوال ، وفيها نحو ستين قرية صغيرة وعاصمتها مدينة منامه وسكانها نحو ٢٥ ألف نفس، والى جوارها جزيرة اراد . وأصل سكان هذه الجزيرة من عمالقة طسم وجديس ، ثم استولى عليها الفرس ، وصارت نابعة لحكم المناذرة ملوك الحيرة ، ثم دخلت فى سلطة المسلمين فى السنة السادسة للهجرة مدة حكم العلاء الحضرمى على إقليم البحرين . ثم استولى عليهما البورتغاليون ثم الايرانيون ثم امام مسقط ثم الدولة العثمانية، و ينازعها فيها الان الدولة الانجليزية و يصوّرها كل منهما بلون بلاده على الخرائط الجغرافية . ويحكمها الان الشيخ عيسى بن على تحت حماية حكومة الهند . ومن أهم حاصلاتها اللؤلؤ، وقد بلغت صادراتها سنة ١٩٠١ مليونا ومائة وسبعين ألف ليرة انكليزية . و يقدر عدد سكان جزائر البحرين بمائة ألف نسمة .

نجد

نجد هى القسم الواسع الواقع فى وسط جزيرة العرب، و فى منتصف المسافة بين المدينة و بغداد . و يقسمونه الى قسمين: الشمالى وهو الحائل وما والاه و يسمونه نجد الحجاز ، والثانى العارض وما يليه و يسمونه نجد اليمن . ومعنى نجد الشئ المرتفع، فهو مرتفع عن تهامة وهى الارض التى تلى البحر . و يرتفع سهل نجد عن سطح البحر بنحو ١٢٠٠ متراً . و فى هذين القسمين جبال مشهورة بكثرة خيراتها، منها جبل سلمى، وجبل طويق، وجبل أجأ .

و يحيط بنجد من الشمال صحراء الشام ، ومن الغرب صحراء الحجاز، ومن الجنوب البادية الكبرى، ومن الشرق لسان من الدهنا، ولذلك كان الوصول اليها لا يخلو من المشقة.

شمّر

شمر واقعة فى منتصف المسافة بين مكة والبصرة وهى عبارة عن جبل شمر وجبل سلمى. والاودية التى بينهما صالحة للزراعة، وفيها كثير من البساتين، و يقدرون مسطحها بأربعين كيلو متراً مربعاً. وهذه الجهة ادارتها فى يد آل الرشيد ومركزهم مدينة الحائل، وسكانها نحو عشرين ألف نفس. و فى جنوبها قصبة تسمى كفار، و يقدرون سكانها بثمانية آلاف نفس.

و فى شمر نحو أربعين قرية كبيرة تحيط بها غابات النخيل، وأغلب سكان شمر من ذوى الخيام و يقدرون بنحو أربعمائة ألف نفس، كلهم من أهل السماحة والنخوة. وأشهر حيوانات هذه الجهة الخيل ، وهى أجمل أنواعها فى الدنيا بأسرها، و يوجد عندهم الحمير والابل والبقر، وتكثر عندهم الاغنام ، و يوجد فى جبالهم النعام والبقر الوحشى والفهد والثعلب والذئب والغزال والارنب وغير ذلك. والى شرق شمر يميل الى الجنوب بلاد القصيم .وأغلب أرضه وديان خصبة تزرع فيها الحبوب على اختلاف أنواعها ، وكثير من أصناف الفاكهة كالعنب والرمان والزيتون والمشمش والبطيخ والقاوون، وفيه كثير من النخيل. و فى وسط أرضه آكام تكثر فيها الغابات. و يقدرون عدد أهله بثلاثمائة ألف نفس ، كلهم يسكنون الخيام الا القليل منهم فانه يسكن القرى التى لا تزيد عن ثلاثين قرية، وأشهرها بريدة وعنيزة .و بلاد القصيم نصفها الشمالى تابع لامير شمر، والنصف الجنوبى تابع لامير الرياض .

العارض

هى جبال نجد اليمن، وهى المشهورة بنجد الان، واذا أطلق هذا اللفظ فلا ينصرف الا عليها. وعيون هذا الجبل غزيرة وأوديته كثيرة و فى غاية الخصوبة، وتكثر فيها المزارع والبساتين.

وهذه البلاد الان وما والاها من بلاد القصيم فى حكم آل سعود، وعاصمتها الرياض، وهى من أهم مدن نجد . و يكثر فى هـذه البلاد النخيل والحيوانات الاهلية وأخصها الخيـل والابل والغنم . وأغلب أهلها أهل بادية، و يقدر عددهم بنصف مليون نفس، وكلهم وهابيون .

وأمارتا الرياض والحائل تابعتان لمتصرفيـة نجد التى يدخل فى دائرتها الحسا ومركزها مدينة الحسا . وكلها داخل فى دائرة ولاية البصرة . و يشتغل أهل السواحل بالتجارة وصـيد اللؤلؤ والاسماك و يجففونها و يصـدرون منها الى الخارج كيات وافرة . وأعمر بلاد الحسا قضاء القطيف ، ثم البلاد التى جنوبها الى بحيث جزيرة القطر، و غالبها صحارى رملية وتكثر المزارع فيها الى جهة السواحل وفيها النخيل بكثرة . و بلاد الحسا مشهورة بالحُمُر الحساوية و يكثر فى فيافيها السباع والنعام وحمـر الوحش . ومن صناعة هـذه البلاد العبي المشهورة وغير ذلك من المنسوجات و بعض الاعمال النحاسية . وهواء البلاد حار كثير الجفاف وصحى، الا فى القطيف فانه رطب لكثرة المستنقعات التى حولها . وتنقسم هذه البلاد الى أربعة أقضية قضاء الحسا ، وقضاء القطيف، وقضاء القطر، وقضاء الحفوف ، وهو أكـبرها وأوسعها . وعدد سكان الحسا يقدر بخمسة وثلاثين ألف نفس نصفهم أهل حضر والباقى بدو . و يوجد فى الحسا مياه معدنيـة بكثرة ، وأرض هذه البلاد تُسقى من الاحسـاء (مفرده حسا) وهى الجداول الطبيعية . وقـد تجتمع جـملة جداول وتصب فى بركة تُكوِّن خزانا مستديما لسقى الاراضى .

اخلاق العرب

العرب أخلاقهم فى البادية واحـدة فى الغالب من قديم الزمان : فهم أهل صـدق و وفاء وشهامة وشجاعة وكرم . شديدو الغيرة على نسائهم ولا قيمة للحياة فى نظرهم الامع العزة . يأنفون العار و يحفظون الجوار و يدافعون عمن دخل فى وجههم (حمايتهم) . واذا بنى بعضهم على شخص فقال لهم أنا فى وجه فلان يعنى رجلا من قبيلتهم ولو فى غيبته رجعوا عنه واحترموا حماية صاحبهم . يعرفون المعروف لصاحبه ولا تأخذهم فى الحق لومة لائم . وهم أبعد الناس عن

الرياء والنفاق وكلامهم كله صراحة وليست فيه من ألفاظ التفخيم وجمل التعظيم ما تضيع معه الحقيقة : فهم ينادون أمير مكة وهو فى منزلة الملك منهم بقولهم ياشريف كما كانوا ينادون الرسول بقولهم يامحمد . ضمائرهم تسيل على ألسنتهم وسلاحهم أقرب الاشياء الى يدهم . الربيع عندهم خير الايام واللحم سيد الطعام وهم أبعد الناس عن التأنق فى المأكل والملبس . يغير قويهم على ضعيفهم ويكثرون من غزو بعضهم البعض ولا يترك الرجل منهم ثأره مهما كان ضعيفا . واذا لم يتيسر له أن يحصل على حقوقه من غريمه شخصياً كان له فى عرفهم أن يغير على خميسه وهو أى شخص من قبيلته يتصل معه فى نسبه الى الجد الخامس . واذا قتل شخص آخر ولم يتمكن صاحب الدم أن يقتص من القاتل قتل به اباه أو خاله أو عمه أو أحد بنيهم وبه يسقط القصاص . وبعضهم يرضى بالدية فى قتيله وهى عندهم ثمانمائة ريال فى العبد وألف فى الحر وعشرة آلاف فى الرجل الشريف . واذا قُتل أحدهم أو قفوه فى قبره حتى يأخذوا بثأره وعندها يفتحون جدثه ويتمونه فى فراشه الاخير مرتاحا على زعمهم مما صنعوا . ومن عوائدهم المادّة وهى أنه اذا قتل أحدهم يذهب أهل القاتل الى أهل المقتول ولا يشربون لهم قهوة ولا يأكلون طعاما . فاذا سئلوا عن حاجتهم سألوهم المادة وهى تأجيل المطالبة بالقصاص شهراً أو شهرين فيقبلون منهم أجلهم فى الغالب : وعليه يكون القاتل فى أمن على نفسه طول هذه المدة التى يجتهدون أثناءها فى الاتفاق مع أهل المقتول على الصلح أو الدية . فاذا انقضت دون ان يتفقوا طالبوهم بالقصاص والا ثأروا لانفسهم بأى طريقه .

واذا أتهم شخص منهم وأنكر أتوابه الى المُلَحّس هو رجل مخصوص عندهم فيأتى بحديدة محماة فى النار ويلحسه اياها . وهم يزعمون أنه اذا كان صادقا لا تضره والا فانها تحرق لسانه . وبعضهم يخط دائرة فى الارض يوقف فيها المتهم ويحلّفه ويعتقدون أنه اذا كان كاذبا لا يمكنه الخروج منها مطلقا . أما المتحضرون من العرب أو الذين لهم صلة بأهل الحضر كالجمالة والمقوّمين مثلا فأخلاقهم أقرب الى أخلاق الحضر منها الى البداوة ، والطبقة السافلة منهم فى الغالب من أشر ما يوجد من نوع الانسان على التقريب . وربما كانت حاجتهم الى العيش هى التى ترمى بهم الى ائتلاف العيوب واقتراف الذنوب . وليست أخلاقهم مما يؤخذ على أخلاق العرب فى مجموعها : وأمثالهم فى جميع الامم كثيرون .

﴿ جدول بالقبائل الموجودة ببلاد العرب ومساكنها وعدد نفوسها ﴾

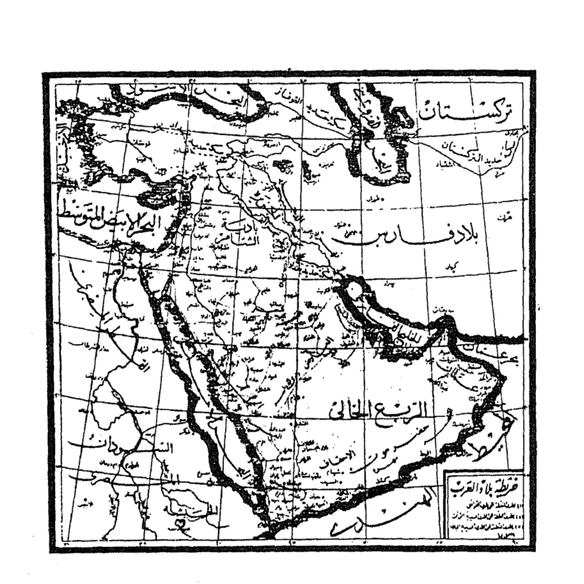
اسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	(قبائل الحجاز)		
عنزه	الحسنة . حلاس . (ومنهم الرولة والمخلف) وبشير (ومنهم ماجد وسلقى) وأولاد على (ومنهم المشارقة . المشطا . الحمامدة . الجدالمة وطلاح) .	٣٥٠٠	شمال المدينة فى شرق مداين صالح الى خيبر .
الحويطات	الجازاى . الريضات . عمران . بنى عطية . دبور . بدول . السباحة . الترابين . والبطحة	٧٠٠٠٠	من محطة العلاء الى معان والعقبة وغزه .
بلى	. . . .	٣٠٠٠٠	من العقبة الى جنوب الوجه
جهينه	بنى مالك (ويتفرع منهم قبائل الصيحة . العيايشة . عروه . كومه . سنبنات . الحصينات . الاساوره . المسادى . الرفاعه . بنى كلب . الحيادله . الحمده . والمواليد) . ثم بنى موسى (ويتفرع منهم البراهمة . الموال . المرادين . العلاوين . زيبان . العوامرة . تنره . والسمايحة) .	٥٠٠٠٠	شرق وشمال المدينة الى الوجه
عبس (١) (هيتم)	مهيزان . ذوى الرشيد . ذوى براك . النوامسة . الشرارات . والمتهان .		وهى قبيلة صغيرة فى شمال ينبع
حرب	بنى سالم (ومنهم ميمون وتتفرع الى محامده . رلاوعه . رحله . عمرو . حيدر . أحامده . صبيح ثم المراوحة وهى الحوازم وتتفرع الى نوامية . قراف . ظواهر . جبول . حنيطات ذرعات . محجلة . مزينه . ردادده . حنابنه) ثم بنى مسروح (وتتفرع منها عطور . مناشك بشر . معبد . البلادية . حمران . البدارين بنى جابر . عوف . زبيد	٨٠٠٠٠	وهم يسكنون من الحرة شمالا وشرقا وغربا الى عسفان

(١) عبس هذه هي التى كان لها فى الجاهلية ذلك الجاه المنيع . وكانت الى القرن الثامن الهجرى قوية فاعتدت على جاراتها فنقم العرب عليها وأوقعوا بها فشتت شملها الى اليمن وغيره ومن ثم ضعف أمرها .

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	(قبائل الحجاز)		
النخاوله[١]	(١) قبيلة حقيرة في ضواحي المدينة يستعملهم أهلها في خدمتهم وفى زراعة بساتينهم وحقولهم وهم رافضة ولا يسمون أبناءهم بأسماء أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة . ويسمون أولادهم المرون وهم يحللون نكاح المتعة . وأهل المدينة لا يصاهرونهم	١٢٠٠٠	
مطير	دو يش . ميمون . بنى عبدالله	٤٠٠٠٠	شرق المدينة شمالا الى نجد وجنوبا الى الصّفينة .
بنى سليم	. . . .	٢٠٠٠	شرق المدينة بجنوب الى حاذه
عتيبة	برقاوبريا (ويتفرع منهما قبائل روسان . الروقة . الشيابين . الدعاجين . العَصمه . جذعان . والحناتيس) .	٢٠٠٠٠	شرق البادية الواقعة على طريق الشرق بين مكة والمدينة
قُريش	. . . .	٢٠٠٠	شمال عرفة والطائف .
هُذيل	العلويين . التدويين . بنى خالد	١٠٠٠٠	الجبال التى بين مكة والطائف
ثقيف	بنوسفيان . بنوسعد . ناصره . ربيعة . عيله .	٣٠٠٠٠	جنوب وشرق الطائف .
البقوم البجوم	. . . .	٢٠٠٠	شرق الطائف .
عدوان	. . . .	٢٠٠٠	» »
بنى الحارث	. . . .	٢٠٠٠	» »
بنى سعيد	. . . .	٣٠٠٠	جنوب الطائف .
بنى لحيان	. . . .	١٥٠٠	بين مكة وجده .
الجحادله	. . . .		وادى يلملم الى البحر .
قبائل	بنى فهم . يزيد . بجاله . منمان . أشراف ذوى زيد . بنى هلال . بنى عفيف . أشراف ذوى حسن . بَلاْ سود . بَلاْ عوَر . بنى سليم بنى عمر . بنى على . بنى زيدان .	١٠٠٠٠	جنوب مكة وعلى طريقها الى الليث .
قبائل	رفاعة العبيدات . المجالجه . بنى كبير . أكلوب . العبادله . البيشة . بنى سعد . بنى سعدميمون . بنى مالك . زهران . غامد . شمران . وبَلقَرْن . بنى الاسمر . ناصره . بنى الاحمر . وشهران .	٦٠٠٠٠	شرق الطائف الى الجنوب . في جنوب الطائف الى عسير .

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	﴿قبائل عسير﴾		
قبائل	بنى علقم . رفيره . بنى ربيعة . المقيد .	١٠٠٠٠	شمال وجنوب العسير
قحطان	رقيف . عبيدة . شريف . سحّان . و راعه	١٠٠٠٠	جنوب العسير بشرق
يام	ذوى محمد . وذوى حسين .	٣٠٠٠٠	فى وادى نجران
	﴿قبائل اليمن﴾		
بابَعر	بنى زيد . بنى حرب . بنى عبس . و بنى سهم	٦٠٠٠	شمال القنفذه
قبائل	بنى بحير . و بنى الروحه .	٥٠٠	فى وادى وَبيه قرب القنفذه
«	بَلسُمُنْتَشِر . بلعُريان . العوامر . بلكيناني	٤٠٠٠	وادى حلى قرب وادى و بيه
«	بنى سبيل . بنى شُبيل . وجيزان .	٦٠٠	قرب العرايش
«	بنى مروان . حَرَضْ	١٥٠٠	بين جيزان ولحية شمال الحديدة
«	بنى قصير . بنى جامع . بنى شيبة . بنى شايع	١٠٠٠	بجوار لحية
«	بنى رين . بنى راجح . الفرانته . بنى طاهر . و بنى هيجان .	٧٠٠٠	وادى الواعظات شرق لحية
«	بنى حسن . بنى عبس . أسلم .	٥٠٠	قرب وادى الواعظات
«	آل مره . السكرب . الصَّيعَر .	٣٠٠٠٠	بين جبل برط والجوف
«	نَهمْ . أرحب .		بلاد حاسد شمال صنعاء
«	عمران .	١٠٠٠	شمال الحديدة
«	همدان .	١٠٠٠	شمال صنعاء
«	بنى مطير .	٣٠٠٠	قرب صنعاء
«	البَرَويه .	١٠٠٠٠	قرب صنعاء غربا
«	الحضور .	٤٠٠٠	جنوب صنعاء
«	بنى شداد . خولان . بنى جبير . عبس . فلاح ضبيان . مجاهد . قيس الاعماس .	٦٠٠٠	شرق صنعاء
	﴿قبائل حضرموت﴾		
قبائل	آل عمورى . المراشده . القِشَن . الخامعه . ونوّح .	٢٥٠٠	فى وادى دُغن جنوب شبام
«	الحالكه . آل محفوظ . آل يزيد . آل بطاطى و آل كثير .		فى وادى لسير أحمد شماب وادى دُغن
«	آل العوابسه .	٥٠٠	فى وادى العين

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
قبائل	باصليب . باتيس . بنى ماضى . الجمده . الصّبتره	١٥٠٠	وادى عمد
	نهب . و بنى مخاشن .		
»	بنى حيدره . بنى الليث . وشحا .	٥٠٠	وادى رقيه
»	آل بالعبيد . الصّيغر . ونافع	٢٥٠٠	وادى دهر
»	آل كثير . العوامره . آل باجرى . آل جابر	٦٠٠٠	وادى بن راشد
»	وآل تميم .		
»	يافع .	٢٠٠٠٠	الجبال الواقعة شرق شمال عدن
»	العواليق . آل ديب . آل عبدالواحد . شيبان	٥٠٠٠	بين عدن والمكله
	المكابره . و بنى حسن		
»	آل حموم .	١٠٠٠	بجوار الشحر
»	بنى هود . مناهل . ومهره	٢٠٠٠	بين قريتى هود وظفار
»	آل كثير .	٥٠٠	ظفار وماحولها
»	قرا . والشحره .	٣٠٠٠	الجبال المشرفة على ظفار
»	السادات العلويه .	٣٠٠	حضرموت
قبائل عمان	بنوشنعاب . النقاريون		
قبائل الحسا	قبيلة المرة .	٣٠٠٠	فى أطراف القطيف
»	قبيلة بنى هاجر .	٤٥٠٠	غرب القطيف
»	بنو خالد (بن الوليد)	١٠٠٠٠	غرب الحسا
قبائل نجد	بنو سبيع .	٦٠٠٠	بين الرياض والحسا
»	قبائل عنزه (بطن من التى بالحجاز) . الذيبى	١٤٠٠٠	بين المدينة المنورة والقصيم
	الفرم . بنى سالم و بنى مخيض .		
»	العجمان وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية	٦٠٠٠	شمال الرياض
»	قبائل قحطان (وهم غير قحطان اليمن)	٣٠٠٠٠	ينقسمون الى قسمين الاول بين
			الرياض ورينه والثانى بالحوطة
»	. قبائل الضغيفات . الجمافره الرابعة . بنى	١٥٠٠٠	وادى الدواسر جنوب
	ضيغم		الرياض بغرب
»	بنوسلجه . بنولحم . بنوحيتم . عرب الاخايل		فى القصيم
	(ويقال انهم بقية من بنى هلال المشهورة)		



خريطة بلاد العرب
تركستان
بلاد فارس
البحر الابيض المتوسط
بادية الشام
الربع الخالي
حضرموت
السودان
الحبشة

سفر الجناب العالى

من مصر الى جدة

طالما كانت تتوق نفس مولانا الخديو المعظم عباس باشا حامي الثانى الى حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه الكريم وكانت هذه الفكرة المقدسة تتردد فى خاطره من سنة الى اخرى حتى تأكدت عزيمته على اداء هذه الفريضة فى شهر رمضان الماضى سنة ١٣٢٧ فأصدر أمره السامى بتجهيز ما يلزم لسفره الى الأقطار الحجازية . وفى شهر ذى القعدة أخذ حفظه الله فى تعيين من يلازمه فى هذا السفر الميمون من رجال معيته الفخام ومن غيرهم من العلماء الأعلام والذوات الكرام وبالجملة فقد صدرت ارادته السنية بتشريفي بالسفر فى خدمة ركابه العالى وصدر الامر الى بعض الحاشية الخديوية من ملكيين وعسكريين بالسفر بعضهم الى جده وبعضهم الى مكة لانتظار تشريف جنابه السامى بها نخص بالذكر منهم أصحاب السعادة أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى العربي والافرنكي (مدير الاوقاف العمومية حالا) وحسين محرم باشا السرياور الخديوى ومهمندار جنابه العالى فى هذه الرحلة المباركة (وكيل الحربية) ومحمد عزت باشا رئيس الديوان الخديوى التركي واحمد خيرى باشا ناظر الأوقاف الخصوصية واحمد صادق بك (وكيل الخاصة الخديوية) ومحمود بك محمد رئيس قلم عرضحالات المعية السنية وفضيلتلو الشيخ محمد شاكر وكيل مشيخة الازهر الشريف والسيد محمد البيلاوى من علماء الازهر ووكيل الكتبخانة

الخديوية المصرية والشيخ محمد عاشور مفتي الاوقاف الخصوصية وغيرهم من حضرات ضباط الحرس الخديوى .

وفى يوم السبت الموافق ٩ ديسمبر كانت تشريفات الوداع فامتلأت ارجاء سراى عابدين بصنوف المودعين وتواردت الوفود من جميع انحاء القطر للثم هذه اليد المباركة بحال لم يسبق لها مثيل وقلوبهم تبتهل الى الله تعالى بأن يحفظ مليك البلاد المحبوب وان يرده اليهم قريباً بكل ما يرجون له من كمال الصحة والعافية ولم تقتصر هذه العاطفة على المسلمين بل كنت ترى المصريين على اختلاف أديانهم مشتركين فى السرور بهذا الاحساس الشريف والشعور الحيّ الذى تحرك في فؤاد مليك من أكبر امراء الاسلام للقيام باداء هذا الواجب الديني الاجتماعى مؤملين من ورائه الخير والسعادة العظمي ان شاء الله للاسلام وأهليه عموماً ولمصر وبنيها خصوصاً .

وفى ٢٨ القعده سنة ١٣٢٧ — ١١ ديسمبر سنة ١٩٠٩ صدر الى عطوفة رئيس النظار الامر العالى الآتي .

« قد شاءت الارادة الالهية بتحقيق رغبتنا في اداء فريضة الحج وزيارة الروضة الطاهرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام فعزمنا على السفر لهذا القصد الجليل فى هذا العام.

ولوثوقنا في عطوفتكم رأينا أن تقوموا مقامنا مدة غيابنا في ادارة شؤون حكومتنا بما نعهده فيكم من الخبرة والدراية وقد أصدرنا هذا اليكم بذلك راجين من الحق عزّ شأنه أن يوفقكم مع حضرات النظار زملائكم لما فيه سعادة الامة وخير البلاد

وانا لنرجو أن يكون توجهنا الى تلك الاقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعثاً في المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم خصوصاً في هذا العهد عهد مولانا خليفة المسلمين السلطان محمد الخامس أعزه الله وأيد ملكه بالعدل والتوفيق

هذا وسنرفع أكف الضراعة الى مقام العزة الالهية في تلك البقاع الطاهرة بأن يوفقنا الى خدمة الامة العزيزة المصرية التى لا نفارقها الا وقلبنا معها وفكرنا مشتغل بما يؤدى الى خيرها ومجدها في الحال والاستقبال كما انا على يقين من أن دعواتها الصالحة تكون ملازمة لنا في الحل والترحال ان شاء الله »

وفي الساعة السابعة والدقيقة الاربعين من صباح يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٩ (٢٩ القعدة سنة ١٣٢٧) وهو اليوم الذى تقرر فيه رسمياً سفر الجناب السامى تحرك القطار الخصوصى من سراي القبة مقلا للحضرة الفخيمة الخديوية وبعض الحاشية الكريمة فوصل الى محطة مصر حيث كان في انتظار جنابه العالي أصحاب السعادة النظار الكرام والعلماء الأعلام ووكلاء الدول وقناصلها وكل من فى مصر من الذوات وأصحاب الحيثيات وبعد أن صافحهم حفظه الله مودعا من الكل بالدعاء الصالح تشرف حضرات النظار بالركوب مع سموه وسافر القطار على بركة الله تعالى الى السويس وكانت جميع محطات السكة الحديدية مزدانة بأفخر الزينات الباهرة وفيها مالا يحصى من جموع المودعين لا سيما في محطتى بنها والزقازيق اللتين احتشد فيهما خلق كثير يضرعون الى الله تعالى بأن يرد عليهم أميرهم محمود

العودة محروساً بالعناية الصمدانية وما زال القطار سائراً تشيعه القلوب حتى وصل بسلامة الله الى السويس ثم الى محطة الحوض في الساعة الأولى بعد الظهر وهنالك كانت معالم الزينة فى أجمل مظاهرها وكان المستقبلون من علية المصريين لا يحصون عداً حيث كانت قامت الي السويس قُطُر (قطارات) مخصوصة من جميع جهات القطر تقل وفود المودعين من عواصم الثغور والمديريات وفى مقدمة الجميع حضرات أعضاء الجمعيه العموميه ومجلس شورى القوانين يتقدمهم صاحب الدولة والفخامة البرنس حسين كامل باشا (وكان رئيساً لهما) فلما وقف القطار نزل الجناب العالى وصافح دولته وكل من كان حاضراً من الامراء والعظماء شاكراً لهم تحملهم هذه المشقة واثنى عليهم بلسان كله عطف وحنان ثم التفت الى دولة البرنس قائلا له : انى أشكرك من صميم فؤادى لا بصفتك رئيساً للشورى والجمعية العمومية فقط بل بصفتك كبير البيت الخديوى — فلم يتمالك دولة الأمير نفسه تلقاء هذه الكرامة الكبرى والعاطفة الشريفة ان ذرفت عيناه بالدموع وقال مجيباً على هذه العبارة السامية الرحيمة : لست يامولاى مهما بلغ من أمرى غير عبد من عبيدكم الخاضعين المخلصين لعرشكم قد امتزت بشرف القربى من سموكم فأحنى الجناب العالى رأسه لهذا الجواب الذى كان له أجمل وقع فى نفوس الحاضرين لأنه جمع الى محض الاخلاص جليل المحبة والولاء .

وهنالك صعد الجناب العالى الى وابور المحروسة وبعد أن استراح قليلا ابتدأت التشريفات بحالة كنت تخيل معها انك ترى عياناً عاطفة هذا الامير الجليل المحبوب تتعانق مع عواطف رعيته الصادقة المخلصة وكنت كانك تشاهد

الدعاء الذى كان يخرج من أعماق القلوب صاعداً الى السماء رجاء الى الله تعالى أن يحفظ هذه الذات السامية وأن يعيدها الى ملكها بعد اداء هذه الفريضة المقدسة فى صحة تامة ومسرة عامة

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تحرك اليخت قاصداً جدة وكان مقلاً للجناب العالي وصاحبة الفخامة والدة سموه الرفيع وصاحبات الدولة الاميرات السنيات عطية هانم أفندى وفتحيه هانم أفندى كريمتى الحضرة الخديوية الفخيمة والبرنسيس فاطمة هانم أفندى عمة جنابه السامى وكن قد حضرن مع دولة الوالدة على قطار خاص وصل الى السويس قبل تشريف الجناب العالى اليها

وما زال اليخت سائراً حتى حاذى ثغر رابغ من الشاطئ الشرقي وهو على عرض ٢٢ درجة و ٢٨ دقيقة وطول ٢٨ درجة و ٥٨ دقيقة وبينه وبين جدة مائة ميل وتسعة فأحرم الجناب العالى احراما كاملا هو ومن كان معه من الحجاج واستمرت الباخرة فى سيرها حتى اذا صارت على بعد ساعتين من جدة اخذت مبانيها تظهر شيئاً فشيئاً حتى تجلت للعيان بيضاء ناصعة وظهرت فى جنوبها ضيعة صغيرة يسمونها بالنزلة وكلها أكواخ يسكنها الأعراب وبعض الاهالى وغالبهم من صيادى الاسماك وفى قبالة هذه الضيعة من جهة البحر جزيرتان صغيرتان احداهما وهي الشمالية تسمي جزيرة سعد والثانية تسمي جزيرة سعيد وفيها المحجر الصحي لثغر الحجاز وفى الاولى محل للتبخير وآلة لتكرير المياه الملحة وبعض أحذية (١) مبنية لاقامة المحجور عليهم فيها .

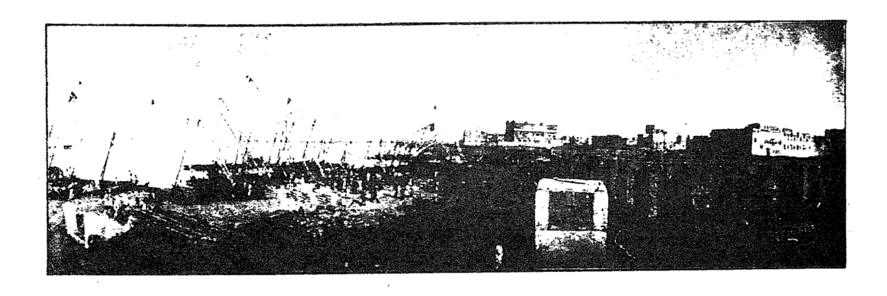
(١) مفرده حذاء وهو قسم من اقسام القورنتينة يوضع فيه اناس على حدتهم ليقضوا به أيام الحجر المقررة عليهم ولا يمكن أحدهم ان يغادر حدوده هذا القسم باى حال قبل انتهاء المدة

فاذا كانت جوازات المراكب القادمة الى هذا الثغر غير نظيفة أخذ الحجاج اليها في سفن شراعية يسمونها سنابك (مفردها سنبوك) فتصل الى الجزيرة الاولى فى ثلاث ساعات أو أكثر والى الثانية في ضعف هذا الزمن فيقضون في هذه أو تلك مدة الحجر التى يقدرها حكيم القرنتينات بجدة

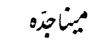
وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء غرة الحجة (١٤ ديسمبر) القت المحروسة مراسيها على نحو ثلاثة أميال من ميناء الثغر لان المراكب الكبيرة لا تستطيع الدخول الى مياهها لقلة عمقها في هذه المسافة وبقى بها الجناب العالي الى صباح اليوم التالي . وكان يوجد خارج الميناء كثير من المراكب التى أتت الى هذا الثغر بالحجاج من الهند والروسيا وتركيا وبلاد المغرب ومصر وبور سودان وغيرها وكلها رافعة أعلامها ترحيباً بمقدم سموه كما كانت السنابك التى كانت تغدو وتروح في ميناها رافعة على سواريها العلم العثماني اكراماً لتشريف جنابه العالى .

مدينة جدة

قال البكري في معجمه «جدة بضم أوله ساحل مكة سميت بذلك لانها حاضرة البحر والجدة من البحر والنهر ما يلي البر وأصل الجدة الطريق الممتد » واهل البلاد يسمونها الآن جدة بكسر الجيم ويسميها المصريون جدة بفتحها وكلها على ما ارى تسمية صحيحة لان الجدة بالكسر اليمن والسعادة وهذا الثغر بلا شك منه المادة التى تقوم بحياة هذه البلاد كلها واى شيء اسعد مما يقوم بحياة الانسان ووجوده كما ان



BOEHME & ANDERER, CAIRO.



ميناجده

الجدة بالفتح الطريق الواسعة وليس من طريق في بلاد الحجاز أوسع من هذه . وهي على ٣٩ درجة وعشرة دقائق من الطول الشرق وعلى ٢١ درجة و ٢٨ دقيقة من العرض الشمالى ـ وقد كانت قرية صغيرة في بادئ أمرها يسكنها وما حولها قضاعة قبل الاسلام فلما كانت سنة ٢٦ للهجرة فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه أمر فجعلت ثغرا لمكة وكان ثغرها قبل ذلك قرية تسمى الشعيبة وهى على مسافة نحو عشرين كيلو مترا من جنوب جده وكان السير يصعب على السفن فى مياهها لكثرة شعوبها حتى ضرب بذلك المثل . قال كثير يصف ابلا تسير في ملاتريم (مكان بحضرموت)

سأتك وقد أجد بها البكور غداة البين من أسماء عير

كأن حمولها بملاتريم سفين بالشعية ما تسير

ومن ثمّ أخذت جدة تزيد فى عمرانها وتعظم فى أهميتها حتى أصبحت أكبر ثغر في بلاد العرب .

وساحل جدة كله شعوب صخرية يتخللها شعب مرجانية حمراء أو سوداء (اليسر) وترى على سطح مياهه فى كثير من جهاته أوراق ذلك النبات المائي الأحمر الذى يسمونه دم الاخوة (العندم) وله دخل كبير في تلوين المنسوجات بهذا اللون وشكله أشبه شئ بالبشنين فى بحيرات مصر . وذلك النبات يوجد بكثرة على شاطئ الخليج العربى وربما كان له تأثير على مايعيش في جوه من الاصداف الحمراء والاسماك المرجانية التى توجد فيه بكثرة لتغذيتها منه وربما أتت من ذلك تسميته بالبحر الاحمر . ويساعد على هذه التسمية ذلك اللون السنجابى الذى يشاهد قبل شروق الشمس فيما يلي الشاطئ من مياه البحر عند انحسار كتلة المياه عنه وقت الجزر الذى يحصل فيه يوميا حيث يتراءى لك الشعب على طول الشاطئ ضاربا فى البحر بلونه الاحمر الذى يتشرب بالزرقة شيئاً فشيئاً حتى يتصل بكتلة الماء الكبرى .

ومما يذكر بهذه المناسبة انا رأينا أهل جدة يميلون الى اللباس الاحمر لا فرق فى ذلك بين كبيرهم وصغيرهم وربما كان ذلك من تأثير الوسط الذى يعيشون فيه : فتراهم يشدون على وسطهم حزاما أحمر ويضعون على رأسهم شالا لونه كذلك وكثيرا ما ترى

صبيانهم يلبسون جلاليب بيضاء وعليها صديرية حمراء وحتى الطبقة العالية منهم يكثر فى لباسهم اللون الوردى أو ما يقرب منه .

ويحيط بجدة سور له خمسة أضلع فالغربى منها على البحر وطوله ٥٧٦ مترا والبحرى ٦٧٥ مترا والشرقى ٥٠٤ مترا والشرقى الجنوبى ٣١٥ مترا والجنوبى ٨١٠ مترا وهذا السور بناه السلطان الغورى ملك مصر في سنة ٩١٥ لمنع الافرنج الذين كانوا ابتدءوا فى استعمار الشرق من طلوعهم الى جدة وقد افاد فائدة تذكر فى منع البرتغاليين من الدخول اليها فى سنة ٩٤٨ وأصلتهم قلعتها هذه الصغيرة نارا حامية فروا منها الى مراكبهم تاركين ما كان معهم من الذخائر . وهذه القلعة نالت أيضا من الوهابيين حين حصارهم لجدة في سنة ١٢١٨ الا أنها لم تكن تؤدى وظيفتها فى ضرب المراكب الانجليزية لها فى سنة ١٢٧٤ وسبب ذلك ان أحد الرعايا الانجليز كان يملك مركبا شراعيا بجدة وكان يرفع عليها العلم الانجليزى فبدله بالعلم العثمانى فحنق لذلك قنصل الانجليز ونزل الى المركب وأنزل العلم العثمانى بالقوة وأهانه فلما بلغ الناس هذا الامر كبر عليهم وهاج له الرعاع فقصدوا منزله وقتلوه مع القنصل الفرنساوى و بعض الافرنج ونهبوا دورهم فأتت مراكب الانجليز وضربت جدة و بعدها حضر الى مكة واتفق مع الاميرال على عمل تحقيق كانت نتيجته شنق نحو ١٥ نفرا من الاهالى فى سوق جدة ونفى كثيرين من كبرائها وغرامة الدولة نظير الاموال التى ادعت رعايا الدول الاجنبية أنها فقدتها فى هذه الفتنة وفى سنة ١٣١١ ساق الانجليز مراكبهم أيضا الى مياه جدة عند ما قتل الأعراب وكيل القنصل الانجليزى وجرحوا وكيلى القنصل الفرنساوى والروسي وكانوا تجاوزوا الحد المضروب لهم خارج البلد وكلهم مسلمون من الأهالي الذين لم يحسنوا سيرتهم مع اخوانهم من مواطنيهم ارتكانا على الحماية الاجنبية فحضر الشريف عون من مكة لهذا الامر الذى انتهى بالصلح وسفر المراكب من غير ضرب .

وشوارع جدة لا نظام فيها وهي تحتوى على نحو ٣٥٠٠ مترا مبنية بالحجر الجبلى الذى يأتون به من الجبال القريبة أو الحجر المائي الذى يقطعونه من شعوب البحر وهو خفيف جدا وفى غاية المتانة الا أن خطره جسيم وضرره عظيم لانه قابل للالتهاب

بسرعة لما يحتويه من المادة الفصفورية التى توجد فيه بكثرة ومساكنها كمساكن مدن الحجاز (مكة والمدينة) وهى أشبه بمساكن مصر في عهد المماليك (وفي سوق السلاح كثير منها) أعني ان بها غرفا كبيرة وألونة واسعة ذات سقوف عالية ولها شبابيك طويلة عريضة على شكل المشربيات يسمونها الرواشن (مفرده روشن وهو كلمة فارسية معناها المنور)وشغلها الخشبي يشبه مايسمونه بالمنقور أو المنجور واكثرها النوع المسمى بالشيش وقد رأيت فى بعض بيوت هذه المدينة منزلا وجهته نحو ١٥ مترا وفيها تسعة رواشن كبيرة وأظن أن هذه المنافذ الواسعة موافقة جدا للبلاد الحارة ولذلك ترى النظام الجديد فى العمارات المصرية يرجع الى هذا النمط كما تراه في أغلب المبانى الحديثة لا سيما في الاحياء الافرنجية وعلى الاخص فى مصر الجديدة التى هي شكل مجمل مكمل من الأشكال المصرية القديمة التى سيكون منها لمصر حياة جديدة طية قوية متينة ان شاء الله ان لم تزد عن حالتها الاولى فانها لا تكون أقل منها .

ولمحمد علي باشا في هذه المدينة مبان كثيرة منها دار الولاية ودار البلدية وثكنات (قشلاقات) العساكر وغيرها .

وماء الشرب في جدة من الصهاريج القديمة التى تملأ بماء المطر أومن العيون التى هي خارج المدينة وكلما قربت تلك العيون من البحر كانت مياهها ملحة غير صالحة للشرب وفيها مواسير كان قد وضعها عثمان باشا نورى في سنة ١٣٠٢ وسير الماء فيها من عين الرغامة التى تبعد عن المدينة بنحو عشرة كيلو مترات وهي الآن مهدمة وقد اهتمت بلدية المدينة باصلاحها ولكن يظهر أن الحكومة لا يمكنها عمارتها الا بمعونة الأهالي وهم لا يساعدون على ذلك لان لهم مصلحة فى بيع مياه صهاريجهم على الحجاج بأثمان باهظة على ان سواد الحجاج لا يشربون اثناء وجودهم في هذه المدينة الامن المياه التى يأتون بها اليهم من الحفر والآبار وفضلا عن وساختها فان طعمها يميل دائما الى الملوحة ولولا فضل الله عليهم لهلكوا منها جميعاً ! ! !

وفي هذه المدينة كندانسه لبعض الفرنجة لتكرير مياه البحر و بيعها للناس ولكنها تخربت نهائيا و بلغنا ونحن بجدة أنهم ارسلوا بعض عددها الى السويس لاصلاحها فيها .

وجدة مركز تجاري كبير و يمكنك ان تقول أنها الثغر العمومي للحجاز فمنها صادراته واليها وارداته وتجارتها تكاد تحصر في اصداف اللؤلؤ والمرجان واليسر والسبح والاقمشة الحريرية والعطر والعطارة والبقالة الجافة والقرب والجلود والسجاجيد وجميع ما يهم الحاج وتجارتها الرئيسية في الحبوب خصوصاً القمح والدقيق اللذين عليهما مدار حياة اهل البلاد العربية من أقصاها الى اقصاها وهي تأتي اليها من الهند ومصر والشام وسوق المدينة تمتد على طولها من الجهة الجنوبيه الى الجهة الشماليه التي تنتهي بمساكن قناصل الدول وهي أحسن ما في المدينة من الابنية واخص منها بالذكر منزل الوكالة الروسيه الذى هو على أحسن مثال واجمل هندام لما فيه من المشربيات والطنف (البلكونات) التي تمثل ابهة الشكل العربي القديم بما يخيل للرائي أنه امام قصر الرصافة في بغداد . وتجاه هذا المنزل نقطة بوليس وبجوارها مكان البوسته وهي عبارة عن غرفة صغيرة يقطعها حاجز خشبي بسيط يفصل بين العمال وأرباب الاعمال .

وتجار جدة من أهلين وحضارم وهنود وأعجام وبخاريين وأروام تراهم يعملون في هـذا الوسط ولا تروج تجارتهم الا في موسم الحج . ولاحد الاروام وابور (ماكينه) يدار بالبترول في جنوب المدينة لطحن الغلال واجرة الكيلة الجداوية (مقدارها ثلاث اوقات) ثلاثة قروش مجيدية ومع هذا فان صاحبه على الدوام تراه يصرخ مستغيثاً من قلة المكسب وكثرة ما يصرفه في سبيل ادارته .

وتعداد اهل هذه المدينة لم يحصل بصفة رسمية وهم يبلغون خمسين الفاً على أضبط تقدير منهم عشرة آلاف من الاجانب المسلمين بين فرس وحضارم وهنود وبخاريين. أما الفرنجة فيبلغ عددهم مائة أو يزيدون قليلا وأغلبهم من الاروام . وثروة البلاد تقريباً في ايدى هؤلاء الاجانب وتقدر ثروة بعضهم بنحو مليون من الجنيهات لانهم يجدون ويكدون ولهم نشاط غريب في بابه حتى الشيالين والفلايكية في هذه المدينة تجدهم في الغالب من الحضارم أو العبيد .

وفي جدة مدرستان مدرسة الاصلاح وفيها نحو ثمانين تلميذا ويصرف عليها من تبرعات الأهالي والمدرسة الرشدية وهي للحكومة وفيها نحو مائة وعشرين تلميذا

وهما لا يدرس فيهما الا شئ بسيط من الحساب والكتابة والقراءة العربية والتركيه وعلى كل حال فانهما أقل فى التعليم من مكاتب الاوقاف بمصر . وقد رأيت فى سوق المدينة لوحة مكتوب عليها (جريدة الاصلاح ومطبعتها) فسألت عنها فعلمت أنهما ابتدأت عملها بعد اعلان الدستور العثمانى ولكنها لم تجد رواجا فاضطر صاحبها الى اغلاقها وقفل محررها (التركى) راجعاً الى الاستانة أما المطبعة الآن فليس لها من عمل يذكر . وسكان جدة خليط كما أسلفنا وقد اثرت فيهم طبيعة هذا الاقليم فغلبت عليهم حال البداوة فيما يختص بالتعليم الذى ليس لهم فيه شئ يذكر اللهم الا ما كان يوصل الى كتابة خطاب أو مزاولة قليل من الحساب . وفي المدينة أربعة مساجد وهي لمسجد الحنفى والشافعي والمالكي ومسجد سيدى عكاشة وهو اكبرها وفيها اجزاخانة صغيرة ويقال أن بها (لوكاندة) ولكنى لم أرها .

وحكومة المدينة محصورة في القائمقام ووكيل الشريف والاول مختص بأعمال الحكومه الماليه المنحصرة في ايراد الجمارك غالباً وتقدر هذه الايرادات بنحو خمسين الف جنيه عثمانى في السنة على الاكثر والثانى بجميع الاشغال المختصة بالعرب كما أن أمر القوة العسكرية موكول الى قومندانها .

وفى موسم الحج ترى في جدة حركة مستديمة لا تنقطع ليلا ولا نهارا من الحجاج الذين اذا وصلوا اليها وجدوا على ابواب جمركها مطوفيهم او وكلاءهم فى انتظارهم وهم ينادون ياحاج فلان او ياحجاج فلان فيعرف الحاج اسم مطوفه فينادى عليه وهو في هذه الشدة فيبادر الى مساعدته ويأخذ منه ورقة جوازه (باسابورت) ليعلم عليها من قلم الجوازات ثم يسير معه الى منزل يقيم به يوما أو يومين يصلح فيهما من شأنه ويؤجر جماله أو حميره ثم يسافر الى مكة بعد أن يشترى شقادفه ان كان لها ضرورة عنده ومتوسط ثمن الشقدف جنيه انجليزى واجرة الهجين او الحمار جنيه الي مكة وكذلك جمل الحمل اما جمل الشقدف تتصل اجرته فى الغالب الي ضعف ذلك .

جبانة جدة وقبر امنا حواء

ويوجد خارج المدينة من جهة الجنوب مدفن للنصارى محاط بسور عال وعليه خفير من الاعراب لا يدع احدا يدخل فيه من غير ذويه . أما مدافن المسلمين فانها في جهتها الشرقيه على مسافة نحو كيلو متر من بابها الشرقى الذى يسمونه باب مكة وعليها سور يفتح بابه للغرب ترى في مدخله زمن الحج كثيرا من الشحاذين صغارا وكبارا من الاعراب والاغراب فاذا دخلت من هذا الباب وجدت امامك رأس قبر طويل ضاربا الى الشمال بمسافة مائة وخمسين مترا على ارتفاع متر وفى عرض نحو ثلاثة أمتار وهو ما يسمونه قبر امنا حواء وهو أشبه شئ بقناة مسدودة من طرفها الجنوبى بثلاث حوائط من مربع ينقصه الحائط الشمالي الذى هو من جهة القبر وطول كل حائط أربعة أمتار في ارتفاع مثلها وفى كل منها شباك تخرج منه فروع عوسجة كبيرة تكاد تسد فراغ هذا المربع الذى هو مكان الرأس عندهم . وفي نهاية هذا المستطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة امتار في وسطه من اعلاه شرفة تحتها شباك يطل على القبر من جهة القدمين . وعند نهايتى القبر ترى اناساً متطوعين لارشادك عن مكان الرأس او القدم وايديهم ممدودة للسؤال وفى نحو ثلثى طوله من جهة الرأس قبة يفتح بابها الى الغرب وفيها شباكان يشرفان على جهتى القبر وفى وسطها مقصورة من الخشب عليها ستر من الجوخ وفيها باب مقابل لباب القبة فتحه لنا خادم المقصورة قائلا « هذا مكان السرة الشريفه » فنظرت فوجدت فيه حجرا من الصوان يبلغ طوله نحو متر ونصف فى عرض متر محفورا من وسطه وهو اشبه شئ بناووس صغير ان لم نقل مذبحاً كان مستعملا من قديم الزمان لتقديم القربان وهنالك مرّ بخاطرى ان هذا المكان ربما كان لقضاعة فيه قبل الاسلام هيكل لحواء ام البشر يعبدونها فيه كما كانت هذيل تعبد سواع بن شيث بن آدم وهذيل كما لا يخفى فى جنوب وشمال مكة وهم للآن يقولون هذيل الشام وهذيل اليمن وكانت مساكن قضاعة فيما بينهم وكما كانت

قبائل كلب ومراد وهمدان وحمير يعبدون ودّا ويغوث ويعوق ونسرا (وهم على ما يزعمون أولاد سواع بن شيث) « قال الله تعالى وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » . أما طول القبر بهذا المقدار فربما أخذه العرب في ضمن ما أخذوه من ديانة اليونانيين نقد كانوا يقيمون الهياكل للنجوم ومنها هيكل الزهرة الذى بناه الضحاك في صنعاء وقد كان اليونانيون يبنون للمريخ هيكلا مستطيلا . ومن القبور الطويلة التى توجد في بلاد الدولة العليه وهي طبعاً من آثار الدولة اليونانية قبر يوجد للآن في الاستانة العلية قرب اسكلة أناضولى قواق ويبلغ طوله نحو عشرين مترا ويقولون أنه قبر النبى يوشع وهو محترم من المسلمين والنصارى واليهود على السواء . ومن يعلم أن يوشع لم يصل الى هذه البلاد بالمرة يحكم بان هذا القبر من آثار الوثنية التى كانت في هذه الانحاء قبل دخول النصرانية اليها وكذلك يوجد في كرك نوح (وهي قرية بالشام بجوار معلقة زحلة) قبر يبلغ طوله ثلاثين مترا تقريبا يزعمون أنه قبر سيدنا نوح عليه السلام .

وعليه فلا يبعد أن قبر حواء كان من الهياكل المقدسة في الجاهلية فلما جاء الاسلام ومحا أثر الشرك من هذه البلاد ودالت به دولة الوثنية وهدمت هياكلها التى كان من ضمنها بالطبع هـذا الهيكل بقي أثره في نفوس القوم برا بحق الامومة وأقاموا له قبة (لا ندرى متى كان تشييدها) لتكون مزارا للناس كما كانوا يقيمون المزارات لآل بيت النبوة عليهم وعلى جدهم الصلاة والسلام .

ولقد ذكر هذه القبة ابن بطوطة في رحلته المشهورة في القرن السابع للهجرة ولم يذكر شيئاً عن القبر ومن اكبر الادلة على أن هذا القبر حادث لا محالة ما ذكره ابن جبير فى رحلته التى عملها سنة ٥٨٧ للهجرة قال رحمه الله «وبها (بجدة) موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر أنه كان منزلا لحواء أم البشر عند توجهها الى مكة فبني ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته وفضله والله أعلم» وعلى كل حال فاننا لو صرفنا النظر عما غيره الطوفان من معالم الارض وقلب أغلب معالمها بطنا لظهر خصوصاً في الجهات البركانية التى منها هذه

البلاد وجارينا مؤرخي العرب في ان حواء هبطت (١) مع آدم الى جزيرة سرنديب (سيلان) وقطعنا النظر عن الواسطة التى انتقلا بها من الجزيرة الى القارة وعن كيفية وصول حواء الى جدة وموتها بهـا (على مايدعون) فلا تهولنا دعوى القوم بان هذا قبر حواء على ما هو عليه من الطول المائل لانه لا يلزم من طول القبر طول الجثة بهذا المقدار وليس ادعاؤهم بان هذا موضع الرأس وذاك موضع القدم برهانا على أن طرفي جسم حواء متناسبان مع طرفى قبرها اذ يصح أن يكون هذا لتعيين جهة الرأس وذاك لجهة القدمين من غير تحديد نقطة بداية أو نهاية .ولا عبرة بقولهم أن القبة على مكان السرة لاننا بقطع النظر عن أنه كان الاولى بها أن توضع على اشرف مكان في الجسم وهو الرأس فان المسافة بين الرأس والسرة في طول القـبر ضعف المسافة بين السرة والقدمين وهذا مخالف لطبيعة الانسان مخالف لشكل بني آدم او بعبارة اخرى لشكل بني حواء فى جميع أدوار حياتهم . وغاية ما ذكره مؤرخو الاسلام أن طول سيدنا آدم كان ستين ذراعا يعنى تسعة وثلاثين مترا تقريباً (على حساب ان الذراع يساوى ٦٥ سنتيمترا وهو متوسط ما قدره به العرب) وكان طول حواء متناسباً معه طبعاً ويقرب من قولهم هذا ما ذهب اليه علماء الفرنجة الذين بحثوافى عالم الانسان قبل وبعد الطوفان وقارنوا بينه الآن و بين ما عثروا عليه من هياكله في طبقات الصخور على مسافات بعيدة من سطح الارض وهى مما لا يشك احد في انها كانت موجودة قبل حياة نوح الاولى ولقد ذهب المسيو هانريون Henrion العضو في المجتمع العلمي الفرنساوي والعالم المستشرق الكبير مؤيدا مباحثه بالارقام والحجج القوية الي ان طول آدم كان يبلغ ١٢٣ قدما وتسع بوصات وان طول حواء كان يبلغ ١١٨ قدماً وتسع بوصات وثلاث أرباع البوصة وهو ما يقرب من اربعين مترا (انظر مادة حواء فى دائرة المعارف الفرنساوية الكبرى) والرأي رأيه والعهدة عليه .

وعلى كل حال فاننا نحترم قول العرب في امهم كما نحترم قول الفرنجة فيها فهى

(١) وهذا خلاف لمن يقول أن حوآء هبطت على ساحل جدة .

أم الكل وبمكانها من احترام الكل لذلك لما قصد الشريف عون الرفيق هدم قبتها فيما هدم من قباب الصالحين بمكة وغيرها قام فى وجهه قناصل الدول وحالوا بينه و بينها بدعوى انها ليست أم المسلمين وحدهم وهذا أظنه حسبك في احترامها من الناس أجمعين

وصول الجناب العالي الى جدة

وسفره منها الى بحرة

ومما يذكر في تاريخ جدة تشريف الجناب العالي الخديوى اليها يوم الثلاثاء غرة ذي الحجة سنة ١٣٢٧ الموافق ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٩ قاصداً تأدية فريضة الحج الشريف وما اشرقت شمس هذا النهار حتى أخذ الناس يردون الى الميناء زمراً زمرا وفي مقدمتهم علية القوم وأعناقهم متطاولة الى عرض البحر لرؤية وابور المحروسة المقل لهذه الذات العباسية المحبوبة وفي نحو الساعة الثالثة العربية نهاراً حضر أصحاب السيادة والسعادة علي بك وفيصل بك والشريف زيد انجال سيادة شريف مكة (وكانوا قد أتوا الى جدة قبل تشريف الجناب العالي بيومين استمداداً لمقدمه السعيد) ومعهم حضرات القائمقام وقومندان القوة العثمانية الموجودة بجده وحضرة عزتلو مكتوبجى الولاية الذى وفد للسلام على الحضرة الخديوية بالنيابة عن الدولة العلية والتشرف بمرافقة الجناب السامى بصفته مهمنداراً له مدة وجوده حفظه الله في الاقطار الحجازية يتلوهم حضرات مدير البوسته والتلغرافات ووكيل شركة البواخر

الخديوية وغيرهم من مستخدمى الحكومة العثمانية وقبل أن تظهر أى اشارة تنبئ بقرب الركاب العالي ركبوا جميعاً الزوارق ونزلوا الى عرض البحر انتظاراً لمقدمه الشريف وكانوا قبل شروق الشمس قد أرسلوا الوابور الحربي العثماني المقيم فى مياه جدة لاستقبال المركب الخديوية المحروسة على بعد سبع ساعات أو أكثر من مياهها .

وفى نحو الساعة السابعة العربية نهاراً ظهر دخان المركب في الافق وما زالت تقرب شيئاً فشيئاً حتى القت مراسيها في الساعة الثامنة وهنالك قربت منها الزوارق وصعد الاشراف ورجال الحكومة للسلام على مولانا الخديوى وتبليغه سلام مولانا أمير المؤمنين وتهاني الدولة العلية مع تحية سيادة الشريف فقابلهم حفظه الله بما جبل عليه من البشر والايناس والحفاوة والاكرام وبعد ساعة رجعوا والسنتهم كلها شكر وثناء على مكارم أخلاقه وكمال آدابه.

وما غربت شمس هذا اليوم حتى بدت دار البلدية تختال في حلل زينتها من جهة البر وتألقت أنوار المراكب البخارية على اختلاف جنسياتها من جهة البحر وذهبت ساريات السنابك في السماء بمصابيحها التي كانت كأنها النجوم الزواهر وبالجملة فقد كان يوما مشهوداً وليلة فذة في بابها لم ير أهل جدة مثلهما بالمرة كما أنهم لم يشاهدوا عناية الدولة العلية بمثل احتفائها بهذه الذات الكريمة واهتمام دولة الشريف بما فيه راحة جنابه الرفيع : وأى رجل اصطفاه مولاه الى حج بيته الكريم كالعباس حفظه الله دعاه ربه فاجاب دعوته وقد كشف عن رأسه تاج ملكه ونزل الى صفوف بقية الخلق في تقشفهم في ملابسهم وغذائهم ينام على الغبراء ويلتحف السماء ويركب الصعب ويسير بين حرارة

الشمس وبرودة الليل في طريق تغزر وعثاؤه وتكثر حصباؤه ولا ينقطع اعصاره كما لا تتناهى أخطاره . فلا غرابة اذا كانت عين الله تكلؤه وعنايته تحرسه وقلوب الخلق ترمقه بكل تجلة واحترام .

وقبل فجر يوم الاربعاء ثاني الحجة أخذت العساكر تغدو وتروح في ميادين البلدية التي اكتظت بالجموع من عساكر الحرس من جهة وعساكر الدولة وجند البيشة (١) من جهة اخرى

وقبل الشروق ظهر من اليمّ الزورق البخارى المقل لمولانا الخديوى حفظه الله فضرب النفير واطلقت المدافع من طابية المدينة وهناك انتظمت العساكر على شبه دائرة مستطيلة نصفها الشرقي من رجال الحرس الخديوى والنصف الثاني نصفه من عساكر الدولة العلية ونصفه الآخر من عساكر البيشة وطرفا هذين القوسين من باب القورنتينة الى باب البلدية . وبعد نصف ساعة شرف الركاب العالي على سلم القورنتينة وكانت ساحتها مفروشة بالسجاجيد العجمية وقد اصطف على جانبيها رجال الدولة العلية من جهة ومن الاخرى أصحاب السعادة أنجال دولة الشريف ومن حضر معهم من الاشراف لاداء واجب التحية . فطلع حفظه الله على الاسكلة وهو في لباس احرامه كالبدر في تمامه وسار وهو يحيي هذه الجموع بيده الشريفة يتلوه صاحب الدولة البرنس كمال الدين باشا وفضيلة الشيخ بكرى الصدفي مفتى الديار المصرية وحضرة عزتلو على بك لبيب طبيب سموه في هذه الرحلة المباركة وغيرهم من الياوران

(١) بيشة قبيلة موجودة في شرق بلاد العرب وجنودها يركبون الهجن بلباسهم العربي وهم فى نظامهم أشبه بالباشبوزوق وكل عساكر الشريف منهم .

الكرام وبعض رجال حاشيته وكان جواده على سلم القورنتينة فركب حفظه الله بين عزف الموسيقات المصرية والتركية ودعاء الجنود وهتاف الجمهور وركب من خلفه سعادة حسين محرم باشا مهمنداره الخصوصي ودولة البرنس ثم الياوران يتقدمهم ثلة من الحرس بهيئة باشدار (حرس أمامي) يحيط بهم جميعاً فرقة من الجند وتبعهم أنجال الشريف ومعهم مندوب حكومة الحجاز وجم غفير من الاشراف تلوهم جنود البيشة ثم قومندان نقطة جدة ومعه فرقة من عساكر الدولة وساروا بهذا الموكب الحافل الى باب المغاربة ومنه الى الباب الشامي وهنالك كان في انتظاره مشايخ العربان من أشراف وغير أشراف على هجنهم وساروا جميعاً في ركابه العالي الى بحرة .

والطريق من جدة الى مكة تدخل من واد بين جبلين أعلاهما يسمى القائم ثم تمر فى طريق على جبل الرغامة وبه قهوة جرادة ثم على جبل ام السلم وبه قهوة العبد ثم يأخذ الوادى فى الميل الى الجنوب الشرقي حتى يصل الى بحرة وهنالك يتسع الوادى ويقطعه واد آخر من الشمال الشرقي الى الجنوب حتى يتصل بالبحر اسمه وادى مر (وادى فاطمة) وهو واد عظيم من أشهر أرض الحجاز خصوبة ويسكنه كثير من قبائل الاشراف الذين يملكون أغلب أراضيه ويزرع فيه جميع أنواع الخضروات التي تأتي الى مكة وفيه عيون ماء كثيرة ويقطعه الطريق السلطاني بين مكة والمدينة فى نقطة يوجد فيها بساتين من نخيل وأعناب يتخللها مجرى ماء يأتي من جهة الشرق (يسمونه نهراً) وكتلة الماء فيه أقل من متر مكعب واكثر فواكه تلك البساتين من البرتقال والليمون وانى أرى أنه لو عملت بهذه الجهات

آبار ارتوازية لكانت تأتي بفوائد جمة .

وبحرة نزلة بها جملة أكواخ يسكنها بعض الأعراب وفيها عشش عمومية واسعة يسمونها قهاوى يستريح فيها من أراد من الحجاج وخصوصاً راكبي الحمير والهجن لوجود ما يلزمهم بها من خبز وجبن وبلح وبعض الفاكهة والقهوة والتنباك وفي جوارها أفنية واسعة محاطة بأسوار من الجريد تربط فيها جمال الحجاج ودوابهم وأغلب القوافل تبيت فيها . ويأخذ الطريق من بحرة نحو الشرق يميل الى الشمال فيمر على حدّه ويبيت فيها بعض القوافل ثم على قهوة سالم ثم على جبل الشميسي ثم على المقتلة ثم المجالية ثم البستان ثم قهوة المعلم ثم الشيخ محمود وهو باب مكة وفيه قبر جار الله الزمخشري صاحب التفسير الشهير المسمى بالكشاف (وكان قد أتى اليها حاجا سنة ٥٣٨ فمات بها يوم التروية ودفن بهذا المكان) . وكل هذه القهاوي شبه أكواخ يجد الحاج فيها بعض الراحة أما الجبال على طول الطريق فتراها حمراء أو مائلة الى الخضرة أو الصفرة وهذا مما يدل على أنها غنية بالمعادن المختلفة كالحديد والنحاس وغيرهما وعلى طول الطريق أربع عشرة قلعة يوجد فيها الجند العثماني على الدوام وبعضها قديم من عمل الشريف غالب أو محمد علي والبعض بنته الدولة العلية من عهد ليس ببعيد خصوصاً بعد ما كثر مجيء الحاج بحراً

أما صاحبة الدولة والعصمة والدة الجناب العالى فقد نزلت من المحروسة الى البر فى منتصف الساعة الثالثة العربية صباحاً وكان فى انتظار دولتها على الاسكلة بعض رجال الحاشية وكان رجال الحكومة العثمانيه على بعد من الباب العمومي فركبت حفظها الله مع صاحبتي الدولة الاميرتين كريمتي الحضرة

الفخيمة الخديوية عربة من طراز لاندو يجرها أربع بغال وركبت دولة الاميرة فاطمة هانم أفندي مع بعض القلفوات عربة اخرى من عربات دولة الشريف وباقى القلفوات ركبن فى هوادج يتلوها هودج سعادة ألماس أغا باش أغاي السراي الخديوية وعنايتلو كاظم أغا باش أغاي دولة الوالدة ويتلو ذلك شقادف بعض رجال المعية السنية ثم جمال الحملة وسارت عربة دولة الوالدة يحيط بها فوارس الحرس الخديوي وفى مقدمتهم عسكر الشريف ومن خلفها حرس الدولة والناس على جانبي الطريق بحال لم يسبق لها مثيل ولسان الجميع يلهج بالثناء والدعاء وما زال هذا الموكب على نظامه الجميل حتى خرج من باب جدة الشرقي المسمى باب مكة وبعد ذلك سارت دولة الوالدة مع رجال الحرس الى بحرة حيث استقبلت أحسن استقبال ونزلت فى الدائرة المخصوصة لاقامتها مع حاشيتها وهنالك كنت ترى معسكر الجناب العالى فى نظام لم يسبق له نظير بالمرة والى شرقيه سرادق حضرات انجال الشريف التي مدت فيه ظهر ذلك اليوم مائدة على النظام الافرنكي تسع نحو مائة مدعو لضيافة سمو الامير ومن فى معيته وعلى الخصوص فى العشاء الذى حضره مولانا الخديوى وكان قد أناب عنه فى الغداء دولة البرنس احمد كمال الدين باشا أما النظام والزينة فى هذه المائدة فقد كانا مدهشين جداً لانهما لا ينطبقان بالمرة على حال البداوة فانك كنت تتصور أنك بين جدران البهو الكبير فى نزل الكونتننتال بالقاهرة أثناء مأدبة من المآدب الكبرى ثم كنت تجد الطعام على كثرة صنوفه جمع الى نظافته لذة طعمه وكانت ثريات النور الابيض تتلألأ منتشرة فى ارجاء الصيوان مما كان ينير جو بحرة باجمعها حتى لكأننا فى رابعة النهار . وكان يزيد

فى رواء هذه الحفلة تلك الآداب العالية التى كنت تراها فى انجال سيادة الشريف وبعد العشاء بارح الجناب العالى صيوان الاشراف بين صنوف التبجيل والتكريم فاصطفت مشايخ العربان من اشراف وغيرهم فسلم حفظه الله عليهم شاكراً لهم ضيافتهم وهم شاكرون له تفضله بقبولها .

دخول الجناب العالى الى مكة

وايامه بها قبل عرفة

وبعد تناول العشاء في صيوان أنجال الشريف فى بحرة استراح الجناب العالي قليلا في سرادقه وفى نحو الساعة الحادية عشرة افرنكى مساء امتطى حفظه الله جوادا كريما قاصداً مكة يتبعه دولة البرنس كمال الدين باشا وحضرة السرياور وبعض الحاشية وسار الكل في ركابه حتى اذا وافى جبل الشميسي وجد في انتظار سموه سعادة خيرى باشا مدير الاوقاف الخصوصية وقدم لحضرته العلية عطوفة أمين بك القائم بأعمال ولاية الحجاز ثم سعادة قومندان القوة الشاهانية بها وبعد تبادل التحية ساروا مع سموه حتى وصلوا الى قهوة البستان وهي على بعد ساعتين من مكة وهنا لك كان دولة الشريف حسين باشا أمير مكة المكرمة في جمع من علية بيته واكابر قومه استقبالا لجنابه الفخيم. فاراد الشريف ان يترجل عن جواده احتراما لجنابه العالى فاقسم عليه سموه بان لا يفعل وبعد تبادل التحيات وعبارات التهانى ساروا جميعاً حتى وصلوا الى

الصواوين التى أعدتها الحكومة خارج مكة احتفالا بتقدمه الشريف وكان العلماء والوجهاء والاعيان والتجار فى انتظار قدومه السيد بها فنزل حفظه الله في سرادق مخصص لتشريفه وبعد شرب القهوة قدم له دولة الشريف حضرات أعضاء بلدية البلد الحرام وفي مقدمتهم الشيخ الشيبي ثم حضرات قاضي مكة ومفتيها ونائب الحرم والسيد عبد الله الزواوى رئيس قومسيون عين زبيدة وقومسيون المعارف وغيرهم من العلماء والاشراف والاعيان فابدى سموه لهم شكرانه وعظيم امتنانه ثم امتطى جواده قاصداً مكة وسار بمن كان معه من وسط جنود القوة الشاهانية المقيمة بها وكانت قد اصطفت على جانبي الطريق الى (ثكنة) قشلاق الحميدية لاداء واجب التعظيم وأمامها حضرات قومندانها وضباطها بالتشريفة الكبرى فصدحت الموسيقي بالسلام الخديوى.

ودخل مكة حفظه الله من باب جرول حيث كان حرس المحمل واقفا لاداء واجب السلام وسار في طريق الشبيكة والناس على جانبيه كأنهم البنيان المرصوص والكل يبتهل الى الله بحفظ هذه الذات السنية ثم مرّ امام التكية المصرية ودار الحكومة الحجازية ودار البلدية وكانت كلها مزينة بأحسن زينة ووصل الى باب الحرم الشريف فجرَ يوم الخميس ثالث ذى الحجة وصلى الصبح مع الامام المالكى ثم طاف طواف القدوم وخرج الى السعي حيث أصطفت الحجاج على اختلاف اجناسهم وفي مقدمتهم الحجاج المصريون على طول المسعى وكان كلما مرّ عليهم ساعياً لله ارتفعت اصواتهم مكبرين مبتهلين وافئدتهم ترفع الدعاء الى رب الارض والسماء بحفظ هذه الذات العباسية المحروسة واعينهم تذرف دموع الفرح لمشاهدة أنوار مليكهم المحبوب الذى

استولى بعدله وفضله ورحمته ونعمته على القلوب. فيالها من ساعة كنت ترى فيها هذا المليك الفخيم ولا عرش يقله. ولا تاج يظله. قد تجرد عن فخامة الملك بل عن مظاهر الدنيا باجمعها وسعى بين يدي الله سبعة اشواط كانت قلوب الناس في اثنائها تسعى بين يديه الكريمتين. يالها من ساعة ما كنت تسمع فيها الا زغردة النساء وآي الدعاء ومظاهرة الرعية الصادقة بالاخلاص والولاء حتى كانما الكل أهل بيت واحد خرجوا لاستقبال والدهم وسيدهم وعائلهم وولي نعمتهم بعد غياب طويل. واحسن ما يذكر في هذا المقام أنه قدم الى سموه جواد ليسعى عليه وكان سيادة الشريف قد أشار عليه بالسعي راكباً لعدم المحظور شرعا خصوصاً وهو فى تعبه الشديد بعد هذا السفر الطويل فامتنع سموه قائلا « ما عليّ لو غبرت قدمي ساعة في سبيل الله »

وبعد السعي قصد حفظه الله دار الامارة في سوق الليل وكانت قد أعدت لاقامته مدة وجوده بمكة. وكان دولة الشريف قد استأذن جنابه العالى عند دخوله الحرم الشريف وسبق اليها استعداداً لمقدمه السعيد ولما وصل الركاب العالى كان دولته فى انتظاره على باب السراي العامرة فرحب به ترحيباً يليق بمقام الزائر وكرم المزور. وصعد مع سموه الى قاعة الاستقبال الكبرى وبعد تكرار ايات التهاني انصرف دولته مودعا بكل شكر واحترام.

وهذه السراي كان قد بناها الحاج محمد على باشا والى مصر فى سنة ١٢٢٨ لتكون داراً لحكومة الحجاز ولما ترك ولاتها جعلت مقرا لأمارة مكة الى الآن لذلك لم ير دولة الشريف اجمل مناسبة يجدد بها الذكرى الطيبة لجد هذه العائلة الكريمة الفخيمة الا تقديم أثر من آثار نابغة القرن الثالث عشر الهجرى

الي حفيده الجليل ليقرأ في عظمة اروقته بعض آيات آبائه الاكرمين . وفي هذا اشارة لطيفة الى عدم نسيان دولة الشريف ما كان لمحمد علي باشا على عائلته الكريمة من اليد البيضاء لانه هو الذي عين في امارة مكة جدهم محمد بن عون سنة ١٢٢٩ ومن ثمّ وهي في أيدي بنيه الى اليوم .

وما طلعت شمس هذا النهار المبارك حتى اطلقت المدافع من قلاع مكة ترحيباً بمقدم الجناب الخديوي وبعد الظهر تبادل سموه الزيارة مع سيادة الشريف ثم تشرف عطوفة القائم بأعمال الولاية بزيارة جنابه العالي وفي الساعة الرابعة بعد الغروب نزل حفظه الله للطواف ببيت الله المعظم .

أما دولة الوالدة فانها حفظها الله ركبت من بحرة بمعيتها في فجر اليوم المذكور ووصلت الى مكة قبيل الغروب ودخلتها في موكب من أفخر ما رأى الراءون وسمع السامعون بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقات وهتاف الجموع المحتشدة على الطريق وما زال موكبها الجليل سائراً حتى وقف أمام باب الصفا حيث نزلت دولتها الى دار باناجا باشا التي كانت اعدت لاقامتها فيها مدة وجودها بهذا البلد الأمين (١)

وبعد هزيع من الليل طافت دولتها طواف القدوم ثم سعت في عربتها مع صاحبات الدولة والعصمة الاميرات الفخيمات .

وما بزغت شمس يوم الجمعة رابع ذي الحجة حتى أخذت الآلاف من الناس يفدون على باب الدار الخديوية: هذا رافع يده للدعاء وذلك باسط كفه

(١) وهذه الدار أيضاً من آثار محمد علي باشا كان قد ابتناها واليه على الحجاز المرحوم أحمد باشا يكن

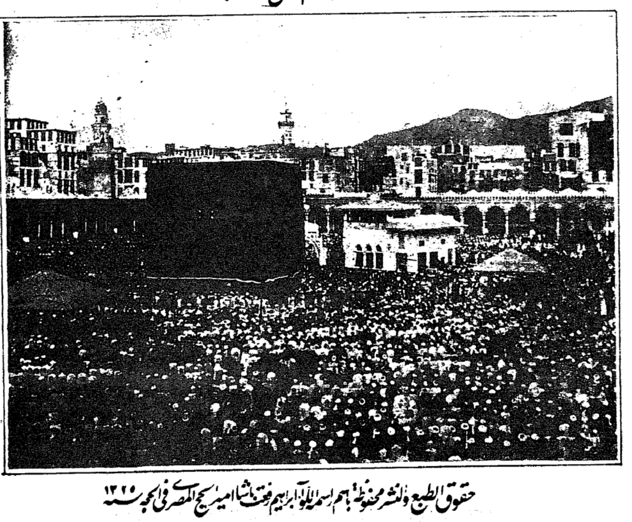
للعطاء . وتسابق كبار المصريين لكتابة أسمائهم فى سجل التشريفات قياما بواجب تحية القدوم . وفي ضحوة النهار ركب سموه قاصداً دار الولاية لرد الزيارة الى عطوفة القائم باعمالها فاستقبل سموه بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاحترام وكانت فرقة من الجنود الشاهانية مصطفة على جانبي الطريق الى بابها فلما وصل ركابه العالى عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى فأسرع عطوفة القائمقام الذى كان ينتظر على بابها مرحباً بتقدم سموه ثم استصحب جنابه العالى الى قاعة الاستقبال شاكراً له تفضله بهذه الزيارة وبعد شرب القهوة قدم لسموه حضرات العلماء والمأمورين الملكيين والعسكريين وحضرات أعضاء المجلس البلدى والاعيان والتجار الذين حضروا استعداداً للتشرف باستقبال جنابه العالى وكانت الموسيقى الشاهانية طول هذه المدة تطرب الحاضرين بنغماتها الشجية ثم انصرف برعاية الله مودعا بكل حفاوة واعظام لزيارة التكية المصرية فاستقبل بما يليق بمقامه العالى وتفقد محالها ومخازنها ومطبخها وتنازل حفظه الله فأكل من خبزها وبعد أن أعطى التنبيهات اللازمة بزيادة العناية بأمر الفقراء وشدة الاهتمام بهم رجع الى دار الامارة وزار دولة الشريف.

ولما قرب وقت الظهر قصد حفظه الله الحرم الشريف لصلاة الجمعة وقد اعدت له القبة التي في أعلى بئر زمزم ففرشت باصناف السجاجيد العجمية والبسط الفاخرة وكنت فيمن سبق اليها لشرف القيام بخدمة استقباله بها فدخل سموه من باب الصفا يحف به عدد عظيم من الاشراف وبعض ضباط الحرس الخديوى فزغردت النساء اللاتي كن في محلهن من المسجد على يمين الباب فرحا بتقدمه السعيد وهنالك علت الأصوات من ارجاء

المسجد بالتكبير والتهليل بما لم يسبق له مثيل : ثم علت الاصوات الى رب السموات الذى عظم شأنه وتجلى سلطانه وظهرت ربوبيته هنا باكمل مظاهرها. فاذا قلت أن العالم كله ملكه قلنا ولكن مكة عاصمته ومظهر سلطانه وجبروته والكعبة بيته ومكان عظموته ورحموته. وأى مكان في أطراف المسكونة لا يبلغ مسطحه ثمانية عشر الف متر مربع مع أنه يحتشد اليه زمن الحج في وقت واحد نحو نصف مليون من النفوس والكل يدعو الله بقلب واحد ولسان واحد وهم وان اختلفت جنسياتهم وتباينت لغاتهم يتوجهون الى قبلة واحدة ويتحركون في صلاتهم بحركة واحدة وهم لا يرجون غير رحمة الله الواحد الاحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

فلما صعد الخطيب المنبر صعد معه أحد الأغوات وجلس على الدرجة التى تلى قدميه وهذا بلا شك عادة قديمة كانت للمحافظة على الخطيب أثناء اشتغاله بالقاء الخطبة حتى لا تتسرب اليه يد أثيمة (واظن انهم استغنوا عن ذلك فيما بعد بعمل ابواب للمنابر خصوصاً وقد صارت الخطبة لغير الامراء والرؤساء) وعقب هذه الخطبة التى لم تخرج عن مثيلاتها في دواوين الخطب البسيطة انعم الجناب العالى على الخطيب بخلعة سنية البسه اياها سعادة حسين محرم باشا ثم صلى الخطيب بالناس تحت جدار الكعبة المكرمة بين المعجن وبابها الشريف وكانت السماء في أثناء الخطبة قد تلبدت بالغيوم ثم فاضت بغيثها المدرار اثناء الصلاة فلم يتزحزح الناس عن مراكزهم واستبشر جميع الخلق بهذه الرحمة التى كانت قد انقطعت عن بلاد الحجاز من ست سنوات طوال . وكان هذا أحسن فأل لحج الجناب العالي الخديوى وبعد

صلاة الجمعة بالحرم المكي في الحجة سنة ١٣٢٥



الصلاة خرج حفظه الله من باب الصفا بين صفوف الحرس الخديوى الذى حال بين سموه وبين أولئك الألوف المتزاحمة لمشاهدة محياه الشريف وألسنتهم تلهج بالدعاء له وخصوصاً أهل جزيرة العرب الذين فرحوا بهذا الغيث الذى أكرم الله به وفادة ضيفه الكبير .

وفى صباح يوم السبت خامس ذى الحجة قصد حفظه الله زيارة الاماكن المباركة في ركب من حاشيته ملكيين وعسكريين فذهب الى المعلاة (المعلى) وهي مقبرة مكة خارج بابها الشرقى فابتدأ بزيارة ضريح السيدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهو داخل قبة تجددت في سنة ١٢٩٨ وفى القبة مقصورة من خشب الجوز أقيمت على قبرها الشريف والى جانبها مقصورة صغيرة مدفون فيها ستة عشر شخصاً من الاشراف . وخارج هذه القبة الى الغرب قبر السيدة الكبيرة حرم ساكن الجنان محمد على باشا وكانت قد أتت الى الحج سنة ١٢٦٦ فماتت ودفنت بهذا المكان . وقباله قبة السيدة خديجة الى الجنوب قبة السيدة آمنة [1] بنت وهب والدة الرسول عليه الصلاة والسلام وبجوارها مقصورة دفن فيها الشريف محمد بن عون وفي شمالها قبة أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وبجوارها قبة جده عبدالمطلب وكلتاهما

(١) ذكر ياقوت في معجمه ان آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم دفنت بالابواء وهى قرية من اعمال الفرع من المدينة بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا والسبب في دفنها هناك أن عبد الله والد الرسول كان خرج الى المدينة فمات ودفن بها وكانت في كل عام تخرج الي المدينة لزيارة قبره ولما أتى على رسول الله صلى الله عليه ست سنين خرجت زائرة له ومعها عبد المطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صارت بالابواء منصرفة الى مكة ماتت ودفنت بها.

تجددنا في سنة ١٣٢٥ وفي هذه القرافة قبر سيدنا عبد الله بن الزبير رضى الله عنه وكانت له قبة هدمها الشريف عون الرفيق فيما هدم ولم تشيد بعد وفيها قبر أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين وكان قد حضر الى مكة حاجا في سنة ١٥٨ فكبابه فرسه في الحجون فوقع واندقت عنقه فمات لوقته ودفن بالمعلى ولا يعرف مكانه. وفيها غير ذلك كثير من قبور الصحابة والتابعين والصالحين.

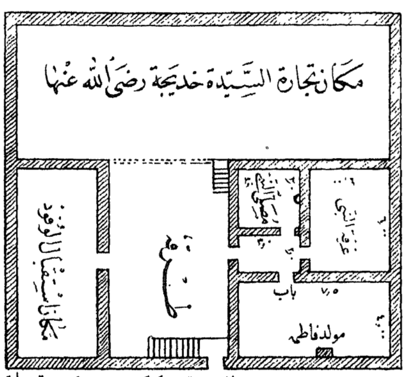
وعند انصراف الجناب العالى حفظه الله من المعلاة أمر فوزعت الصدقات على من كان هناك من جيوش الفقراء والمعوزين ثم امتطى جواده وصعد بحاشيته الى طريق الحجون فمر على الساخانة وقصدجرول لزيارة المحمل المصرى فاستقبل استقبالا فخما وقدم لسموه أمير الحاج جميع ضباط ومستخدمي المحمل فتشرفوا بلثم راحته الكريمة وبعد ان أوصاهم حفظه الله بزيادة العناية بواجباتهم في هذه البلاد المقدسة اعتلى صهوة جواده وسار تحيطه المهابة وتلازمه الكرامة الى مولد سيدنا على كرم الله وجهه ثم الى مولد النبي صلى الله عليه وسلم: وهو عبارة عن مكان قد ارتفع الطريق عنه بنحو متر ونصف وينزل اليه بواسطة سلم من الحجر يوصل الى باب يفتح الى الشمال يدخل منه الي فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر متراً في عرض ستة وفي جداره الايمن (الغربي) باب يدخل منه الى قبة في وسطها (بميل الى الحائط الغربي) مقصورة من الخشب داخلها رخامة قد تقعر جوفها لتميين مولد السيد الرسول عليه الصلاة والسلام وهذه القبة والفناء الذى خارجها لا يزيد مسطحهما عن ثمانين متراً مربعاً وهما يكونان الدار التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب هذه الدار لعقيل بن أبي طالب فباعها ولده لمحمد

ابن يوسف الثقفي (أخي الحجاج) فلما بني داره المشهورة بدار ابن يوسف وكانت بجوارها ادخلها فيها حتى اشترتها الخيزران أم الرشيد وفصلتها وبنتها على ما كانت عليه وجعلتها مسجداً وهي باقية كذلك الى يومنا هذا . ثم قصد حفظه الله زيارة مولد السيدة فاطمة فى درب الحجر وهو دار خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها ولدت جميع أولادها منه وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم كان يعمل في تجارتها الى الشام ثم اختارته لنفسها لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الصفات وصفات الكمال فتزوجها فى سنة ٢٨ قبل الهجرة أعنى قبل بعثته بخمس عشرة سنة وماتت بمكة رضى الله عنها قبل الهجرة باربع سنين وهي في الرابعة والستين من عمرها .

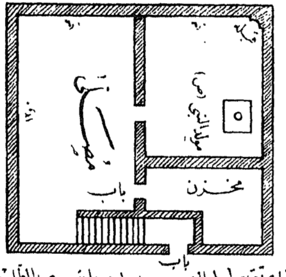
وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق أيضاً فينزل اليها بجملة درجات توصل الى طرقة على يسارها شبه مصطبة مرتفعة عن الارض بنحو ثلاثين سنتمتراً وهي عبارة عن عشرة أمتار طولا في أربعة عرضاً وفيها كتاب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف وعلى يمينها باب صغير يصعد اليه بدرجتين يدخل منه الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين وفيها ثلاثة أبواب : الذى على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولا في أقل منها عرضاً وهذا المكان كان معداً لعبادته صلى الله عليه وسلم وفيه كان ينزل الوحي عليه وعلى يمين الداخل اليه مكان منخفض عن الأرض يقولون أنه كان محل وضوئه عليه الصلاة والسلام. والباب الذى في قبالة الداخل الى الطرقة فيه مكان واسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار في عرض أربعة وهو المكان الذى كان يسكنه صلى الله عليه وسلم مع زوجه خديجة رضي الله عنها أما الباب الذى على اليمين فيوصل الى

غرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار في طول نحو سبعة أمتار ونصف وفي وسطها مقصورة صغيرة اقيمت على المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة رضي الله عنها وفي جدار هذه الغرفة الشرقي رف موضوع عليه قطعة من رحى قديمة يدّعون أنها من رحى السيدة فاطمة. وعلى طول هذا المسكن والطرقة الخارجة والمصطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر متراً وعرضه نحو سبعة أمتار وأظن أنه المكان الذى كانت السيدة خديجة تخزن فيه تجارتها.

وهذه الدار التي كانت مقراً له صلى الله عليه وسلم ومحل اقامته في مكة ومبعثه الى الخلق كافة اذا انعمت بها نظرك وامعنت فيها فكرك لا تراها الا البساطة بنفسها: دار تحتوى على أربع غرف ثلاث داخلية منها واحدة لبناته والثانية له ولزوجه والثالثة له ولربه والرابعة يتنزل عنها له ولعموم الناس. يالله ماهذا الترتيب الجميل وما هذا النظام البديع؟ بل ماهذه الآداب الكبرى والكمالات الحيوية العظمى التى صيغت في شكل هذه البساطة المتناهية؟ تأمل قليلا تر أن هذا النظام هو بذاته ما قضت به المدنية العصرية لولا أنه فيها يعمل بشكل تعددت صفاته وكثرت حاجياته. هذه هي دار السيد الرسول الذي ارسل للناس كافة. ثم هذا هو منزل هذا النبي الامي وذلك هو نظامه في بيته ذلك النظام الذي وان كان مجرداً من مظاهر العظمة والفخامة قد اكتسى بحلي الجلال والكمال. اللهم انى آمنت بك وبرسولك هذا الذي لم يتخذ دينك وسيلة الى عيش الأغنياء وحياة العظماء بل كان حسبه من عيشه ما كان يقوم بحياته التي انما كانت كلها خيراً وبركة ويمنا وسعادة للناس أجمعين.



رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



رسم نظري تقريبي لمولد النبي (ص) او دار عبد الله بن عبد المطلب (بمكة)

BOEHME & ANDERER, CAIRO

فلما هاجر صلى الله عليه وسلم الى المدينة استولى عليها عقيل بن أبي طالب ثم اشتراها منه معاوية بن أبي سفيان فجعلها مسجداً وعمرت في زمن الناصر العباسي : وقد وضع في حائط الطرقة على يسار الداخل لوح من الرخام مكتوب عليه بالحروف البارزة (بسم الله الرحمن الرحيم) أمر بعمارة مربد مولد الزهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وعلى آله وسلم سيدنا ومولانا الامام المفترض للطاعة على الخلق أجمعين الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره وجمل منافعه ومشتغلاته وأجره عائداً على مصالحه ثم على مصالح هذا المقام الشريف المقدس الطاهر النبوى على ما يرى الناظر المتولي له في ذلك من الحظ الوافر والمصلحة لهذا المربد والمولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى وطلباً لثواب الدار الآخرة تقبل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين وذلك على يد العبد الفقير الى الله رحمه الله تعالى على بن أبي البركات الذوراني الانباري في سنة أربع وستمائة ومن غير ذلك أو بدله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين الى يوم الدين آمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين . ثم عمره بعد ذلك الأشرف شعبان ملك مصر ثم الملك المظفر صاحب اليمن ثم السلطان سليمان في سنة ٩٣٥

وبعد ذلك قصد الجناب الخديوى زيارة دار الأرقم المخزومى المشهورة بدار الخيزران وهي في زقاق على يسار الصاعد الى الصفا وهي الدار التى كان يختبئ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر بعثه هو ومن آمن معه وكانوا يصلون بها سراً حتى أسلم عمر رضى الله عنه فتقويت به عصبيتهم وجهروا

بالاسلام والصلاة. وباب هذه الدار يفتح الى الشرق ويدخل منه الى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة وعلى يسارها ليوان مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار وفي وسط الحائط التي على يمينها باب يدخل منه الى غرفة طولها ثمانية أمتار في عرض نحو نصف ذلك مفروشة بالحصير وفي زاويتها الشرقية الجنوبية حجران من الصوان موضوعان فوق بعضهما مكتوب في أعلاهما بالحرف البارز (بسم الله الرحمن الرحيم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الاسلام أمر بتجديده الفقير الى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين) ومكتوب في الثاني (بسم الله الرحمن الرحيم هذا مختبأ رسول الله صلى عليه وسلم المعروف بدار الخيزران أمر بعمله وانشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الاسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الاصفهاني وزير الشام والموصل الطالب الوصول الى الله تعالى الراجي لرحمته أطال الله في الطاعة بقاه وأناله في الدارين مناه في سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وبعد ظهر هذا اليوم استقبل الجناب العالي كثيراً من الزائرين من علماء وأعيان مكة ومن بينهم أعضاء قومسيون عين زبيدة وفي مقدمتهم حضرة رئيسه السيد عبد الله الزواوى وفي الساعة الخامسة العربية بعد الغروب من اليوم المذكور قصد زيارة بيت الله الحرام ففتح بابه ووضع اليه المدرج المنبرى وأوقد ما فيه من الشموع حتى صار كأنه قطعة من نور على نور . فصعد حفظه الله على المدرج يتبعه دولة الأمير كمال الدين باشا فرجال حاشيته

عسكريين وملكيين وهنالك صلى ركعتين لله تعالى في القبلة التي في مقابلة الباب (وكانت مصلى النبي صلى الله عليه وسلم) ثم اتجه الى الجدار الشمالي فصلى ركعتين أيضاً ثم الى الجدار الشرقي فصلى مثلهما وكان الجميع يصلي كذلك والكل في غاية ما يمكن من الخشوع تلقاء هذا الملكوت الاعظم والرهبوت الافخم اللذين تصغر أمامهما النفوس الكبيرة حتى يكاد يتصل وجودها بالعدم. ولولا ما كنا نشاهده من تحرك الجسوم في هيئة الصلاة ورفع الايدى بالدعوات واضطراب الشفاه بالتضرعات وما كنا نسمعه من دقات القلوب أمام هذه العظمة الكبرى لحسبنا أنفسنا في حياة غير هذه الحياة: وفى الحقيقة فقد كنا في هذه الساعة فى عالم آخر نعم. كنا في بيت الله وفى حضرة الله من غير ما واسطة وليس فينا الا رأس يخضع ولسان يضرع ودعوات ترفع وعيون تدمع وقلب يهلع واخلاص يشفع. وبعد أن أقمنا على هذه الحال ساعة خرجنا وقلوبنا تقبض أقدامنا عن السعي لحيظات تزيد في تمتع النفس بهذه التجليات العظمى وعاطفة الأدب تدفعها بموجبات الاحترام والاحتشام . وبعد نزولنا من الكعبة المشرفة طاف حفظه الله حول البيت ثم زار مقام الخليل ابراهيم ثم عاد الى مقامه شاكراً لله على توفيقه لزيارة بيته الكريم .

وقضى جنابه العالى يوم الاحد فى استقبال كثير من الناس على اختلاف اجناسهم وفى المساء أولم وليمة فاخرة لسيادة الشريف واصحاب السعادة انجاله الكرام ووكيل الولاية ونحو عشرين من علية القوم والاشراف وكبار المأمورين وحضرات القاضي والمفتي وشيخ الحرم ومديره وقومندان العساكر الشاهانية ورجال المعية السنية وبعد العشاء انتقلوا الى البهو الكبير وكان حفظه الله

يؤانسهم بلطفه ومكارم اخلاقه وبعد شرب القهوة قام عطوفة امين بك افندى وكيل الولاية والقائم باعمالها وارتجل خطابة غاية في البلاغة جمعت الي جزالة اللفظ رقة المعنى. ومما جاء فيها بعد ترحيبه بقدم الجناب العالى الى هذه الديار المقدسة انه . منذ وجوده فى مركز الولاية وهو يدرس بكل اعجاب وافتخار اعمال المرحوم محمد على باشا في ولاية الحجاز وما عمله فيها من ترتيب ونظام وما حبس على أهلها من الاوقاف الواسعة وما ربط لهم من المرتبات الجسيمة التي لا تزال ترسل اليهم من حكومة مصر سنويا فينال منها الكبير والصغير وتساعد على حياة كل بائس فقير . وبعد ما انتهي ذلك الخطيب من خطابه البليغ شكر له الجناب العالى فصاحته ولطفه وأدبه ثم أخذوا في السمر الى منتصف الليل وانفض عقد الجمع وكلهم ألسنة شكر للجناب العالى على عظيم كرمه وحسن لقائه وجميل ملاطفته وواسع معرفته وكبير آدابه وقضى حفظه الله يوم الاثنين سابع الحجة فى استقبال كثير من الزوار وقد تزاور سموه مع دولة الشريف وفي المساء طاف بالكعبة المعظمة وأمر حفظه الله بالاستعداد الي الخروج لعرفه.



الطريق القديم والحديث

من مصر الى الحرمين

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين الى حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام في نصف الكرة الارضية الغربية باعتبار أن مكة المكرمة هي قلب العالم أو النقطة المركزية التي تنبعث منها أنصاف أقطار الى محيط جميع دائرة الاقطار: فالاندلسي الذى كان يسكن في غرب أوربا والمغربي الذى فى غرب أفريقا وما دونه من مسلمي البربر فالسنغال فبلاد التكرور والسودان الغربى والشرقى كانوا اذا قصدوا الحج الى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم الى مصر بحرا اوبرا وكذلك كان يقصدها كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز وجزائر البحر الابيض المتوسط ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان ثم يسيرون منها الى قوص برا أو في النيل (٦٤٠ كيلومتر) في نحو عشرين يوماً ثم تسافر قوافلهم منها في صحراء عيذاب مدة ١٥ يوماً يقطعون فيها نحو ١٢٠ كيلو مترا الى القصير على البحر الاحمر وكانت من قديم مينا مصر الشرقية أى انها كانت من مصر بالامس مكان مينا السويس الآن .وكانت هذه القرية في أيدى عرب البجاه(١) الذين كانوا يتولون نقل الحجاج على ابلهم في صحراء عيذاب وكانت

---

(١) قبائل البجاه أو البجه يقال أنهم من البربر وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقيه من سواكن الي قرية يقال لهـا الخزبه في صحراء قوص وهذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد وفيها مغائر وآبار قديمة لاستخراجها وهي طبعاً من عهد قدماء المصريين وبعضها من عمل محمد علي باشا والي مصر وكانت العرب تستخرج منها المعادن وخصوصاً التبر في القرن الاول والثاني للهجرة وذلك باتفاق مع ملك البجه الذى كان مقره اسوان وكان ينال المسلمين منه ومن قومه أذى كبير فأرسل المأمون اليه عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون ؟ بينهم كتابا نذكر لك طرفا منه لتعرف مقدار التسامح الاسلامي مع أهل الذمة وكيف أنه كان لا يفرق بينهم

أخلاقهم على غاية من الفظاعة لا شفقة فيهم ولا رحمة وربما بلغ بهم الامر الى تغيير طريق الماء على القافلة لغرض شنيع وهو أن ركابها يموتون عطشاً فيستولون على ما معهم من متاع. وفي هذه الصحراء قبر العارف بالله أبي الحسن الشاذلي قرب مكان يقال له أمتان توفي فيه سنة ٦٥٦ في طريقه الى الحجاز ودفن به. وكان الحجاج يقيمون في عيذاب نحو شهر من الزمان في انتظار الفلايك التي تحملهم الى جدة ويسمونها جلابا (واحدتها جلبه). وهي سفن صغيرة غير محكمة الصنع وشراعها في الغالب من الحصير وكان أصحابها يتعسفون بالحجاج فيشحنون المركب بأكثر من حمولتها وكثيرا ما كانت تغرق في وسط البحر بمن عليها من الحجيج الذين يذهبون ضحية مطامع اولئك الاشرار ومن وصل به طول عمره الى جدة وصلها في نحو اسبوعين يتقلب في أثنائها بين تحكم الملاح وتبرم

وبين المسلمين في المعاملة :

هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولي أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الامير أبي اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيع الاول سنة ست عشرة ومائتين لكنون بن عبد العزيز عظيم البجه باسوان. انك سألتني وطلبت الي أن اؤمنك وأهل بلدك من البجه وأعقد لك ولهم أمانا علي وعلى جميع المسلمين فأجبتك الى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد اسوان من أرض مصر الي حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين اعزه الله تعالي وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لامير المؤمنين الا أنك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه في البجه، وعلى ان تؤدي اليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجه وذلك مائة من الابل أو ثلثمائة دينار وازنه داخلة في بيت المال والخيار في ذلك لامير المؤمنين ولولاته وليس لك أن تخرم شيئاً عليك من الخراج، وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به أو قتل أحدا من المسلمين حراً أو عبداً فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم، وعلى أن أحداً منكم ان أعان المحاربين على اهل الاسلام بمال أو دل على عورة من

الرياح وانزعاج الماء واضطراب الهواء .ولقد حج من هذا الطريق في سنة ٥٧٩ ابن جبير الاندلسي فقطع المسافة بين القاهرة وجدة في نحو شهرين ونصف قضاها في أسوأ حال بين مشقات وأهوال مما هو مبين في رحلته وفي سنة ٧٢٥ سافر ابن بطوطة من مصر الى القصير ولكنه لم يجد فيها مركبًا تحمله الى جدة مع من قصدها من الحجاج لان السفن التى كانت بميناها احرقت فى واقعة حصلت هناك بين الترك وعرب البجاه فعاد منها الى مصر ومنها الى بلاد الشام ثم الى بغداد وسافر منها مع المحمل العراقى فى السنة التالية. وطريق القصير قديم جدا فتحه بين قفط والقصير رمسيس الثالث فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد لتداول التجارة بين مصر و بلاد اليمن والهند والعرب الذين كانوا كثيرا ما يهاجرون منها الى مصر طلبًا للتجارة أو للعيش فيها .وفى زمن بطليموس فيلادلفوس أى فى سنة ٣٢٠ قبل المسيح أخذت هذه الطريق أهمية عظمى وصارت المينا الوحيدة التى تصل تجارة البحر الابيض المتوسط بالمحيط الهندي

عورات المسلمين او أثر لغرتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه، وعلى أن أحداً منكم ان قتل أحداً من المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأ حراً او عبداً أو أحداً من أهل ذمة المسلمين أو اصاب لاحد من المسلمين أو اهل ذمتهم ما لا ببلد البجة أو ببلاد الاسلام أو بلاد النوبة أو فى شئ من البلدان براً او بحراً فعليه في قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد المسلم عشر قيم وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم وفي كل مال اصبتموه للمسلمين واهل الذمة عشرة أضعافه وان دخل أحد من المسلمين بلاد البجه تاجراً أو مقيما أو مجتازاً او حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم، ولا تؤووا احداً من آبق المسلمين فان اتاكم آت فعليكم ان تردوه الى المسلمين، وعلى ان تردوا اموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم فى ذلك، وعلى انكم ان نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة او مجتازين لا تظهرون سلاحا ولا تدخلون المدائن والقرى بحال ولا تمنعوا احداً من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها براً ولا بحراً ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا اهل الذمة ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالا وعلى أن لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضاً فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة الخ وباقى الكتاب لايخرج عن هذا المعنى.

و بالعكس وهو الذي حفر أغلب الآبار التى في هذا الطريق و بني على طولها مخازن للتجارة ورتب لها الخفر اللازم لحراستها وهو الذى بنى مدينة يرنيس (عيذاب) على اسم والدته وكانت توجد في جنوب القصير وما زالت هذه الطريق هي الطريق الوحيدة للحاج المصرى من القرن الاول الي سنة ٦٤٥ التى سافرت فيها شجرة الدر مع قافلة الحاج الى مكة لاول مرة عن طريق البر على العقبة. وفى سنة ٦٦٠ أخذ هذا الطريق الاخير أهميته حيث سير الظاهر بيبرس البندقدارى قافلة الحاج منها وارسل معها الكسوة التى عملها للكعبة والمفتاح الذى أمر بصنعه لبابها الشريف ومن ثم اخذ يقل ذهاب الحجاج عن طريق القصير ولكنها استمرت طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب وكان يسكن فى المدينة (عيذاب) حاكمان حاكم بدرى من طرف شيخ قبائل الباجه وآخر تابع لحاكم مصر وكانا يأخذان عوائد مرور عشرة جنيهات عن كل حاج مغربى وسبعة علي الحجاج الآخرين وكانا يقتسمان كل ما يتحصل منها مناصفة ! ! واستمرت هذه المكوس حتى أبطلها صلاح الدين الايوبى فى سنة ٥٩٠ زمن الشريف مكثر ابن عيسى ورتب له شيئاً عوضاً عنها ثم اعادها الاشراف من بعده على الداخلين من الحجاج الي مكة حتى الزم الملك الناصر الشريف عطيفة ابن أبى نمى سنة ٧٢١ بابطالها فى نظير ما رتبه اليه من القمح الذى كان يحمل اليه فى مكة كل سنة .وقد اهتم محمد علي باشا بهذا الطريق وسهله للتجارة وعمر آباره و بني فيه البئر المشهورة الي الآن بئر الانكليز (ماؤها ملح) و ينزل اليها بثلمائة سلم وكانت محطاتها قفط — بئر عنبر اللقيطة — الوكاله — العنبجه (وماؤها مر) — القصير.

ويظهر أن طريق القصير ما زالت مستعملة للتجارة حتى عملت السكة الحديدية من القاهرة الى السويس زمن سعيد باشا عوضاً عن العربات التى كان سيرها محمد علي باشا سنة ١٨٤٥ بواسطة الخيل فى طريق الصحراء لحمل السياح من القاهرة اليها . وكان لها ديوان مخصوص يسمى ديوان المرور على يسار الداخل الي الموسكي وهو معروف الآن بسوق الخضار القديم ومع كل فقد استمرت القصير مينا بين مصر العليا والحجاز تنقل منها الحبوب الي جده و ينقلون من هذه اليها السجاد والفلفل والبن

والسنا المكي وكانت لها سوق كبيرة فى قنا الي ان حفر قنال السويس وكثر سير المراكب البخارية في البحر الاحمر. وكان يسافر بعض الحجاج من السويس الي جدة بواسطة المراكب الشراعية فيقطعون مسافتها فى نحو عشرين يوما ولكن غالبهم كان يسير مع قافلة المحمل عن طريق العقبة أو مع غيرها من القوافل التى كانت تقوم بها عربان مصر من أولاد علي وغيرهم فيصل الي مكة فى نحو خمسين يوماً . وأول من رتب ركب الحاج على هذا الطريق وعقبه عند رحيلهم من البركة الامير جمال الدين الاستادار عندما سافر ولده شهاب الدين أميرا للمحمل سنة ٨٠٩ فاذا وصل الركب الى عجرود (وهي محطة قبيل السويس) يأمر الامير بكتابة اكابر الحاج وبرتيبهم كلا فى مكان معين من القافلة بجماله وذويه وخدمه ثم يجمع الركب من الطليعة الى الساقة ويضبط اطرافه ونواحيه بجماعة من العسكر وكان يسير اصحاب الحمول والاموال فى وسط الركب.

وطريق البر شاق جدا وخصوصاً فى المنطقة التى بين السويس والعقبة وهي لا تقل عن ثلثمائة كيلو مترا كلها أرض رملية ناعمة تسوخ فيها اخفاف الجمال قبل اقدام الرجال ولا يهتدون فيها الي الطريق الا بواسطة نواطير اقيمت لهذه الغاية وهي اشبه شئ بطواحين الهواء . وماء هذا الطريق قليل وعناؤه كثير وقد كان فى بعض القرى التى عليه مخازن للميرة والذخيرة ومؤن الجمال وامتعة الحجاج الذين كانوا يرسلونها اليها قبل سفرهم على سبيل الامانة فى نظير اجرة مخصوصة حتى تتوفر عليهم مشقة حملها فى الطريق وكان في هذه القرى فرق من الجند لحراستها . وبالجملة فانا نورد لك اسماء المحطات التى كان يقطعها الحاج فى طريق البر من القاهرة الى مكة ومسافة الركوب اليها بقافلة المحمل وهي اسرع من القوافل الأخرى وذلك لانتظام سيرها واحكام امرها وجودة جمالها :

ساعه من القاهرة

٦ « بركة الحاج

١٤ « الدار البيضاء وبها قصر عباس باشا الاول ويليها الدار الخضراء

١٢ عجرود توجد في الجنوب الغربى من السويس علي مسافة عشرين كيلو مترمنها

ساعه

وىن هناك يرجع المريض والمنقطع والمشيعون

٨ الناطور الاولى والثانى والثالث والارض فى هذه المسافة رملية ناعمه متنقلة من جهة الي أخرى (والناطور هو بناء علي شكل طاحونة عمل لارشاد السفار)

٦ « العلوه

١١ « جنادل حسن (ارضها رمليه)

١٢ « قرية نخل وفيها نخل وشجر وقلعة وخان من عمل الغورى وساقية من عمل الملك الناصر حسن الى جانبها ثلاثة احواض تسع ٣٠٠٠ قربة تملأ فى زمن الحج وكان يرسل اليها اربعه من الثيران من طرف الحكومة فلا تزال تدور فى الساقية لملء الحيضان حتى ترجع مع قوافل الحاج الي مصر

١٢ بئر قريص وسميت أخيرا بئر أم عباس لان والدة عباس باشا الاول اصلحتها (وماؤها عطن)

٧ « العقبة وتصعد اليها بتنحدر من مسافه طويلة من الغرب حتى تصل الي قمتها فاذا اردت أن تنزل الي الجهة الشرقية صرت نازلا صاعدا وصاعدا نازلا في أرض حجرية تارة وأخرى رملية ناعمة وأخرى خشنة أو زلطية الي ان تمر في مضيق لا يسع الا جملا جملا ويسمى قطع لاظ وطريق هذا القطع حلزوني تقريبا اصلحه ابن طولون ثم محمد بن قلاوون ثم عباس باشا الاول ومع ذلك فان المسافر فيه لا بد ان ينزل عن دابته ويسير على قدمه حتى يقطع العقبة فى ست ساعات نزولا وضعفها صعودا ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها ايله (١) وفيها يفصل أمير الحاج جميع المقطوعين الذين لا يمكنهم الاستمرار على السفر لمرضهم

(١) وهي بلدة قديمة جداً وكانت عامرة من زمن مديد وكانت في مدة سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام مينا كبيرة للمراكب التي كانت تفد الي الشام من اليمن والهند

		ساعه
	أو لفقرهم و يعطيهم المؤنة اللازمة من البقسماط و يستأجر لهم سنبوكا و يسيره بهم اما الى مصر أو الى جده وكثيرا ما كانوا يصلونها بعد نزول الناس من عرفه . ومن العقبة يتجه الحاج الى جهة الجنوب حتي يصل الى محطة	
	ظهر حمار وفى طريقه مضيق بين جبلين على البحر لا يسع الا جملاً جملا	٩

وفارس وانقطع بها طريق البر من اليمن الي بطره ولما مات سليمان رجعت الطريق الاولي الي ما كانت عليه في نقل التجارة براً . وكان فيها اسواق كبيرة بل كانت مركزا للتجارة بين مصر و بلاد العرب وفارس والعراق. ولما أتى النبي صلي الله عليه وسلم الى غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة أتاه ابن رؤبة صاحبها وصالحه واعطاه الجزية فكتب له عليه الصلاة والسلام عهداً هذه صورته (بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسوله لتحية ابن رؤبه وأهل أيله اساقفتهم وسائرهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل ان يمنعوا ما يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر .هذا كتاب جهم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة باذن رسول الله صلي الله عليه وسلم. وفي سنة ٥٦٦ كان الافرنج قد استولوا عليها فى الحروب الصليبية فسار اليها من مصر صلاح الدين الايوبى وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال حتي اذا وافى مياهها اصلح مراكبه وانزلها فى البحر وحاصر المدينة براً وبحراً حتي أخذها عنوة وطرد الافرنج منها وهي الآن قرية صغيرة في أيدى عرب الحويطات وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع فيها بعض الجنود لحراستها وعدد سكانها لا يزيد عن مائة نفس وفي هذه القرية نخيل واشجار وماؤها حلو ويزرع فى أرضها الخضراوات . وبين العقبة ومعان نحو مائتي كيلو مترا شرقا والطريق فيها صعبة وتخترق جبال السراة التي يكسوها الجليد طول الشتاء. وبينها وبين بيت المقدس شمالا بغرب نحو ٣٠٠ كيلومتراً في صحراء قليلة المياه طريقها وعر . وبينها وبين السويس نحو ٣٠٠ كيلو متراً.

ساعه

١٤ الى الشرفا (ويسمونها أم العظام)

١٢ » مغاير شعيب (وبها نخل و بساتين ومياه عذبة)

١٤ » عيون القصب (وبها ماء ونخل وشجر سنط وعبل)

١٢ » المويلح وفيها قلعة انشاها السلطان سليم يحرسها بعض الجند ومناخها رطب غير جيد للصحة وسكانها يتجرون فى الفحم الذى يصنعونه من شجر الطرفا وينبت بكثرة فى الوديان المجاورة لها ومنها الى تبوك طريق على مسافة مائة كيلو مترا

١٢ » سلمى (كفافه) وفى طريقها مضيق شق العجوز تسير فيه الجمال جملا جملا وبهذا الوادى شجر الدوم والسنط والطرفا

١٢ » اصطبل عنتر مكان متسع محاط بالجبال وفيه ثلاثة آبار

١٢ الوجه (سيأتى الكلام عليه فى طريق المدينة) ومنه يتشعب الطريق الى العلا شرقا والى ينبع جنوبا والي المدينة المنورة جنوبا بشرق

١٦ » عكره (لاماء فيها)

١٢ » الحنك (لا ماء فيها)

١٤ » الحوراء فيها مضيق تسير فيه الجمال جملا جملا ورمل ارضها ناعم

١٥ » الخضيره وفيها معادن نحاسية وأرضها صلبة

١٠ » ينبع ويدخلها المحمل واكبا باحتفال عظيم وهي ثغر المدينة المنورة على البحر الاحمر (سنتكلم عليها فى طريق المدينة)

١٨ » السقيفة (ماؤها ملح)

١٠ » مستوره (ماؤها حلو)

١٤ » رابغ وهي قرية بينها و بين البحر نصف ساعة وفيها قلعة بها بعض الجند لحراستها وفيها مخازن تحفظ بها مؤن ركب المحمل وذخائره وفيها صهاريج عذبة وهي الميقات لمكة.

ساعه

ومنها تتفرع الطريق الى المدينة ثلاثة افرع : الطريق السلطانى والطريق الفرعي وطريق الغاير .

١٢ « بيرالهندى او القضيمة (و بعضهم يكتبها القديمة) وهى قرية على البحر ماؤها ملح ومنها يتجه الى الجنوب الشرقى.

٦ « خليص .

٨ « عسفان (فيها بئر التفلة ،ماؤها حلو) وفيها ممران على طول نحو كيلو متر لا يسمان الا جملا جملا .

١٥ « وادى فاطمة (وادى مر) أو مر الظهران ومنه الي قبر السيدة ميمونه زوج النبي صلى الله عليه وسلم ثم الي العمرة الجديدة وهى حد الحرم من هذه الجهة واقرب حدوده اليه ولذلك يقصدونها للاعتمار منها وفيها مصلى على يمين الطريق .

٤ مكة المكرمة .

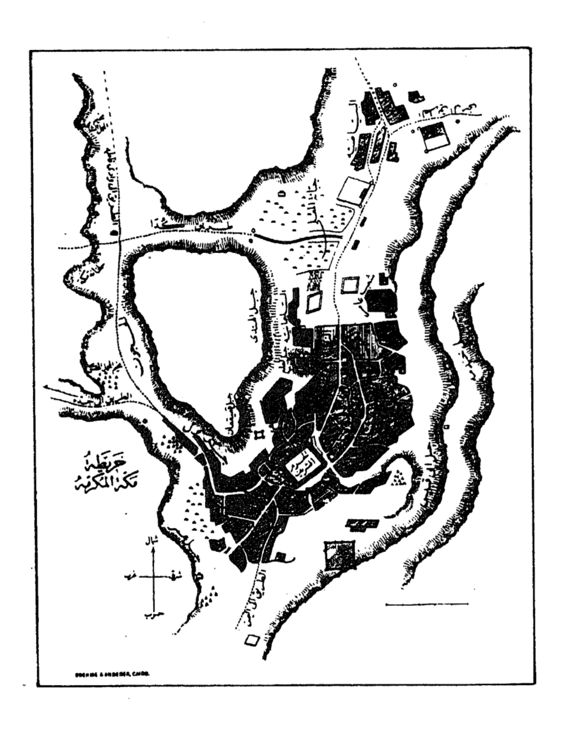
٣٤٧ وعلى حساب ان الجمل يقطع فى الساعة الواحدة اربعة كيلو مترات تكون المسافة من مصر الي مكة من طريق البر ألف ور بمايه كيلو مترا تقريبا كانوا يقطعونها في نحو اربعين يوما . أما الآن فالحاج المصرى يركب السكة الحديديه الى السويس و يبحر منها الي جده بغاية الراحة ومنها الى مكة فيصل اليها فى اقل من أسبوع. ومن الناس من يسافر الى المدينة أولا بطريق السكة الحديد الحجازية وبعد الزيارة يسافر مع القافله الي مكة أو يرجع الى مصر ومنها الى جده.

مكة المكرمة

مكة وتسمى بكة وام القرى مدينة ترتفع عن سطح البحر نحو ٣٣٠ مترا وهي على عرض ٢١ درجة و٣٨ دقيقة وفي طول ٤٠ درجة و٩ دقائق وتصعد عمارتها الى عهد

براهيم وابنه اسماعيل . وكان يعيش بنوه فى الخيام والمضارب حتى عاد قصى بن كلاب من الشام فى القرن الثانى قبل الهجرة فبنى فيها المساكن والبيوت حول الكعبة ومن ثم أخذت تزيد في عمرانها الى الآن وهي عاصمة (قصبة) بلاد الحجاز وفيها محل حكومته التى تنقسم الى قسمين الادارى وهو فى يد الشريف ويسمونه سيد الجميع ،والمالى والعسكرى وهو فى يد الوالى الذى يكون تركيا فى الغالب وعليه فالشريف ينظر فى القضايا الجسيمة ويحكم فيها علي حسب نظامات أربابها ان كانوا من الاهالى أو من الاعراب أما القضايا الصغيرة فيحكم فيها القاضى الذى يعين من قبل السلطان .

وهذه المدينة تمتد من الغرب الى الشرق على مسافة نحو ثلاثة كيلو مترات طولا وما يقرب من نصف ذلك عرضا في واد مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال تكادان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب أعني على أبواب مكة الثلاثة ، ولذا لا تشاهد ابنيتها للقادم عليها الا وهو علي أبوابها. والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج غربا ثم جبل قعيقعان ثم جبل الهندى ثم جبل لعلع ثم جبل كداء بفتح أوله ومد في آخره وهو في اعلى مكة ومن جهته دخل رسول الله البلد حين الفتح .أما الجنوبية فانها تتركب من جبل ابى حديدة غربا يتلوه جبلا كدى (بضم أوله والف لينه في آخره) وكدي (بالتصغير) بانحراف الى الجنوب ثم جبل أبى قبيس الى شرقيهما ثم جبل خندمة .وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم تراها عامرة بالبيوت والمساكن التى تتدرج عليها الى قلب الوادى ويبلغ عددها نحو سبعة آلاف بيت منها الكبير والصغير يحتشد فيها زمن الحج ٢٠٠٠٠٠ الف نفس على الاقل ومساكنها على شبه مساكن جده لاحوش لها الاماكان لعظمائها وكبرائها وأعظم مساكنها فيها يسمونه بالقرارة .ومع ذلك فليس فيها على قدم عهدها وعظم مكانتها من آثار العمارة القديمة شيء يذكر مما هو موجود بكثرة بمصر والشام اللهم الا بيت الشريف ناصر باشا الذى هو في فخامة المنظر وجمال الصناعة العربية بمكان عظيم ويصح أن يكون احسن بيت في مكة .وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة فترى دار ابن عباس في المسعى على يمين السالك الي المروة وفي الشرق الشمالي للحرم آثار دار أبى سفيان المشهورة


خريطة
مكة المكرمة
شمال
شرق
غرب
جنوب

في الجاهلية والاسلام وهي مهدمة لا عناية للقوم بها ولو لاحظوا أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل لها يوم الفتح شأنا كبيرا حيث جعلها حرما محترما كل من دخلها من المشركين كان آمنا لكان المجلس البلدى بمكة اعارها شيئاً من عنايته .

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائلا الى الجهة الجنوبية مما يلي جبل أبى قبيس وفي هذه الجهة دار الخيزران يتلوها شرقا شعب بني هاشم ويسمونه شعب علي ثم شعب المولد ثم شعب بني عامر وفي هذه الجهة كانت مساكن بنى عبد المطلب وفيها الآن كثير من الاشراف أما باقى قريش فكانوا فى الجهة الاخرى من الحرم خصوصاً جهة الشمال ومن دونهم باقى اهالى مكة .

ويتوسط مكة طريق يقطعها من الغرب الى الشرق وهو اكبر شوارعها ويختلف اسمه باختلاف الجهات التى يمر عليها فاذا ابتدأ غربا من جرول يسمى حارة الباب ثم الشبيكة حتى اذا وصل الى الحرم من جهة الشمال سمي الشامية فاذا انعطف الى الجنوب على يمين الحرم سمى السوق الصغير ثم جياد وفيه البوستة والتلغراف والتكية المصرية ودار الحكومة العثمانية ويسمونها بالحميدية. فاذا وصل الى الصفا سمى المسعي ثم القشيشية ثم سوق الليل وهو يوصل الى باب مكة الشرقى أو باب المعلى . أما الشوارع التى فى شمال الحرم فهي الشامية وفيها سوق المدينة والقرارة والنقا والسليمانية والجدرية والبرّاضية . وهذه الطرق تختلف سعتها من مترين الى خمسة عشر مترا وتراها في زمن الحج غاية في الوساخة والقذارة مما يوجب علي المجلس البلدى في مكة ان يعتني بنظافتها خصوصاً فى مدة الموسم مع عدم اهماله أمر النور ليلا خدمة للدين والانسانية . وفي مدة الموسم ترى أهل البلاد لا سيما الاعراب يضعون دائما سدادتين من القطن في فتحتي مناخرهم ويربطونهما بخيط يعلقونه في رقبتهم حتى اذا آنسوا عدم وجود قذارة رفعوهما وهم لو علموا ان هذه السدادة ضررها اكبر من نفعها لابطلوا استعمالها لان وظيفة الخياشيم انما هي تنقية الهواء من الادران فتسوقه الى الرئتين نقياً أما اذا دخل الهواء الفاسد الى الرئتين من طريق الفم فانه يدخل اليهما بما فيه من المادة الترابية فيتصل معها بالدم وهنالك يكون تأثيره الضار والعياذ بالله .

اما الطبقة الراقية وخصوصا من الاعراب فانهم يضعون طرف طاقيتهم (كوفيتهم) على فهم وانفهم ويثبتونها في عمامتهم أو عقالهم اتقاء البرد أو الروائح الكريهة .

ويقصد مكة زمن الحج أنواع العالم الاسلامى من جميع اطراف المسكونة فترى بها الازياء المتباينة والسحن المختلفة حتى ليجدر بها ان تسمى بالمعرض الاسلامى، ولقد رأيت فيها رجلا يابانيًا من كبار قواد اليابان قد اسلم وتقدم اليها لتأدية فريضة الحج . وليس بمكة ميادين عمومية اللهم الا صحن المسجد الحرام الذى بسعته يؤدى وظيفة الميادين الكبرى

وقد اعتاد الشوام والمغاربة سكنى الجهة الشمالية من مكة زمن الموسم والافغان والسليمانية (اهالى قوندهار) في الجهة الشمالية الشرقية والهنود والجاوه في الجهة الشمالية الغربية واليمن والتركستان والضاغستان في المسفلة وما سوى ذلك فى وسط المدينه واهالي مكة يبلغ (١) عددهم نحو ١٥٠ ألف شخص منهم خمسون الفًا من الاهالي والباقون من الاعراب كما تراه فى الجدول الآتى

الف	
٥٠	اهالى
٢٥	اعراب
٣٠	بخاريون
١٢	هنود
١٥	جاوه
١٠	سليمانيه وافغان
٥	شوام
٥	مغاربة
٨	اجناس مختلفة
١٥٠	مجموع

(١) التعداد في بلاد العرب لم يحصل لحد الآن بصفة رسمية وكل ما يعلم عنه أنما هو على وجه التقريب وما وضعناه هنا أخذناه من مأمورى الدولة وغيرهم ممن يوثق باقوالهم

خريطة العالم الاسلامي
وحركته الى الحرمين الشريفين

ملحوظة

(١) البلاد المنقطة هي البلاد الاسلامية الموجودة في عموم الدنيا وجلها كما ترى في غرب اسيا وشمال افريقيا ويقدرون عدد المسلمين بثلثمائة وعشرين مليونا من النفوس ويقدرون سكان العالم اجمع بألف مليون وأحد عشر ومائتين الف مليون نسمة

(٢) الخطوط السوداء الصغيرة تحدد المياه التي على شواطئ القارة

(٣) الخطوط الطويلة تعين طرق السفن البحارة والبلاد التي ترسو عليها

اوروبا

اسيا

المحيط الهندي

استراليا

الصحراء الكبرى

السودان الغربي

تمبكتو

مراكش

طرابلس

الاناضول

بلاد الترك

بخارى

افغانستان

عدن

الصومال

بومباي

جزيرة سيلان

خط الاستواء

جاوه

الكاب

وانا نذكر لك بعض البيوت القديمة التى توطنت فى مكة من زمن بعيد وفيها كثير ممن اشتهر بالوجاهة والثروة :

فمن الهنود — بيت خوقير . فتا . الدهلوى . الساب . حكيم . الزده . الناقرو . ميره . المفتى . عبد الشكور . عبد الحق. بشاره.المرزا. احمدوه . كمال . جان .شلهوب . نور. الطيب. دستانيه . خوج . الوشكلى .ولي سنبل.خوجه بكر .المسكى.الياس.الزرعه. القرع الحجيمى .

ومن الجاوه — بيت الباوى . المنكابو . زينى . أرشد . الفنتيانا . الفلمباب . قدس . دوم . الخ

ومن البخاريين — بيت كشك . الفاشقلى . الانديجان الخ

ومن الحضارم — بيت باحارس . باجنيد . باناجا . باحكيم . باذرعه . باعيسى . و باعش . الخ

ومن الشوام — بيت هاشم . الجبرى . والخشيفانى الخ .

ومن الترك — بيت الدرابزنلى . والقرملى .الخ

ومن المصريين — بيت القطان. الزقزوق . الرشيدى . الرواس . القزاز. والاباصى .الخ

وقد اختلف بعضهم فى أصل هذه البيوت ولكنا ذكرناها على ما هو مشهور من نسبتها على ان الغرض من ذكرها هنا انما هى لكونها غير عربية ليس الا .

ومن اختلاط هذه الاجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد اهل مكة خليطا فى خلقهم خليطا فى خلقهم:فتراهم قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الاناضولى وعظمة التركى واستكانة الجاوى وكبرياء الفارسي وابن المصرى وصلابة الشركسي وسكون الصينى وحدة المغربى وبساطة الهندى ومكر اليمنى وحركة السورى وكسل الزنجى بل تراهم جمعوا بين رفه الحضارة وقشف البداوه : فبينا تراك قد آنسك الرجل برقة حديثه معك وضمته بين يديك تراه قد استوحش منك واغلظ في كلامه حتى كأن طبيعة البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه فى حضرتك .

وقد وصل هذا الخلط الى ازيائهم التى تراها مجموعة مختلطة من ازياء البلاد الاسلامية : عمامة هندية وقفطانا مصريا وجبة شامية ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص فى حزام الاشراف مفضضاً أو مذهبا بشكل جميل جدا ومع هذا فقد ترى الرجل الصانع الفقير يلبس القميص وعلى ياقته الطرانة المشغولة بالحرير وعلى رجل سراويله شيء يشبه الركامة وهو حافى الرجل (مثلا) . الا أنك لا تلاحظ ذلك في طبقة الاشراف التي ترفعت عن هذا الخليط فلم يدخل في مادتهم غريب ولم يتغلب عليهم خلق جديد بل خلقهم هو هو بعينه العربى البحت الذى ورثوه عن أجدادهم وألفوه بما فطروا عليه من كريم العنصر وذكاء المحتد . وبالجملة فأخلاق أهل مكة غاية في الكمال وخصوصاً في الطبقة العالية فيهم رضي الله عنهم ولا يؤخذ على مجموعهم خسة بعض السوقة منهم .

والذي يؤسف له ان هذا الخلط وصل الى لغتهم فتراهم يتكلمون فى الغالب بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوهة أو فارسية أو تركية أو غيرها وهم ينونون المضاف فيقولون فى هذا حق فلان مثلا « هذا حق فلان » مع ابدال القاف جيما مصرية ومنهم من يمد الحرف المنون فيقول «هذا حقون فلان» أو يؤنث لفظه فيقول «حقة فلان » ولا يحذفون النون من الفعل في صيغة الامر للجمع فيقولون «هيا صلون المغرب واركبون » بدل صلوا واركبوا ويستعملون الترخيم في غير المنادي فيقولون « قم لعنا » أى قم لعندنا ويقولون في الابل بل ويقولون « كنا » أى كلنا (خلصنا) ويقولون «وصابني» في وامصيبتي « واللمن » فى اليمن . ومما يكثر سماعه منهم قولهم « دحين » فى هذا الحين و « ازهم فلان » في ادع فلانا ويعبرون عن الرجل بلفظ (زلمه) ويجمعون الرجل على اوادم (١) ويقولون « زكنه » أى اضربه « وقل كذا» أى اعمل كذا ويقولون «أبيض» للاستحسان « وسنع » فى صنع أو اتقن و « انجمص» يعني اجلس و «فصخ حداك» أى اخلع نعالك ويقولون «مشلح» للعباءة و « شابة » للتفنان و« امرح » اجر و « الودن » للفدان من الارض و « الصماده » للطاقية

(١) مفرده آدم ومعناه بالعبرية انسان

و « زكن عليه » أي أكد عليه و « ذل » بمعنى مر أو اخرج و « الا » بمعنى نعم و«اندر »في ابعد و «اغد» في رح ويسمون الأولاد بالبزورة فيقولون« بزورة فلان»أي اولاده ويستعملون لفظ«هرج»في معنى كلم فيقولون«ماهرجته»أعني ما كلمته ويستعملون لفظ«صاقن»التركية للاحتراس والتنبيه و«قربوز»للبطيخ ويستعملون غير ذلك كثيرا من الكلمات التركية والفارسية مثل«روشن»للشباك ويقولون عن حياض مجرى عين زبيده «بازان»وهو لفظ فرنساوى(Bassin)وأظن أنه من وضع بعض المهندسين الاتراك الذين كانوا يعملون في اصلاح هذه العين كما استعملوا بعد ذلك من هذه اللغة الفاظا كثيرة في المدينة المنورة بعد وصول السكة الحديدية اليها فيقولون«البيليت»لتذكرة السكة الحديد (Billette) و «استاسيون » للمحطة (station) و (شماندوفير) للسكة الحديد (chemin de fer) و «الفاجون » للعربة (Wagon) و« البرسونيل»للمستخدمين (personnel)وهكذا من الالفاظ التى لم يسمح الوقت لاستقصائها،وهذا كله مع كثرة أغلاطهم النحوية وعدم مراعاة القواعد الصحيحة التى لا يهتمون بها في تقويم ألسنتهم أو أقلامهم.وانى بينما كنت محزونا لتأخر اللغة العربية في مشرق أنوارها ومظهر اعجازها اذ عثرت على ترجمة فرنساوية لكتاب (١) عمرو بن العاص الذى أرسله الى عمر بن الخطاب لما استولى على مصر يصفها له فيه ويشرح له السياسة التى سيتخذها فيها. وقد نشر هذه الترجمة الكاتب الفرنساوى الشهير الكبير المسيو اوكتاف اوزان (Octave Uzaune)في جريدة الفيجارو الفرنساوية الشهيرة ونقلته عنها برمته جريدة البروجريه الفرنساوية المصرية مع التعليقات التى علقها عليه المسيو اوزان والتى وصف فيها هذا الكتاب بانه من أكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم وقال عنه انه من الفرائد فى ايجازه واعجازه واقترح وجوب تدريسه في جميع مدارس المسكونة حتى يتعلموا منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحة الحكم على الاشياء وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار.

---

(١) وتتميما للفائدة نذكر لك نص هذا الكتاب البليغ : « اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل اعفر يخط وسطها النيل المبارك الغدوات ميمون الروحات يجري بالزيادة والنقصان كجرى

وانا اذا اسفنا شديد الاسف على ضياع هذه اللغة من الوسط الذى لاتزال فيه هذه العترة الشريفة القرشية التى نزل بلغتها القرآن وصار معجزة الاسلام بفصاحته و بلاغته وكتب بها ابن العاص هذا الكتاب وهو في بداوته ، وعلى نشأته الاولى ، هذا الكتاب الذى بعثه من ادراجه مدنية القرن العشرين من دفاتر الغابرين واعطته ما يليق به من التجلة والاحترام: فقد يجب علينا ان نفتخر بان كتاب ابن العاص بقي في مصر ملازما لذلك الوصف الطبيعى الذى وصفها به عمرو من ثلاثة عشر قرنا ولايزال قائما بها الى الآن بل والى آخر الزمان،وقد اثرت بلاغته في المصريين الذين هم والحمد لله الآن في مقدمة الناطقين بالضاد حتى لكأنى بعصرهم فى أيامنا هذه وقد انتقلت اليها فصاحة الخطباء ومتانة الكتاب و بلاغة الشعراء في ابان الدولة العباسية الكبرى في العصر الثانى الاسلامى وعسى ان يكون هذا خير فأل أو فأل خير لبنيها يكون لهم من ورائه ان شاء الله شأن كبير ومقام خطير. وغالب أهل مكة يتكلمون بالتركية ومن المطوفين من يتكلم بلغات مختلفة كالهندية والاردية والجاوية والفارسية والصينية . أما أهل البادية فلغتهم عربية صرفة وتختلف فى لفظها باختلاف القبائل فنهم من يقلب القاف زايا فيقول «ازربه» فى قربة وعتيبة تقلب الكاف سينًا فيقولون

الشمس والقمر له أوان تظهر به عيون الارض وينابيعها فيدر حلابه ويكثر عجاجة وتعظم أمواجه فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الي بعض الا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن المخايل (قطع السحاب)ورق الاصايل فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدا في جريته وطمى في درته فعند ذلك تخرج ملة محقورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحب ويرجون النماء من الرب ليقبهما سعوا من كدهم فناله منهم بغيرجدهم فاذا احدق الزرع واشرق سقاه من فوق الندى وغذاه من تحت الثرى فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذ هي عنبرة سوداء فاذا هي زمردة خضراء فاذا هى ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء . الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنها فيها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها والا يستأدى خراج الثمرة الا في أوانها وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالي موفق الملك والمال .

و «سواسب» في كواكب و « سليب » فى كايب و « سبد » فى كبد . أما بنو شيبان فينطقون بالكاف جيما فارسية (معطشة) فيقولون «چواچب وچليب» وهم كذلك يقلبون القاف جيما فارسية فيقولون فى قربه « چربه » وهكذا . والعرب لا ينطقون بالقاف بل يلفظونها جيما مصرية . ومنهم من يقلب الميم باء كقولهم «بكة» في مكة و « لازب » في لازم و « راتب » في راتم و « نبيط » في نميط ومنهم من يقلب الفاء ثاء فيقولون «التحنث» في التحنف أو يقلب الثاء فاء فيقولون «فمّ» في ثم و «أجداف» في أجداث ومنهم من يغير الحركات فى الكلمة كقول الحجاز بين حَج وقول نجد حِج وهكذا .

وأهل مكة كلهم مسلمون ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التى نزلت فيها الآية الشريفة «يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » وكان علي ينادي في الموسم الذى أعقب نزول هذه الآية الشريفه « الا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك » . وكان المراد بذلك منعهم من الحج وعدم دخولهم البلد الحرام التى بها تتم مناسكه لأنهم مع ما كانوا عليه من وساخة الضمير وخبث الطوية كانوا يلقون الشقاق بين قبائل العرب المسلمين ويوغرون صدورهم و يلقون الغل الى بطونهم بقصد التفرقة التى يكون من ورائها الضعف .

فلما مات رسول الله صلى الله عليه ارتدت العرب فى أطراف الجزيرة بعد عشرة أيام من بيعة أبى بكر وذلك بتأثير المشركين منهم حتى بلغ من أمر هؤلاء أن ادعى منهم طليحة النبوة في الشمال وبلميه: في اليمن ومسلمة الكذاب مع سجاح في اليمامة (شرقي بلاد العرب) وغيرهم في وسط البلاد ، فاستنفر أبو بكر المسلمين الى قتال أهل الردة و بعث اليهم بأحد عشر لواء وأمرهم ان يحاربوهم ولا يقبلوا منهم غير الاسلام فساروا وأبلوا فى قتالهم بلاء حسناً وخصوصاً جيش خالد بن الوليد الذى كان له الفضل الاكبر فى رجوع الناس الى الاسلام .

و بعد وفاة أبى بكر سار عمر على طريقه فى تطهير بلاد العرب ممن كان على غير دين الاسلام لانهم أهل البلاد الذين بهم عزها وبهم يكون خيرها أو شرها وبهم تكون سعادتها أو شقاوتها . ثم سار على سنته من أتى بعده من الخلفاء الى الآن .

وأهل الحرمين أنفسهم يالغون فى مراقبة الاجانب الذين يفدون الى بلادهم فلا يتعدى جدة و ينبع وصنعاء جنوبا ومحطة العلا شمالا أحد من الاجانب بالمرة وان فعل فما هو الا مورط بنفسه الى حتفه من أهل البلاد ! لذلك ما كانت عمال السكة الحديدية الحجازية الاجانب يغادرون هذه المحطة ولم يكن فى قدرة الحكومة أن تسمح لهم بذلك مطلقاً مع الضرورة اليه .

أما أفراد الفرنجة الذين قصدوا مكة أو المدينة فى أزمنة مختلفة وكتبوا عنهما ما كتبوا على حسب نزعاتهم سياسية أو دينية أو عمرانية أو جغرافية أنما كانوا يتزيون بزى المسلمين بعد ان يعرفوا اللغة العربية ويدعون أنهم على الدين(١) . الاسلامي نخص بالذكر من هؤلاء بوركارت السويسرى و بورتون الانكليزى وهورجرونج الهولاندى وكورتلمون الفرنساوى وأولهم هو أسبقهم الى التورط بنفسه فى بلاد العرب و بوركارت سويسرى الجنس لوزانى المولد « Lausano » وفد الى مصر ودخل الازهر بعد ان ادعى الاسلامية وسمي نفسه ابراهيم المهدى وتعلم فيه العربية ثم سافر الي بلاد العرب وأقام بها نحو سبع سنين وكتب عنها وكتابه فيها أحسن ما كتبه الفرنجة وخصوصاً فى صفة بلاد العرب وقبائلها ومات فى مصر على زيه الاسلامى ودفن فى قرافة باب الفتوح بجوار قبة الشيخ يونس ولا يزال قبره موجودا بها ومكتوب على شاهد تربته هذه العبارة :

هو الباقى

هذا قبر المرحوم الى رحمة الله تعالى الشيخ حاج ابراهيم المهدى بن عبد الله بوركهرت اللوزانى تاريخ ولادته ١٠ محرم سنة ١١٩٩ وتاريخ وفاته الى رحمة الله بمصر المحروسه في ٢٦ ذى الحجة سنة ١٢٣٢ هـ .

ومن عوائد أهل مكة أنهم يأكلون مرتين في اليوم واحدة في نحو الساعة التاسعة

(١) ولا أرى أسبابا لهذا الامر غير ان اذكر لك صورة الاعلام الشرعى الذى استخرجه برتلمون لنفسه من مكة (وكان اسمه عبد الله بن بالستير) أوهم فيه محرره انه على دين الاسلام وقد أخذت صورة هذا الاعلام بالفوطوغرافيا ووضعت في الصحيفة ١٥٢ من كتابه الذى عنوانه (سياحتي الى مكة) وهاك هي بنصها :

صباحا والاخرى بعد صلاة العصر وهم يميلون الى الابهة والفخفخة كثيرا و يقلد صغيرهم كبيرهم في التظاهر بالكرم والشجاعة خصوصاً فى شهر رمضان وقد كانوا يفطرون فى الحرم بعد صلاة المغرب فيمدون فيه الموائد هنا وهناك لا سيما في زمن الحر ولكن الشريف عون الرفيق أبطل هذه العادة (وخيرا فعل) لان فضلات الاكل كانت توسخ المسجد وتكثر فيه الحشرات والقطط وغيرها . ومن عوائدهم أنهم يشرطون وجنات صبيانهم ثلاث شرط في كل جهة . والزار يفشوا فى نسائهم كثيرا . وبعضهن يخرجن الى الاسواق بملاءه واسعة سوداء فى الغالب وبرقع كثيف فيه ثقبان صغيران فيما يقابل العينين وفى أرجلهن أخفاف ضخمه لونها اصفر غالباً .

ومن عوائدهم احتفالهم في منتصف شهر صفر بمولد السيدة ميمونة عند مدفنها بالزاهر على طريق المدينة فينصبون خيامهم في تلك الصحراء و يتفاخرون بكثرة الطعام والشراب . واحتفالهم بمولد النبى صلى الله عليه وسلم فى ربيع الاول ويعبرون عن المولد بالحول فيقولون حول ميمونة وحول النبي . وفى شهر رجب يحتفلون بزيارتهم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي النبيل القائل علماء أمتي كانبياء بني اسرائيل عليه وعلى آله أجمعين

قدوة العلماء الاعلام وعمدة الفضلاء الفخام حلال المشكلات ومزيل المعضلات سيدنا وأخينا في الله الشيخ ابن ذاكور حفظه الله آمين

وبعد اهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد ورد الينا من اراد الله له بالسعادة الدنيوية والاخروية عبد الله بن بالستير بدخوله في الاسلام فامعنا النظر في حاله فوجدناه مؤمنا حقاً راغباً غاية الرغبة في الاسلام هذا ممن يلزمه الاعتناء بشأنه من عرض احكام الاسلام عليه وتعليمها له ولو كانت مدة جلوسه عندنا تسع ذلك لفعلنا معه ما يكون سبباً لكل خير ولكنه اسرع بالمسير فيلزم كل من له رغبة في الاسلام ان يقوم بشأنه من تعليم ما يحتاج اليه وقد أشار لي بان الرغبة اليكم اكثر فاترجى على سيادتكم ان تقوموا بشأنه لاحرمنا الله واياكم من الاجر ودمتم في خير وسرور

١٣١٢ الداعي لكم بالخير

٧ ربيع الثاني محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسن مفتي المالكية بمكة المحمية

للمدينة المنورة . ويخرج سراتهم في الصيف الى الطائف ولها طريقان طريق القافلة (١) و يبعد عن مكة بنحو ٣٦ ساعه وطريق (٢) البغال على جبل كرا وهو على نحو نصف هذه المسافة . ومدينة الطائف مشهورة بطيب هوائها (لانها ترتفع عن سطح البحر بمسافة ١٥٥٠ مترا) و بكثرة بساتينها وجودة ثمارها (وليس أحسن من هوائها الا هواء الهدى وهو جبل يبعد عنها بنحو ثلاث ساعات الى مكة و يرتفع عن سطح البحر بنحو ١٧٦٠ مترا وأهله مشهورون بجمال خلقتهم ونعومة بشرتهم) وفيها قبر السيد ين الطاهر والطيب ولدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر سيدنا عبد الله بن العباس و يقصده اليمانيون لزيارته قبل الموسم وله على الخصوص عندهم احترام كبير . وكان بها زمن الجاهلية معبد اللات والعزى وكانت تدين بهما ثقيف وغيرها من القبائل المجاورة للطائف وقد كان رسول الله صلعم ذهب اليهم فى أول نبوته وطلب منهم نصرته فأبوا عليه ذلك .

و يتخلف عن الحج كثير من اهل مكة و يقيمون فيها للمحافظة على ديارهم من اللصوص الذين يكثرون فى هذه الآونة فيقطعون ليلهم سهرا بين اطلاق بنادقهم من كل الجهات اعلانا بأنهم يقظون لكل من قصدهم بسوء .

ويوجد بمكة وخارجها مزارات كثيرة منها مولد النبى صلى الله عليه وسلم ومولد على ومولد فاطمة ودار الخيزران ومسجد الجن ومسجد الراية ومسجد الاجابة ومسجد البيعة ومسجد أبي بكر ومسجد عمر ومن الاماكن المباركة غار حراء وهو الغار الذى كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ومساحته تقرب من ثلاثة أمتار مربعة وهو فى قمة جبل النور الذى علي يسار السالك الي عرفة وفيه نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم لاول مرة وجبل ثور وهو الى الجنوب من جهة المسفلة وعلى ساعتين منها وفيه الغار الذى اختفى فيه رسول الله مع صاحبه أبى بكر حين قصد الهجرة الى المدينة

(١) مكة . بئر البارود (شمال منى) وادى اليمانة . السوله . النبيه . الجديره . أم حمض . الجيم . الطايف

(٢) مكة . منى . عرفه . وادى سمار . وادى النعمان . قهوة شداد . وادى خريف . الرأس . ابو حراجل . الكر . مجمع الدروب . عين المعسل الهدى . بئر العسكر . الطايف .



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

جبانة المعلى بمكة المكرمة وفيها قبتا السيدة آمنة والسيدة خديجة
وعلى يسارهما قباب عبد المطلب وأبي طالب وغيرهما من بني هاشم

ومساحته نحو مترين ونصف مربعين وكان باب هذا الغار لا تبلغ فتحته الا نحو نصف متر عرضاً في مثلها ارتفاعا وكان الزائرون يصادفون مشقة في الدخول اليه فكسره الشريف عون الرفيق رفقا بهم على ما يزعم ولو علم انه أثر من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم لابقاه يقرأ الناس فيه آية معجزة نسج العنكبوت عليه بعد دخول الرسول اليه وتعشيش الحمام علي بابه مما حكم معه اعداؤه الذين كانوا يقتفون أثره بعدم وجوده فيه . ومن المزارات أيضاً جبل أبي قبيس وفيه مسجد بلال ومسجد انشقاق القمر وزاوية السنوسي الذى له في الحجاز شأن كبير ومقام خطير ومعظم الاعراب على شيعته .

وفي مكة تلغراف وبوسته بناهما المرحوم عثمان باشا نورى عند بنائه لدار الحكومة (الحيدية) وغيرها منذ كان واليًا عليها لاول مرة سنة ١٨٨٢ ميلادية . والتلغراف في هذه المدينة لا نظام فيه بالمرة لعدم وصول غالب الاشارات التي ترسل من والي أربابها ولعل ذلك ناشيء من كثرة الاعمال في زمن الحج . أما البوستة فشيء لا نظير له بالمرة في بوسطات العالم فان المكاتيب تحضر في زمن الموسم الى مكة في عدة زكايب فتلقي في طرقة مكتب البوستة الضيقة و يأتي المطوفون أو صبيانهم أو الحجاج انفسهم فيفرزونها و يأخذ كل ما يعثر عليه صدفة باسمه أو باسم معارفه وعليه فاغلب الخطابات لا تصل الى اربابها واظن ان هذا النظام أو اللانظام لامبرر له بالمرة فان الحكومة العثمانية في استطاعتها ان تكثر من عمال البوستة في موسم الحج فاذا فرضنا أنها عينت بصفة ظهورات عشرين عاملا لفرز هذه المكاتيب مدة الموسم فلا يكلفها ذلك شيئاً كثيرا ولو قلنا ان الزمن الماضي كان زمن فوضى لا نظام له فانا لا يمكننا ان نقول هذه الكلمة في الحكومة الحاضرة وان أمكننا فلا نحب ان نقولها . وليست هذه الحال خاصة بمكة بل تراها بالمدينة و ينبع وجده وعليه فنرجو من حكومة الحجاز العناية بتنظيم البوستة قياما بواجب رد الامانات الي أهلها حتى لا تضيع الفائدة المقصودة منها .

وفي شوارع مكة كثير من القهاوى البلدية التي ترى في دوائرها دككا وكراسي من الخشب مقاعدها مصنوعة من شبكة من الليف أو الخوص المجدول فيجلس عليها الحجاج وخصوصاً في التي خارج البلد لا سيما في مدة الصيف و يشربون بها الشاي

(ويسمونه الشاهي) (١) والقهوة (٢) والترجيلة التي يجهزونها بالتمباك الحمى عادة لكثرة استعماله هناك .وفي مكة ثلاث تكايا واكبرها وافخرها وانظمها واكثرها موردا التكية المصرية وهي بناء فخيم بناه المرحوم محمد على باشا جد العائلة الكريمة الخديوية فى مكان دار السعادة الذى كان محل حكومة بنى زيد من الاشراف كما كانت دار المناء محل حكومة بني بركات وكانت توجد مكان دار الشريف أبى نمي تجاه باب الوداع وفي هذه التكية مخازن وطاحونة ومخبز ومطبخ ومكان نظيف منظم لحضرة مديرها وامكنة لمستخدميها ويطبخ بها يومياً الشوربة للفقراء والمعوزين الذين يفدون الى بابها صباحا لاخذها مع ماهو مرتب لهم من الخبز الذى تقوم به حياتهم ويبلغ عددهم نحو خمسمائة شخص أو يزيدون .

وفيها قلعتان تحكمان على المدينة ويسكن بهما عساكر الدولة وهما قلعة جياد التى بناها الشريف سرور سنة ١١٩٦ هجرية في الجهة الجنوبية وقلعة المندى التى بناها الشريف غالب سنة ١٢٢١ في الجهة الشمالية .

وفيها حمامان علي مثال الحمامات الرومية بمصر واحد بالعمرة قد بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠ والثانى بالقشاشية ويسمونه حمام النبي .

وبها مطبعة للولاية وتسمى باسمها .

ويصدر فيها جريدة بالتركية والعربية اسمها حجاز وهي شبيهة بالرسمية وكل ما فيها تقريبا يتعلق باخبار الحكومة واعلاناتها .

وليس في مكة كتبخانات تذكر اللهم الا كتبخانة بسيطة في باب النبى وأخرى في باب السلام تسمى بالكتبخانة السليمانية ولا نظام لها في فتحها خصوصاً فى أيام

---

(١) واظن ان هذه الكلمة نسبة الي شاه الفرس لاستعماله هذا الشراب كقولهم شراب ملوكى مثلا وربما أتى من هذه النسبة اسم ذلك القماش الحريرى المشهور « شاهي »

(٢) والقهوة عندهم من البن اليمني وكبراؤهم يضيفون عليها كثيراً من المنبهات مثل الحبهان والقرنفل وبعض العطريات مما يجعل لها نكهة لطيفة جداً ويسمونها ادوش ومن أغانى البدو : ياذوش ما اسمك دوش اسمك دواء لكل كبد عليله .

الموسم لذلك لم يتيسر لي زيارتهما وعلى كل حال فالكتب التي بهما لا تخرج عن عن الكتب الدينية والنحوية . وقد كان بمكة كتب كثيرة مهمة وكانت موضوعة فى دواليب فى دائر حائط الحرم سرق بعضها والسيول التي اغرقت المسجد وخصوصاً فى سنة ٤١٧ صعدت الي هذه الخزائن واتلفت منها شيئاً كثيرا وكان فى ذلك اكبر مصيبة علي العلم والعلماء لانهم فقدوا بها ما لا يصلحه الزمان ولا يعوضه الانسان .

وفيها مدرستان المدرسة الصولية بناها المرحوم الشيخ رحمة الله الهندى الشهير (صاحب كتاب اظهار الحق) ويدرس فيها القرآن الشريف وعلم التجريد وشيء من اللغة العربية والاعمال الحسابية والهندسية ويصرف عليها من تبرعات أهل الهند وهو أمر لاثبات له ولا تدوم معه حياة مدرسة نافعة مثلها ولذلك أخذت فى الانحطاط والامل فى حكومة الحجاز النهوض بها وبامثالها . ثم المدرسة التي يقوم بها حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ يوسف محمد الخياط وهو من علماء مكة الاماثل ويدرس فيها ما يدرس فى الاولى بتوسعة وعناية مولانا الامير بها كبيرة ولذلك فالامل فى نجاحها عظيم . ولقد قرأت أخيرا بعدد ٣ جمادى الاخيرة سنة ١٣٢٨ من جريدة المفيد الغراء نقلا عن جريدة صباح ان الحكومة العثمانية افتتحت مدرسة بمكة المكرمة بحضور الوالى والشريف وجمهور من الوجهاء والاعيان فعسى أن يكون فيها الخير المرجو لأم القرى بل لام العواصم الاسلاميه .

ولو كان مولانا الامير يقضى بان يتخرج المطوفون من مدرسة مخصوصة يدرسون فيها ما هو خاص بوظيفتهم لكان فى ذلك اكبر خدمة دينية لان جل الموجود منهم الآن يجهل مأموريته الكبرى وليت بعضهم يقف عند هذا الحد بل يلقي فى ذهن الحاج ما ليس من الدين فى شيء كمسألة الكنفانى والزلبانى مثلا وهما حجران فى طريق جدة الي بحرة ويزعمون ان واحدا منهما كان كنفانيا والآخر كان زلبانيا وكانا يغشان الحجاج فمسخهما الله حجرين ! ! ومسألة الناقة والحجام والحجامه بجبل عمر وذلك ان هناك صخرة تشبه ناقة باركة والي جوارها حجران يزعمون ان النبي كان بهذا المكان بناقته فأتى رجل حجام مع امرأته وامسكا بالناقة التي لم تمض برسول الله صلى الله عليه

وسلم فسخها الله معهما على هذه الصورة ! ! ومسألة سارق الصندوق وهو صخرة الى جهة جبل النور تقرب من صورة رجل يحمل صندوقا يزعمون انه كان سارقًا له فسخه الله عليها ! ! وأمثال هذا كثير مما تجب العناية بازالته خدمة للدين المتين . والادهي من ذلك أنهم يحرفون الفاظ القرآن الكريم عمدا أثناء الطواف بتفخيمهم مالا يجوز تفخيمه أو ترقيقهم مالا يصح ترقيقه ومنهم من يقلب الحرف بآخر لتقريبه الى نطق السامع ان كان تركيا أو هنديا أو فارسيا مثلا فيقلبون القاف كافا فيقولون مثلا «وكنا عذاب النار» فى قوله تعالى «وقنا عذاب النار» والحاء هاء فيقولون «مهمد رسول الله» فى محمد رسول الله وقولهم «يا أرهم الراهمين» فى يا أرحم الراحمين «واللوهم» في اللهم ونحو ذلك مما لايجوز شرعا ولا اجتماعا .

ويدرس فى الحرم الشريف بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة القديمة العقيمة ويقدر عدد الطلبة ببضع مئات جلهم من الجاوه الذين يفرون الي هذه البلاد من المظالم التى تتساقط على رؤوسهم من حكومة بلادهم .

ويبلغ عدد المدرسين العاملين نحو الثلاثين وعنايتهم بالتعليم قليلة جدا وذلك لقلة موارد الارتزاق ولان مرتباتهم التى تصرف لهم من طرف الدولة لا تقوم بأودهم لانها تختلف من مائة الى خمسمائة قرش عثمانى سنويا . ولنا في الحكومه الجديدة حكومة الدستور حكومة العلم حكومة العمل وفى كبير همة دولة الشريف عظيم الامل في انتقال حال العلم بهذه البلاد فى زمن قريب الى حال تفيد القوم فى دينهم ودنياهم .

وتجارة هذا البلد فى يد الاجانب كلها أوجلها خصوصًا الهنود وغالبها من صنف السبح والسجاجيد والاقمشة الحريرية الهندية والشاميه . والصناعة فيها غير مهمة وهي لا تخرج عن صياغة بعض قطع ذهبيه أو فضيه وخصوصًا فى عمل الدبل التى يدعون منفعتها للبواسير شفاهم الله ! ! والحدادة عندهم بسيطه جدا ولكنها دقيقه فى عمل الاسلحة وفيها من المصانع فاخورة لعمل الدوارق والقلل وكل ذلك في يد الاغراب أيضًا . أما الأهالي فاغلبهم يعيش من مهنة التطويف أو التظاهر بالشعار الديني ولا تروج تجارتهم الا زمن الحج وما يأتيهم فيه من رزق يعيشون منه طول عامهم غير أن

كثيرا منهم يبرحون مكة بعد الموسم الى الجهات التى بها اناس ممن سبقت معرفتهم بهم فى الحج فيفدون عليهم ببعض الهدايا و يعودون وقد أخذوا أضعاف ثمنها منهم .

والنقود التى تستعمل في مكة هي النقود التركيه والمصرية فضية أو ذهبية والريال الشينكو وأبو طيره والريال البرم (الجاوى) وهو على اشكال مختلفة والربية والجنيه الانجليزى والفرنساوي وليس لهذه النقود قيمة ثابتة هناك بل تراهم يستعملونها على الدوام فى مصلحتهم فيأخذونها منك بأقل من قيمتها ويعطونها لك بأكثر مما تساوي وهذا عيب كبير من عيوب المعاملات ! ! وهل لأرباب الامر والنهي يزيلونه قريباً ؟؟ والريال ابو طيره هوا كثرها استعمالا عند الاعراب وقيمته عندهم كالريال الشينكو والمصرى ومما يناسب ذكره هنا انى أعطيت مرة قطعة من النقود ممسوحة قليلا الى طفل صغير اعرابى فردها الي قائلا هذه زلطاء ، فما كان ألذ من سماع هذه الكلمة منه ! والاعراب لا يعرفون قيمة كل هذه النقود فاذا وجدمعهم شيء منها يتوجهون به الى التاجر و يقولون له « سوّ بهذه من الصنف الفلانى على امانتك » ولا يهمهم جودة الصنف بل تهمهم الكثرة منه.

واسواق مكة كثيرة منها سوق الشامية فى شمال الحرم وهو اشبه شيء بالاسواق التركية له سقف من الخشب على مثال الخان الخليلي بمصر الا ان شوارعه أضيق فيضيق بالمارين خصوصاً عند مرور الجمال . والسوق الصغير وهو تجاه باب ابراهيم واغلب ما فيه للغذاء كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر التى يؤتى بها من الاودية المحيطة بمكة كوادى فاطمة شمالا ووادى الليمون شرقا ووادى العبيدية والحسينية جنوبا ومنها ما يؤتى به مع الفاكهة من جهة الطائف وجبال كرا . وترى فى هذا السوق دكاكين كثيرة يبيعون فيها الاسماك المقلية التى يؤتى بها من جدة وهي فى الغالب مضرة جدا بالصحة لتعفنها من الحرارة وطول زمن النقل . وفى شرق المسجد سوق الليل وهو سوق كبير تختلط فيه جميع احتياجات الحاج . وفى جميع هذه الاسواق ترى مدة الموسم حركة لا تنقطع يأتى من ورائها ربح عظيم . ومدار حركة الاشغال الشاقة فى مكة على العبيد فمنهم الحمالون والحطابون والحمارون والجمالون والسقاءون والخدامون ولقد كان للرقيق بمكة سوق كبيرة أخذ امرها ينمحي شيئاً فشيئاً حتى كاد لا يكون له أثر بالمرة

وبهذه المناسبة اقول ان مايصرفه الحجاج بمكة ليس بالشيء الذى يستهان به لانا اذا فرضنا ان متوسط عددهم يبلغ سنويًا مائتي الف نفس وان متوسط ما يصرفه الواحد منهم مدة اقامته بمكة خمس جنيهات فيكون مجموع ما يصرفه الحجاج في مكة على أقل تقدير مليونا من الجنيهات فى نحو شهر من الزمان فى أجرة مسكن وبعض المأكل وأجرة مطوف وزمزمي و بعض هدايا يشتريها لذويه واهليه . ومع هذا كله فان بعض اهالى مكة فى الغالب لا ينظرون الى الحاج (بقطع النظر عن كونه ضيف الله وفي بلده الحرام) بالعين التى يجب عليهم ان ينظروه بها وعلى الاقل من الجهة الاقتصادية التى هى مصدر حياتهم وهم مع احتقارهم له يسيئون معاملته ويرون فى ماله كلأً مباحا لهم و يتقولون فى ذلك الاحاديث التى لا يخرج معناها عن قولهم « الحاج رزق لأهل الحرمين ورزق الحاج على الله » ولعل هذه المعاملة السيئة كانت في ذلك الزمن السيء زمن الاستبداد الذى كان المطوفون فيه يوقفون اغنياء الحجاج في سوق المزايدة حتى يرسو أمرهم على أيهم يتولى شؤونهم كما حصل لبعض سراة المصريين في سنة ١٩٠٧ فلا حول ولا قوة الا بالله ! !

وجو مكة كثير الحرارة قليل الامطار ومع ذلك فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الامطار التى تنزل بكثرة في الجبال العالية المحيطة بالطائف . وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمل في شمال مكة قناطر لحجز مياه هذه السيول عن المدينة وانصرافها من الجهة الشرقية نحو المسفلة ومنها تسير الى خزان كبير في الجهة الجنوبية يسمونه بركة ماجن وتستعمل هناك للاعمال الزراعية وكثيرا ما كانت لهذه السيول اضرار جسيمة بمكة ومبانيها .

واهواؤها تختلف في هبوبها جملة مرات في الساعة الواحدة ولذلك يقول أهل مكة « ان الله خلق سبعين هواء جعل منها في مكة تسعا وستين وفي العالم كله هواء واحدا » وذلك لان الهواء يدور في جو المدينة بين جبالها كما تدور الدوامة على سطح الماء فبينا تراه يدخل الى المساكن من المنافذ الغربية اذا به انقطع عنها ودخل من الشرقية أو الشمالية أو الجنوبية وهكذا ولذلك تجد مساكنهم كثيرة النوافذ وغالبها

الي الجهات الاربع حتى لا نحرم من الهواء من أى جهة كان والهواء البحرى عندهم وهو الغربى احسنها وألطفها لانه يأتى من جهة البحر ثم هواء الشام ويسمونه الشمأل والشمال أما الجنوبى والشرقى فهما حاران .

ويفسد هواء مكة في أيام الحج لكثرة الساكنين فيها وعدم العناية بنظافتها وتكثر فيها زمن الشتاء امراض الصدر ويندر فيها التدرن الرئوى وفي زمن الصيف تكثر الاحتقانات الدماغية وضربات الشمس وامراض العين والكبد والجهاز الهضمى والدوسنتاريا خصوصاً بين الاطفال ويسببها عندهم أكل السمك العفن والفواكه غير الناضجة وفى زمن الحر تكثر فيهم الحميات لا سيما عند فساد مياه الشرب ويكثر فيهم مرض الجدرى ويموت بسببه سنويا اكثر من اثنين في الالف ومما يجدر بنا ذكره ان الكوليرا لم تظهر في مكة الا سنة الف ومائتين وست وار بعين هجرية أي فى نحو سنة ١٨٢٥ ميلادية وفدت اليها مع حجاج الهند ولا تزال تفد اليها معهم . ولو كانت الحكومة تعتنى بشدة الحجر على حجاج الهنود والجاوه في جزيرة قران قبل دخولهم الي جدة بزمن لامكنها الحيلولة بين حجاج بيت الله الحرام وبين هذا الداء الوبيل . والاوبئة الكبيرة التي حصلت بمكة في زمن الحج وفتكت بالحجاج فتكا ذريعا كانت فى سنة ١٨٩٠ وسنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ . وعلى كل حال فالعناية بالمسائل الصحية بمكة قليلة جدا وليست فيها اسبيتالية ولا اجزخانة اللهم الا دكان عطارة بسيطة فيها من الادوية ما فسد غالبه واصبح ضرره اكبر من نفعه . وقد كان الجناب العالى الخديوى حفظه الله فكر في ايجاد اسبيتاليه بها ورتب لها طبيبا واجزاجياً فلم يتيسر لهما القيام بمأموريتهما واكتفى الحال مؤقتا بالخدم الصحية التى تقوم بها مأمورية الاوقاف الصحية زمن الحج ومقرها فيه يكون في التكية المصرية والحق يقال ان لها عملا يذكر فيشكر . ومصاريف هذه المأمورية يبلغ سنويا فوق السبعمائة جنيه مصرى ومع هذا فانا لا ننسى الخدم التي تقوم بها مأمورية المحمل المصرى الصحية لعامة الحجاج لا فرق بين مصرى وغيره .

وأهل مكة يشربون من ماء الآبار التى فيها مثل زمزم (وذلك قليل جدا) أو

التى في ضواحيها مثل الزاهر والعستلانى وغيرهما أو من الصهاريج التى تملأ من مياه المطر أو ماء الينابيع أو من عين زبيده التى يجرى ماؤها الى المدينة في قنوات تحت الارض لها خزانات في شوارعها تسمى البازان يملأ منها السقاءون قربهم وهذه العين لها أهمية عظيمة جدا وهي من أجل الآثار التى تنسب الى السيدة زبيده زوج هارون الرشيد رضي الله عنهما . وكان السبب فى انشائها أن هذه السيدة البارة رأت في حجها ما كان ينال اهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد والاهوال الكثيرة لقلة الماء في تلك الانحاء فأمرت رحمها الله باجراء الماء الى ام القرى من عين حنين التى توجد فيما وراء عرفة الى جهة الشمال على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلو مترا من مكة وهذه العين تخرج من جبال طاد وتسير فى وادي حنين (الذي حصلت فيه فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة تلك الواقعة المشهورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين المشركين من هوازن وثقيف وثبت فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام ثباتا عظيما كما ابتلى المسلمون فيها بلاء حسنًا وفيها قتل دريد بن الصمة من أكبر رجال الجاهلية المشهورين قتله رجل من المسلمين يسمى ربيعة ابن رفيع السلمى) .

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الجليل اهتماما كبيرا وأرسلت اليه العمال من جميع الاطراف فبنوا لهذا الماء مجرى عظيما وأوصلوا به مجرى آخر من وادى النعمان من الماء الذي ينزل اليه من جبال كرى التى تبعد عن عرفات شرقا الى الجنوب بنحو عشرة كيلو مترات وسيروا اليه سبع قنوات اخرى من الجهات التي تسقط اليها السيول حتى تساعد ماء المجرى الاصلى الذي وصل الى جنوب منى وتقر له هناك بئر كبير في الصخر يصب فيه يسمى بئر زبيده . ومن هذا المجرى امتد فرعان واحد الى عرفات والآخر الى مسجد نمره يسير الماء فيهما زمن الحج ولم يعرف الناس قيمة هذه العين المباركة الا فيما بين سنة ٩٣٠ وسنة ٩٧٠ فانها أهمل أمرها في هذه الآونة فطم مجراها وتهدم بنيانها وسدت منافذها وانقطع ماؤها ونال الناس من الاهوال شئ ما كان يخطر على البال وقد بلغ ثمن زق الماء (قربة صغيرة تسع ٣ لترات تقريبًا) فى عرفة فى غضون هذه المدة ليرة ذهبية . وسبب اهمال هذه العين في هذه المدة أن ملوك مصر هم الذين

كانوا يعتنون بها و يقومون بعمارتها في الغالب فلما تغيرت الاحوال ودخلت مصر مع أرض الحجاز سنة ٩٢٣ ضمن أملاك الدولة العلية التي كانت تشغل كل وقتها كثرة حروبها الخارجية أهملت الدولة ترتيبها لداخلية حكومتها خصوصاً ماكان بعيدا عنها ، ولكن أهل الحرمين الشريفين قاموا في سنة ٩٦٩ والتمسوا من السلطان سليمان اصلاح العين المذكورة وهنالك رجتة كريمته صاحبة السمو الملوكانى مهرماه سلطان أن يشرفها باجراء هذا العمل المبرور من مالها الخاص وعينت مديرا للقيام بهذه المهمة وسلمته الأموال اللازمة فسافر من وقته الى مكة وشكل مجلساً من أهل الرأى فيها وأمر بحفر القناة وتنظيف فروعها و بناء ماتهدم من مجراها ولما وصل الاصلاح الى بئر زبيدة بمنى أراد رحمه الله أن يسير به الى مكة فاضطر الى النزول في هذا الجبل الصخري على مسافة نحو خمسة وعشرين مترا من سطح الارض في مسافة طولها اكثر من كيلو متر ثم سيرها فى حضن الجبل القبلى حتى أوصلها الى مكة سنة ٩٧٩ . وينقسم هذا المجرى من البياضية في باب المعلي الى أربع شعب تخلل المدينة من جهة الى اخرى ومن ثم أخذت الدولة تقوم باصلاحها . ويبلغ عرض هذه القناة نحو متر وربع فى ارتفاع نحو متر ونصف وتقرب وتبعد عن سطح الأرض على حسب ارتفاعها وانخفاضها ولها خزانات يملأ منها السقاءون ولكن يجدر بنا أن نلاحظ على بلدية مكة ان الفتحات التي في أعلى هذه العين من جهاتها المكشوفة يستعملها الناس في غسيل ملابسهم وخلافها مما لا ينطبق على القوانين الصحية ولا تسمح به الشريعة الغراء الاسلامية ! ! وهل يسمحون لي ان أقول لهم ان ذلك ولا شك العلة الوحيدة لكثير من الامراض التي تتفشى فى مدينتهم وعليه فيجب أن تكون العناية بأمر هذه الفتحات كبيرة وأن يضرب على أيدي من يعبث بها أو سدها في وجوههم بالمرة وهل فاتهم قول صاحب الشريعة الغراء (النظافة من الايمان)

وكان الشريف عون سير قناة من هذا الماء الى بستانه بجرول وأتى اليه بالاشجار ذات الثمار والازهار من اطراف المسكونة خصوصاً من الهند ومصر والاستانة وكان في مدة وجوده روضة من الجنان واصبح بعده بلقعاً تزعق فيه البوم والغربان سبحان

الواحد الاحد يؤتى الملك من يشاء و ينزع الملك ممن يشاء ! !

وفضل ماء ز بيده يسير الي المسفله حتى يصب فى بركة تسمى بركة ماجن وهناك يستعمل فى سقى بعض البساتين والمزروعات التى لبعض الاشراف .

هذا وأرجو قبل قفل باب الكلام على مكة ان يسمح لي حضرة القارئ بكلمة أسوقها اليه . ذلك انى زرت القدس الشريف فرأيت به لكل جنس من اجناس النصارى واليهود على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم من الاديرة والتكايا ومنازل الضيافة شيئاً كثيرا جدا تمهدت فيها سبل الراحة والحياة للناس اجمعين . فالفقير يجد فيها مكانا مجانا لمدة اسبوع على الاقل يرى نفسه فيها آكلا شاربا نائما ساكنا مخدوما مشكورا من غير ما يتكلف لذلك قرشاً واحدا والغنى يجد فيها راحته في نظير اجر يدفعه يومياً لا يزيد عن الاجر الذى يدفعه في لوكاندة بسيطة ، ومن الاغنياء من يتخدها لهمسكناً فقط و يتدارك أكله بنفسه . وهذه الاماكن (التى قامت بها شركات البر والاحسان من الممالك المختلفة على اختلاف جنسياتها ومذاهبها) كثيرة جدا واكثرها لليهود ثم للروس ثم للاروام ثم للارمن ثم للانكليز والفرنساويين والالمان وقد اقام الالمان هناك اخيرا دارا للضيافة وللصحة على جبل الزيتون صرفوا عليها اكثر من سبعين الف جنيه وهى دار رحبة فسيحة شامخة البنيان وطيدة الاركان وضع في مدخل سلمها تمثال امبراطور وامبراطورة الالمان ، وافتتحت هذه الدار رسمياً بحضور ولي عهد المملكة الالمانية البرنس أيتل في شهر ابريل الماضي (سنة ١٩١٠) . وعدا هذه الدور والاديرة والملاجئ ترى كل جنس من الاجناس له في بيت المقدس الاسبتاليات العظيمة المشيدة والمدارس الفاخرة بحيث تكاد ترى بجوار كل بيت من بيوت المدينة مدرسة: هذه للالمان وتلك للانجليز وغيرها للروس وخلافها للفرنساويين وسواها لليهود بل لكل فرقة من هذه الامم مدارس مخصوصة للبنات والبنين على احسن طراز جديد ، والتعليم فيها على أحسن بروجرام كافل لحياة المتعلمين . اللهم ان هذه هي الحياة الصحيحة وهذا هو الوجود بكامل معانيه : وهل لاخواننا المسلمين في جميع اقطار المسكونة ان يقدموا بعمل مثل هـذا بمكة ينتفع به حجاج المسلمين ولهم من مساعدة الحكومة العثمانية

مايوصلهم الى هذه الغاية الجليلة التى تكون من ورائها راحة حجاج بيت الله الكريم ؟؟
ويا حبذا اذا كان المبلغ الذي جمع من السادة المصريين على ذمة اقامة تذكار لحج
الجناب العالى الخديوى يقام به دار للضيافة بمكة لفقراء حجاج بيت الله الحرام عموما
والمصريين منهم خصوصاً وتقوم مصلحة الاوقاف بما يقصر عنه هذا الاكتتاب فى
هذا السبيل الخيرى والله الموفق للصواب ؟

تاريخ مكة

يصعد تاريخ مكة الى سيدنا ابراهيم الخليل صلوات الله عليه ففى سنة ١٨٩٢
قبل المسيح امره الله بالهجرة بولده اسماعيل وامه هاجر (كما ورد فى التوراة) فذهب
بهما الى هذا الوادي الذي لم يسكنه أحد لعدم توفر الماء فيه اللهم الا أولئك العماليق
الذين كانوا يسكنون غالباً في الوادى الواقع شماله و يقال له الحجرن ، وهم قوم نزحوا
الى هذا المكان من جهة البحرين وكان ملكهم فيما يمتد الى بحيث جزيرة سينا .
والبابليون يسمونهم « ماليق » فأضاف عليها العبرانيون لفظ عم (يعنى امه) فصارت
« عم ماليق » فحرفها العرب الى عماليق والمصريون يسمونهم الهكسوس أى الرعاة .
فلما عثرت هاجر على بئر زمزم التى أصبحت حياة جديدة لهذا الوادي نزلوا اليها
وسألوها الاقامة معها على ان يكون الامر لها ولولدها فقبلت ذلك وكانت قد ابتنت لها
بيتاً تأوي اليه مع ولدها وكان ابراهيم يتردد لزيارتهما من فلسطين فأمره الله تعالى بتطهير
هذا البيت وجعله مصلى للناس قال تعالى «واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا
من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين
والركع السجود » ثم امرهما الله برفع قواعده « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت
واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا

أمة مسلمة لك وارنا منا سكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم » هنالك هدم ابراهيم ذلك البيت الذى كانت بنته هاجر ورفع مع اسماعيل على قواعده الكعبة المكرمة ثم أمره الله بان يؤذن في الناس بالحج « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ومن ثم ابتدأت شهرة ذلك البيت العظيم تذاع في القبائل المجاورة ومنه أتى لفظ مكه أو مكا وهى كلة بابليه سمته بها العماليق ومعناها (البيت)

ورجع ابراهيم الى قومه و بقي اسماعيل في خدمة البيت حتى مات فتولى خدمته من بعده بنوه الى ان داخلهم الضعف وتغلب العماليق عليهم فصار أمر البيت اليهم وما زالت السلطة في يدهم حتي وفدت جرهم على مكة من طريق اليمن بعد قطع سد مأرب في نحو منتصف القرن السادس قبل الميلاد فزاحموهم وغلبوهم على أمرهم وصارت لهم الكلمة والسلطان على مكة بل وفي الحجاز باكله وكان عليهم مضاض بن الحارث فلما كبر سلطانهم وعظمت شوكتهم عثوا فى الارض فسادا فوقع فيهم وباء نال منهم فضعف أمرهم وتغلب عليهم بنو اسماعيل واستردوا أمر البيت منهم وطردوهم من مكة فساروا الي ارض جهينة (شمالى ينبع) وفي ذلك يقول شيخهم عمرو بن الحارث .

وكنا ولاة البيت من عهد ثابت ... نطوف بذاك البيت والامر ظاهر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... انيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فابادنا ... صروف الليالى والجدود العواثر

وما كادت تحصر السلطة في بنى اسماعيل حتى أتت خزاعة وتغلبت عليهم ووليت أمر البيت من سدانة وسقاية زمنا طويلا بما كان لها من العصبية رغما عما كان في بنى اسماعيل من الرقى الادبى والسمو النفسانى فانه كثير ما كان ينبغ فيهم رجال يبرهنون بحسن معرفتهم وكمال فضلهم على ذكاء اصلهم وكريم محتدهم مثل كعب بن لؤي الذى اشتهر ببلاغته وفصاحته وهو أول من جمع الناس فى يوم العروبة وهو يوم الجمعة وكان يخطبهم فيه بما يرشدهم به الى طريق الفضائل ويبعدهم عن ارتكاب الرذائل وقد اشتهر أمره بين العرب وعظم قدره فيهم حتي كانوا يؤرخون بعام موته الي عام الفيل وهو زمن لا يقل عن اربعمائة سنة .

وما زال أمر البيت فى يد خزاعة حتى رجع قصي بن كلاب من الشام وكان ذهب اليها مع أمه صغيرا، وهو من احفاد كعب والبطن الرابع والعشرون من اسماعيل فجمع قبائل قريش بما كان فيه من حسن السياسة والذكاء وقوة العارضة بعد أن تفرقت وأخذت الشحناء تدب فيما بينهم وسعى باصالة رأيه حتى اشترى من خزاعة حجابة البيت ثم أجلاهم عن مكة بما وجد له من العصبية الى بطن مر (وادى فاطمة) ومن ثم كبر شأنه ونبه أمره وعظم سلطانه واجتمعت له السقاية والحجابة والرفادة واللواء ولم تجتمع في رجل قبله وهو أول من اطعم الحاج وسقاه لانه ضيف الله وجاره وبذلك سارت الركبان بسيرته وتحدث الناس بنباهته وكان له رأى سديد وفكر رشيد وهو الذى بنى دار الندوة قرب البيت وجعل بابهـا اليه ليجتمع فيها مع قومه للبحث فى شؤونهم والاقرار على ما يتم من أمرهم فأصبح به ملك قريش عظيما وشأنهم جسيما حتى كان لهم بعد ذلك خراج على القبائل والعشائر يؤدونه اليهم ويتقربون به منهم . وكان لقصي ولدان عبد الدار وعبد مناف وقد شرف الاخير على صغره وزاد فضله عن أخيه الاكبر فأوصى أبوه لعبد الدار بما كان في يده من السقاية والحجابة والرفادة واللواء والندوة حتى يتكافأ مع عبد مناف في شرفه الذي وصل اليه بعقله وفضله .

ولما مات قصي استولى عبد الدار على ما أوصى له به أبوه وانتقل ذلك الى بنيه من بعده حتى ظهر بنو عبد مناف عليهم ونازعوهم ما فى أيديهم وكادت تدور رحي الحرب بينهم وانتهى الامر بتحكيم بعض القبائل فقسموا بينهم شرف هذه الامتيازات فكان لبنى عبد مناف السقاية والرفادة ولبنى عبد الدار الحجابة واللواء اللذان ما زالا ينتقلان في بني عبد الدار الى فتح مكة فأخذ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتيح الكعبة وكانت مع عثمان بن طلحة ودخل البيت فانزل الله تعالى (ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها) فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه قائلا « هاكم خذوها خالدة تالدة » وعند موت طلحة سلمها الى أخيه شيبة فبقيت في بنيه الى الآن .

أما بنو عبد مناف فقد علا أمرهم وعظم شأنهم خصوصاً فى مدة عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم فقد كبر سلطانه بعد واقعة الفيل

وذاعت شهرته وهابته القبائل وقصدته العرب من جميع جهات الجزيرة . ولما ظهرت نبوة سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وتجلى الاسلام بمظهره المنيع وتقدم بتقدمه السريع كمل لبني عبد مناف فضلهم وتم بهذا الشرف سعودهم .

ومن أكبر الحوادث التاريخية بمكة هجرته صلى الله عليه وسلم منها الى المدينة وفتحه لها بعد ثمان سنين من الهجرة ومن ثم صارت مكة تابعة له ولخلفائه من بعده .

وكانت حكومة الاسلام فى مدته عليه الصلاة والسلام ديمقراطية شورية على حسب الشريعة الغراء وكذلك فى عهد خلفائه الراشدين حتى انقضت الخلافة الى مظاهر الملك فشابها شئ من الاستبداد .

وكانت حكومة الحرمين تتبع فى جميع أدوار حياتها مركز الخلافة الاسلامية . وأول من تولى امارة مكة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد رضي الله عنه ولاه عليها رسول الله صلوات الله عليه بعد الفتح عند خروجه لواقعة حنين فى الثلث الاول من سنة ٨ للهجرة وانتقلت الخلافة بعد الخلفاء الراشدين الى الامويين وفي ابانها استولى عبد الله بن الزبير على مكة بضع سنين حتى استردها منه الحجاج بن يوسف الثقفي الى الأمويين ثم انتقلت للعباسيين وما زالت في أيديهم الى سنة ٣٥٨ وتولى أمرها في هذه المدة نحو مائة أمير من اشراف وغير أشراف . وفى هذه السنة انتقل حكمها الى الفاطميين وفيها دخل جوهر القائد مكة ثم دخلها مولاه المعز لدين الله العبيدى فكانت البلاد الاسلامية من بغداد الى حلب الى البصرة يخطب فيها للخليفة العباسي ومن حلب الى الحرمين وسائر بلاد العرب يخطب فيها للعبيديين : ذلك لأن جعفر ابن محمد بن الحسن بن الثائر بن موسى الثانى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثني بن الحسن السبط بن علي أمير المؤمنين كرم الله وجهه تغلب على مكة وخاف من العباسيين فدعا للمعز لدين الله العبيدي صاحب مصر فكتب له المعز بولاية مكة وبه ابتدأت حكومة الأشراف الحسنيين عليها ، فلما ولى صلاح الدين الايوبى ودعا للعباسيين ولى امارة مكة الشريف مكثر بن عيسى باسم الناصر العباسي. وفى سنة ٦١٩ زحف على مكة صاحب اليمن الملك المسعود ابن الملك الكامل صاحب

مصر واستولى عليها باسم أبيه وجعل أمرها لنور الدين بن عمر . وفي سنة ٦٢٦ مات الملك المسعود فولى مملكة اليمن نور الدين المذكور مبايعة ولقب نفسه بالملك المنصور ومن ثم أخذت مكة تتداول بين حكومة مصر وحكومة اليمن الى أواخر سنة ٦٧٠ فاستولى عليها الملك الكامل وولى أمرها الشريف راجح ابن قتادة . وكان يدعى للملك الكامل ملك مصر فى خطبة الحرمين هكذا « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها سلطان القبلتين ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين المحترمين الملك الكامل خليل أمير المؤمنين » .

ولما توفى الملك الكامل أخذ ملك اليمن يتطلع الى الاستيلاء على الحرمين وصار يلقي بذور الشقاق بين الاشراف و بعضهم فكبرت الفتنة فيما بينهم حتى بلغ من خوف الناس منها انه لم يحج أحد في سنة ٦٥٢ وصار بعض الأشراف المنتمين لملك اليمن اذا استولوا على مكة يخطبون لصاحب اليمن واذا قامت قائمة الطرف الآخر يخطب لصاحب مصر حتى استولى الشريف أبو نميّ عليها سنة ٦٦٧ فخطب للسلطان بيبرس ملك مصر الذى حج في هذه السنة .

واستمرت حكومة الحرمين تابعة لملك مصر حتى دخل مصر السلطان سليم الثانى بعد انتصاره على ملكها السلطان الغورى الذى مات تحت سنابك الخيل في واقعة مرج دابق بالشام يوم الجمعة غرة محرم الحرام سنة ٩٢٣ ومن ثم دخلت حكومة الحجاز مع حكومة مصر تحت حكم الدولة العلية وهنالك كتب السلطان سليم الى الشريف بركات الذى كان عاملا للغورى على الحرمين فرمانا بولايته عليهما نيابة عنه واستمرت ولاية الحجاز فى يد بني عثمان الى أن استولى عليها محمد علي باشا والي مصر من سنة ١٢٢٧ الى سنة ١٢٥٦ وفيها قررت الدول العظام اخراج أمرها من يده الى السلطان عبد المجيد خان وجعلت له فى نظير ذلك امتياز ولاية مصر في أولاده من بعده . وكان محمد علي اصدر أمره بتعيين الشريف محمد بن عون جد هذه العائلة الحاكمة الآن على امارة مكة بدل الشريف يحيى الذى فر منها بعد قتله للشريف شنبر فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٤٢ على باب الصفا واستمر ابن عون في الامارة بما عهد فيه

من حسن الادارة وكمال الدراية تابعاً لحكومة مصر الى أن تخلى محمد علي عنها فأرسل السلطان عبد المجيد فرمانا باستمرار الشريف محمد بن عون على امارة مكة وهي باقية فى بنيه الى يومنا هذا . والمتولى امارتها منهم الآن هو حضرة صاحب السيادة والدولة الوزير الخطير الشريف حسين جعل الله أيامه أيام خير وبركة على الحجاز بل وعلى جزيرة العرب بتمامها .

ولمحمد علي فى هذه البلاد آثار جديرة بالذكر وخليقة بالشكر منها بناء التكية المصرية بمكة وترتيب ما يلزم لها من النفقات و بناء الدار التي يسكنها دولة الشريف وفيها مركز الامارة الجليلة وهي التى نزل بها سمو افندينا الخديوى عباس حلمى باشا الثانى الافخم فى حجه . وهو الذى محا أثر الوهابيين الذين تفوت شوكتهم وعلت سطوتهم فى هاتيك البلاد واستولوا على جزيرة العرب فى زمن قصير وكاد سلطانهم يتجاوزها الى غيرها فتهيبتهم الدولة العلية وخافت علي كيانها منهم فكتبت الى محمد على باشا فسير اليهم جنوده واسترد منهم البلاد بعد ان حاربهم واوقع بهم . وانا تتميما للفائدة نذكر لك ذلك مفصلا فى كلمتين :

فى سنة ١١٤٢ ظهر رجل من عرب بادية نجد اسمه محمد بن عبد الوهاب تلقى العلم فى مكة على بعض شيوخها وأخذ يذيع عقيدة جديدة فى الدين الاسلامى تجاوز فيها الحد الذى ذهب اليه الامام احمد بن حنبل بل تغالى فى بعض الامور غلوا كبيرا وأخذ يمر على أحياء العرب حياً بعد حي يذيع فيهم عقيدته حتى اتبعه كثير من الناس وما زال يزداد مريدوه ويكثر تابعوه حتى قوى أمره وخافته البادية . ولما قربت اشهر الحج ارسل الي شريف مكة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد عشرين من رجاله ليعرضوا عليه مذهبه وليستأذنوا له فى حج بيت الله الكريم فأمر بالقبض عليهم وسجنهم وحكم بكفرهم ففر منهم نفر الي الدرعية مقر الوهابى وأخبروه بما حصل فاستمر مع قومه ممنوعين عن الحج الى سنة ١٢٠٥ وكان الشريف مسعود توفى وتولى امارة مكة بدله الشريف غالب فاستأذنوه فى الحج فأبى فقامت لذلك الحرب بينهم ورغما عن موت محمد بن عبد الوهاب فى سنة ١٢٠٧ فان الحرب مازالت

رحاها دائرة الى سنة ١٢١٣ حصل في اثنائها خمس عشرة واقعة كانت الحرب فيها سجالا الا فى الاخيرة التي تسمى غزية الخرمة فقد كان فيها للوهابيين النصر المبين وفيها تم الصلح بين الشريف غالب وعبد العزيز بن محمد بن سعود أمير الدرعية (الذى كان يقوم بنصرة الوهابى رغبة فى اتساع ملكه حتى ضخم وكاد يستولى على اطراف جزيرة العرب بتمامها) وحدد كل منهما منطقة نفوذه وسمح الشريف للوهابيين بالحج فى سنة ١٢١٤ فحج سعود بن عبد العزيز ومعه خلق كثير وحج أيضاً فى سنة ١٢١٥ فى عدد عظيم من قومه غير أنه حدثت فى هذه السنة منافرة بين عربان الشريف وقوم سعود ادت الي استئناف الحرب فحصل بينه و بين رجال الشريف ثلاث عشرة موقعة استولى في الاخيرة علي الطائف وذلك في سنة ١٢١٧ وبعد ان تفرق الحجيج فى تلك السنة خافه الشريف غالب ففر الى جدة مع واليها شريف باشا و بقي الناس في مكة لا يقر لهم قرار من الخوف فعند ذلك قام الشريف عبد المعين بن مساعد وارسل كتابا الي سعود يطلب منه أمانا لجيران بيت الله الحرام على ان يطيعوه ويكون هو عامله علي مكة وارسل رسلا من افاضل اشراف مكة وعلمائها واجتمعوا بسعود فى وادى السيل (على مرحلتين من مكة) وعاهدوه علي الطاعة فكتب امانا لهم فى ورقة صغيرة هذه صورته « بسم الله الرحمن الرحيم من سعود بن عبد العزيز الى كافة أهل مكة والعلماء والاغوات وقاضى السلطان السلام على من اتبع الهدى أما بعد فانتم جيران الله وسكان حرمه آمنون بأمنه انما ندعوكم لدين الله ورسوله . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون . فانتم في وجه الله ووجه أمير المسلمين سعود بن عبد العزيز وأميركم عبد المعين بن مساعد فاسمعوا له واطيعوا ما اطاع الله ورسوله والسلام » وارسل هذا الامان اليهم في يوم الجمعة سابع محرم سنة ١٢١٨ فصعد مفتى المالكية على المنبر وتلاه على رؤوس الاشهاد وقابله الناس بالطاعة .

وفي اليوم الثانى دخل سعود مكة محرما فطاف وسعى ونحر نحو مائة من الابل ثم صعد الي بستان الشريف الذى في المحصب. وفي ثانى يوم نزل وصعد الى أعلى الصفا

وخطب فى الناس وتجددت له البيعة . وفى اليوم التالي أمر بهدم القباب التى في المعلى بما فيها قبة السيدة خديجة ثم هدم قبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد أبى بكر وعلى رضوان الله عليهما ثم أمر بمنع المؤذنين من الدعاء بعد الآذان وبعدم تكرار صلاة الجماعة فى المسجد الحرام فكان يصلى الصبح الشافعى والظهر المالكى والعصر الحنبلى والمغرب الحنفى وكانت العشاء لجميعهم. ثم ارتحل سعود عن مكة بعد ان اقام بها اربعة عشر يوما وسار بجنوده الى جدة طالبًا الشريف غالبا وحاصرها أياما فلم يتيسر له أخذها لحصانة سورها وقوة مدافعها التى نالت من رجاله كثيرا ثم ارتحل الى الشرق فعاد الشريف غالب الي مكة في أواخر شهر ربيع الاول ودخلها ظافرا ولم يعارضه الشريف عبد المعين وأخذت تفد اليه رؤساء القبائل لمحالفته واستمر في محاربة الوهابيين الى شهر القعدة سنة ١٢٢٠ وفيه انعقد الصلح بينه و بينهم على دخولهم مكة لاداء مناسك الحج ثم يعودون الى بلادهم . وكان الشريف غالب لما رأى ما حل بقومه من الضعف يمالئ الوهابيين ويتظاهر لهم بما يوافق مذهبهم فكان يأمر بهدم بعض ما بقي من قباب الصالحين بمكة وجدة وباختصار المؤذنين على الاذان دون السلام وغير ذلك من الامور التى توافق مذهب الوهابية فاطمأن لذلك خاطرهم وقفلوا راجعين الى بلادهم مبشرين باتباع الشريف لمذهبهم .

وفى سنة ١٢٢١ رجع المحمل الشامى من هدية من غير حج لانه لم يقبل شروط سعود الذى احرق المحمل المصرى فى مكة وأمر فنودى بان لا يأتى فى العام القابل للحج من يكون حليق الذقن ومن ثم انقطع المحملان عن الذهاب الى مكة . وفي هذه السنة أخذ سعود جميع المجوهرات التي في الحجرة الشريفة النبوية وكانت لا يقدر لها ثمن وطرد قاضى مكة والمدينة وكانا من طرف الدولة العلية . فلما بلغ السلطان محمود كل هذا ارسل الى محمد على بان يسير جيوشه لقتال الوهابى فلم يتيسر له تلبية هذا الامر فى وقته لانه منذ تولى علي مصر فى سنة ١٢٢٠ وهو يصل الليل بالنهار فى ترتيب داخليتها وتنظيم ماليتها وتقوية حربيتها ولما توالت عليه الاوامر السلطانية بذلك جهز أول حملة وارسلها الى ينبع تحت امرة ولده طوسون باشا فى رمضان سنة ١٢٢٦

فملكوها وما بعدها الى الصفراء بلا صعوبة وهنالك حصلت موقعة بينهم و بين عثمان المضايفي حاكم الطائف من قبل سعود وكان معه من الوهابيين عدد لا يحصى فانهزم الجيش المصرى وتشتت شمله فى هذه القفار وسار طوسون الى القصير و بقى فيها منتظرا ورود أوامر والده له .

وفي محرم سنة ١٢٢٧ جهز محمد علي جيشا وارسله بحرا الى ينبع وأمر طوسون باشا بالذهاب اليها للمحافظة عليها وجهز فى شهر صفر جيشا آخر وارسله من طريق البر تحت قيادة صالح أغا السلحدار ثم أخذ يوالى ارسال الجنود والذخائر برا و بحرا حتي اجتمع في ينبع قوة كبيرة فكاتبوا الشريف غالبا يسترشدون برأيه وصاروا يعملون بتدبيره ثم ارسلوا الى مشايخ حرب فجاءوهم فأحسنوا استقبالهم وأهالوا عليهم الخلع والاموال فساروا فى خدمتهم حتى دخلوا المدينة المنورة في شهر القعدة واخرجوا من كان فيها من الوهابيين وسارت فرقة من الجنود التى فى ينبع الى جدة من طريق البحر فدخلوها من غير ممانعة فلما علم بذلك عسكر الوهابى الذين بمكة خرجوا منها وتركوا قلاعها خاوية ثم سارت فرقة من الجنود المصرية من جدة الى مكة فقابلهم الشريف غالب بالاكرام التام ودخلوا مكة واحتلوا قلاعها ولما بلغ ذلك عسكر الوهابى الذين بالطائف تركوه وساروا الى الدرعية ولما وصلت البشائر الى مصر باستيلاء العساكر المصرية على المدينة المنورة وجدة ومكة أمر محمد علي باشا بتزيين القاهرة خمسة أيام وأرسل مبشرا الى الحضرة السلطانية بهذا الفتح المبين فكان لذلك يوم مشهود فى الاستانة .

وفي ١٤ شوال سنة ١٢٢٨ سار محمد علي باشا من مصر قاصدا الحجاز فوصل الى جدة في أواخره وكان الشريف غالب حضر لاستقباله فيها . وما استقر بها محمد علي حتى أتته رسل من عند سعود بطلب الصلح فاشترط محمد علي ان يدفع له سعود جميع المصاريف التي صرفت على العساكر من أول الحرب الى ذلك اليوم وأن يأتى هو لامضاء هذا الصلح بنفسه وفى اليوم التالى استعرض عسكره أمام هؤلاء الرسل فأدهشتهم حركاتهم ونظامهم وفى شهر ربيع الثانى سنة ١٢٢٨ مات سعود بالدرعية وتولى ابنه عبد الله . أما محمد علي فانه سار الى مكة وفي خدمته الشريف غالب ونزل فى بيت

القرطسي ونزل طوسون باشا في بيت السقاف بالشامية وكان كل من محمد علي والشريف غالب على حذر من بعضهما فأراد محمد علي أن يخلو له الجو فأمر ولده طوسون باشا بالقبض على الشريف غالب وأولاده وكان ذلك في اواخر القعدة سنة ٢٨ وولى بدله الشريف يحيى بن سرور امارة مكة ثم أرسل الشريف غالبا وأولاده الي جدة مع فرقة من العساكر ومنها الى مصر عن طريق القصير فوصل القاهرة في ١٧ محرم سنة ١٢٢٩ وقوبل فيها بالاجلال والاحترام وبقي فيها الي ١٩ شعبان حيث سافر مع أولاده حسب الارادة السلطانية الى سلانيك وأقام بها الي أن توفاه الله في سنة ١٢٣١ وفيها عادت أولاده الي مكة بمقتضى ارادة سلطانية وكانت مدة امارته سبعة وعشرين سنة .

أما محمد علي فقد كانت مدة اقامته بمكة يرتب أمورها ويغزو بجنوده كل قبيلة نبذت طاعته أو نقضت عهده وبعد أن حج سنة ١٢٢٩ توجه بعسكره الى الطائف ووقع بينه وبين الوهابيين في افتتاح سنة ١٢٣٠ جملة وقائع ملك بعدها تربة ورنية وبيشة وعسير وكان كل جهة يملكها ينظم شؤونها ويعين عليها أميرا من عنده وما زال ينتقل من امارة الى اخرى في جزيرة العرب حتى عاد الي مكة في شهر جمادى الاولى فرتب بها مرتبات الى كثير من الاشراف وغيرهم على حسب ما تقضي به المصلحة العامة وهي باقية لاولادهم الى الآن ثم رجع الى مصر بعد أن عين حسين باشا الارنئودى واليًا على مكة وأقام ابنه طوسون باشا قومندانا عاما على القوة العسكرية التي بالحجاز .

وفي شهر شعبان من هذه السنة عقد طوسون باشا صلحًا بينه وبين عبد الله بن سعود على أن يتركا الحرب ويحقنا الدماء وأن يذعن الوهابي لحكومة الحجاز وأرسل وفدا من علية قومه الى طوسون ليؤكدوا له هذا العهد فبعث بهم الى والده بمصر فلم يرق في عينه هذا الصلح . واستمر طوسون باشا في الحجاز الى ذى القعدة ثم رجع الى مصر بأمر من أبيه فوصلها في شهر ذى الحجة وعملت له زينة كبيرة وكان ولد له في غيبته ولده عباس باشا الاول وما زال بمصر حتى توفى سنة ٣١ بالطاعون وعمره نحو عشرين سنة

وفي محرم سنة ٣٢ أرسل محمد علي ولده ابراهيم باشا الى الحجاز لمحو أثر الوهابيين فسار في عسكر كثيف الي مكة ومنها الى الدرعية ولما وصل الي مكان يقال له موتان

وقع بينه و بين الوهابيين قتال شديد انتصر فيه عليهم واستولى بعد ذلك على مدينة الشقراء ثم سار الى الدرعية فحاصر فيها عبدالله بن سعود واستولى عليها بعد قتال شديد فى ذى القعدة سنة ١٢٣٣ ، وقبض على عبد الله ابن سعود أمير الوهابيين وعلى كثير من بنيه وأهليه وذويه وبعد ان جعل عالى مدينتهم سافلها سيرهم الى مصر . فلما أتت البشائر الى محمد على زين مصر زينة كبرى وأمر باطلاق الف مدفع ، و يقال ان المدافع التى أطلقت أيام هذه الزينة بلغت ثمانين الف مدفع . ووصل ابن سعود ومن معه الى القاهرة فى اوائل شهر المحرم سنة ١٢٣٤ فدخلوها في موكب عظيم وكان يوما مشهودا . وقابل محمد على ابن سعود ثانى يوم في سرايه بشبرا بصدر رحب وقدم اليه الوهابى صندوقا صغيرا فيه ما تبقي عنده من الجواهر التي أخذها أبوه من الحجرة الشريفة النبوية ومن ذلك ثلاثة مصاحف مكللة بالجواهر الثمينة وثلثمائة حبة كبيرة من اللؤلؤ وقطعة كبيرة من الزمرد . وارسل عبد الله بن سعود الى الاستانة فصلبوه على باب همايون. وعاد ابراهيم باشا الى مصر بعد أن حج سنة ١٢٣٤ وعملت له زينة كبيرة مدة سبعة أيام ومن ثم صارت بلاد العرب من أدناها الى اقصاها خاضعة لحكم محمد على .

اما ما كان من أمر آل سعود فانهم اجمعوا أمرهم لاسترجاع نجد الى حكمهم بعد ان هدم ابراهيم باشا دار ملكهم فتم لهم ذلك وكان الامير عليهم فيصل ابن تركى ولد عم عبدالله بن سعود ، فلما استفحل ملكه خافه محمد علي وسير اليه خورشيد باشا سنة ١٢٥٣ فاستولى على الدرعية بعد جملة وقائع حصلت بينه و بين الوهابيين وقبض على فيصل فى سنة ١٢٥٤ وارسله الى مصر ومعه كثير من آل سعود وولى الامارة بعده خالد ابن سعود فثار عليه عبد الله بن ثنيان وانتزعها من يده . فبلغ ذلك فيصلا بمصر وهو سجين بالقلعة وكانت له صلة بعباس باشا الاول فشكا اليه ما يلقاه من تغلب ابن ثنيان على بلاده ووعده ان هو خلصه من سجنه وصار له الحكم في قومه يصير من رجاله ومن رجال محمد على فساعده عباس باشا على الهرب . فسار فيصل حتي نزل على ابن الرشيد أمير شمر فاكرم وفادته وسار في بعض رجاله قاصدا بن ثنيان وبلغ ذلك قومه فبادر اليه كثير منهم وحاصر ابن ثنيان فى القصيم وأخذه أسيرا وسجنه حتى مات في سجنه . واستولى

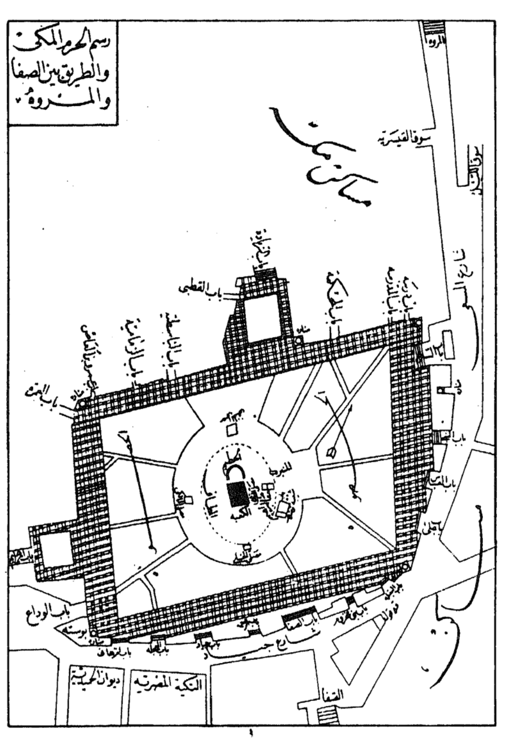
فيصل على نجد في سنة ١٢٥٨ واستقامت له الامور فيها الى ان توفي سنة ١٢٨٢ وتولى بعده بنوه وقد أخذ ملكهم يضعف و يقوى بضعفه ملك ابن الرشيد حتى استولى على نجد بتمامها ولما مات ابن الرشيد ضعف ملكه وأتى عبدالله بن سعود بن فيصل ونازع بنيه الملك واستولى على معظم ملكهم بمساعدة ابن صباح أمير الكويت ولولا انتصار الدولة لابن الرشيد لا كتسح ملكهم بتمامه والملك لله وحده .

الحرم المكى

كان الحرم المكي فى مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدود المطاف الآن وهي حدوده القديمة من عهد ابراهيم عليه السلام فلما كثر سواد المسلمين زاد فيه عمر وعثمان شيئاً مما اشترياه من الدور التى كانت حوله وزاد فيه عبد الله ابن الزبير عند ما بنى الكعبة واقام ما كان تهدم منه وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك وعمّره عمارة تذكر فتشكر وهو أول من نقل اليه اساطين الرخام . واهتمام الوليد بالعمارات لا ينكر يعرفه من شاهد قبة الصخرة بالقدس الشريف ورأى ما بقي فيها له من آثار الموزاييك الذهبي وغيره من اعمال القيشانى التى تدهش العقل ويحار فيها الفكر ، ويوجد فى المسجد الأموى بدمشق الى الآن من أثر عمارته به اعمال موزاييك ذهبية بديعه جدا على حائطى الصحن الجنوبى والغربى .

ولما حج الخليفة محمد المهدى سنة مئة وستين رأى ان البيت ليس فى وسط المسجد فاشترى كثيراً من البيوت خصوصاً فى الجهة الشرقية القبلية وزادها فى المسجد وادخل اليه كثيرا من الازورارات التى كانت فيه وكانت في ملكية الغير ثم أتى من بعده ابنه الهادى فاكمل ما نقص في مدة والده .

وكانت دار الندوة وسط الحرم تجاه الكعبة من الجهة الشمالية وكان ينزل بها



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الخلفاء والامراء فى حجهم فى صدر الاسلام ولكنها اهمل أمرها فى منتصف القرن الثالث الهجرى حتى أخذ يتهدم بناؤها فكتب في ذلك الى الخليفة المعتضد العباسى فأمر بها فهدمت في سنة احدى وثمانين ومئتين وجعلت مسجدا يلتصق بالحرم الشريف ثم جعلوا فيها قبة عالية ولها قبلة الى الكعبة ثم غير شكلها في ما بعد الى شكل آخر واستمرت مقاما يصلى فيه الامام الحنفى الى ان أتى الامير كلدى أمير جدة في سنة تسعمئة وسبع وار بعين فهدمها وبني المقام مربعا ذا طبقتين: الاولى للامام والمصلين والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو على هذا الشكل الى للآن.

وفى سنة ثمانمئة واثنتين احترق الرواق الشرقى فأمر الملك الناصر فرج بن برقوق ملك مصر بتعمير ما خرب منه ووضع بدل الاعمدة الرخام التى احترقت اعمدة من الحجر الشميسي ومن ثم كانت تقوم بعمارة الحرم ملوك مصر لاسيما العمارة التى قام بها السلطان قايتباي في سنة ست وثمانين وثمانمئة

وفى سنة تسع وسبعين وتسعمئة مال الرواق الشرقى في الحرم ميلا محسوساً فأمر السلطان سليم الثانى بعمارته وأمر بأن يرسل المعماريون والمهندسون والصناع من جميع الاصقاع فانزلوا سقفه جميعه واساطينه كلها وهدموا محيطه و بنوه على التربيع الباقى للآن واقاموا اعمدة الرخام بين اساطين حجرية متناسبة الوضع وبنوا عليها قبابا بدل السقوف التى كانت تطحنها يد الرطوبة المتخلفة من الامطار خلاف ما كان يكثر فيها من الحيوانات التى اشتهرت بعد اوتها للاخشاب كالارضة والسوس وغيرها من الحشرات المضره ومات السلطان اثناء هذه العمارة وكان الذى انتهى منها الجانب الشرقى والجانب الشمالى فقط أعنى من باب عليّ الى باب العمرة فلما تولى ولده السلطان مراد خان أمر بتتميم العمارة على الوجه الذى كان قد أمر به والده فتمت على أحسن حال بالشكل الذى تراه الآن وليس لمن بعده من السلاطين الا عمارات ترميمية أو تكميلية . وقد نزلوا فى هذه العمارة بارضية الشارع الموصل الى المسفلة بحيث صار يصرف ما عساه يدخل الى الحرم من مياه السيول التى كثيرا ما كانت سبباً في نقض اركانه وهدم بنيانه .

وكانت الزيادات التى تخلفت من الدور التى دخلت في تربيع الحرم الشريف

في كل عماراته يبني بعضها مدارس و بعضها أروقة يسكن بها فقراء طلبة العلم في المسجد وكان لها أوقاف جمه ولكن كثيرا ما تغيرت أوقافها واستبدلت بغيرها أو خرجت من يد واقف الى يد غيره أقوى منه ومن ذلك مدرسة قايتباى التى لا تزال للآن على يسار الداخل من باب السلام فانها بعد أن كانت مدرسة تدرس فيها علوم الدين ولها أوقاف بمصر تصرف غلاتها عليها ضعفت أوقافها شيئاً فشيئاً فنقلوها من دار علم الى دار ضيافة كان ينزل اليها امراء الحاج المصرى ثم صار يسكنها بعض عائلات الاشراف وهي فى أيديهم الى الآن . ولا يزال المحملان المصري والشامي يوضعان أيام وجودهما بمكة لصق حائطها الذى من داخل الحرم وبجوارهما من الخدم ما يقوم بحراستهما . وعلى يمين باب السلام مدرسة يقال لها المدرسة السليمانية بها كتبخانة بسيطة لا تخرج في الغالب عن الكتب الدينية .

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريباً) وفي وسطه يميل الى الزاوية الجنوبية الكعبة المكرمة . وطول ضلعه المقابل للحطيم وهو الذى فيه باب الزيادة مائة وأربعة وستون مترا وطول الذى يقابله وهو الذي فيه باب الصفا مائة وستة وستون مترا وضلعه الذى فيه باب السلام مائة متر وثمانية والذى يقابله وهو الذى فيه باب ابراهيم مائة وتسعة أمتار فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر الفاً وتسعمائة واثنين من الأمتار المربعة ، أما من الخارج فمتوسط طوله مائة واثنان وتسعون مترا وعرضه مائة واثنان وثلاثون مترا (حسب تحقيق المرحوم محمد صادق باشا أمير الحاج المصرى). ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة فيها ثلاثمئة وأحد عشر عامودا من الرخام يتخللها مائتان وأربعة وأربعون اسطوانة من الحجر الشميسي الاحمر تقوم عليها قباب على محيط المسجد . أما أبواب الحرم فهي ثمانية في الجهة الشمالية وهى باب درينة و باب المدرسة و بابُ المحكمة و باب الزيادة و بجواره الي الغرب باب القطبي ثم باب الباسطية و باب الزمامية و باب عمرو بن العاص ويليه من الجانب الغربى ثلاثة أولها باب العمرة (ويقال له باب بني سهم) ثم باب ابراهيم (وهو رجل خياط كان يسكن بجوار هذا الباب فسمى به) وفى رحبة هذا الباب تجد آلافا من فقراء الدكارنة والهنود والمغاربة

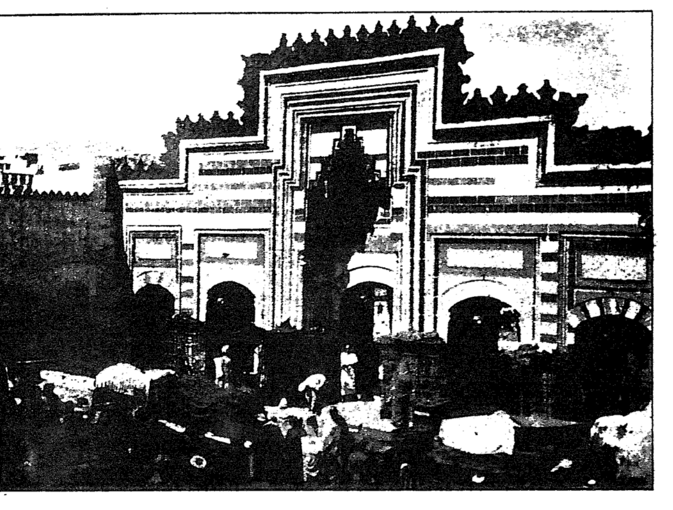
وفيهم كثير من المقعدين الذين لا يقدرون على الحركة فيمضون هناك ايام الموسم عائشين من حسنة ارباب الخير، وربما كان منهم بالمسجد ماتلجئهم الضرورة اليه مما لا يصح التوسع في شرحه !! وهذا امر لايليق بكرامة حرم الله ! فهل لحكومة الحجاز ان تفكر في امر هؤلاء البؤساء وتقيم لهم دار ضيافة يأوون اليها ولو في مدة الموسم؟ وعسى ان ديوان الاوقاف يفكر في اضافة مرتبات وقتية على مرتبات التكية يصرف منها فى ايام الحج على مثل هؤلاء التعساء من ضيوف الله .

والى جوار باب ابراهيم باب الحزورة ويليه من الجهة الجنوبية سبعة ابواب اولها باب ام هانئ ثم باب العجلة ثم باب الرحمة (او المجاهدية) ثم باب اجياد ثم باب الصفا ثم باب بنى مخزوم ثم باب السدلة ثم باب بازان ويلى ذلك من الجهة الشرقيه أربعة ابواب وهي باب بني هاشم (أو باب علي) ثم باب العباس (او باب الجنائز) ثم باب النبى ثم باب السلام وهو الذى يدخل منه الى الحرم عند طواف القدوم . ومجموع هذه الابواب اثنان وعشرون بابًا ولكن منها ماله مدخل واحد ومنها ماله مدخلان او ثلاثة او خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثون مدخلا . وفي المسجد ست منارات الاولى منارة باب العمرة وهي من اعمال الخليفة المنصور العباسى في عمارته للمسجد سنة مائة وثلاثين ثم منارة باب السلام ومنارة باب علي ومنارة الحزورة وهى من اعمال المهدى العباسي فى عمارته المسجد سنة مائة وثمانية وستين ثم منارة باب الزيادة وهى من اعمال المعتضد العباسي سنة مائتين واربع وثمانين ثم منارة السلطان قايتباى وقد حصلت في جميعها ترميمات وزيادات في مدة العمارة التى قام بها السلطان سليم الثانى في المسجد وكلها باقية للآن يؤذن عليها في الاوقات الخمسة . وشيخ المؤذنين او الميقاتى يؤذن على قبة زمزم وفيها مزولة مثبتة في حائطها الجنوبى من عمل رجل من مراكش اهداها الى الحرم وهي غاية فى الضبط والاحكام وعليها ميقاتهم في النهار فاذا دخل الوقت بدأ الرئيس بالأذان فيتبعه المؤذنون الذين على المنارات بأصوات يحركها الهواء على طبلة الأذن فيحدث منها اهتزازات فى القلب يمتلئ منها خشية ورهبة وخشوعًا وخضوعًا .

وعلى حدود المطاف تلقاء كل ضلع من أضلاع البيت سقيفة قامت على أعمدة

من الرخام : فالشمالية منها مصلى الامام الحنفي والغربية للامام المالكى والجنوبية للامام الحنبلي أما الامام الشافعى فيصلي في مقام ابراهيم أو في المطاف مما يلي الكعبة مباشرة جاعلا بابها على يساره . والحنفى يبتدئ بالصلاة في جميع الأوقات و يتلوه المالكى ثم الشافعى ثم الحنبلي الا صلاة الصبح فيبدأ بها الشافعى و يتأخر فيها عنهم الحنفى. ومما يلاحظ ان أهل كل جهة من العالم الاسلامي يجلسون عادة من الحرم في الجهة التى يستقبلون فيها الكعبة فى بلادهم فالاعجام تجدهم عند باب السلام والشوام والاتراك بينه و بين باب الزيادة والمصريون وراء المقام المالكى واليمانيون والهنود وراء المقام الحنبلي . وقد شاهدت ان بعض المصريين يستعمل البوصلة التى عملت للصلاة بمصر ولوحظ فيها الاتجاه لجهة مخصوصة ولا يمكن أن تؤدي وظيفتها الا في البلاد التى على اتجاه مصر من الكعبة أما اذا وضعت مثلا فى طريق المدينة أو اليمن أو الطايف فانها لا تؤدى وظيفتها بالمرة فليفهم ذلك من يجهله .

وللحرم صحن كبير غير مسقوف تقطعه ممشات محجورة وما بينها أرض بها زلط دون الفولة يسمونها الحصباء وأول من حصب ارضية الحرم هو عمر رضى الله عنه . والكعبة في وسط صحن المسجد بميل الى الجنوب و يليها من الشرق مقام ابراهيم وفي جنوبه الشرقى قبة زمزم التى بناها ابو جعفر المنصور في سنة مائة وخمس وار بعين وفرش ارضها بالرخام وعمقها المأمون ، اما الشبكة التى على فوهتها فقد امر بعملها السلطان احمد العثمانى . وشرقى زمزم الى الشمال باب شيبة وهو باب من الرخام قام في وسط الحرم في المكان الذى كان به باب المسجد فى مدته صلى الله عليه وسلم، وفي شمال المقام المنبر وهو من الرخام غاية فى حسن الصناعة اهداه الى الحرم السلطان سليمان ومكتوب على بابه بالخط الذهبى الجميل (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) . وأول من وضع المنبر في المسجد الحرام معاوية ابن ابى سفيان حين قدومه الى مكة حاجا وكان الخلفاء قبله يخطبون على أرضية المسجد تحت جدار الكعبة أو في الحجر . ثم اهدى اليه سنة مائة وسبعين منبر من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج الرشيد الذى خطب الناس عليه في حجه في السنة المذكورة وفي زمن الواثق أمر فعمل له ثلاثة منابر : واحد في



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

باب الصفا بالحرم المكى

الحرم والثانى فى عرفة والثالث في منى ، وخطب في حجه عليها جميعها . وقد كان الخطباء اذا ارادوا الخطبة فى الحرم وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الحجر والركن اليمانى فاذا أراد الخطيب ان يصعد المنبر استلم الحجر أولا ثم دعا وصعد المنبر ، وبعد الخطبة كان ينقل المنبر الى مكانه بجوار زمزم ، فلما اهدى السلطان سليمان اليه منبره الرخامي بقي مكانه واستمرت فيه الخطبة الى اليوم . وفى حوائط المسجد الحرام من الداخل أبواب بعضها منافذ لبعض المدارس على الحرم و بعضها مخازن فى يد خدمة المسجد أو الزمازمة وهؤلاء يستعملونها احيانا لاستحمام كبراء الحجاج فيها بماء زمزم أو وضوئهم منها .

وبالجملة فشكل (١) الحرم المدنى على بساطته فى بنائه فخم جدا ووضعه صحي وصحنه الكبير يؤدى بلا شك للمدينة وظيفة الميادين الكبرى كما سبق لك بيانه فى الكلام على مكة .

وللحرم الشريف شيخ برتبة مشير ومدير وأئمة وخطباء ومؤذنون وخدمة يقومون بشئونه ومنهم كثير من الاغاوات وأول من رتب الاغاوات فى الحرم المكي للخدمة هو الخليفة ابو جعفر المنصور أما الذين يقومون بخدمة الكعبه المكرمه فهم سدنتها من بني شيبه .

---

(١) ومما تراه على شكله جامع عمرو بمصر القديمة ومسجد احمد بن طولون بالقاهرة وان كان في مساحته اكبر من الحرم . وفي وسط صحن هذا المسجد الأخير قبة عالية تحتها ميضاة وضعت على شكل مربع لتقرب وضع بيت الله المعظم من المسجد الحرام تسميها العامة بالكعبة وبجوار هذه القبة من جهة القبلة ميدة (بفتح الاول وسكون الثانى) من الخشب يزعمون انها من سفينة نوح! فان كانوا وضعوا ذلك اكباراً لشأن هذه الكعبة المزورة فهل يمكنهم أن يرشدونا عن الزمان والمكان اللذين عثروا فيهما على آثار أول سفينة فى العالم سامحهم الله ؟

الكعبة

كان الله تعالى يرسل رسله الي خلقه في ظروف مخصوصة ليعلموهم واجباتهم فى دينهم ودنياهم ويرشدوهم الى طريق الخير الذي به تتم السعادة الحقيقية فاذا مضت على ذلك فترة من الزمن خبطوا فى سيرهم وخلطوا بين عمل صالح وآخر سيئ حتى اذا تغلب عامل الفساد بطبيعة الحال ساء أمرهم ونسوا رسالة ربهم اليهم وضلوا ضلالا مبيناً. ولما كان من طبيعة الوجود ضرورة وجود اله قوي قادر صار كل انسان يتخذ له الاهاً على ما يتجاسم فيضميره و يتعاظم فى وجدانه فكان هذا يعبد النار لزعمه أنها القادرة على كل شئ وذلك يعبد الشمس لأن بها نظام العالم وآخر يعبد الأحجار لانهاهيولىهذا الوجود. وهؤلاء الاخيرونهم الوثنيون الذين كانمنهم سوادالعالم خصوصاً في الفترة التى بين نوح وابراهيم بعد ان تفرقت الناس وتبلبلت الالسن وتغايرت طبائعهم باختلاف مواطنهم. (وهذه الفترة علىماورد فيالطبرىالف وتسعةوتسعون سنة).

وكان الكلدانيون فىجنوب بابل فى نقطة متوسطة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فارسل الله تعالى منهم ابراهيم فوجدهم يعبدون الاوثان وكان أبوه يصنعها لهم فعاتبه على ذلك، قال الله تعالى: «واذ قال ابراهيم لأبيه آزر اتتخذ اصناما آلهة انى أراك وقومك فىضلال مبين.»

وترك ابراهيم قومه وهاجر الي مدين وهناك أمره الله بالهجره بولده اسماعيل وأمه هاجر الى بلاد العرب فاقاموا بمكة حتى اذا كثر عمرانها أمره الله ان يبنى له بيتاً، وكان أول بيت وضع للناس يعبدون فيه ربهم عبادة صحيحة قال تعالي « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . هذا البيت هو الكعبة المكرمة التى بناها ابراهيم على شكل مربع زواياه الى الجهات الأربع حتي تنكسر عليها تيارات الهواء لكيلا يؤثر ضغط الرياح على كتلتها وهذه هي بعينها القاعدة التى بنيت عليها اهرام مصر وصارت محل اعجاب علماء العمارة بها الي الآن

ثم بنتها العماليق ثم جرهم كما ذكر الازرقى بالسند عن على أمير المؤمنين وعبدالله ابن العباس رضي الله عنهما . (وهذا خلاف لمن قال بان جرهم بنتها قبل العماليق) .

ولما آل أمر البيت الى قصي بن كلاب في القرن الثانى قبل الهجرة هدمها و بناها فاحكم بناءها وسقفها بخشب الدوم وجزوع النخل و بنى بجانبها دار الندوة وهي أول بناء بعد الكعبة فى مكة وكانت بها حكومته ومحل الشورى مع صحابته وكان لا يتم لهم أمر من الامور السياسية والاجتماعية الافيها ، ثم قسم جهات البيت العظيم بين طوائف قريش فبنوا دورهم علي المطاف حول الكعبة وفتحوا عليه أبوابها . وقبل بعثه صلى الله عليه وسلم بنحو خمس سنين هدم السيل الكعبة فاجمعت قريش أمرها واقتسمت القبائل بناءها وكان الذى يبنيها لهم باقوم الرومى فلما انتهوا الى وضع الحجر الاسود اختلفوا فى أى القبائل تختص بشرف وضعه في محله وكاد يفضى الامر الي اشهار السلاح فيما بينهم. وكان صلى الله عليه وسلم يعمل معهم وعمره اذ ذاك خمساً وثلاثين سنة وكان له فيهم شأن عظيم لحسن سيرته وكمال اخلاقه وكانوا يسمونه بالامين ، فارتضوه حكما ، فطلب رداء ووضع فيه الحجر وأمر القبائل فامسكت باطرافه ورفعوه بالحجر حتي اذا وصل الي مكانه من البناء فى الركن الشرقى وضعه فيه بيده الشريفة ، وبهذه الفكرة السامية والسياسة الرشيدة انتهت الشحناء من بين القبائل وهم له شاكرون و بشدة ذكائه متحدثون . وكانت النفقة قدقصرت بهم فبنوها علي ماهي عليه الآن ، وكان الحجر أولا داخلافيها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة رضي الله عنها : « لولا ان قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة فالزقتها بالارض ولجعلت لها بابا شرقياً و بابا غربياً وزدت فيها ستة اذرع من الحجر فان قريشا استقصرتها حينما بنت الكعبة ».

فلما ولى عبدالله بن الزبير أمر مكة فى عهد يزيد ابن معاوية ارسل يزيد اليه الحصين بن نمير فى عسكر كثيف فالتجأ ابن الزبير الي المسجد الحرام فضربه الحصين بالمنجنيقات فاصابت بعض مقذوفاتها الكعبة فهدمتها واحرقت كسوتها مع بعض اخشابها حتى اذا بلغه هلاك يزيد رجع بمن معه عن مكة . ورأى بن الزبير ان يهدم الكعبة و يبنيها على قواعد ابراهيم مستندا على حديث عائشة السابق ذكره فهدم الكعبة وأتى لها من اليمن بالجص النقي

فبناها به وادخل الحجر فى البيت والصق الباب بالارض وجعل قبالته الى الغرب بابا آخر ليخرج الناس منه وجعل ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعا ولما فرغ من بنائها طيبها بالمسك والعنبر داخلا وخارجا من اعلاها الى اسفلها وكساها بالديباج وكان انتهاؤه من عملية هذا البناء فى ١٧ رجب سنة ٦٤ للهجرة . فلما كان فى عهد عبد الملك بن مروان سير الحجاج بن يوسف الثقفى الي ابن الزبير فحاصره فى مكة ورماه بالمنجنيق حتى استشهد رضي الله عنه فى سنة ٧٣ ، ودخل الحجاج مكة وكتب الى عبد الملك بما جدده ابن الزبير فى الكعبة فأمره ان يعيدها كما كانت فى عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم فهدم الحجاج من جانبها الشامى (الشمالى) قدر ستة اذرع وشبر و بنى ذلك الجدار على اساس قريش ورفع الباب الشرقى وسد الغربى ولم يغير من باقيها شيئاً وكبس ارضها بالحجارة التى فصلت عنها .

وعليه فالكعبة الآن على بناء ابن الزبير من جوانبها الشرقى والجنوبى والغربى وبناء الحجاج من جانبها الشمالى ولم يطرأ عليها بعد ذلك الا العمارة التى تغير فيها سقفها فى زمن السلطان سليمان سنة ٩٦٠ والعمارة الترميمية التى حصلت فى زمن السلطان احمد سنة ١٠٢١ وموجود تاريخها محفورا فى قطعة من الرخام مبينة فى الشاذروان على يمين المعجن وهذا نصها « بسم الله الرحمن الرحيم » انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين أمر بعمارة سقف البيت الشريف وتجديد ميزاب الرحمة وتقوية جدار بيت الله الحرام السلطان احمد فى شهر محرم سنة ١٠٢١ » . ثم اعقب ذلك العمارة التي قام بها السلطان مراد الرابع عقب السيل الهائل الذى حصل فى سنة ١٠٣٩ .(وقد وصل ارتفاعه الي مترين فوق أرضيتها) فهدم من حوائطها الشمالى والغربى والشرقى أما ما عمر فيها بعد ذلك فشيء لا يذكر.



مساحة الكعبة

والكعبة من الخارج على التعديل الذى رجع اليه الحجاج ، وهو ما كانت عليه مدة النبي صلى الله عليه وسلم وما هي باقية عليه للآن ، ذات شكل مربع تقريباً مبني بالحجارة الزرقاء الصلبة يبلغ ارتفاعه خمسة عشر مترا وطول ضلعه الذى فيه الحجر الاسود والذى قبالته عشرة أمتار وعشرة سنتيمترات والحجر (بفتح الحاء والجيم) موضوع على ارتفاع متر واحد وخمسين سنتيمترا من أرضيه المطاف ، والضلع الذى فيه الباب والذى يقابله اثنا عشر مترا ، وبابها على ارتفاع مترين من الارض ، ويصعد اليه بواسطة مدرج يشبه مدرج المنبر ولا يوضع فى مكانه منها الا اذا فتح بابها للزائرين في الاحتفالات الكبرى وهو غالباً لا يزيد عن خمس عشرة مرة فى السنة وفيما عدا ذلك ترى هذا المدرج بجوار قبة زمزم من جهة باب شيبه ويصعدون اليها بسلم صغير من الخشب .

وتفتح الكعبة في العاشر من المحرم للرجال وفى ليلة الحادى عشر منه للنساء وفي ليلة الثانى عشر من ربيع الأول للدعاء للسلطان وفي صبيحة تاليه للرجال وفى مسائه للنساء وفى العشرين منه لغسيل الكعبة بحضور الشريف والوالى وفى أول جمعة من رجب للرجال وفي تاليه للنساء وفى ليلة السابع والعشرين منه للدعاء للسلطان (دون أن يدخلها أحد من الزائرين) وفى صباح تاليه للرجال وفي مسائه للنساء وفى ليلة النصف من شعبان للدعاء للسلطان وفى صباح تاليه للرجال وفي مسائه للنساء وفي يوم الجمعة الاولى من رمضان للرجال وفى تاليه للنساء وفى ليلة السابع عشر منه للدعاء للسلطان وفى آخر جمعة منه كذلك وفي نصف القعدة للرجال وفى تاليه للنساء وفى عشرين منه لغسيل الكعبة وفى الثامن والعشرين منه لاحرامها (أعني احاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرضية المطاف) وتفتح في موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظير أجر يأخذه سدنتها . وتفتح الكعبة أيضاً بعد الحج في نحو العشرين من الحجة لغسيلها .

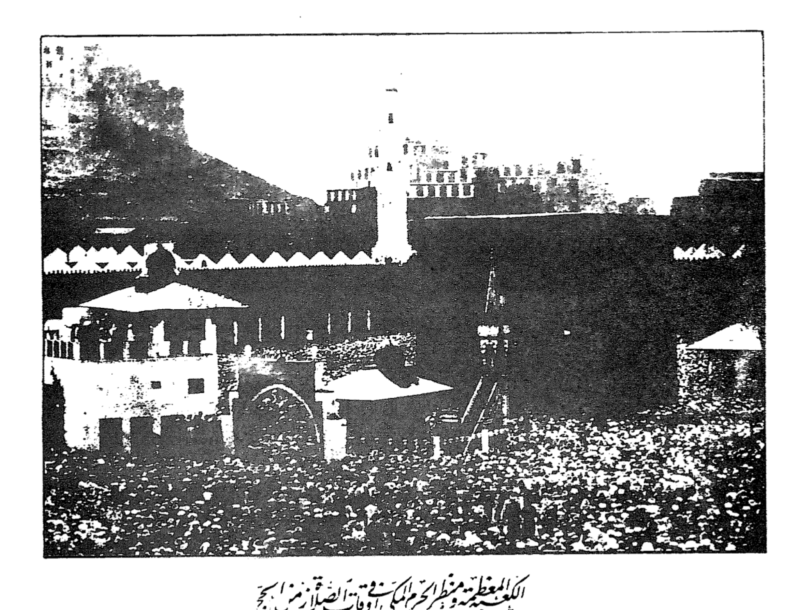
ولغسيلها احتفال كبير بحضره الشريف والوالى وأعيان مكة وعظماء الحجيج . وكيفية

ذلك أن يدخل دولة الشريف في مقدمة الداخلين اليها و بعد أن يصلي ركعتين يؤتى اليه بجرادل الماء من عين زمزم فيغسل أرضها بمقشات صغيرة من الخوص و يسيل الماء من ثقب فى عتبتها ثم يغسلها بماء الورد و بعد ذلك تضمخ أرضيتها وحوائطها على ارتفاع الأيدى بالخلوق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك وفي أثناء ذلك يكون البخور بالند والعود صاعدا من جميع جهاتها ، وبعد ذلك يقف الشريف على الباب ويلقي عن الحجاج الذين يكونون قد وقفوا آلافا مؤلفة في المطاف الى باب شيبة تلك المقشات التى كانت تغسل بها الكعبة فيتزاحمون عليها و يتلقفونها بحال غريبة جدا ومن يحصل منهم على واحدة كأنه حصل على أثمن شئ فى العالم بل تكون عنده خيرا من الدنيا وما فيها فيحفظها على سبيل البركة لانها أثر من بيت الله المعظم ، وقد يأتى بعض القوم وخصوصاً المطوفين والزمازمة بمقشات كثيرة يغمرونها بالماء و يدعون أنها من التي غسلت بها الكعبة و يبيعونها علي الحجاج الواحدة بنصف ريال على الاقل ! !

ويحيط بالكعبة من خارجها قصبة من البناء فى أسفلها متوسط ارتفاعها خمسة وعشرون سنتى متر ومتوسط عرضها ثلاثون سنتى متر وتسمى بالشاذروان وهي من أصل البيت تركت خارجا عنه فى بناء قريش لها قبل الاسلام .

وعلى ظنى ان الشاذروان من أثر عمارة الحجاج صنعه ليقى جدارها به من تأثير الامطار والسيول التى كانت تنزل الى المطاف كما يدل عليه لفظه الفارسى الذى لا بد ان يكون من وضع عملة من الفرس استحضرهم لها فى عمارتها ولا يبعد ان يكون ذلك من عهد ابن الزبير يؤيده ما ورد فى الاغانى من ان ابن سريج سئل عمن تعلم الغناء على القاعدة التى كان يغني عليها والتي ما كانت معروفة عند العرب فقال أنه تعلمها من عملة من الفرس كان ابن الزبير استحضرهم لبناء الكعبة وكانوا يتغنون باغنية لطيفة فاخذها عنهم واضاف نغماتها على النغمات العربية وغنى بها . وعلى كل حال فالشاذروان والميزاب لم يرد ذكرهما على مدته صلى الله عليه وسلم .

والشاذروان معناه ما يحيط بالسلسبيل وكانوا يطلقونه فى العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات التى كانت فى وسط القاعات الكبرى .



الكعبة المعظمة ومنظر الحرم المكي في أوقات الصلاة زمن الحج

ويسمون زوايا البيت الخارجة بالاركان فالشمالى منها يسمونه بالركن العراقى لانه الى جهة العراق والغربى يسمونه الشامي لانه متجه الى جهة الشام والقبلي يسمونه اليمانى لاتجاهه الى اليمن وفيه حجر يسمونه الحجر الأسعد والشرقى ويسمونه بركن الحجر لأن فيه الحجر الاسود وهو حجر صقيل يضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل الى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهي أثر لحام القطع التى كانت انفصلت منه وقطره نحو ثلاثين سنتى مترا ويحيط به ازار من الفضة عرضه عشر سنتى مترات والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهي ما يلتزمه الطائف فى دعائه واستغاثته .

وأما الكعبة من الداخل فشكلها مربع مشطور الزاوية الشمالية وهي التي على يمين الداخل وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة يؤدى الى سلم صغير يصعد به الى سطحها .

وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القاقلي عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الاسود من الاخرى . وقطر كل عمود نحو ثلاثين سنتى مترا وهذه الاعمدة من زمن عبد الله بن الزبير وقيمتها اكبر من ان يقدر لها ثمن (وقد ذكر أنه كان فيها على عهده صلى الله عليه وسلم ست عمد ولا أدرى ان كانت من البناء أو من الخشب) ويغطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها (الله جل جلاله) قد أهداها اليها السلطان عبد العزيز رحمه الله وفي قبالة الداخل من الباب محراب النبى عليه الصلاة والسلام .

ويحيط ببنائها من الداخل ازار من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين وقد وضع فى الحائط الغربى الواح محفور في الأول منهـا « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد المفتقر الى رحمة ربه يوسف بن عمر ابن علي رسول ، اللهم أيده يا كريم بعزيز نصرك واغفر له ذنوبه برحمتك يا كريم ياغفار يا رحيم . ومكتوب حول هذه اللوحة : «رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والدىّ وأن اعمل صالحاً ترضاه لى بتاريخ سنة ثمانين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

وصحبه وسلم » والي جواره لوحة مكتوب فيها « أمر بتجديد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه مولانا السلطان بن السلطان السلطان محمد خان سنة سبعين والف » ثم لوحة اخرى فيها ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم تقرب الى الله تعالى بتجديد رخام هذا البيت المعظم المشرف العبد الفقير الى الله تعالى السلطان الملك الاشرف أبو النصر برسباى خادم الحرمين الشريفين بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله بتاريخ سنة ست وعشرين وثمانمائة» وفى لوحة اخرى « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة البيت المعظم الامام الاعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله أقصى أماله وتقبل منه صالحا عماله في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم» . ثم لوحة اخرى منقوش فيها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت العتيق المعظم الفقير الى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين الشريفين مؤمن الحجاج فى البرين والبحرين خادم الحرمين المحترمين السلطان ابن السلطان السلطان مراد خان ابن السلطان احمد خان ابن السلطان محمد خان خلد الله تعالي ملكه وأيد سلطته في آخر شهر رمضان المبارك المسطر في سلك شهور سنة أربعين بعد الالف من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والتحية» وفى الجدار الشرقى لوح مكتوب فيه« أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك ابو النصر قايتباى خلد الله ملكه يارب العالمين عام اربع وثمانمائة من الهجرة » وفي الجدار الشمالى مكتوب على باب التوبة هذه الايات (١)

قد بدا التعمير فى بيت الاله	قبلة الاسلام والبيت الحرام
أم خاقان الورى مصطفى خان	دام بالنصر العزيز المستدام
بادرت صدقا الى التعمير ذا	انما كان بالهام السلام
وارتجت من فضله سبحانه	ان يجازيها به يوم القيام
قال تاريخا له قاضى البلد	عمرته أم سلطان الأنام

(١) ومن هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية وخصوصاً في القريض منها ببلاد العرب حوالى القرن الحادى عشر للهجرة .

بمباشرة احمد بك فى تسع ومائة والف » وفى البيت حجر مكتوب بالكوفى لم تمكنا قراءته لانه قديم جدا ويقال أنه من القرن الاول للهجرة وان صح ذلك كان من عمل الحجاج بن يوسف . وبجانب الباب على يسار الداخل طاولة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير الاخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو من الاطلس الاخضر المزركش بالقصب يأتى اليها من مصر مع الكسوة الشريفة ويقال أنه معلق بسقفها كثير مما بقي من الذخائر التى اهديت اليها ومن ذلك عدة مصابيح ذهبية وفضية من ضمنها مصباحان ذهبيان مرصعان بالجوهر كان اهداهما اليها السلطان سليمان سنة ٩٨٤

ويخرج من وسط الحائط الشمالى الغربى (من أعلاه) الميزاب (المزراب) ويقال له ميزاب الرحمة وهو من عمل الحجاج وضعه على سطحها حتى لا تقف عليه مياه الامطار وكان من نحاس فغيره السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ بآخر من الفضة وتجدد في سنة ١٠٢١ مدة السلطان احمد بغيره من الفضة المنقوشة بالمينا الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية (وهو محفوظ الآن في دار الآثار السلطانية الخصوصية بالاستانة وقد شاهدته بها فى العام الماضى وفي سنة ١٢٧٣ ارسل اليها السلطان عبد المجيد ميزابا من الذهب وهو الموجود بها للآن .

وقبالة الميزاب من الخارج يوجد الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتى البيت ويبعدان عنها ٣٥ س ٢ م ويبلغ ارتفاعه مترا وسمكه مترا ونصفا وهو مغلف بالرخام المنقوش وفى محيطه كتابة من أعلاه بالخط المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من قام بعمارته ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة ثمانية امتار واربعة واربعين سنتياً . والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمونه بحجر اسماعيل (بكسر الحاء وسكون الجيم) وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في بناء ابراهيم وهي الزيادة التى كان ابن الزبير ادخلها في بنائه والباقى كان زريبة لغنم هاجر وولدها ويقال ان هاجر واسماعيل مدفونان بالحجر .

الكعبة قبل الاسلام و بعده

كانت الكعبة قبل الاسلام بنحو ٢٧ قرنا ذات منزلة سامية عند العرب باجمعهم بين وثنيهم ويهودهم ونصاراهم . وقد تجاوزت مكانتها جزيرة العرب الى بلاد الفرس الذين كانوا يعتقدون ان روح هرمز حلت في الكعبة ثم الى بلاد الهنود وكانوا يعتقدون ان روح شبوه أحد آلهتهم (وهو الاقنوم الثالث من تمثال بوذا) قد تقمصت في الحجر الاسود حين زيارته مع زوجته لبلاد الحجاز ويسمون مكة (مكشيشا) أو موكشيشانا ، وقدماء المصريين كانوا يسمون بلاد الحجاز بالبلاد المقدسة ، واليهود يحترمونها وكانوا يتعبدون فيها على دين ابراهيم ، والنصارى من العرب لم يكن احترامهم لها بأقل من احترام اليهود اياها . وكان لهم بها صور وتماثيل منها تمثال ابراهيم واسماعيل وفي أيديهما الازلام وصورة العذرا والمسيح . وقد وضعت العرب اصنامها عليها على تغاير معبودات القبائل والعشائر حتى اجتمع على سطحها من الاصنام (٣٦٥) صنما وكان أول من ادخل عبادة الاوثان الى مكة ووضع الاصنام على الكعبة عمرو بن لحي كبير خزاعه حينما ولي أمر البيت وكان قد سافر الى الشام فأخذ عنها عبادة الاوثان وخصوصاً عن الثموديين الذين أخذ عنهم عبادة هبل واللات ومنات وغيرها وكانت من الهتهم كما تدل عليه النقوش الموجودة على آثارهم وتبعته في ذلك قبائل العرب فكانت كل قبيلة تأتي بصنمها وتضعه عليها . ومع شيوع الوثنية في العرب فانها كانت فيهم أقل منها في سواهم لانهم لم يكونوا يعبدون الاوثان لذاتها كما كان الشأن في وثنيي الهند والصين والرومان والمصريين وغيرهم بل كانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى .

وما زالت الكعبة على هذا الشأن حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في السنة الثامنة للهجرة فأمر بازالة ماعليها من الاصنام . وفي حديث اسامة انه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فرأى صورا فدعا بماء فجعل يمحوها وقد ذكر الازرقي عن ابن عائذ عن سعيد بن عبد العزيز ان صورة عيسى وامه بقيتا في الكعبة حتى رآهما

بعض من اسلم من نصارى غسان وقال عمر بن شبة حدثنا أبو عاصم عن جرير سأل سليمان بن موسى عطاء «: أأدركت فى الكعبة تماثيل؟قال نعم أدركت تمثال مريم في حجرها ابنها عيسى مزوقا» (انظر صحيفة ستين من كتاب بلوغ الارب فى مآثر العرب).

هذا كان شأن الكعبة فى الجاهلية قد اجمعت جميع الناس على اختلاف دياناتهم على احترامها واتخذها كل منهم معبدا يعبد الله فيه على حسب دينه أو مذهبه، وهذا في بابه لم يقع له نظير فى الوجود بالمرة، اللهم الا بيت المقدس الذى يحترمه المسلمون والنصارى واليهود، وان كان لكل مكان يتعبد فيه على حدته. فهل تريد برهانا على شرفها واحترامها غير هذا الاجماع من قوم كانوا بقطع النظر عن اختلاف دياناتهم اذا جمعتهم كلمة فرقتهم اخرى ؟

ولقد بلغ من سمو مكانتها فى النفوس ان جعلوا لها حرما من جميع جوانبها واسع الاطراف بعيد الاكناف لا يدخله الانسان الا وهو محرم، وكل من دخله صار آمنا. قال تعالى محتجا على أهل مكة «أو لم يروا أنا جعلنا لهم حرما آمنا و يتخطف الناس من حولهم»

ولم يقف احترام هذا الحرم على تأمين الانسان بل تناول الحيوان بل تناول النبات.

ومسافة ما بين دائرة هذا الحرم ونقطتها المركزية التى هي الكعبة من جهة الشمال والشرق والجنوب تبلغ تقريباً خمسة عشر كيلو مترا أما من جهة الغرب فتبلغ ثلث هذه المسافة. وعلى حدّ الحرم من الجنوب مكان يقال له أضاه (على وزن نواه) ومن الشمال الغربى مكان يقال له الحديبية ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له الجعرانه اعتمر من كليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن وراء هذه الدائرة دائرة اخرى يحرم منها كل من تجاوزها قاصدا الدخول الى مكة وهي وان كانت حلالا الا أنها تعتبر فناء للحرم. ولا شك أنه لوحظ فى ابعاد الحرم عمران الجهات الثلاث الاولى حتى اذا قصدها منهم من أراد مكة بشر فلا يكونون وصلوا الى حدود حرمها حتى يكون أهله قد استعدوا لحربهم ودفعهم عن حوزتهم. أما الجهة الغربية وهى جهة البحر فليس فيها من القبائل ما يخشى من عدوانه لذلك جعلوا حد الحرم فيها من التنعيم وهو مكان على مسافة نحو خمس كيلو مترات. وعليه فميقات الاحرام اشبه شئ بالجهة التى

يصلح المرء فيها من شأنه عند ما يريد مقابلة ملك من الملوك،وحد الحرم هو فناء بيت الملك حتى اذا دخل اليه اكمل استعداده للتشرف بلقاء الملك: فتراه وقد أخذ منه الاحتشام كل مأخذ يسير الى قاعة الاستقبال بغاية ما يمكن من الادب حتى لكانه على مرأى منه ومسمع. وقدشاهدت ما يماثل ذلك في طوب سراي بالاستانة العلية : رأيت حجارة منصوبة الى اليوم على ابعاد مختلفة في الحوش الداخلي لهذه السراي وفي فناء مخصوص لجلوس السلطان من بني عثمان فى الزمن الخالى،وكان القادم على السلطان من الامراء والسفراء اذا حاذى كل حجر من الاحجار المذكورة سلم بسلام مخصوص حتى اذا وصل اليه قبل الارض بين يديه.

ولقد بلغ من شأن الكعبة فى الجاهلية أن الناس كانوا يحجون اليها من جميع انحاء بلاد العرب وغيرها وكانت أشهر الحج الاربعة (شوال والقعدة والحجة والمحرم) حرما،وقد عظمت حرمة هذه الشهور عندهم حتى أنهم كانوا يرمون فيها السلاح الذى كان آلة حياتهم التى كان مدار وجودها على الغزو ولا تزال هكذا الى الآن فى كثير من أطرافها. وكانت هذه الشهور كلها هدنة بين القبائل بأجمعها حتى لا يقف العداء حجر عثرة في طريق الحاج منهم. وكانوا يجتمعون قبل الحج أهل الشمال فى بدر ومجنا(مر الظهران وهو على بعد نحو مرحلة من مكة الى الشمال الغربى) وأهل الجنوب فى ذي المجاز (وهو على مرحلة من عرفة شرقا الى الجنوب) وأهل الشرق فى عكاظ، وتبعد بمرحلتين كبيرتين عن مكة (مائة كيلو متر تقريباً)، وهى واقعة فيما بين قرن المنازل والطايف، وقد اتخذها العرب سوقا بعد الفيل بخمسة عشر سنة واستمرت الى سنة ١٢٩ ثم ابطلت اكتفاء بسوق عرفة ومكة. وعليه فقد كانت هذه الاسواق بمثابة معارض للتجارة ومؤتمرات للآداب ومكارم الاخلاق وأظنك تحكم معي بأنهم من أسبق الناس اليها بل سبقوا بها الحكومات المتمدنة بقرون عديدة وكانت هذه السوق تقوم صبح هلال ذى القعدة وقد قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة بعد البعثة لينشر فى القبائل دين الاسلام، وفيه تقابل صلى الله عليه وسلم بقس ابن ساعدة . وكانت عكاظ اكبر أسواق الجاهلية لانها تلي اكثر جهاتها سكانا واعظمها قوة ومنعة، وكانوا يبيعون فيها و يشترون و يتناشدون اشعارهم

ويتفاخرون بما كان لديهم من نسب كبير وعمل خطير، وكان لهم مجلس تحكيم يعرف للناس مكانتهم وشجاعتهم وفصاحتهم وآدابهم ، وربما كان فيه العدو يشهد لعدوه بالسبق من طريق الحق، وكثيرا ما كان هذا الاحتكاك السلمي يؤدي الى المصالحة بعد المكالحة فتنال الانسانية من وراء هذا الاجتماع خيرا كثيرا،وكان من سبق منهم أخذت كلمته وعلقت فى داخل الكعبة تكريما له واشهادا من الله بانه من السابقين .

وأشهر هذه المعلقات واكبرها بلاغة سبع كان معظمها ولا يزال مدرسة لسمو النفوس ومعالى الهمم وبقي بعضها الى يوم الفتح وحرق أغلبها فيما حرق من الكعبة قبل الاسلام . ولم تقتصر هذه السنة على الجاهلية بل اتبعت في الاسلام: فقد كتب هارون الرشيد عهدا بالخلافة الى ولده الامين من بعده ثم الى ولده المأمون وارسل به فعلق في الكعبة الى زمن الأمين حتى استدعى به ومزقه. ثم صار بعد ذلك كل من قام بشرف الخدمة فى البيت الحرام من الملوك والسلاطين يتيمن بكتابة اسمه داخلها بجوار ذكر الاثر الذى له فيها .

ما زالت الكعبه محترمة في الجاهلية حتى أتى الاسلام وجعلها الله فى السنة الثانية للهجرة قبلة للمسلمين حيثما كانوا ، وكانوا يصلون الى بيت المقدس : قال الله تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم " قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره "، فكان كذلك وصارت الكعبة قبلتهم في صلاتهم تتوجه اليها وجوههم وتعنو لله فى قبالتها جباههم فى أى نقطة كانوا من هذه الكرة الارضية، لا فرق بين شمالى وجنوبى وشرقى وغربى بعيد أو قريب وبذلك اصبحت عندهم مركز الدائرة التى يرتبطون بها جميعاً بحبل دينهم المتين: دين التوحيد ، دين المساواة ، دين الاخاء ، دين الحرية الصحيحة، ولها في نفوسهم من الاجلال والاعظام مالا يقوى على تعبيره لسان أو يتخيله جنان، لا فرق في ذلك بين أهل مذهب ومذهب آخر ، بل ترى المسلمين على اختلاف مذاهبهم يصلون حولها وراء أى أمام كان ، وهذا لا يدل فقط على التسامح الموجود بين المسلمين، بل فيه اكبر برهان على التضامن الموجود بينهم وتوحيد الغاية التى يرمون اليها في

عبادتهم ، وهـذا التسامح لا نراه موجودا بالمرة بين مذاهب الديانات الاخرى . وقد جعـل الله تعالى طوافها من فرائض الحج الذى جعله فرض عين على كل مسلم يستطيع اليه السبيل في أى زمان أو مكان كما جعـله فرض كفاية كل سـنة على عموم المسلمين يسقط بقيام البعض به فان أهملوه أثموا جميعاً . ومن الغريب ان كل من يعثر بصره لاول وهلة علي الـكعبة تراه فى دهشة كبيرة، لا لـكون بصره وقع على شئ لم يتعود النظر اليه ولـكن لما يعتريه من الخشية والرهبة!! فترى هؤلاء المشاهدين تأخذهم هزة كبيرة من هذا المنظر المهيب ، ومنهم من يقف لحظة في مكان المتأدب المستكين المتصاغر أمام هذه العظمة الـكبرى ومنهم من يصرخ بصوت الخوف ولسانه يلهث بكلمات منفصلة عن بعضها، ومنهم من يجهش بالبكاء فلا تسمع له غير نحيب يختنق معه صوته وتتقطع منه أنفاسه ! ! وعلى كل حال فنسبة خوف الانسان من ربه على نسبة مع قوة دينه ومتانة يقينه .

الطواف

والطواف هو قطعك ما يحيط بالـكعبة من دائرة المطاف سبع مرات و يقال لها أشواط. و يشترط فى الطواف الطهارة التامة (و يجب أن لا يكون فى يدك مثل مداس أو غيره من الاشياء الوسخة) وتبتدئ كل شوط من الحجر الاسود فاذا حاذيته تقربت منه وقبلته ان أمكنك والا توجهت اليه قائلا ""اللهم انى نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط فيسرها لى وتقبلها مني""ثم تسير مسلماً بيدك قائلا ""بسم الله اكبر""وتطوف جاعلا البيت على يسارك من وراء الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) و بعيدا عن الشاذروان .والمطاف على شكل دائرة مستطيلة من الشمال الى الجنوب وقـد فرشت أرضه بالرخام من مدة السلطان سليمان وهو على حـدود الحرم من عهـده عليه الصلاة والسلام، ومسافته من جهة الغرب والجنوب نحو ١٩ مترا ومن جهة الشمال والشرق نحو

١٢ مترا وفيه مما يلي باب الكعبة الى الشمال جزء مربع منحط عنه، سعته نحو مترين من كل جهة يسمى المعجن (وهو ما كان يعجن فيه اسماعيل المؤنة التى كان يستعملها ابراهيم في بناء الكعبة) وقد وجدنا فيه كتابة محفورة فى قطعة من الرخام الى جهة الكعبة هذه صورتها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف الشريف سلطان الانام الامام الاعظم المفروض الطاعة على سائر الامم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله فى شهور ستة وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله »

وعليه فقطر دائرة المطاف من الشمال الى الجنوب نحو ٥١ مترا وقطره من الشرق الى الغرب نحو ٤١ مترا والكعبة تقريبا فى وسطها . فاذا اعتبرنا أن متوسط ما يقطعه الطائف حول الكعبة مائة مترا في كل مرة ، ففى السبعة أشواط يقطع سبعمائة مترا واذا عرفت ان الحاج يطوف مرات متعددة فى اليوم الواحد أقلها مرة بعد كل صلاة فى الصلوات الخمس أو بعدها، علمت أن الحاج بين شاب وشائب وذكر وانثى وطفل يقطع فى طوافه اليومى على رجليه نحو أربعة كيلو مترات على الاقل ، بل منهم من يقطع أضعاف ذلك قبل و بعد الصلاة الواحدة .

وذكر ابن بطوطة في رحلته انه رأى وزير غرناطة وكبيرها أبا القاسم محمد الازدي وكان يطوف كل يوم سبعين اسبوعا ولم يكن يطوف وقت القائلة لشدة الحر: فكأنه كان يقطع في طوافه كل يوم سبعين كيلو مترا .

وفى المطاف ترى شيئاً غريبا جدا ترى من لم يكن لهم قدرة على المشي اجلسوا فى محفة وحملها اربعة على رؤوسهم أو اكتافهم لتأدية هذه المأمورية واغلب هؤلاء من الهنود وخصوصاً البنغاليين أو الجاويين، لان سواد حجاجهم ممن جاوزوا الثمانين يأتون الى هذه الاماكن المقدسة رجاء موتهم بها وهم يرون فى ذلك كل سعادتهم و يعملون له طول حياتهم. ولذلك فانك تجد هذين الجنسين بؤرة الامراض التى تتفشى فى الحجيج لان حالتهم الصحية تتأثر باقل مؤثر وليس فيهم من القوة ما يقوى على دفعه بل حالتهم المعاشية تساعد الامراض بالف يد على الفتك بهم !!

ولقد ذكر أهل السنة للطواف فضائل كثيرة وحثوا على الكثرة منه وقالوا ان لم

يتيسر للانسان ذلك فيجمل به ان يجلس في المسجد مستقبلا الكعبة مشاهدا فيها .

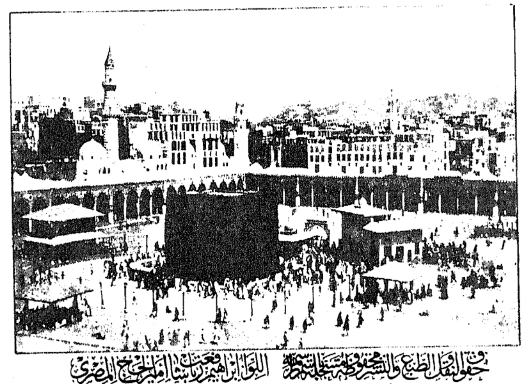
و بعد الطواف يذهب الطائف الى حجر اسماعيل فيصلي به ركعتين سنة الطواف يختمه بهما وان لم يستطع ففى مقام ابراهيم وهو قبة ضربت على اربعة اعمدة احاطت بها مقصورة نحاسية مربعة يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثة امتار وستين سنتيمترا وهى على آخر المطاف تجاه باب الكعبة وفى داخلها الحجر الذى كان يقف عليه ابراهيم حال بناء الكعبة. و به أثر يقال انه أثر قدميه ، و يقول بعضهم أنه هو المقام وكان هذا الحجر قبل الاسلام موضوعا بالمعجن الى جوار الكعبة وابعد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك أثر للوثنية بالمرة ، ودفن بمكانه الحالى و بنى عليه فيما بعد القبة الحالية ، و يقولون ان تحته آلة البناء التى كان يعمل بها ابراهيم فى الكعبة. والعرب قبل الاسلام كانوا يعتقدون فى هذا الاثر و يحترمونه بل و يقدسونه وهو المقصود بقول أبى طالب فى لاميته .

ومَوطئُ ابراهيم فى الصخر رطبة (١) على قدميه حافياً غير ناعل .

وربما أخذ هذا من أثر القدم الذى بقبة الصعود بجبل الزيتون بالقدس الشريف ويزعم النصارى أنه لعيسى عليه السلام وهم يقدسونه ويحترمونه. ومن ذلك أتى احترام المسلمين لآثار تلك الاقدام التى ينسبونها الى النبى عليه الصلاة والسلام كما تراه فى قبة السيد البدوى فى طنطا ، وفى جامع المؤيد ومسجد قايتباى بالقاهره وفى قبة الآثار النبوية فى الاستانة. وعلى صخرة بيت المقدس آثار اقدام غير منتظمة يدعون أنها آثار أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم عندما اسرى به ، والمسلمون هناك يقدسونها كما يقدسون أثر قدم عيسى التى تراها فى محراب على يمين منبر المسجد الاقصى و يقول النصارى ان المسلمين فصلوها عن أختها التى فى قبة الصعود ووضعوها بمكانها هذا . وقد رأيت فى الفصل الرابع والثلاثين من كتاب محاضرة الاوائل للسكتوارى ان أول موضع اهبط الله فيه آدم جبل سرنديب وفيه أثر قدم آدم عليه السلام غائص فى الصخر طوله سبعون شبرا الخ ؟ ؟ ؟ وعليه فلا بد ان تكون فكرة تلك الاقدام أخذها العرب عن اليهود أو الهنود ان لم يكونوا أخذوها عن المسيحيين وبقى أثرها فى المسلمين الى الآن .

(١) وفي رواية وطئة





BOEHME & ANDERER, CAIRO

ولمقام ابراهيم كسوة من الحرير المزركش بالقصب تأتى اليه سنويا من مصر مع كسوة الكعبة. وشرقى هذه المقصورة سقيفة على طولها وبعرض متر وثمانين سنتيمترا يزدحم الناس لصلاتهم فيها ركعتى الطواف ثم يذهبون الى قبة زمزم وهي شرقى المقام على حدود المطاف مارين على باب شيبة ، (وهو باب قائم الآن على اعمدة من جبتيه وكان باب الحرم على مدة النبى صلى الله عليه وسلم) وباب هذه القبة الى الشرق وفيها بئر زمزم المشهور وخرزته من الرخام من عمل السلطان سليمان وهى مرتفعة عن سطح الارض بنحو متر ونصف ومن دونها حوض يصب الملاؤن فيه بدلائهم ومن هذا الحوض يملأ السقاؤن جرارهم الا ما كان لخاصة القوم فانه يملأ مباشرة من الدلاء الخارجة من العين وهذه الحركة لا تكاد تنقضى فى مدة الحج أبدا وللحجيج اعتقاد كبير في مائها ويتهادون بها فى آنية من الصفيح أو الدوارق المختومة. ويزعم أهل مكة انها نافعة لكل شيء بدليل حديث (ماء زمزم لما شرب له) ويدعي بعضهم أنه يشربها اتقاء الجوع فيشبع وأظن ان خدمة العين يبالغون فى فوائدها مبالغة يتجسم معها الوهم عند شاربها.

والحقيقة أنه ماء قلوى تكثر فيه الصودا والكلور والجير والحامض الكبريتيك وحمض الازوتيك والبوتاسا مما يجعل مائه اشبه شيء بماء فيشى فى تأثيره ويفيد قليله ولا تخلو الكثرة منه من الضرر خصوصاً فى غير موسم الحج حيث تكون بئرها مهجورة لان أهل مكة لا يشربون منها لملوحتها، وفى هذه الحالة يزيد فيها الحامض الازوتيك بدرجة تجعل مائها غير صالح للشرب . وربما كانت نصيحة بعضهم بالتضلع (كثرة الشرب) منها بعد طواف القدوم لتأثيرها على الجهاز الهضمى بما ينظفه من المواد التى تكون قد انفرزت اليه مدة هذا السفر الشاق بما يكون نتيجته رد فعل تنشط به الاعضاء وتصح الجسوم .

ولم يقصروا المبالغة في احترام زمزم على مكانها من المسجد الحرام بل بلغ من بعض خدمة المساجد فى مصر ان ادعى تغريرا بالجهلاء من المسلمين بأن عين الماء التى عنده فى مسجده لها منفذ على عين زمزم بمكة (كما هو الحال فى شهرة العين التى بمسجد الحنفى بالقاهرة !!) ويثبتون هذه الاكذوبة بفرية اشنع منها !! فيقولون ان رجلا من مصر

كان حاجا فسقطت طاسة من يده في بئر زمزم فلما حضر الى القاهرة عثر عليها في تلك العين!

ولقد بلغ من اعتقاد الناس في عين زمزم (وخصوصاً الدكارنة والهنود) أنهم يأتون بقطع طويلة من القماش و يغرقونها في مائها ثم ينشرونها على حصباء صحن الحرم حتى اذا جفت حافظوا عليها واوصوا بها لتكون كفناً لهم عند مماتهم و بلغ من اعتقاد بعضهم فيها أنهم يرجون ان تكون هذه البئر المقدسة مقبرة لهم حتى يكون لهم من بركتها وعالي مكانتها مقام كبير في حياتهم الاخرى! ! ! ولقد حدث في سنة ١٩٠٦ ان القي بعض الهنود بنفسه فيها حياً على غرة من خدمتها فاهتم الناس بهذا الامر واستدعوا بالغواصين من جدة للبحث عن جثته ولم يعثروا عليها الا بعد عناء شديد، فاخرجوها ونزحوا منها كمية كبيرة صلح معها ماؤها، أما هذا الجاهل فقد ذهب ولا أدري الى رحمة الله أو الى نقمته ! !

والاعراب يكادون يلصقون زمزم بنفس اركان الحج،فان الشخص منهم يضيف زمزم الى البيت الذى يحج اليه في نفس الامر،واذا حلف فانه يقدم زمزم على مقام ابراهيم في قسمه فيقول « والبيت الحرام وزمزم والمقام مافعلت كذا مثلا » وهذا قسم تصعد معرفتنا به الى معرفتنا بالعرب من عهد اسماعيل،لذلك ترى الحجاج من الاعراب يدخلون الى زمزم جماعات وزرافات آخذين في صدورهم كل من كان في طريقهم،حتى اذا وصلوا الى الحوض الذى بجوار البئر نزحوا مافيه على رؤوسهم فيسيل الماء على ثيابهم الى أن تبتل جميعها ثم يخرجون فرحين مستبشرين تظللهم عمي خدمة العين التي ما كانت تؤثر فيهم بالمرة دون القيام بهذا الواجب الاقدس. وليس الاعتقاد بمثل ماء زمزم خاصاً بالمسلمين فان للهنود اعتقاد عظيم في نهر الكنج و بحيرة مادن . والنصارى يعتقدون في ماء الاردن الذى يبعد بنحو عشرين كيلو مترا الى شرق بيت المقدس و يسمونه نهر الشريعة لذلك ترى حجاجهم يذهبون اليه و يتبركون بالاستحمام في المكان الذى تعمد فيه المسيح و يأخذون من مائه في آنية من الصفيح يتهادون بها عند عودتهم الى بلادهم ، واكثر النصارى اعتقادا في ذلك الروسيون والاقباط أما الافرنج فاعتقادهم في ماء لورده Lourdes في جنوب فرنسا لا يقل عن اعتقادهم في ماء الاردن.

فشل الامراء والملوك

فى تحويل الناس عن الكعبة

مما سبق ترى أن الكعبة مشرفة فى الجاهلية مشرفة فى الاسلام . لذلك اجتهد غير واحد من الملوك قبل و بعد الاسلام فى تحويل العرب عن وجهتهم للكعبة الى شئ غيرها . ومن ذلك أنه لما دخلت جيوش الحبشة الى اليمن فى نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة انتقاما من ذي يزن ملك حمير الذى كان يفتك بنصارى نجران من قومه وغلبوه على أمره وأخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهليها وتفرد ابرهة الاشرم بالحكم فيها ، بنى فى صنعاء القليس (الكليسه) وأراد أن يحول اليها حج العرب فسار بجيوشه الى هدم الكعبة . فلما وصل الطائف عرج عن مكة و بعث من ساق اليه أموال أهلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب . فأتى أبرهة وطلب اليه أن يردها اليه . فقال له «أتكلمني في أبلك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وأنت تعلم أنى انما جئت لهدمه ؟ » فقال له عبد المطلب « أنا رب الابل وللبيت رب يحميه » فأعطاه ابله فساقها هديا . وأراد أبرهة ان يتحرك على مكة ، فلما وصل قريباً من المزدلفة عند جبال يسمونها جبال النار وجد نوعا من الطير الأبابيل (١) قد حلق على الجو وأخذ يرميهم بحجارة من الطين (سجيل) بمقدار حبة العدس ، فلما وصلوا مكة فشا فيهم داء الجدري الذى أصابهم ولا شك من مكروب كان كامناً في الحجارة التى كانت تتساقط عليهم من تلك الطيور، يؤيده قول عكرمة « ان من أصابته الحجرة جدرته » . وكان معهم ذلك الفيل الشهير

(١) وهو مثل صغار العصافير السود ونوعه لا يزال موجوداً بالحرم يعيش في قبابه وهو معروف في مكة باسم أبابيل ويطلقونه على المفرد والجمع وهو ما ذهب اليه أبو عبيدة والفراء حيث قالا لا واحد له من لفظه . وقال بعضهم مفرده أبيل كسكين أو أبال كغربال أو أبالة بتشديد الباء وتخفيفها .

واسمه محمود فارادوا سوقه على مكة فلم يتمكن من الحركة اليها ومات و يقال انه دفن بمكانه المشهور بباب جرول الذى يخيم عنده المحمل المصرى، وكانت له قبة كسرها الشريف عون الرفيق . فلما رأى أبرهة كثرة الأمراض التي تفتك بقومه هرب وتشتت شمل جيشه وصادفهم السيل فاغرق أغلبهم وهلك الباقى فى شتاته ولم يصل منهم الى اليمن الا من أخبر بحادثهم . وكان ذلك فى عام ولادته صلى الله عليه وسلم، والعرب تسميه عام الفيل وكانت تؤرخ به الى الهجرة فيقولون وقع الامر الفلانى قبل الفيل أو بعده بخمس سنين مثلا . وذهب ابن الكلبى الى أن واقعة الفيل كانت قبل ولادته صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة) .

وذكر المؤرخ اليونانى مالالاس Malala فى تاريخه الذى طبع فى اكسفورد سنة ١٦٩١ «ان ابرهة الاشرم فى حملته على مكة كان يركب عربة يقودها أربعة من الفيلة » .
وقد قال ابن الزبعري أبياتا يشير فيها الى هذه الحادثة منها هذين البيتين :

سائل أمير الجيش عنا ما ترى ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون الفاً لم يؤوبوا أرضهم بل لم يعش بعد الاياب سقيمها

ومرض الجدرى ما كان يعرف ببلاد العرب قبل هذا الوقت وذكر المؤرخ الكبير بروكو بيوس Procope (الذى ولد فى سنة ٥٠٠ من الميلاد ووصل الى رتبة الوزارة فى القسطنطينية في سنة ٥٦٢) «ان أول ظهور الجدرى فى مصر كان سنة ٥٤٤ للميلاد فى مدينة يلوسيوم (وهي مدينة عظيمة اطلالها قرب دمياط للآن، ومصر فى ذلك الزمن كانت تابعة للرومان كما لا يخفى) ونقلت جراثيمه الى القسطنطينية سنة ٥٦٩ » وهي السنة التى ظهر فيها نفس المرض فى جيوش ابرهة حول مكة ولا يبعد أن الرياح اوالطيور نقلت مكروبها الي هذه الجهة في تلك الاثناء ، فكان منها ما كان .
و يؤيد ذلك ما قاله الرحالة روس Ross الايقوسى في رحلته الي بلاد الحبشة فيما بين سنتى ١٧٦٨ و ١٧٧٢ وقد كتب عن كثير مما عثر عليه من الامور التاريخية والجغرافية والتاريخ الطبيعى . وذكر فيما ذكره انه رأى فى كتب الحبشة ان ابرهة رفع الحصار عن مكة للمرض الذى أصاب جيشه اذ ذاك واستنتج من صفاته أنه مرض

الجدرى الذى انتشر من ذلك الوقت فى الشرق واخذ يفتك فى الناس فتكا مريعاً حتى الف فيه الرازى رسالته المشهورة فى الجدرى والحصبة والتى لها قيمة كبرى عند أطباء الافرنج للآن فخففت من مصابه كثيرا . غيرأن هذا المرض الخبيث مازال يفتك ببني الانسان حتى اخترع الاستاذ (چونر) Jenner الانكليزى مادة تلقيح الجدرى واشهر أمرها سنة ١٧٦٩ وباستعمالها خفت هذه المصيبة واصبحت لا أثر لها تقريباً فى البلاد المتمدنة ، الّا انها لاتزال موجودة بكثرة فى البلاد العربية لعدم العناية بها . لذلك يجدر بكل من قصدها ان يلقح جسمه بهذه المادة قبيل سفره اليها . ومن أعجب ما شاهدت بالبلاد العربيه عناية صاحب الجمل السليم بعدم قطره مع جمل اجرب خوفا من سريان العدوى اليه ، في حين ان العرب أنفسهم لا يهتمون بفصل الاجرب من بنيهم عن اخوته الاصحاء الذين لا يهتمون ان يصيروا طعمة لهذا الداء المهلك ! ! ! ولله في خلقه شؤون .

وفى ايام المقتدر العباسي ظهرت في العراق طائفة القرامطة ، وهم قوم ينسبون الى موالاة محمد بن الحنفية بن علي كرم الله وجهيهما ، ويكفرون من لم يكن على مذهبهم . وأول من ظهر منهم أبو طاهر القرمطى ، وقد بنى دارا فى هجر سماها دار الهجرة ، وأراد ان ينقل الحج اليها : لذلك كان يقصد الطرق الموصلة الى مكة و يفتك بحجاج بيت الله الحرام ، فانقطع الحج فى أيامه خشية منه . وسار القرمطى الى مكة في عسكر كثيف أيام الحج ودخل برجله وخيله الى الحرم ووضع السيف فى الطائفين والماكثين والركع السجود على بغتة منهم ، وقتل فى مكة وشعابها نحو ثلاثين الفاً واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب ، واخذ جميع ما فى خزينة بيت الله الحرام من الجوهرات الثمينة ، واقتلع الحجر الاسود من مكانه ، وانصرف الى بلاده بعد ان هدم قبة زمزم ! ! و بقي مكان الحجر خالياً يتبرك الناس بمحله . و بعد موت أبي طاهر رأى قومه ان من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة الى بلادهم . فقام سنبر بن الحسين القرمطى بالحجر الى مكة ، وكان يحيط به برواز من الفضة يضبط بعض القطع التى كانت تكسرت منه حين قلعه ، ووضع فى مكانه على الحالة التى تراه عليها الى الآن .

وفى سنة ٤١١ دخل رجل الحرم بصفه درويش وضرب الحجر بعامود من حديد كان معه . فقامت عليه الاهالى وقتلوه شر قتلة . وكانت قد تطايرت من الحجر ثلاث قطع مثل ظفر الانسان فاخذت والصقت فى مكانها بحيث لا يمكن ملاحظتها . ويزعمون ان الحاكم بأمر الله الفاطمى هو الذى كان ارسل ذلك الرجل حتى اذا كسر الحجر الاسود أمكنه تحويل وجهة المسلمين عن الكعبة الى مسجده بجوار باب الفتوح بالقاهرة .

ولقد ذهب بعضهم الى ان اهتمام عبد الملك ابن مروان بعمارة بيت المقدس بالفخامة التى كان يعمره بها انما كان لصرف مسلمى الشام ومصر وما والاهما شمالا وغربا الى حجهم اليه اذا تمت الغلبة لابن الزبير على بلاد الحجاز ، وهي تهمة لا نراها فى مكانها لما نعتقده من كمال دينه ومتانة يقينه رحمه الله .

هذا وانى اظن ان ما يجرى للآن على لسان بعض السذج من فلاحى مصر من أنه يجيء يوم ينقطع فيه طريق الحج الى مكة وعندها يحج الناس الى مقام السيد البدوى في طنطا انما كان أثرا سياسيًا لبعض ملوك مصر يقرب به الى الوهم امكان حصول ذلك حتي اذا سنحت له الفرصة مضى فى سبيلها . ومع زوال هذه الفكرة بزوال صاحبها فان هذا الاثر السيء بقي على السنة بعض السذج للآن !! ومن هذا تلك الجرأة التى ذهبت بتسمية بعضهم لقبه الميضأة التى تراها فى وسط صحن مسجد بن طولون فى القاهرة بالكعبة ، ولا أدرى اذا كانت هذه التسمية قديمة على عهد بن طولون فنشك فى علتها أو من وضعيات بعض الجهلاء فنرجو الله ان يغفرها له .

لهذا ترى خدمة الكعبة الشريفة كلهم عيونا تباشر حركة الطائفين حول الكعبة المكرمة وخصوصاً الاعجام (١) الذين ينسب لهم أهل مكة ظلما أنهم لا يتأخرون عن

---

(١) والسبب في ذلك اما كراهية أهل مذهب لمذهب آخر يؤيده ما قاله العصامي فى تاريخه من أنه رأى بنفسه القذارة التي كانت على الحجر وعلى استار الكعبة في سنة ١٠٨٨ وكان يظن أنها عجينة معمولة من دقيق العدس كان الفرض منها الايقاع باهل الشيعه . أما ما حصل في سنة ١١٥٥ فاصله سياسى محض : ذلك ان ملك الفرس نادرشاه طومان ارسل الى الشريف مسعود في تلك السنة يطلب اليه ضرورة اقامة صلاة خامسة

تدنيس الحجر الاسود اذا سنحت لهم فرصة تمكنهم من ذلك ويقولون أنهم دنسوه فى سنة ١٠٨٨ ثم فى سنة ١١٤٣ وفى سنة ١١٥٥ حتى يصرفوا الناس عنه .

هدايا البيت الحرام

ولعظم مكانة بيت الله الحرام فى الناس كانوا يتقربون اليه قديماً وحديثا بالهدايا الجزيلة والهبات الجليلة والحلى الفاخرة . فكانت تحفظ أولا فى بئر فى الكعبة يسمونه غبغب أوعبعب ، ولكن سدتها كانت تلتهمها أولا فاولا . ومما وصل من هداياه القديمة الى عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم غزالان وسيفان من ذهب فضربهما صفائح وصفح بهما باب الكعبة . فلما كان عبد الله بن الزبير حلى اساطينها بصفائح الذهب . وارسل عبد الملك بن مروان بثلاثين الف دينار الى عامله على مكة خالد بن عبد الله القسرى ليحلى بها باب الكعبة والاساطين التى في جوفها واركانها من الداخل ، وزاد فى ذلك ولده الوليد فى عمارته للمسجد الحرام . وارسل الرشيد الى عامله على مكة سالم ابن الجراج بثمانية عشر الفا من الدنانير فضربها صفائح سمرت على الباب ، وجعل مساميرها وحلقتى الباب وعتبتها من الذهب . وذكر ان المتوكل العباسى عمل زاوية من زوايا الكعبة بالذهب (ولعلها كانت تشتقت فلأها ذهبا يربط به طرفيها ، ولا يخفى ان هذه المادة تستعمل الآن لمتانتها فى ربط الاجزاء الثمينة بعضها ببعض) ثم كسى عتبة الباب بالفضة وعمل له عضادتين من الذهب بدل اللتين أخذهما بعض امراء مكة . وذكر أيضاً ان أم المقتدر العباسى أمرت فى سنة ٣١٠ فالبست جميع اسطوانات البيت ذهبا حتى اذا دخلت القرامطة سنة ٣١٧ الى مكة جردت البيت

فى الحرم للشيعه . فارسل بالخبر الى الدولة العلية فاتهمت الشريف بانه مشايع للاعجام . فتخلصا من هذه التهمه اتهمهم هو بهذه الفعلة الشنعاء حتى يوغر عليهم صدور الناس وأمر بان تلعن الرافضة على المنابر ولا يزالون يلعنونهم عليها فى الحرمين الى الآن ! ! !

من جميع ما كان به من الحلي والذخائر .

وفى سنة ٥٥٢ اقتلع الخليفة المقتفى باب الكعبة وعمل عوضه بابا مصفحا بالذهب وعمل من القديم تابوتا له يدفن فيه بعد موته .

وقد كانت أيدى السلاطين والامراء والملوك لا تقف فى أى زمن من الازمان عن تقديم الهدايا النفيسة الى بيت الله الحرام كما كانت يد الاشقياء من الناس لا تقف عن التطاول اليها ! سواء فى ذلك حجبتها أو غيرهم ! ! وممن جدد بعض الحلى التى عبث به هؤلاء الاشرار كثير من الملوك والامراء نخص بالذكر منهم السلطان الناصر (قلاوون) ثم السلطان سليمان القانونى ثم السلطان مراد الرابع .

كسوة الكعبة

أما كسوة الكعبة داخلا وخارجا فهى من زمن بعيد وأول من كساها أبو كرب اسعد ملك حمير فى نحو سنة ٢٢٠ قبل الهجرة حين مر عليها راجعا من غزوته ليثرب (وكان يهوديا) كساها بالجلد، وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالقباطى (قماش مصرى) زمنا طويلا . ثم أخذ الناس يقدمون اليها الهدايا من الكساوى المختلفة فيلبسونها على بعضها وكان اذا بلى منها ثوب وضع عليه ثوب آخر الى زمن قصي فوضع على القبائل رفادة لكسوتها سنويا واستمر ذلك في بنيه ، وكان أبو ربيعة بن المغيرة يكسوها سنة وقبائل قريش تكسوها أخرى فسمي بذلك العدل لعدله بين قبائل قريش فى كسوة الكعبة . وقد كساها النبى صلى الله عليه وسلم بالثياب اليمانية . ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان . ولما حج الخليفة المهدى العباسى سنة ١٦٠ كان على الكعبة جملة كساوى فشكا اليه سدنتها من كثرتها فأمر بها فانزلت تخفيفا عن سقفها ، وأمر بأن لا تعلق عليها الا كسوة واحدة فكان كذلك الى الآن .

وكان العباسيون يبالغون في العناية بكسوتها وكانت من الحرير الاسود (وهو

شعار العباسيين) وكانوا يعملونها بمدينة تنيس المصرية التي كانت لها شهرة عظيمة في المنسوجات الثمينة (انظر مادة تنيس بالمقريزى) وكانت ثغرا لمصر في شمال دمياط فهدمها الملك الكامل سنة ٦٢٤ لكثرة ما كانت توقع بها مراكب الفرنجة في الحروب الصليبية وما كانت تكلفه مصر في المحافظة عليها ولاتزال اطلالها موجودة قرب مدينة المطرية (دقهلية) .

وقد قال الفاكهي في اخبار مكة : رأيت كسوة مما يلي الركن الغربي (يعني من الكعبة) مكتوبا عليها « مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى بأمر الفضل بن سهل ذى الرئاستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة » ورأيت شقة من قباطي مصر في وسطها الا أنهم كتبوا في اركان البيت بخط دقيق اسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين » ورأيت كسوة من كسى المهدى مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله لعبدالله المهدى محمد أمير المؤمنين اطال الله بقاءه مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع من طراز تنيس على يد الحكم بن عبيده سنة اثنتين وستين ومائة » ورأيت كسوة من قباطي مصر مكتوبا عليها « مما أمر به عبدالله المهدى محمد أمير المؤمنين اصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة » . وكان من أعمال تنيس قرية يقال لها تونة وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحيانا : قال الفاكهي : ورأيت أيضاً كسوة لهرون الرشيد من قباطي مصر مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبدالله هرون أمير المؤمنين اكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع ان يعمل من طراز تونه سنة تسعين ومائة » .

وما زال العباسيون يهتمون بأمر كسوة البيت المعظم حتى اذا ضعف أمرهم صارت ترسل تارة من ملوك اليمن وأخرى من ملوك مصر حتى استقرت الكسوة الشريفة في سلاطين مصر ووقف عليها الملك الصالح ابن الملك الناصر بن قلاوون قريتي باسوس وسنديس قليوبية . فصارت ترسل الكسوة الخارجية السوداء سنويا اليها . وكان كلما يتجدد ملك أو سلطان يرسل للكعبة بكسوة داخلية حمراء وبأخرى

خضراء للحجرة الشريفة النبوية حتى استولت الدولة العلية على مصر فاختصت بعمل الكسوة الشريفة النبوية وكسوة البيت الداخلية واختصت مصر بعمل كسوة الكعبة الخارجية . ومن ثم صارت ترسل من مصر هذه الكسوة المباركة سنويا : وهي ثمانية ستاير من الحرير الاسود المكتوب بالنسيج في كل مكان منه لا اله الا الله محمد رسول الله وطول الستارة نحو خمسة عشر مترا ومتوسط عرضها خمسة أمتار و بعض سنتيمترات. وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة ، فتربطان من اعلاها في حلقات من الحديد غاية في المتانة قد تثبتت في سقف الكعبة ، ثم تربطان الى بعضهما بواسطة عرى وازرة وتثبتان من اسفل في حلقات وضعت في الشاذروان ، وهكذا كلما وضعت ستارة تثبتت في التي بجوارها بواسطة هذه الازرة حتى اذا انتهت كلها صارت كالقميص المربع الاسود . وركب على محيط البيت المعظم فوق هذه الستاير فيما دون ثلثها الاعلى حزام يسمى رنك مركب من اربعة قطع مصنوعة من المحيش المذهب مكتوب فيه بالخط الجميل العربي آيات قرآنية كتبها مع غيرها من اعمال الكسوة الشريفة ، في زمن المرحوم اسماعيل باشا خديوي مصر ، الكاتب الخطاط الطائر الصيت النادرة النابغة المرحوم عبد الله بك زهدي أحسن الله اليه . ومكتوب على الحزام من الجهة التي فيها باب الكعبة « بسم الله الرحمن الرحيم واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الي ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم » ، ومكتوب في الجهة التي تليها من جهة الحجر الأسود « بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم بسم الله الرحمن الرحيم واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ومكتوب في الجهة المقابلة للمقام المالكي ليشهدوا

منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » ومكتوب في الجهة الرابعة وهي التي بها الميزاب « فى أيام دولة مولانا السلطان الاعظم ملك ملوك العرب والعجم السلطان محمد الخامس خان ابن السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الغازى ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان احمد خان ابن السلطان محمد خان ابن السلطان ابراهيم خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان عثمان خان خلد الله تعالى ملكه .

ومصاريف الكسوة تصرف الآن من المالية وميزانيتها سنويا ٤٥٥٠ جنيه مصريا وبيانها هكذا .

جنيه	
٥١٥	ثمن مخيش فضة وملبس بالذهب ١٤٩٣٥ مثقالا و ٣٨٠٥ مثقالا فضة بيضاء .
١٦٦٤	اجرة شغالة فى الزركشة وعددهم ٤٧ نفرا
١١١١	ثمن حرير واجرة نسيج والذين يشتغلون فيه عددهم ٧٠ نفرا
٢٠٠	ثمن أدوات للتشغيل مثل بفته وخلافها
١٥٠	مصاريف ليلة المهرجان المعتاد عمله للاحتفال بموكب الكسوة السنوى
٦٠	عوائد تصرف للشغالة يوم نهاية عمل الكسوة
٨٥٠	ماهيات مستخدمين ومرتبات خدمة ادارة الكسوة
٤٥٥٠	الجملة

الا ان الجناب العالى الخديوى بعد عودته من الاقطار الحجازية أمر حفظه الله بزيادة العناية بالكسوة الشريفة مما سيزيد فى ميزانيتها عن ذلك .

ويتبع هذه الكسوة الشريفة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها بالبرقع وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفتاح بيت الله الحرام ، وكسوة مقام الخليل ابراهيم عليه السلام ، وستارة باب منبر الحرم الشريف وهي من الاطلس المصنوع بالمخيش الذهبي والفضي ، ويرسل مع هذه الكسوة غلايتان من النحاس مملوءتان بماء الورد النقى

لغسيل الكعبة المكرمة .

والكسوة الشريفة تعمل فى القاهرة سنويا وعند اتمامها يعمل لها موكب عظيم فى نحو منتصف شهر القعدة يحضره الجناب العالى الخديوى أو نائبه و ينتهى بها هذا الموكب الى مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه حيث يسلمها حضرة مأمور تشغيلها الى الحاملى فى مجلس يعقد بحضور نائب من قبل سماحة قاضى مصر و بشهادة حضرة أمير الحج للسنة المرسلة فيها و بعد ان يعمل بذلك اشهاد شرعي توضع الكسوة الشريفة فى صناديق وترسل مع ركب المحمل .

المحمل

ذهب بعض المؤرخين الى ان المحمل يبتدئ تاريخه من سنة ٦٤٥ هجريه وقالوا أنه هو الهودج الذى ركبت فيه شجرة الدر ملكة مصر فى حجها فى هذه السنة ، وصار بعدها يسير سنويا امام قافلة الحاج وليس فيه من أحد لان مكان الملوك لا يجلس فيه غيرهم.

والذى أراه ان المحمل قديم جدا وربما كان من قبل الاسلام ، وكان يطلق على الجمل الذى يحمل الهدايا الى الكعبة المكرمة ، وقد سير رسول الله صلى الله عليه وسلم محملا الى مكة بهداياه الى البيت المعظم ، ومن ذلك ما نراه فى التواريخ من اسم المحمل العراقى والمحمل اليمنى وما نشاهده الآن من محمل ابن الرشيد [1] ومحمل ابن سعود ومحمل ابن دينار ، وهى تحمل صرتهم الى الحرمين مغطاة بقطعة بسيطة من الجوخ . ولقد جاء فى الكلام على دارفور فى تاريخ السودان لنعوم بك شقير تحت عنوان صرة الحرمين ما نصه : « وكانت سلطة الفور مستقلة عن دول الارض كلها لا تدفع جزية لاحد

---

(١) وأمير محمل ابن الرشيد يسمونه سبهان ، وهذا الاسم وان كان من اسماء الاعلام هناك الآن الا ان أصله فارسي : وهو (لشكرجم) معناه الجرد ، ومفرده سپه بمعنى الجندى.

ما عدا الحرمين الشريفين فانها كانت تخدمهما بمحمل وصرة كل سنة فكان موكب المحمل يأتي (٢) الى مصر ومعه الريش والصمغ وغيرها من خيرات البلاد فيبيعها و يتم بثمنها نقود الصرة ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصرى » .

وعليه فمحمل شجرة الدر انما كان يسير امامها حاملا الهدايا التى أخذتها معها للبيت المكرم فى هودج مزين بابهى زينة وغاية ما هنالك انها عنيت به ورتبت له كثيرا من الخدم والحشم ، ومن ثم صار عادة تقوم بها ملوك مصر كل سنة وما زالوا يالغون فى زينته من سنة لأخرى حتى صارت كسوته بحيث لا يستطيع المحمل حمل غيرها معها ، (وكسوة الجمل الحالية مع هيكله الخشبي لا تقل عن ١٧ قنطارا) وصار ما كان يحمل عليه من الهدايا يحمل فى صناديق على جمال أخرى تسير مع الحملة .

والمحمل يعمل له يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الايوبية . وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة تمشى فيه الجنود الراكبة والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته من ضوية وعكامة يتقدمهم أمير الحج الذى يعينه الجناب العالى الخديوى سنويا ، وهو من الباشوات العسكريين فى الغالب ، و بعد ان يدور المحمل دورته المعتادة فى ميدان القلعة يمر على المصطبة وهي المكان المعد لجلوس الجناب العالى الخديوى يوم هـذا الاحتفال ومعه رجال حكومته السنية من الوزراء الفخام والعلماء الاعلام وكبار وذوات العاصمة وهنا لك يأتى حضرة مأمور الكسوة الشريفة و بيده زمام جمل المحمل فيستلمه الجناب العالى منه و يسلمه الى أمير الحاج ، وعندها تضرب المـدافع ويسير الموكب تتقدمه أشاير السادة الصوفية ثم الجنود ثم جمل المحمل يتقدمه أمير الحاج و يتلوه المحاملى والجماله ثم الفرابجية (الطبالون) على جمالهم . و يستمر هذا الموكب سائرا الى المحجر فالدرب الاحمر و يمر من بوابة المؤيد فالغورية فالنحاسين فباب النصر فالعباسية وهنالك يتفرق الموكب وينزل ركب المحمل الى خيامهم التى تكون ضربت لهم فى فضاء العباسية ، و ينصب المحمل فى وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به حتى اذا

(٢) اما الآن فمحمل ابن دينار يتوجه الى الخرطوم ومنها بالطريق الحديدى الى بور سودان ومنها يركب البحر الي جده .

كان يوم السفر الى السويس تتلوه مع أدواتهم وذخائرهم الى وابور المحمل الذى يكون متهيئاً فى محطة العباسية ، و بعد الشحنة يسير بهم على بركة الله الى السويس ، ومنها بحر الى جدة ، ثم يقصد مكة برا ، وهنالك تسلم الكسوة الى حضرة الشيبى القائم بسدانة الكعبة باشهاد شرعي يحضره العلماء والكبراء فتبقى فى منزله الى صباح يوم عيد النحر فيؤتى بها على اعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد ازال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد عادة خاوا من الناس لان سوادهم يكون بمنى ، ولا يصبح مكة منهم الا نفر قليل .

الكسوة القديمة

والكسوة القديمة يرسل المقصب منها عادة الى سيادة الشريف ، واذا كان الحج بالجمعة يرسل الي جلالة السلطان ، والباقى يأخذه الشيخ الشيبى فيبيعه على الحجاج ، وبجوار باب السلام دكاكين مخصوصة لذلك . وقبيل الحج يقطع الشيبى نحو مترين من اسفل ستائر الكعبة ويعوضها بازار من البفتة البيضاء يسمونه احراما ، وليس لهذا عندى من معني اللهم الا لحاق الوقت لبيعه قبل الموسم على الحجاج بثمن كبير.
و يستندون فى بيع كسوة الكعبة على حديث عائشة الآتى لعثمان بن عفان رضي الله عنهما : وكان عمر ينزع الكسوة القديمة كل سنة ويفرقها على الحجاج وتبعه فى ذلك عثمان الى ان وجد شيئاً منها على حائض فأمر بحفر حفرة والقي فيها الكسوة القديمة واهال التراب عليها خوفا من أن يلبسها جنب أو حائض ، فقالت له عائشة « ان ثياب الكعبة اذا نزعت عنها لا يضرها من لبسها من حائض ولكن بعها واجعل ثمنها فى سبيل الله تعالى وا بن السبيل » .

ولم يكن بيع استار الكعبة أو كسوة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم للتبرك بهما مما يؤخذ علي المسلمين فى دينهم فان الاعتقاد فى آثار الانبياء والصالحين شيء قديم فى

جميع الشعوب . واعتقاد النصارى من الفرنجة فى آثار ابابا عظيم جدا : فقد حدثني صديقي عزيز بك الفلكي ان خالته (وهي فرانساوية الجنس) كان عندها قطعة صغيرة من نعل البابابى التاسع طولها ٢ سنتى متر فى عرض نصف سنتى ، اشترتها بار بعين جنيها وغلفتها بصفيحة من الذهب وكانت تحملها تميمة ثمينة تتقي بها جميع الامراض والطوارئ السيئة : على أن مجرد الاعتقاد فى مثل هذه الظروف لايخلو من الفائدة الفعلية.

وللمحمل المصرى كسوتان كسوته المعتادة وهى من البفته الخضراء وكسوته المزركشة ولا يلبسها الا فى المواكب الرسمية . وفى أيام وجوده بمكة يوضع فيما بين باب النبى و باب السلام بكسوته اليومية . فيكون هناك مزارا للناس على اختلاف اجناسهم ولا ينقلونه من هـذا المكان الا فى مواكبه الرسمية . وعند السفر به الى المدينة المنورة يسير اليها ركبه أما بالبر من الطريق السلطانى أو الفرعى أو الشرقى ، وأما من طريق البحر من جده الى ينبع ومنها برا الى المدينة او الى الوجه ، ومنه الى محطة العلا ، ثم يتوجه فى السكة الحديدية الى المدينة ، ومن مدة ثلاث سنين والمحمل يسير فى هذا الطريق الاخير لتمنت اعراب الطريق البرى من مكة وينبع وتشددهم في طلباتهم وزيادة مرتباتهم .

وعند وصول المحمل الى المدينة المنورة يدخلها باحتفال كبير من باب العنبرية ، وهنالك يطلق له واحد وعشرون مدفعاً ، حتى اذا وصل الى الباب المصرى يترجل كل من في موكبه اجلالا لمقام الرسول صلوات الله عليه ، فاذا وصلوا الى باب السلام أتى شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصدفة الواسعة ، وهنالك يرفع المحمل ويوضع في مكانه من الحرم غربى المنبر الشريف وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء ويلبس أمير الحاج ومن معه من المستخدمين لباس الخدمة في الحجرة الشريفة : وهو فرجية بيضاء مشدود عليها حزام أبيض وعمامة كذلك ، ثم يحملون كسوة المحمل بكل احترام ويدخلونها في الحجرة الشريفة من الباب الشامي ويتركونها في جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة رضي الله عنها . ولا تزال الكسوة بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها منها يوم سفر

المحمل من المدينة المنورة ، ويركبون بها في يوم خروجه من المدينة كما كانت الحالة في يوم دخوله .

وعند عودة المحمل الى مصر يحتفل بقدومه رسمياً احتفال كبير يحضره الجناب العالى الخديوى أو من ينيبه عنه ، فيسير الموكب من العباسية الى القلعة من الطريق الذى كان خرج منها ، حتى اذا وصل الى مكان الجناب العالى الخديوى فى المصطبة استلم سموه زمام الجمل من أمير الحاج وسلمه الى حضرة مأمور تشغيل الكسوة ، وعندها تطلق المدافع ويتم الاحتفال . وتحفظ كسوة المحمل بمخزن في المالية ، وهذه الكسوة تجدد كل عشر ين سنة مرة وتبلغ تكاليفها نحو الف وخمسمائة جنيه مصرى . اما كسوته الخضراء فيكسي بها سنويا بعد عودته ضريح سيدى يونس السعدى (بجبانة باب النصر) وأظن أنه كانت له خدمة مدة حياته فى سفرية المحمل .

واليك كشفاً ببيان ما يصرف من المالية سنويا في تسفير المحمل والمرتبات الجارى صرفها في مكة والمدينة المنورة حسب الوارد فى الميزانية الاخيرة .

جنيه	
١٢٨٢٠	مرتبات وتعيينات لامير الحاج ومستخدمي المحمل
٢٥١١٠	« العربان
١٤٩٣٠	« الاشراف بمكة والمدينة المنوره
١٩٦١٠	« تكية مكة
١٦٥٧٠	« تكية المدينة المنورة
٢٨٧٩٠	« أهالى مكة والمدينة
٢٢٥٠٠	ثمن ومصاريف قمح الصدقة بمكة والمدينة
١٦٢٩٠	« شمع وقناديل للحرمين
٤٢٤٨٠	اجرة منقولات برا وبحرا واجر جمال
١٥٥٠٠	ثمن خيام وقرب وخلافها
٢٦٥٠٠	مصاريف نثرية

جنيه	
٠٣٠٠٠	مرتبات لمكة والمدينة تصرف سنويا من أوقاف الحرمين والاوقاف الخصوصية والاهلية والخيرية ومن الخاصة الخديوية والمالية
٠٦٤٢٠	قيمة ما يرسل كل سنة الى الحرمين الشريفين من الزيوت والحصر وخلافها من ديوان الاوقاف
٥٠٠٠٠	مجموع المنصرف سنويا .

واذا قارنت هذا المبلغ بما جاء فى المقريزى عند الكلام على قافلة الحاج وجدت أنه نحو نصف ما كان يصرف عليها فى زمن الفاطميين . قال المقريزى : «قال فى كتاب الذخائر والتحف ان النفقة على الموسم كانت فى كل سنة تسافر فيها القافلة ، مائة الف وعشرين الف دينار ، منها ثمن الطيب والحلوى والجمع راتباً فى كل سنة عشرة آلاف دينار ، ومنها نفقة الوفد الواصل الى الحضرة أربعون الف دينار ، ومنها في ثمن الحمايات والصدقات واجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون الف دينار ، وان النفقة كانت فى أيام الوزير البازورى قد زادت فى كل سنة و بلغت الى مائتى الف دينار ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك فى دولة من الدول » .

ولقد كان لركب المحمل فى الدولة المصرية شأن كبير ومقام خطير وكان لأميره المكانة العليا والكلمة النافذة فى بلاد الحجاز وكثيرا ما كان يصدر أمره بعزل وتولية امراء مكة . ولقد بلغ من مبالغة ملوك مصر بالاحتفال بالمحمل أنهم قضوا على جميع حكام البلاد التى كان يمر عليها فى طريقه بان يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله وما زالت امراء مكة يقبلونه أيضاً في استقبالهم له الى أن أعفاهم من ذلك السلطان جقمق في سنة ٨٤٣ . وكان الاحتفال بطلوع وعودة المحمل مدة سيره على البر في أواخر زمن اسماعيل من الفخامة بمكان عظيم وكان عند عودته يبلون السكر فرحا به فى احواض كبيرة ثلاثة أيام يشرب منها الغادون والرائحون وهي عادة قديمة جدا . وكان يخرج معه في خدمته غير حضرات مستخدميه من أمير وأمين صرة وكتبة وصيارف

كثير من الخدم والحشم والعكامة والجمالة والفراجية والنجارين والفراشين والخيمية والسقائين وكان ضمن وظائف المحمل وظيفة أسمها أمين الكساوى والحلويات ، وكان تحت يدموظفها الحلويات والكساوى التى كانت ترسل للعرب واستعيض عنها الآن بصرف أثمانها لاربابها . وكان يخرج معه موظف برسم مأمور الذخيرة ، وكان في عهدته البقسماط الذى كان يؤخذ فى السفرية لما عساه يحصل فى الايام غير المعتادة التى كانوا يحتاجون فيها للصرف على الحجاج اذا قضت الضرورة ، فابطلت هذه المأمورية أيضاً لعدم الحاجة اليها . وكان من ضمن خدمته رجل يقال له شيخ الجمل وآخر اسمه أبو القطط وسائس الحرجلة (مقدم العيط) وسواق المقاطيع : وكانت وظيفة الاول انه كان يشترى الجمال اللازمة للمحمل ، ويركب وراء جمل المحمل في موكبه لملاحظته فى سيره من الخلف كما يلاحظه المحاملى في سيره من الامام . أما الثانى فيقولون أنه كان يقوم بغذاء القطط التي كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره فى البر ، ويقول بعضهم ان وظيفته كانت من عهد حج شجرة الدر ، ويقول آخرون انما كان هذا اسمه أما وظيفته فهي التى غيروها بوظيفة امام المحمل ، أما الثالث فقدكان رئيساً للضوية والعكامة يستدعيهم عند ما تكون هناك حركة مهمة فيأتون بغير نظام بين صياح وهياج وكلام والرابع كان يباشر الذين يقعد بهم المرض أو ضيق ذات اليد عن الاستمرار مع الركب وجميع هؤلاء كان تعيينهم بفرمانات مخصوصة بعضها من السلطنة و بعضها من ولاة مصر ولهم مرتبات بالرزنامة من عهد بعيد . وقد استغنى عن كثير منهم في سفرية المحمل الآن لعدم الحاجة اليهم مع صرف مرتباتهم لهم ، كما استغنى أخيرا عن وظيفة أمين الصرة التى يؤديها الآن واحد من كتبة المالية تنتدبه النظارة .

وكان للمحمل عشرون جملا لهذه المأمورية وكان لها مناخ فى بولاق بجوار شيخ اسمه سيدى سعيد ، وكانت الحكومة فى الزمن السابق تشترى مع هذه الجمال جملا تجعله فداء عنها كل سنة ، : فيأتى به الجمالة قبل موكب الحج وعليه شيخ الجمل ومعهم العكامة والضوية وأمامهم الفراجية يحيط بهم كثير من الغوغاء و يمرون فى القاهرة ثم يذهبون الى باب الشيخ سعيد و يذبحونه هناك . وكان المحاملى يأخذ ربعه والجمالة ربعه وخدمة

الشيخ سعيد ربعه وخدمة الشيخ يونس الربع الباقي . وكانوا ييممون لحمه من الناس على سبيل البركة مدعين أن لحمه ينفع للصدع ، وشحمه للبواسير لذلك فانهم ما كانوا يلقون به الى الارض بقصد ذبحه حتى يهجم عليه الحاضرون ويقطعونه اربا اربا بعدامم قبل ذبحه ويأخذ كل منهم ما تسمح به قوته . وكان كثيرا ما يؤدي ذلك الى ضرر جسيم يستهين به هؤلاء الجهلاء في جانب هذا الاعتقاد السخيف . فلما بلغ ذلك الى الجناب العالى حفظه الله أمر بابطال هذه العادة الشنيعة مع صرف قيمة ثمن الجمل الى أربابه جزاه الله عن الدين والانسانية أحسن الجزاء .

حمام الحمى

حمام الحرم المشهور بحمام الحمى يملأ سطوح الحرم ومنافذه وطاقاته ، فتجده معششا هنا وهناك ، ويجتمع زرافات زرافات في جهات كثيرة من صحن الحرم وعلى الخصوص في الجهة الغربية ، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يبعن حب القمح للحجاج والزوار بقصد القائه الى جيوش هذه الحمامات المستأنسة التي تكاد ترفرف على رؤوس القوم لانها لم تعرف منهم في حياتها الا كل لطف وانس . وليست هذه الخصيصة بنوع الحمام ، ولكن كل حيوان دخل الحرم فهو آمن ، حتى ذهب بعضهم الى عدم قتل الحية أو العقرب فى الحرم احتراما له واكراما لما فيه . وانفراد الحمام بوجوده في الحرم لا أظنه الا لسهولة انسه وقلة جفائه . ومن أغرب ما يروى عن هذا الحمام أنه مع كثرته فى الحرم لم يشاهد منه شئ على البيت (الكعبة) الا نادرا جدا . وفى الجهة الشرقية من مكة تحت جبل أبى قبس بئر يقال لها بئر الحمام يجتمع عنده كثير منه ليشرب بحريته ثم يذهب الى حيث أراد . وهذه البئر قديمة جدا وأظنها من زمن الجاهلية . كما أنى أظن أن احترام الحمام هنا أيضا من زمن بعيد ، وعلى كل حال فهو مكرم للبيت سواء قبل الاسلام وبعده . والقول بأنه من نسل تلك الحمامة التي عششت

فى الغار على النبي صلى الله عيه وسلم أنما يزيد فى احترامه واعظامه . وليس الحمام يحترم فقط هنا بل هذه عادة قديمة جداً: فبنو نوح كانوا يكرمونه لانه أول من بشرهم بظهور اليابسة مدة الطوفان . واحترامه عند النصارى يقرب من درجة التقديس لأنه يمثل عندهم روح القدس، و يقولون أنه عند ما كانوا يغسلون المسيح فى نهر الاردن وهو صغير جاءت حمامة وحطت على رأسه ، لذلك يرسمونها فى كنائسهم وعلى صورهم الدينية ، ومن هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية في كنائس القوم في أوربا وخصوصاً فى كنائس ايطاليا والنمسا و بعض كنائس فرنسا ، وقد تعدى هذه الكنائس الى منافذ المساكن وكرانيشها وأسطحتها وأشجار الشوارع العمومية و بساتينها فاذا ذهبت الى فينا أو روما مثلا وجدته هنا وهناك في كل مكان من غير أن يؤذيه أى انسان . وأثر هذه العقيدة باق فى الحمام الذى لا يزال فى مدينة القسطنطينية الى يومنا هذا وتراه على الخصوص فى مسجد بايزيد ، غير أن أهل الاستانة قد بالغوا في اكرامه حتى حرموا ذبحه فى الاستانة، فهم لا يأكلونه أبدا سواء في ذلك مسلموهم ونصاراهم ويهودهم ، أما ما ذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الاستانة من ذرية حمام الغار (الذى يقولون عنه انه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعله المشركون) فانه لا اصل له عندهم كما لا أصل فى دينهم لتلك المأمورية التى كان يؤديها حمام الغار. والشيعة من العجم يعتقدون مثل هذا الاعتقاد فى حمام الحرم ، ويزعمون أنه هو الذى أخبر أهل المدينة المنورة بقتل الحسين رضي الله عنه .

والصينيون يستعملونه من زمن بعيد فى استكشاف بختهم على مثل ما يستعمله بعض الاروام الآن في طرقات مصر : فيأتون للحمام بطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها شئ من الخير أو الشر ، فتأتى الحامة وتستخرج بمنقارها واحدة، منها يكون فألهم ، ويسمون هذه الحامة باك . كوب . بن (Pak - Kop - Pin) يعني الحامة ذات الورقة البيضاء .

ولقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للالاه عشطورت (Astarte) . وكان عند الفنيقيين واليونانيين والسوريين يمثل السماء والنجوم . وأظن أن احترامه

عند العرب في الجاهلية لم يأت الا من هذا الطريق . لذلك كانوا يصنعون تمثال حمامة داخل الكعبة بجوار تمثال هبل . ولقد ورد في سيرة ابن هشام عن صفية بنت شيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة بعد الفتح وطاف بالبيت دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها .

على أنا لو صرفنا النظر عن كون الحمام لطيفاً في شكله ، أنيساً في نوعه ، جميلا في صورته ، نظيفاً فى لباسه ، يمثل في عائلته المحبة الحقيقية والشفقة الحسية ، فانا نرى فيه درساً عائليا كبيرا : نرى الذكر منه مع انثاه يعملان لحياتهما وحياة عائلتهما عمل المجدين المجتهدين ، حتى اذا فرغا من واجبهما الاهلى تفرغا الى حياتهما الزوجية : فتراهما بين توامق وتعاشق وتمانق ، لا ينفصلان الا ليتصلا ولا يفترقان الا ليجتمعا فى جلابيب جمال وأساليب دلال مما لا يرى له مثال في زوجين من غير نوعهما على كل حال .

على ان الحمام له على الانسان خدمة تذكر فتشكر : فقد كان من القرن الثامن قبل المسيح الى منتصف القرن التاسع عشر يؤدى وظيفة التلغراف بين الامم المختلفة حتى اعلن مرس ووطسون سنة ١٨٤٤ تلغرافهما الكهربائى الذى لا يشك أحد فى انه افاد العالم بأسره فائدة جسيمة ، وكان من اكبر الاشياء التى ساعدت على التمدن العصرى وانتشاره بسرعة . ولكن هل هذه الفوائد الجسام التى بين ظهر انينا تنسينا فضل ذلك الحمام ؟

ولتكملة الفائدة نقول لك ان أول من استعمل الحمام فى الزجل هو رجل من جزيرة أوچين (من جزر اليونان) أتى فى سنة ٧٧٦ قبل المسيح الى آتينا ليحضر الالعاب الاولمبية واستحضر معه حمامة كانت عنده أخذها من بين افراخها . فلما غلب فى هذه الالعاب ارسل الحمامة فذهبت الى عشها ، ومن قدومها علم أهل الرجل بنجاحه فى مأموريته .
ومن ثم استعمله اليونان والرومان والعرب والمصريون فى مراسلاتهم ، وكان لمصر وخصوصاً زمن الايوبيين والفاطميين مصلحة للرسائل ، وكان بها فى كل جهة بيت للحمام ، وكل ما فيه غريب من جهات متعددة ، فاذا ما أرادوا أرسال مكتوب الى أى مكان ارسلوه

على جناح حمامه من جهته ، الا أنهم كانوا يرسلون الرسالة على حمامتين بعد ما حصل فى حصار الفرنجة لعكا : ذلك لان المسلمين فى عكا أرسلوا رسالة الى صلاح الدين الايوبى بواسطة حمامة من حمامهم ، فتبعها طير جارح وضربها فسقطت فى معسكر العدو الذى عرف منها مواقع الضعف من عدوه. ولعلك تذكر لما نزل لويس التاسع ملك فرانسا الى دمياط سنة ١٢٧٠ وسار بجنده على المنصورة ، أخذ ملك مصر الملك الكامل خبره بواسطة الحمام الزاجل فسير اليه جيوشه فاوقفته عند حده حتى كان ما كان من انهزام جنوده عند المنصورة وأخذه اسيرا وسجنه بها الى ان تم الصلح بينه و بين ملك مصر فأطلقه وسافر الى تونس ومات فيها . وفى حبسه يقول بعضهم .

قل للفرنسيس وان انكروا ... حبس لويس فى مقال صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

والحمامة تقطع فى طيرها من سبعين الى ثمانين كيلو مترا في الساعة ولها صبر علي الجوع جملة أيام ولكنها لا تصبر على العطش .

وكان لهذا الحمام فى حصار المانيا لباريس بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧١ اكبر فضل فى ربط اجزاء المملكة الفرنساوية بعاصمتها .

وربما كانت هذه الحكومات قد قضت ان لا يمس جنس الحمام بسوء حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لاذى الصيادين وخلافهم فيؤدى مأموريته وهو فى غاية الهدو والطمأنينة .

ولقد كان عباس باشا الاول والى مصر رجع الى تربية هذا الحمام واستكثر من أنواعه ولكن مات رحمه الله قبل ان يتم غرضه ، وأخذ بعض ذوات القاهرة عنه هذه الغية ولكنهم اقتصروا على تربيته وتطييره فى محيط ديارهم ، وقد يعلمه بعضهم الصبر على الطيران خصوصاً اذا التحم بحمام آخر حتى اذا اتعب ما معه من الحمام الغريب امكنه استهواؤه الى منزله و بذلك يرجع الى صاحبه بصيد جديد فرحه به لا يقدر . وللحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها الجزغندى والريحانى والمزرزر والقرازى والابلق والعنبرى والقشاقى وغيرها، الا ان هذه الغية لم تقف عند افنية الاغنياء بل تعدتهم الي القفراء

وهم الى الآن يضيعون فيها وقتهم الذي هم وعيالهم فى حاجة اليه لعمل حيوى مفيد ولقد شاهدت فى سراي يلدز ببستانها الداخلى بعد خلع السلطان عبد الحميد دارا كبيرة من السلك وفيها مالا يحصى من أنواع الحمام وهو من جمال الخلقة بمكان عظيم

الحج

الحج سنة قديمة جدا في الامم ، والغرض منه على كل حال أمر ديني محض ، وان كان الاجتماع فيه لا يخلو من فائدة دنيوية تزيد فى رقى الامة أدبيًا وماديا . وقد كان المصريون قبل أربعين قرنا يحجون الى هيكل معبودهم ايزيس بمدينة سايس (صا) ، وفتاح فى منفيس ، وأمون في طيبه .

واليونان كانوا يحجون قبل المسيح بخمسين قرنا الى هيكل ديانا فى افسوس ، ثم انتقلوا في مبدأ القرن الثانى قبل المسيح الى حج معبد مينارفا فى أتينا ، وجوبيتير فى اولمبيا . واليابان يحجون من عهد بعيد الى هيكل عظيم مشهور في ولاية اسجى ، وتجب زيارته على كل فرد منهم في عمره ولو مرة واحدة : فيتوجهون اليه بلباس أبيض على شكل مخصوص ، وسوادهم يقصدونه عراة ليس عليهم الا مايستر عورتهم ، و يقطعون اليه كل المسافة ركضًا . والصينيون يحجون الى هيكل المعبود تيان من زمن بعيد جدا . والهنود لا يزالون يحجون الى هيكل جاغرنات ، أو هيكل الورا في حيدر أباد وهو محفور في الصخر على طول فرسخين ، وكذلك يحجون الى هيكل بوذا بجزيرة منا قرب سيلان . وهم يكثرون من الطواف حول هيا كلهم ، ولهم بحيرات مقدسة يتبركون بمياهها مثل بحيرة مادن قرب بحر قزوين . واليهود كانوا يحجون فى القرن الرابع عشر قبل المسيح الي المكان الذى به تابوت العهد ، وكانوا يحجون اليه ثلاث مرات فى السنة ، وكان ذلك اكبر سبب لعمار اورشليم حتى أحرقها الامبراطور طيطوس الرومانى وأجلى اليهود عنها سنة ٧٠ مسيحية ، وما زالوا بعيدين عن مدينة بيت المقدس حتى استولت العرب

عليها سنة ٦٣٦ ميلادية فاقرهم عمر رضى الله عنه مع النصارى على ما كان لهم فى بيت المقدس ثم قطعت عليهم طريقها الحروب الصليبية حتى استولت دولة بني عثمان على اورشليم فى سنة ١٥١٧ فأمنت الطرق ومهدت السبل الي بيت المقدس خصوصاً بعد عمل السكة الحديد (١) من يافا اليها ، وهم يحجون الآن الي قطعة من السور القديم لهيكل سليمان في الجهة الغربية من المسجد الاقصى ويسمونها البراق .

أما النصارى فانهم يحجون الي بيت المقدس من سنة ٣٠٦ للمسيح أى منذ سارت هيلانة ام الامبراطور قسطنطين الى اورشليم وابتنت بها كنيسة القبر المقدس المشهورة باسم كنيسة القيامة وكانوا يخرجون اليه من غرب اوربا باحتفال عظيم ، وكان رئيس الجهة الديني يزود كلا منهم بعصا ورداء من الصوف الخشن فيلبسه لوقته ، وكان لهم على طول طريقهم تكايا وأديرة يأوون اليها مدة سفرهم ، وكان اذا وصل الحاج الى بيت المقدس يتطهر في نهر الاردن الذى يبعد بنحو عشرين كيلومترا شرقى القدس ويلتحف برداء يحمله معه ليكون له كفناً عند موته ، فلما استولى السلجوقيون على بيت المقدس قل حجاج الافرنج الى اورشليم وحولوا وجوههم الى كنيسة القديس بطرس وبولس في رومه ، وفي ترنيف بجرمانيا ، ويزعمون أن بالاخيرة قيص المسيح الذى كان يلبسه . وقد بلغ عدد حجاجها سنة ١٨١٤ مليونا ومائة الف نفس من الافرنج. وهم يحجون أيضاً الي كنيسة لورده (Lourdes) في جنوب فرنسا بعد أن شاع في اوروبا بان السيدة مريم العذراء ظهرت لاثنين من رعاة هذه المدينة . والزائرون لهذه الكنيسة يشربون من ماء ينبع قريباً منها يسمى باسمها ويعتقدون الي اليوم بان فيه شفاء للامراض ويرسلون منه الي جميع أقطار المسكونة للتبرك والاستشفاء .

والعرب كانت تحج من ثمانية عشر قرنا الى الكعبة المكرمة لانهم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختلاف الآلهة وتعدد الديانات وتغاير المذاهب وكانوا يقصدونها سنويا للطواف بها من غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون

(١) المسافة بين يافا ومدينة بيت المقدس ٨٧ كيلو متراً وعليها سكة حديد ضيقة لشركة فرنساوية عملت في الثلث الاخير من القرن الماضي

الآخرين لانها كانت عندهم بيتاً لله الذى هو اله العالمين . ورغماً عن شيوع عبادة الاوثان في سواد قبائل العرب فانه لم يرد عنهم انهم عبدوا هيكل الكعبة أو الحجر الاسود مع احترامهم لها ذلك الاحترام الذي لا يمكن تصويره . وكانوا يعتقدون أن هذا الحجر نزل من السماء و به أخذ بعض الفقهاء ونحن لا ندرى ان كان وصل اليهم من طريق النيازك أو من طريق آخر .

واحترام الاحجار(١) فى الناس قديم جدا فمنهم من كانوا يعبدونها لذاتها ومنهم من كان يجعلها رمزا لآلهتهم كما كان الشأن فى الدول الراقية فى عمرانها كدولة الرومان واليونانيين الذين كانوا يرمزون بها لمعبوداتهم من الكواكب وغيرها : ولم يكن نبوغهم الى الآن فى نحت الاحجار وعمل التماثيل وتبريزهم في التصوير الا لاحترامهم اياه من قديم الزمان واستعمالهم له فى الازمنة الخالية تمثيلا لمعبوداتهم . والصينيون واليابان والهنود لا يقلون عنهم فى هذه الصناعة ولهم فيها دقة غريبة وخصوصاً فى الاعمال الخشبية التى يمثلون فيها كثيرا من معبوداتهم مثل بودا وكونفوشيوس وغيرهما .

اما العرب فقد كانت اصنامهم ساذجة مثل جميع طبائع الاشياء فيهم وقد كانوا يعبدونها لتقربهم الي الله زلفى ، وفي عتبة باب السلام الخارجية ترى حجرا ضخما اشبه شئ بدرجة سلم غير منتظم نازلة فى الارض يطئونها بنعالهم ، وأهل مكة يقولون عنه أنه صنم من اصنام الجاهلية واسمه اساف ؟

وكان انبياء بنى اسرائيل يقيمون الاحجار فى مناسبات كثيرة : منها ماهو تذكار لحادثة من الحوادث الجسيمه ، كما فعل يعقوب عند ما تراءى له ربه جل شأنه فى نومه فانه اقام حجرا تذكارا لهذه الحادثة الكبرى فى مكان سماه بيت ايل (بيت الله)

---

(١) وفى باريس بجهة التروكادرو متحف اسمه جيميه (Musée Guimet) فيه مجموعة كبيرة من الاحجار الدينية وهي اكبر مجموعة فى بابها وقد زرتها فى سنة ١٩٠٦ مع صديقي الفاضل علي بك بهجت وكيل دار الآثار العربيه فاستقبلنا صاحبها والقائم بادارتها بكل أنس ولطف .

كما اقام حجرا غيره تذكارا (١) للعهد الذى تم بينه و بين لابان (انظر الآية الرابعة والار بعين والخامسة والار بعين من الاصحاح الحادى والثلاثين من سفر التكوين) ومن ذلك الاثنا عشر حجرا التى نصبها يشوع تذكارا لعبور الاسباط نهر الأردن بتابوت العهد (انظر الآية التاسعة من الاصحاح الرابع من سفر يشوع) ومنها الحجارة التى نصبها موسى في ذيل الجبل تذكارا لكتابة كلام الرب (انظر الآية الرابعة من الاصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج) .

ومن الحجارة ما كانوا يقيمونه للعهد والميثاق كالحجر الذى اقامه يشوع عند ما أخذ العهد على شعبه قائلا لهم هذا الحجر يكون شاهدا (٢) علينا (انظر الآية السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من الاصحاح الرابع والعشرين من سفر يشوع) .

وكان المصريون يقيمون الاحجار الجسيمة كالمسلات وغيرها تذكارا للحوادث التاريخية الكبرى وقد اقتفت آثارهم الدول المتمدنة وعلى الخصوص ما يقيمونه اعترافا بفضل من ينبغ من افراد الامة وهذه الآثار لا يكاد يخلو منها ميدان من ميادين عواصم أوروبا .

وجميع الحكومات من قديم الزمان تقيم الاحجار لتعيين تخومها وتحديد ممالكها وقد عم هذا الاستعمال في تحديد ملكية الافراد حتى اطلق لفظ الحجارة على الحدود

---

(١) ومن حجارة التذكار تلك الحجارة التى يقيمها صغار الحجاج على حافة طريقهم مع القافلة فتراهم اذا صادفوا فى طريقهم احجاراً صغيرة تسابقوا اليها وأخذ كل بين يديه ما اراد منها ووضعها على بعضها حجراً حجراً قائلا : هذا لابى هذا لامي هذا لاخي هذا لاختي هذا لصديقي فلان مثلا ويسمون كل كوم منها ناطوراً ، وهم يزعمون انه ما دامت هذه الرجمة على وضعها كان أصحابها على قيد الحياه !! ولو لم يكن في عملهم هذا من حسنة سوى تنقية الطريق من الحجارة التى يتعثر فيها الانسان والحيوان لكفى .

(٢) ومن حجارة الشهادة ما يستعمله الناس للاقتراع على الاشياء أو الاشخاص وهو مستعمل فى أيامنا هذه وخصوصاً فى دوائر الحكومات الكبرى كمجالس النواب وغيرها .

واجمعت الشرائع كلها على احترامها .

واليهود الى الآن يقدسون قطعة من حائط السور الذى للمسجد الاقصى من جهة القبلة يسمونها البراق ، و يبلغ طولها نحو ثمانية وار بعين مترا في ارتفاع مترين ، لزعمهم أنها القطعة الوحيدة التي بقيت من قاعدة سور الهيكل الاصلى الذى بناه سليمان عليه السلام وهدمه بختنصر وسنحاريب وغيرهم من ملوك الاشوريين والرومانيين . وهم يحجون الى هذه القطعة مرتين فى كل سنة وخصوصاً في العيد الذى يسمونه عيد الدجاج (عيد القربان) . ويهود القدس يجتمعون عندها كل يوم وعلى الخصوص في عصر يوم الجمعة مع رؤسائهم الدينيين ، و يستلمون حجارتها باكين شاكين متنحبين متضرعين الى الله بان يرد عليهم ملكهم وان يعيد الى اورشليم فخامتها وجلالتها . وقد وصل بهم احترامهم لحجارة ذلك الهيكل الى أنهم لا يدخلون في حوش بيت المقدس أصلا بل لا يدخلون من بابه مطلقا خوفا من أن تطأ اقدامهم حجرا من الحجارة التى تكون ربما تخلفت من هيكلهم القديم والقت بها يد الصدفة في ارضية هذا المكان .

وللنصارى احجار كثيرة يقدسونها ومنها شئ كثير في بيت المقدس . وقد بلغ تقديسها منهم الى حد لا يمكن تكييفه . ومن تلك الاحجار الحجر الذى تحت قبة الصعود: وفيه أثر صدر قدم يمني يقولون انه أثر قدم السيد المسيح عند ما صعد الى السماء . وقد شاهدت بنفسى هذا الحجر الذى ملس وكاد يذهب أثره من كثرة لمسهم له وتقبيلهم اياه . وفى اسفل جبل الزيتون من الجهة الغربية مما يلى وادى سدرون (الذى يسميه العامة وادى مريم) قطعة من صخرة خارجة عن سور الكنيسة الروسية الشمالى فيها بعض تقعر رأسى ، يقولون ان السيد المسيح اسند ظهره اليها عند مانزل من جبل طورزيتا (جبل الزيتون) الى المدينة . ولقد اجتهدت الكنيسة الروسية في ادخال هذا الحجر اليها ولكن قامت من أجل ذلك قيامة الطوائف الاخرى وكادت تحصل لذلك فتنة كبيرة لولا ان الامر انتهى بجعلها منطقة عامة لجميعهم حتى لا يحرم الكل من التبرك بها . وازاء هذه الصخرة الى جهة الشمال توجد صخرة أخرى محاطة بسور للاروام ، يقولون ان السيد المسيح كان جالس عليها اذ ذاك ليشاهد منها صخرة بيت

المقدس ، و باب هذا السور يفتح للزيارة في أيام مخصوصة . وللقوم في كنيسة القيامة أحجار كثيرة تكاد تفوق حد التقديس : منها حجر نصف الدنيا الذى تراه فى وسط هيكل الأروام ، وحجر المغسل الذى يزعمون أنهم غسلوا المسيح عليه ، وحجر الكأس الذى نزل به جبريل الى المسيح ووضعه عليه ، وعامود الجلد الذى كان المسيح مربوطاً به عند ماجلده أعداؤه ، وحجر الاكليل الذى أجلسوا عليه المسيح وقتما وضعوا على رأسه اكليل الشوك ، و يوجد فى بيت لحم كثير من هذه الحجارة المقدسة .

ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند اليهود والنصارى والمسلمين على السواء صخرة بيت المقدس (١) التى كانت محل قربات ابراهيم واسحاق و يعقوب وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بني اسرائيل عليهم السلام والتى كانت قبلة للمسلمين قبل الكعبة ،

---

(١) والمسلمون يزورون صخرة بيت المقدس ويقولون لمن زارها « فلان قدس » (بصيغة الماضي) ويعتبرون زيارتها بعد زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة . وهي صخرة كبيرة ضربت عليها قبة عظيمة جداً نها من أعمال القيشاني والفسيفساء والموزاييك والنقوش الذهبية وغيرها ما يدهش العقل ويحار له الفكر . وهذه الاعمال من عهد عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد ثم السلطان سليمان القانوني . وهي آية في حسن الصناعة الرومية والعربية القديمتين مما يستعصى على عمال زمننا الحاضر اصلاح ما اعتل منها . وهذه القبة قامت على قاعدة مثمنة الشكل يحيط بها فناء رحيب مفروش بالرخام ويصعد اليه من حوش الحرم بنحو عشرين سلمة واسعة قد ارتفعت على رأسها أقواس قامت على عمد من الرخام أشبه شئ بمداخل المعابد الرومانية . وفي أسفل هذه الصخرة مغارة الى الجهة الجنوبية (جهة القبلة) قد بنى على محيطها الداخلى حوائط من أرضها إلى سقفها . ويزعمون أن هذه الصخرة معلقة فى الهواء وان هذه الحوائط انما بنيت لتحول بين مشاهدة الناس لها حتى لا يفتتنوا بها . والحال انها صخرة لها لسان بارز فبنوا تحته مدة السلطان سليمان ما يكون دعامة لهذا اللسان المبارك تحفظه من السقوط . وعلى ظهر هذه الصخرة آثار أقدام يزعمون أنها أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سار عليها ليلة الاسراء ، ومع ما هى عليه من عدم الانتظام وانها على خط مستقيم تقريباً ، وهو ما لا يمكن السير عليه لفتحة ما بين الرجلين ، فانها تكاد يكون شكلها واحداً وهو مالا ينطبق على شكل القدمين خصوصاً وانها أصغر بكثير من

ثم صخرة أيوب (النبي) التي في قرية الشيخ سعد على طريق السكة الحديد بين المزيريب والشام ، ويقصد زيارتها والتبرك بها خلق كثير من جميع الآفاق على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم .

من ذلك ترى أن هذه الحجارة لم تقدس لذاتها ولكن لعلاقتها بشيء مقدس محترم . وعليه فالحجر الأسود الذي وضعه ابراهيم عليه السلام في الكعبة اما أن يكون وضعه تذكارا لصدعه بأمر ربه برفع قواعد هذا البيت المعظم ، واما أن يكون للعهد الذي أخذه ابراهيم على نفسه وولده بجعله هذا البيت مثابة للناس ، واما أن يكون قد أقامه ابراهيم حجة عليه وعلى ولده بان هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم الى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجدا للطائفين والعاكفين والركع السجود . ووضعه في الركن الاقرب الى الباب ليكون أول حدود هذا البيت المكرم الذي يبتدئ منه الطائفون ، وجعل لونه أسود لسهولة تمييزه وتحديد مكانه : لذلك كان هذا الحجر محترما من ابراهيم محترما من ولده محترما من المسلمين الى اليوم والى الغد.

الاقدام المنسوبة له صلى الله عليه وسلم في الجهات الاخرى. ومن هذا وذاك ترى انها كلها موضوعة لاأصل لها من الصحة يؤيد ذلك أنه لم يرد في ديننا الحنيف شيء يشير الى هذه الدعوى .

وفي ظهر الصخرة فوهة تنفذ الي المغارة وهي على ما أظن مكان القربان الذي كان يقدمه ابراهيم وخلفاؤه الي الله تعالي ومن هذا أتي تقديس هذه الصخرة. وليس لزيارة المسلمين للصخرة صفة مخصوصة ولا شروط ولاميعاد مثل مافي الحج ولكنها زيارة بسيطة بالمرة في أي زمان شاءوا . واختيارها قبيل شم النسيم انما هو للحاق مولد سيدنا موسى عليه السلام في مشهده الذي يبعد عن مدينة بيت المقدس بنحو ست ساعات الي الجنوب الشرقي وذلك في يوم الجمعة التي قبل سبت النور .

ولتتمة الكلام عن بيت المقدس أقول لك انه يوجد في حوش الحرم قبلي قبة الصخرة مسجد جميل يسمونه بالمسجد الاقصى. وقد كان كنيسة فحول بعد الفتح الي مسجد. ولما حضر سيدنا عمر بن الخطاب الى بيت المقدس صلى في جانبه الشرقي الجنوبي ، وترى مصلاه الي الآن على بساطة تامة في بنائها بجوار تلك الفخامة التي بني عليها المسجد.

ولا عبرة بما ذهب اليه بعض السائحين الذين قصدوا مكة والمدينة تحت ستار شعار الدين الاسلامي وكتب عليهما كل بحسب نزعته سياسية كانت أو دينية بأن المسلمين في حجهم يعبدون الحجر الاسود الذي هو أثر من آثار الوثنية العربية الاولى . وانى لا أذكر شيئاً ادحض به مفترياتهم فيما يختص بالمسلمين سوى عبارة عمر رضي الله عنه (١) اذ خاطب هذا الحجر بقوله « اما والله انى أعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولو لا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك » ودرجة اسلام عمر لا تخفى على احد .

أما فيما يختص بعرب الجاهلية فانه لم يسمع عنهم مطلقاً انهم عبدوا هذا الحجر فيما عبدوا من الاحجار بالمرة مع احترامهم له كل الاحترام واجلالهم له كل الاجلال . وعلى كل حال فان الحجر الاسود عند المسلمين محترم مكرم معظم لا لذاته ولكن لكونه شعارا لربوبيته تعالى ورمزا لسلطانه . يعرض عليه المسلمون فيستلمونه ويقبلونه أو يسلمون عليه من بعد بكل احترام واحتشام : وعليه فهو في ذلك كاعلام الدول التى لا تحترم لكونها قطعة بسيطة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب أبسط منها بل لانها تمثل سلطان الملوك وعظمة الممالك . وهلا حضرت استعراض جيش من جيوش الدول العظام ورأيت القوم اذا حاذوا علمهم أحنوا امامه رؤوسهم وسيوفهم علامة على الخضوع والاحترام ؟

---

(١) وقد روى ابن أبي شيبه والدارقطنى فى العلل عن عيسى بن طلحة عن رجل رأى النبي صلى الله عليه وسلم واقفا عند الحجر فقال « انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » ثم قبله ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال « اني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » وقال عمر « أما والله انى أعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك » ثم دنا فقبل

رواه ابو بكر بن أبى شيبة والامام احمد والبخاري ومسلم وغيرهم .

وما زال الحج عند عرب الجاهلية على ملة ابراهيم واسماعيل، ومشاعره (١) كلها محترمة عندهم حتى اذا عظمت قريش بعد واقعة الفيل ، وقال الناس فيهم انهم أهل الله يدافع عنهم ، شمخوا بانوفهم على العرب ، وقالوا نحن ولاة البيت ، وليس لاحد من العرب مثل منزلتنا ، واتفقوا على أن لا يعظموا شيئاً من الحل: فتركوا الوقوف بعرفة

(١) ولابي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم قصيدة مشهورة ببلاغتها وهي لاميته التي تبلغ واحداً وثمانين بيتاً نذكر لك منها هنا بعض قسمه الذي تعرف منه المشاعر التي كانت تقف بها العرب في الجاهلية ، والقصيدة موجودة برمتها في الجزء الاول من سيرة ابن هشام. قال رحمه الله :

وثورٍ [1] ومن أرسى ثبيراً [2] مكانه	وراق ليرقى في حراء [3] ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة	وبالله ان الله ليس بغافل
وبالحجر المسود اذ يمسحونه	اذا اكتنفوه بالضحى والاصائل
وموطىء ابراهيم بالصخر رطبة	على قدميه حافياً غير ناعل
وأشواط بين المروتين الى الصفا	وما فيهما من صورة وتماثل [4]
ومن حج بيت الله من كل راكب	ومن كل ذى نذر ومن كل راجل
[5] وبالمشعر الاقصى اذا عمدوا له	ألال [6] الى مفضى الشراج [7] القوابل
وتوقافهم فوق الجبال عشية	يقيمون بالايدى صدور الرواحل
وليلة جمع [8] والمنازل من منى	وهل فوقها من حرمة ومنازل
وجمع اذا ما المقربات [9] أجزنه	سراعا كما يخرجن من وقع وابل
وبالجمرة الكبرى اذا صمدوا [10] لها	يؤمون قذفا رأسها بالجنادل [11]

(١) و (٢) و(٣) جبال بجوار مكة (٤) التماثيل وهى الاصنام (٥) واحد المشاعر الحرام وهى المواضع التي بها مناسك الحج والمشعر الاقصى هو عرفه لانه ابعدها . (٦) « الال » بفتح الهمزة وكسرها جبل عرفه . (٧) مفرده شرج وهو مسيل الماء ، ومفضى الشراج مجمعها في مجرى واحد . وفي هذا ما فيه من بلاغة التعبير اشارة الى اجتماع الناس في مكان واحد وهو عرفه . (٨) هي ليلة المزدلفه . (٩) « المقربات » هى الخيل التي ضمرت للركوب والابل التى عليها رحالها . (١٠) قصدوا . (١١) الحجارة

والافاضة منها ، مع علمهم أنها من المشاعر الحرام وانها مكان الحج من زمن ابراهيم ، وقالوا لا ينبغى لاهل الحل ان يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل فى الحرم اذا جاءوا حجاجا او عمارا ، وأن لا يطوفوا بالبيت الا في ثياب الحمس (وهم قريش وسموا بذلك لتحمسهم فى دينهم أى تشددهم) ، فان لم يجدوا طافوا بالبيت عراة . فدانت لهم العرب بذلك ، وكانت المرأة فى طوافها تضع عنها ثيابها الا درعها .

وقد كان السعى بين الصفا والمروة من لوازم الحج فى الجاهلية ، وكان لهم صنم على الصفا يسمى (اساف) وآخر على المروة يسمى (نائلة) ، وكان للعرب فيهما اعتقاد سخيف كغيره من الاعتقادات الوثنية ، فلما جاء الاسلام امتنع المسلمون عن السعي كيلا يكونوا مثل أهل الجاهلية في وثنيتهم ، نزل قوله تعالى « ان الصفا والمروة من شعائر الله» . وجعل الحج من قواعد الاسلام قال عليه الصلاة والسلام « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا» . وقد أفاض النبي صلى الله عليه وسلم من عرفات ونزل فى ذلك قوله تعالى « ثم افيضوا من حيث افاض الناس » وقال صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة » ، وطاف الحجاج بالثياب التى معهم من الحل واكلوا من طعام الحل في الحرم وما زال المسلمون يحجون على ما كانت عليه سنة ابراهيم واسماعيل الى اليوم .

ولكن يظهر للمتأمل فى طواف البدو الآن وعلى الخصوص أهل الشروق من عتيبة ومطير أن حجهم الصق بالبيت منه بعرفة : ذلك لان هؤلاء القوم يفدون على مكة فى الخمس الاول من شهر ذى الحجة ، فيرتبون مساكنهم شرق المدينة من خارجها ، ثم يدخلون المسجد الحرام جماعات جماعات ، و يطوفون حول البيت طواف القدوم ماسكين بايدى بعضهم ، لا يوقفهم فى طوافهم زحام المطاف بغيرهم ، بل يأخذون فى طريقهم كل من صادفهم فيه وهم يقولون « الله محمد ، لبيك لبيك ، حجيت تقبل أولا تقبل حجيت، الا تقبل» . واذا كان معهم نسوة (ولا يكن في الغالب الا من المتقدمات فى السن) تراهن فى مؤخرتهم ماسكات باكتافهم ، ولا يظهر منهن سوى اعينهن وفى أيديهن

القفازات ، حتى اذا وصل الكل الى الحجر الاسود تملق المتقدم منهم بكسوة الكعبة وامسك بها بقوة بحيث لا يزحزحه عنها أحد ، وتبعه اخوانه وازاحوا غيرهم من المستلمين بقوة وصبر لا يعتورهما ملل محتملين فى ذلك ضرب الضارب وانتهار الناهر، حتي اذا كشفوا الناس عنه واستلموه جميعا وقبلوه ، أتت نساؤهم لتقبيله فيضرب الزوج رأس امرأته لتصطدم جبهتها فى الحجر ، فيحصل فيها أثرة تكون عندهم علامة الحج (كالوشم عند حجاج بعض النصارى الى بيت المقدس) ، وعندها يصرخ الرجل قائلا لزوجته « حجيت ياحاجة » ؟ فتصيح قائلة « حجيت حجيت » ثم تلتفت الى الحجر الاسود قائلة «حجيت ، خبر ربك (١) انى حجيت » ثم ترفع رأسها الى السماء قائلة « تقبل أولا تقبل حجيت الا تقبل غصبا تقبل » . هذا كله قبل وقوفهم بعرفه ، ومنه ترى ان اعتبارهم انفسهم أنهم حجوا بمجرد الطواف والاستلام قبل الوقوف انما هو بعض ما كانت سنته قريش بعد واقعة الفيل ومحاه الاسلام .

واخلاق هؤلاء الاعراب فى الحرم الشريف بخلاف ما هو معروف عنهم من شدتها : فانك تراهم فيه على غاية ما يكون من السكينة واللين والتسامح لا يقابلون الاهانة الشخصية الا بالسكوت المطلق عن الاجابة عليها ، وما ذلك الا لشدة احترامهم حرم الله واجلا لهم لبيته المعظم .

ولا شك ان قصد الشارع من الوقوف بعرفة انما هو وحدة الوجود فى مكان واحد تجمع اطرافه جميع أولئك الذين وفدوا من الاقطار المختلفة ، وهم وان اختلفت اجناسهم وتغايرت لغاتهم قد توحدت وجهتهم وتفردت غايتهم . ثم تجمعهم صحراء عرفة وتضمهم الى فؤاد ذلك الجبل حتي اذا اجتمع شخص بآخر عرف كل واحد ما يهم من أمر صاحبه ، فيمسيان وقد اهتم كلاهما بأمر أخيه مما تنصلح به أحوال الافراد وتستقيم به أمور الامم . وكيف لا وقد كان هذا الاجتماع بين يدى الله وفى حضرته فى يوم يكون الانسان فيه بكليته عاطفة شريفة : هي الاخلاص بحقيقته لا يشوبها

(١) من تأمل في هذه العبارة يرى ولا شك أنها من آثار الجاهلية و منها يحكم قطعياً أن القوم قبل الاسلام ما كانوا يعبدون الحجر الاسود .

رياء ولا يتطرق اليها مراء . وكان موسم الحج موعدا بين الناس يقضون به اشغالهم ويعضون فيه أمورهم وذلك لصعوبة المواصلات التى كانت بينهم قال بعضهم

ما احسن الموسم من موعد واحسن الكعبة من مشهد

وكانت الخلفاء فى الغالب يقومون بفريضة الحج فى صدر الاسلام حتى يقفوا بأنفسهم على حال رعاياهم وقد افادهم هذا الامر فى سياسة ملكهم داخله وخارجه سياسة عظمى . ولعل امراء المسلمين يعودون الى ما كان عليه سلفهم الصالح من احياء هذه الفريضة لتحيا بها نفوسهم وممالكهم : نعم تحيا بها حياة طيبة ، لانهم اذا تنازلوا لحظة الى منزلة الناس فى جميع طبقاتهم ، واختلطوا مع العامة منهم قريبهم و بعيدهم فيسمعون نداء الفقير و بكاء الضرير و يعرفون حاجة البائس ومقدار ما تعمل الفاقة فى احشاء هؤلاء المساكين الذين يحول سياج الملك بينهم و بين معرفتهم بحقيقتهم ، عرفوا ما يجب عليهم لرعاياهم وعملوا على اعانة الضعيف واغاثة اللهيف ، و يقلدهم في ذلك الكبراء والعظماء مسوقين بطبيعة تقليد الصغير للكبير (والناس على دين ملوكهم) فيضحون وامهم فى اهنأ بال ، واحسن حال ، وهذه هى سعادة الراعى والرعية على السواء . نعم نعم يجب على الامراء والعظماء والاغنياء ان يحجوا ، حتى اذا وقفوا لحظة فى صف هؤلاء التعساء والبؤساء ترققت قلوبهم وتحننت افئدتهم واصبحوا بعيدين عن عوامل الظلم والاستبداد ، قريبين من مؤثرات الرأفة والرحمة . نعم اذا وقف اولئك الملوك في سلك هؤلاء الناس والكل مملوك بعرش اله واحد عادل وهو القادر القاهر ، مالوا الى الاشتراكية واهتموا بحال المملوكين والمظلومين : فيردون عن هذا ظلامته و يخففون عن ذلك محنته ، و يحولون بين براثن القوي ومهجة الضعيف ، و بذلك تستقيم امور الرعية وتعود الى ما كانت عليه في خلافة الراشدين من الحياة الصحيحة .

ولقد شهدنا فى ذلك برهانا محسوساً : فان الجناب العالى الخديوى عند ما وقف هذا الموقف أخذ يذكر حال البؤساء من حجاج بيت الله الحرام عموما والمصريين منهم خصوصاً مهتما بامرهم كل الاهتمام مفكرا فى الواسطة التى تخفف من مصائبهم وتسهل من مصاعبهم . فكنت تسمع منه على الدوام ، ووجهه حفظه الله محتقن بدماء

الانفعال بعامل الرحمة والحنان، عبارات الاسف على ما يقاسيه البؤساء من حجاج بيت الله الحرام، ويبحث على الطريق التي يكون من ورائها راحتهم وطمأنينتهم، وهذه الفكرة لا تزال تشغل فكره الشريف الى الآن. كذلك كان الخلفاء والامراء في صدر الاسلام، وكثيرا ما كانوا يحجون. حتى ان الرشيد كان يحج عاما و يغزو عاما ولذلك كانت حكومته من احسن الحكومات نظاما وامتنها احكاما. فلما تقاعد الخلفاء عن تأدية هذا الواجب القومي استهان الناس بهم وما زالوا كذلك حتى غلبوا على أمرهم !! نسأل الله ان يعيد الى الاسلام عظمته ومجده.

على ان الحج له تأثير كبير في الاخلاق: فترى الحاج يتوب الى الله في حجه ولا يتم مناسكه الا وهو على اعتقاد تام بمغفرة الله له وتفضله بمحو ذنوبه من صحيفة اعماله، فاذا عاد الى بلاده سار في طريق الفضيلة و يصعب عليه ان يتركه الى غيره مهما كان شابا، فاذا تمثل له شيطان غوايته جرد له وازعا من نفسه يحول فيما بينهما، وفي الغالب يكون هذا الوازع اقوى من خصمه الذي ينهزم امامه: واذا فليس من مهذب حقيقي للنفس احسن من تربية الحج، فهو نعم المربي للنفوس الشريرة ونعم المهذب لها. ولقد قرر علماء التربية اخيرا ان الانسان لا بد له من شخص يسهل طريق عمله، حتى اذا انطلق في سبيله فلا شيء يرده عنه. لذلك تراهم يحسنون الى الصبي البليد أو الكسلان بكل الوسائل الاندفاع في طريق العمل ولو مرة واحدة، فاذا ذاق حلاوة الاجتهاد صعب عليه رجوعه الى الكسل والبلادة. على ان الحاج ان لم تردعه نفسه عن اقتراف الرذيلة فانه لا يحرم من الناس مؤنبا له عليها أو معيرا له على اقترافها بعد الحج، فيرجع اذ ذاك عن غيه طوعا او كرها. وهذا اظنه حسبك في فضيلة الحج التي لا تماثلها فضيلة والتي لو فطنت لها الحكومات الاسلامية لسهلت طريقه على رعاياهم حتى اذا كثر سواد الحاجين منهم كثرت فيهم الفضيلة التي تؤدى الى الخير العام والسعادة الحقيقية.

ولقد كانت الحكومة المصرية في الزمن الغابر تخرج الى الشوارع والحارات في أشهر الحج اناسا يتغنون بأناشيد (يسمونها تحانين) تحرك عواطف الناس الى اداء هذه الفريضه كما كانت خطباء المساجد تحث عليها وترغب الناس فيها (ولا يزالون كذلك الى الآن)

كيف تحج ايها المسلم

اعلم وفقك الله لطاعته ان الحج فرض على المسلمين في أواخر سنة تسع من الهجرة مرة واحدة فى العمر على كل مسلم ، حر ، مكلف ، صحيح البدن ، ميسور الزاد والراحلة ، قادر على نفقة عياله مدة سفره فى حجه مع أمن الطريق اليه . ويحرم الحج بمال حرام ويكره بدون اذن من له الولاية على من يريده . وتجوز الانابة فيه عند العجز عن ادائه بحبس او مرض فان زالا وجب اداؤه بالذات .

فاذا تيسر لك ذلك كله فسافر على بركة الله لاداء هذه الفريضة ، فاذا وصلت الى ميقات الاحرام فاحرم بنية الحج (أو العمرة ان شئت اوهما معا) قائلا : اللهم انى نويت الاحرام لحج بيتك المعظم فيسره لي وتقبله مني (وكيفية الاحرام ان يتجرد الرجل من مخيط الثياب ويلبس ازارا ومعه رداء ونعلان ان تيسر له ذلك، اما المرأة فتلبس ملابسها وتكشف كفيها ووجهها ان لم تخش الفتنة، ويسن تقليم الاظافر وحلق ماشعث فى البطن « العانة » وتسريح الشعر والغسل قبل الاحرام وصلاة ركعتين تبدؤه بهما) ثم تلبي قائلا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك . ولا تزال تكرر التلبية من وقت الى آخر حتى اذا دخلت مكة قلت : اللهم ان هذا الحرم حرمك والأمن أمنك والعبد عبدك ، اللهم أنى جئتك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة راجيا أن تستقبلنى بمحض عفوك وكرمك وان تحرم جسدى على النار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . فاذا جئت الى الحرم فادخل من باب السلام قائلا : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا بالسلام وادخلنا الجنة دار السلام بفضلك ياذا الجلال والاكرام . ثم سر نحو البيت قائلا : اللهم ان هذا الحرم حرمك وهذا الامن أمنك ، اللهم حرم جسمى على النار . فاذا وقع بصرك على الكعبة فقل : بسم الله الله اكبر (ثلاثا) لا اله الا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . فاذا دخلت من باب شيبة فقل : رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا

نصيرا ، وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا . فاذا اتيت الحجر الاسود فاستقبله وقل : بسم الله الله اكبر ولله الحمد ، اللهم اغفر لى ذنبي وطهر لى قلبي واشرح لى صدرى وعافنى برحمتك فيمن تعافى . ثم استلمه بيمينك وقبله (ان امكنك) وانو الطواف قائلا : اللهم انى نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط لوجهك الكريم اللهم يسرها لى وتقبلها مني ، ثم انطلق فى طوافك قائلا : اللهم ايمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله ، اللهم ان هذا البيت بيتك والحرم حرمك والامن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار فأعذنى منها يا عزيز يا غفار ، اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ، اللهم أنى اسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة ، اللهم اظلنى تحت عرشك يوم لا ظل الا ظلك واسقني بكأس نبيك محمد صلى الله عليه وسلم شربة هنيئة مريئة لا اظمأ بعدها أبدا ، اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا وتجارة لن تبور ، اللهم انى أعوذ بك من الشك والشرك والنفاق وسوء الاخلاق وسوء المنقلب وسوء المنظر فى المال والاهل والولد ، اللهم انى عبدك وابن عبدك قد اتيتك بذنوب كثيرة ، اللهم ما كان لك منها فاغفره لى وما كان منها لعبادك فاحمله عني . وكلما قربت من الحجر الاسود قل : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فاذا حاذيته فقل مستلما ان امكنك أو مسلما عليه بيمينك من بعد : بسم الله الله اكبر ، ثم ادع الله تعالى بما تشاء من الادعية السابقة أو بما يحضرك من غيرها ، والا فحسبك الذكر والتوحيد والاستغفار ويجمعها قولك : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ويسن الاضطباع فى طواف القدوم وهو اخراج الذراع الايمن فوق الرداء الذى تشتمل به ، وكذلك يسن فيه الرمل (أي الجري بخطى ضيقة اشارة الى ان الجسم ممتلئ قوة وشهامة ولم تؤثر فيه عوامل مشقة السفر فى سبيل الله) .

و بعدطوافك سبعة اشواطعلى هذا النظام توجه خلف مقام ابراهيم وصل ركعتين سنة الطواف ، ثم قل : اللهم انك دعوت عبادك الى بيتك الحرام وقد جئت طائعا لامرك فاغفرلى وارحمني ، اللهم اغفرلى ولوالدي وارحمهما كما ربيانى صغيرا ، اللهم اغفرلى ولجميع المؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والاموات . ثم اقصد الملتزم وقل اللهم يا رب البيت العتيق أعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا واخواننا وأولادنا من النار ، اللهم احسن عاقبتنا فى الامور كلها واجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم انى عبدك وابن عبدك واقف تحت بابك ملتزم لاعتابك متذلل بين يديك ارجو رحمتك واخشى عذابك ، اللهم اشرح لى صدرى و يسر لى أمرى واغفر لى ذنبى . ثم اذهب الى بئر زمزم فاشرب منها هنيئاً مريئاً . ثم توجه الى المسعى فاذا خرجت من باب الصفا فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ، ثم اصعد على درجات الصفا وتوجه الى الكعبة فاذا شاهدتها قل : بسم الله الله اكبر ولله الحمد ، ثم اسع الى المروة قائلا : لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير ، لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهم انى أعوذ بك من عضال الداء وخيبة الرجاء وشماتة الاعداء وزوال النعمة ونزول النقمة ، وتهرول بين الميلين الاخضرين (وهما عمودان مبنيان فى جدار الحرم ، واحد بجوار باب البغلة والآخر بجوار باب علي ومسافة ما بينهما سبعون مترا) قائلا : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم انك أنت الاعز الاكرم ، ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار يا عزيز يا غفار يا أرحم الراحمين ، ثم ادع بما شئت حتى اذا أتيت المروة فاصعد على سلمها وتوجه الى المسعى (١) وادع الله بما شئت .

---

(١) المسعى هو ما بين الصفا والمروة وطوله نحو أربعمائة وعشرين متراً وهو شارع عمومي محاط بالبيوت والمخازن والدكاكين مما يجعله مزدحما بالناس زمن الموسم لاسيما عند دخول القوافل بالحجيج الى مكة وهنالك يكثر الساعون ويصادفون فى سعيهم مشقات كثيرة . وعلى طرفى المسعى وخصوصاً من جهة المروة دكاكين للحلاقين تحلق أو يقصر فيها من أراد ان يتحلل من احرامه .

و يعدهذا شوطا من السعي . وهكذا تسعى في الاشواط السبعة . وتستحضر أثناء سعيك ذلك الجهد الذى اصاب هاجر فى هرولتها طلبا للماء عند قدومها بولدها الى هذه الفلاة فرحمها الله بعثورها على عين زمزم فكان عليها استعمار مكة التى اصبحت قبلة للمسلمين فى جميع اطراف الارض . واذا كنت محرما بالعمرة حلقت أو قصرت وتحللت (فككت احرامك) ، حتى اذا كان يوم التروية (اليوم الذى قبل يوم عرفة) احرمت للحج . اما ان كنت قارنا (أعنى محرما بالحج والعمرة معا) أو مفردا (محرما بالحج) فقط بقيت باحرامك فى مكة الي يوم التروية ، ثم تتوجه الى عرفة فتبيت فيها ان لم تكن أردت المبيت بمنى وتقضى بعرفة (١) يوم التاسع من ذى الحجة وجزأ من ليلة العاشر فى الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل والتلبية والصلاة على النبي والاكثار من تلاوة سورة الاخلاص ومن قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وتكثر من الدعاء والتضرع الى الله بقبول حجك وغفران ذنبك خصوصاً بعد العصر و يسن تقديم الجمع بين الظهر والعصر مع الامام (بعرفة) . فاذا نفر الامام أو نائبه من عرفة فانفر معه الى المزدلفة ، وان كنت مالكياً فحسبك من اقامتك بها مقدار ماتجمع فيه جمارك وهى تسع وأربعون حصاة فى حجم الفولة تقريباً ، وان كنت شافعياً فحسبك الاقامة فيها جزأ من نصف الليل الثانى ، وان كنت حنفياً فبت بها وانزل بعد صلاة الصبح الى

---

(١) يكفي فى الوقوف بعرفة لحظة من يوم التاسع وليلة العاشر. ولوفاتك الوقوف فقد فاتك الحج من عامك ، وعليك ان تحلل بعمرة ، وقضاؤه فى العام القابل ولو كان حجك نفلا . هذا عند أهل السنه ، أما عند الشيعة من الاعجام فحاجهم لو فاته الوقوف فانه لا يحل حتي يقضى حجه من عام قابل : لذلك تراهم يبالغون فى الاحتياط لوقوفهم فيقفون فى اليوم التاسع والعاشر ولا ينزلون من عرفه الا بعد قليل من ليل الحادى عشر .

ولقد فاتهم الوقوف سنة ١١٤٣ فاقاموا بمكة محرمين حتى أدوا الفريضة سنة ١١٤٤ ولكن أهل مكة قاموا عليهم بدعوى أنهم وضعوا نجاسة في البيت وارغموا الشريف محمد ان عبدالله بن سعيد فاصدر أمره باخراجهم من البلد الحرام فساروا الى الطايف وجده واقاموا بهما الي الموسم التالى .

منى ، وارم جمرة العقبة بسبع حصيات تقول في اثنائها : بسم الله الله اكبر رجما للشيطان وحزبه ، اللهم تصديقا بكتابك واتباعا لسنة نبيك وخليلك عليهما الصلاة والسلام . ثم اذبح ان كان عليك دم ، ثم احلق أو قصر وقل : الحمد لله الذى قضى عنى نسكى اللهم زدنى ايمانا و يقينا ، وهنا لك يحل لك كل شيء الا النساء والطيب . وفى اليوم الثانى ترمى جمرة العقبة بعد الزوال ، ثم ترمي الجمرة الثانية ثم الثالثة بسبع حصيات فى كل جمرة ، وكذلك تفعل في اليوم الثالث . ثم انزل الى مكة وطف طواف الافاضة ، واسع ان لم تكن سعيت بعد طواف القدوم . ومن الناس من ينزل فى اليوم العاشر الى مكة حتى اذا طاف طواف الافاضة وسعى (ان كان عليه سعي) عاد من يومه الى مني ونزل منها الى مكة بعد زوال اليوم الثالث عشر وبهذا ينتهى الحج . و يقيم الحجاج في مكة أياما يصلحون فيها من شؤونهم ثم يقصدون السفر الى الزيارة أو العودة الى بلادهم .

الجنايات

يحرم على المحرم لبس المخيط وتغطية الرأس وازالة شعره بنتف أوحلق ، فان فعل شيئاً من ذلك متعمدا أوناسياً فعليه الفدية (بذبح شاة) ، الا اذا كان الشعر الذى سقط منه يسيرا لا يتجاوز اثنتي عشرة شعرة فعليه حينئذ ان يتصدق بحفنة من بر . و يحرم عليه أيضاً تقليم اظافره ، وعليه الفدية ان فعل ، الا اذا كان ظفرا أو ظفرين فعليه ان يتصدق بمدّ أومدّين . ويحرم عليه الطيب فى بدنه أو ثوبه أو فراشه أو أكله أوشربه أو فى عطوس أو دهان ، ويجب عليه به الفدية . ويحرم عليه صيد الحيوان أو قتله أوتنفيره أو ازعاجه كما يحرم عليه قطع حشيش الحرم وشجره وعليه به دم . و يحرم عليه الجماع و به يفسد الحج .

واذا فات الحاج شئ من أركان الحج أو العمرة أو شروطهما سهوا أوعمدا بطل حجه وعمرته وان فاته شي من الواجبات وجب عليه دم لكل واجب تركه : وذلك بان يذبح شاة في الحرم ، فان عجز عن الذبح صام ثلاثة أيام فى الحج من وقت احرامه الى يوم النحر وسبعة اذا رجع الى بلده هذا اذا كان ترك شيئاً منها قبل الوقوف أما ان تركه بعده فله صوم العشرة الايام بعد عودته الى وطنه . وان فاته شي من السنن أوالمندوبات فعليه ان يتصدق .

جدول بمناسك الحج على المذاهب الاربعة

	حنبلي	شافعي	مالكي	حنفي	
الاحرام للعمرة	ركن	ركن	ركن	شرط ☆	☆ وقيل انه ركن
طواف العمرة	»	»	»	ركن	
السعي في العمرة	»	»	»	واجب	
الاحرام للحج وهو نية الدخول فيه	ركن	ركن	ركن	شرط	
التلبية مع الاحرام واعادتها بعد السعي	سنه	سنه	واجب	سنه	
الاحرام من الميقات	واجب	واجب	»	واجب	
طواف القدوم	سنه	سنه	واجب	سنه	
البدء بالحجر في الطواف	شرط	شرط	»	واجب	
ستر العورة في الطواف	»	»	شرط	»	
الطهارة في الطواف من الحدثين	»	»	»	»	
ركعتا الطواف	سنه	سنه	واجب	»	
وقوع السعي بعد الطواف	شرط	شرط	واجب	شرط	
عدم الفصل بين السعي والطواف	سنه	سنه	»	سنه	
البدء في السعي من الصفا	شرط	شرط	شرط	واجب	
المشي في الطواف والسعي مع القدرة	سنه	سنه	واجب	»	
موالاة الاشواط في الطواف والسعي	شرط	»	»	سنه	
الوقوف بعرفه نهارا	ركن	ركن	واجب	ركن	
الوقوف بعرفة ليلا	واجب	واجب	ركن	واجب	
الدفع من عرفه مع الامام (النفرة)	سنه	سنه	واجب	واجب	
الوقوف بمزدلفه	واجب	واجب	»	»	
تأخير جمع المغرب والعشاء بمزدلفة	سنه	سنه	سنه	»	
المبيت بمنى ليالي أيام التشريق	واجب	واجب	واجب	سنه	
رمي الجمار	»	»	»	واجب	
عدم تأخير الرمي الى الليل	سنه	سنه	»	سنه	
الحلق أو التقصير	واجب	ركن	»	واجب	
الترتيب بين الرمي والذبح والحلق	سنه	سنه	سنه	»	
الحلق بالحرم وتوقيته بأيام النحر	»	»	»	»	
طواف الافاضه	ركن	ركن	ركن	ركن	
طواف السبعة ☆ الاشواط	شرط	شرط	شرط	واجب	☆ لان الركن أربعة اشواط فقط
الطواف من وراء الحجر والشاذروان	»	»	»	»	
تأخير طواف الافاضه عن الرمي	سنه	سنه	واجب	سنه	
فعل طواف الافاضه في ايام النحر	»	»	» ☆	واجب	☆ الى آخر شهر الحجه
السعي في الحج	ركن	ركن	ركن	»	
طواف الوداع	واجب	واجب	مندوب	»	

الاحرام

يجب ان يكون الاحرام من الميقات ، ولكل جهة ميقات معين ، فقد روى عن عمر وابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « مهلّ أهل الشام الحجفة ومهل أهل المدينة من ذى الحليفة ، ومهل أهل نجد من قرن ومهل أهل اليمن من يلملم » . والجحفة وتسمى مهيعة قرية صغيرة على طريق المدينة الي مكة ، وهي شرقى رابغ وعلى نحو ستة أميال منها (ويراد بأهل الشام هنا ما كان شمالي مكة) ، وذو الحليفة (آبار على) منزل رسول الله صلى الله عليه اذا خرج من المدينة المنورة لحج أو عمرة ، وكان عليه الصلاة والسلام يحج من هذا الطريق ويهل من هذا المكان ، وكان اذا عاد الى المدينة دخل من طريق المعرس وهو بطن الوادى ، وكان طريقه صلى الله عليه وسلم الي مكة على الصفراء و بدر وعسفان ومنازله على غير منازل الحاج فى أيامنا هذه ، وربما اتفقت فى كثير منها وان اختلفت اسماؤها . وأما قرن المنازل فهو مشتبك طريق نجد مع طريق القافلة من الطائف الى مكة ، وهو على مرحلة من الطائف ومرحلتين من مكة (وقد كان فى قرن لعدنان مع بختنصر واقعة كبيرة فى القرن السادس قبل الميلاد انتصر فيها الاشوريون على العرب ثم رجعوا عنهم الى بلادهم) ، اما ذات عرق التى يحرم منها القادمون من نجد فهي غربى قرن والحد الفاصل بين نجد وتهامة ، قال الشاعر

كأن المطايا لم تنخ بتهامة   اذا صمدت عن ذات عرق صدورها

ويلملم بفتح أوله وثانيه جبل على ليلتين من مكة وفى طريق اليمن اليها وأوديته تنحدر الى البحر .

وهذا للخارج عن هذه الحدود أما الداخل فيها فيحرم من أي نقطة من الحل . ولا بد لنا ان نلاحظ ان جعله صلى الله عليه وسلم ميقات احرام أهل المدينة من ذى الحليفة ، التى هى على نحو عشرة مراحل من مكة فى حين ان مهل الجهات الاخرى لا يبعد عنها الا بنحو مرحلتين ، انما هو لزيادة عنايته صلى الله عليه وسلم فى الاستعداد

لدخول حرم الله واراد ذلك لاهل المدينة لانهم أحب الناس اليه واقربهم منه .

لباس الاحرام

كان الناس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أوجلود الحيوان بحال بسيطة جدا . والمصريون كانوا يستعملون فى أول أمرهم المئزر ثم البرنس : وهو قطعة من القماش تلقي على الاكتاف وتربط بحزام وترسل الى الركبتين فى العامة أو الى اسفل منها فى الخاصة . حتى اذا ترقت الدولة فى عمرانها اطالوا من ذلك البرنس الى الكمين، ولبسوا من تحته قميصاً لا اكمام له أخذوه عن الاثيوبيين (١) وكانوا فى مبدأ امرهم يلونون ثيابهم بلون واحد (أخضر أو ازرق أو احمر) ثم انتهوا باستعمال كثير من الالوان فى ثيابهم مع ما كانوا يوشون به دائر ملابسهم بالاشرطة المنقوشة .

أما الاشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش ويمرونها من تحت ابطهم الأيمن ويغطون بها الصدر ثم يرسلونها على الكتف الأيسر حيث يثبت طرفها اما بعقدة أو بمشبك (انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثانى من دائرة المعارف الفرنساوية الكبرى) ، ثم غيروا هذا الزيّ بان لبسوا قميصاً صغيرا ومن فوقه شيء يشبه العباءة . والاعجام كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة .

واليونان كانوا يلبسون رداء طويلا واسعاً ويمرونه من تحت ابطهم الأيمن ، بعد أن يلفوا به وسطهم ، ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر ، ثم صاروا يشملون بهذا الرداء الجسم جميعه : ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ثم يدخلون ذراعهم الايمن مع الرأس من فتحة مابينهما بحيث تكون العقدة على الكتف الايسر ثم يلف الجسم بباقى هذه الشملة ويسمونها شيون (Chion) كما تراه الى اليوم فى

(١) هم سكان أثيوبيا وهي مملكة قديمة كانت فى جنوب مصر فى المنطقة التي بها الحبشة وما والاها شرقا الى السومال وشمالا وغربا الي جزء عظيم من السودان المصري

عرب البادية المصريين خصوصاً عرب الغرب منهم ولاشك في أنهم أخذوا هذا الزي من الرومانيين أو القرطاجيين ولبث فيهم على بداوته الاولى الى الآن . وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية وقد شاهدت شيئاً يماثله تماما على قاعدة المسلة التى فى القسطنطينية فى ميدان السلطان أحمد وعلى بعض النواويس الموجودة في متحف الاستانة بل وفى النقوش الموجودة فى سقف جامع القهرية (القمرية) وهو (أول كنيسة بنيت فى الاستانة وحولت الى مسجد بعد الفتح) .

أما أنتكخانتنا المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين فى قديم الزمان كانت تنحصر فى لبس المئزر ، وهو فوطة يلف بها النصف الاسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل فى أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية (١) وأخص بالذكر مما رأيته على هذه الصورة تمثال كفرين المشهور بشيخ البلد فى القاعة حرف (B) من الدور الأول نمرة ٧٤ وهو بانى هرم الجيزة الثانى ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التى كانت توجد في القرن الخمسين قبل المسيح ، ثم تمثال (رعنفر) من العائلة الخامسة في القاعة حرف (D) ، ثم تمثالى امور وأمون وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطرقة اليمنى تمثله بمئزر بسيط (ولا يمكن تحقيق ما على نصفه العلوى لان يد الزمن قد محت ما عليه) . و يوجد بغير ذلك كثير من التماثيل البرنزية والنحاسية التى فى دواليب المتحف لابسة شبه احرام كامل ، وقد شاهدت من بينها تمثالا من الفخار للعذراء وهي ملتحفة بشملة تغطي جميع جسمها وابنها على يدها .

أما القاعات الرومانية واليونانية التى على يمين صحن المتحف من الدور الاول ففيها مثال الاحرام باشكاله التامة : فترى فى وسط القاعة حرف (T) امرأة رومانية من الرخام الابيض الوردى بهيئة احرام كامل أعني أنها ملتحفة برداء أبيض يغطي كل جسمها ماعدا رأسها . ويقرب منها مثال رجل من الجرانيت الاسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الايمن وهو ما يسمونه في الاحرام بالاضطباع ، وفى رجله نعال لا تغطي

(١) هذا اللباس شائع للآن في أغلب بلاد السودان وغيرها من البلاد التي لا تزال على فطرتها الاولى ، ونشاهده على كثير من اعراب البادية فى احرامهم وفى غير احرامهم .

ظاهر القدم اللهم الا عروة يدخل فيها الابهام ويخرج منها سيران رفيعان يتصالبان على ما دون الكعبين ويربطان فيما دون العقب : وهو ما يسمونه في الحجاز بالنعال الشرقية التى أجمعت المذاهب الاربع على صحة الاحرام بها . وهذه النعال تراها ايضاً في قدم منفصلة عن جسمها موضوعة على يسار الداخل في القاعة حرف (R) ، ومتاحف الفنون الجميلة فى جميع انحاء الدنيا غاصة بصور الناس فى العهد القديم وهم في لباسهم البسيط الذى يماثل لباس الاحرام بل هو هو بعينه . والقوم يمثلونه تماماً فى تشخيص الروايات التى تمثل الزمن القديم الرومانى أو اليونانى وخصوصاً فى تمثيل صور الانبياء والحكماء .

ويقال ان اليهود كانوا يستعملون في معابدهم لبس غير المخيط ، أما الآن فيكتفون بوضع رداء على اكتافهم من الصوف يسمونه تليت أو تيسوت ليتشبهوا بموسى عليه السلام فى بساطة لباسه .

ومن هذا ترى أن ملابس الناس في الزمن القديم بل في جميع أدوار الامم الخالية حتى في ابان الحضارة كانت على هذه البساطة . وليس هذا بغريب فان آلة الخياطة ما كانت معروفة فى تلك الازمان : ولقد كان الناس يستعملون أولا فى خياطة ملابسهم شوك الاسماك وسل النخل ، ثم توصلوا الى استعمال الابر الحديدية ، أما الابر التى من الصلب فانها لم تخترع الا في القرن الرابع عشر للمسيح ولم يذع استعمالها فى اوروبا الا فى القرن السادس عشر .

وكان أبسط تلك الملابس شكلا ونوعا ملابس الاشوريين الذين هم اخوان الكلدانيين الذين خرج منهم ابراهيم (لان كليهما من الجنس السامى) : وعليه فلباس الاحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذى كان يلبسه ابراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلا « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ، وما زالت هذه السنة قائمة فى حج البيت الى الآن . وأما كونه أبيض فلأن لون البياض شعار الطهارة والنظافة ، والا فالغرض من الاحرام لبس غير المخيط مطلقاً : اشارة الى أن الانسان خرج الى ربه من زخارف الدنيا وما فيها

الى بساطة الوجود و بداوته ؛ خرج الي ربه من ابهة الحياة ورفهها وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها الى طبيعة الوجود البشرى من حيث البساطة التامة التى كان مظهرها ذالك الزى الذى يمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها ، فيستوي فيه الصعلوك والملوك ، هذا الزي الذى يستقبل الانسان في مهده ويشيعه الى لحده ، حتى كأنه يقول الى ربه : اللهم انى قد نزعت عن نفسى ظاهرها و باطنها رداء قد وشته الاباطيل وموهته الاضاليل وخرجت اليك وقد جردت نفسى لك مما أملك طامعاً في نيل مالا املك من نعم ان عشت أعود بها الى حياة جديدة كلها فضيلة وخير وبركة ، أو أقضي بها ان مت فى سبيلك ومحبتك وطاعتك وانتقل بها الى دار السعادة الحقيقية فأحشر فى زمرة المقبولين والصديقين ، زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . وهلا رأيت ذلك اللباس الاكليروسي البسيط (لباس الرهبان) الذى رسم عليه كل من تمثالي غليوم الثانى أمبراطور المانيا والامبراطورة قرينته وارسل بهما ليوضعا فى الملجأ الالمانى الذى بني في بيت المقدس؟ وسافر البرنس ايتل لافتتاحه رسمياً بالنيابة عن والده الامبراطور فى شهر ابريل الماضي سنة ١٩١٠ .

على أنه لا يعزب عن فطنتك وينبو عن فكرتك أن الاطباء وجدوا أخيرا أن الانسان لا بد له من تعريض جسمه الى الهواء المطلق ومؤثرات الجو نحو شهر من كل سنة يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه بفضل ملاصقة اوكسيجين الهواء لجميع مسام جسمانه : وبهذه العملية يحترق مافي الدم من الكربون الذى تشبع به اثناء دورته من الفضلات التى تخلفت فى الجسم فيعود الى القلب دماً نقياً زكيا صالحاً لتغذية الحياة بمادة القوة التي تكون بها العافية التامة والصحة العامة التى هي قوام الوجود بل الحياة بجميع معانيها .

لذلك ترى الاوروباويين وعلى الخصوص الانجليز (لاعتنائهم بصحتهم اكثر من غيرهم) يعمدون كل سنة الى الجبال أوالى شواطئ البحار فيخلعون ثيابهم الا ما يستر عورتهم و يقيمون على هذه الحال شهرا او اكثر يستعيدون فيه ما فقدوه من قوامهم في سبيل العمل طول سنتهم . وكثيرا ما رأيت الفرنجة في هذه الاماكن الصحية على

شاطئ البحر حفاة عراة معرضين بكل جسمهم للهواء وبرودة الجو أو حرارة الشمس جملة ساعات وليس عليهم الا تلك العانة المستعارة التى يغطون بها السبيلين و يسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء (Cure d'air) . ولا غرابة اذا رجعت بنا المدنية الحديثة الى كثير مما كان عليه القدماء فى بداوتهم الذى يسميه الجهلاء خشونة وتوحشاً .

واذا فلا عبرة بما يقوله المحرفون او المتحاملون على الدين الاسلامي المتعصبون عليه من ان الاحرام هو سبب كثير من الامراض التي تعترى الحاج بمكة وعرفه ! ولو أنصفوا لنسبوا كل ما يقع لبعض المحرمين من البرودة شتاء والاحتقانات الدماغية صيفاً الي علته الحقيقية وهو الفقر الذى يموت منه يومياً آلاف من الناس على قوارع الطرق فيعواصم الدنيا المتمدنة . ولقد شاهدت فى بعض اسفارى بعاصمة من عواصم اوربا شاباً يموت من البرد والناس من حوله ينظرون الى ما يعترى جسمه من انفعالات الموت بين ضاحك منه وساخط عليه ! ! واذن فالمحرم الذى يحرم بثوب واحد يكون من عادته لبس ثوب واحد والا فلا حجر عليه ان يلبس ما شاء من غير مخيط او يضع على رأسه مظلة او يلبس ما شاء من مخيط و يفدى عنه بما يساعد على حياة البائس والفقير ؟

خروج الحجيج الى عرفة وافاضته منها

فى السابع والثامن من شهر الحجة يبتدئ الناس فى الخروج من مكة الى عرفة محرمين على جمالهم أو حميرهم أو على اقدامهم ويتجهون الى طريق الشرق مارين بالمعلى ثم يسيرون نحو الشرق بميل خفيف الى الجنوب بين جبلين فى واد عرضه يختلف من مائة متر الى خمسمائة ، وحركة الناس فيه لاتنقطع فى هذين اليومين . وفى نهاية مكة من هذه الجهة « البياضية » وفيها قصر الشريف عبد المطلب يحيط به بستان اغلب اشجاره من شجر السدر وهو على يمين السالك الى عرفة ، و بعد نحو ثلاثة كيلو مترات منه تجد

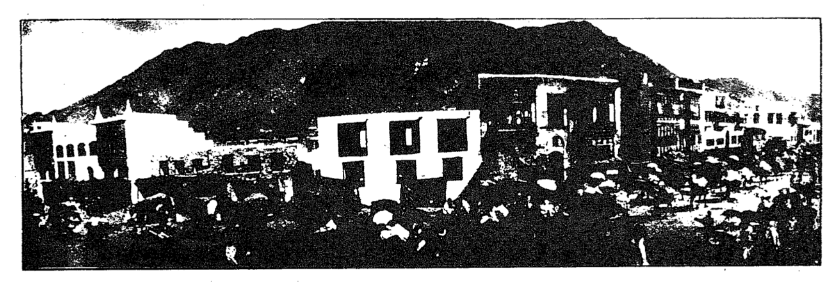
جبل النور على يسارك وقمته عالية جدا قد اقيمت عليها قبة بيضاء ضاربة بنورها الى السماء ، وكان هذا المكان يتعبد الناس فيه قبل الاسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعبد به وأول ما نزل عليه الوحى فيه . ثم تنعطف قليلا نحو الجنوب ، و بعد نحو خمسة كيلو متر تصل الى منى ، فترى في مبدأ دخولك فى طريقها العمومي على اليسار جمرة العقبة وهي ما يسمونه مثال ابليس الكبير : وهو حائط مبنى من الحجر ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار فى عرض نحو مترين قد اقيم على قطعة من صخرة مرتفعة عن الارض بنحو متر ونصف ومن اسفل هذا الحائط حوض من البناء تسقط اليه حجارة الرجم (الجمار) الذى يقوم الحاج بعمليته عند الافاضة من عرفة . ولقد كانت منى (١) مكانا مقدساً عند عرب الجاهلية وكان بها لهم بيت لاصنامهم ، وهي الآن مكان متسع قد اقيمت فيه بيوت لسكن الحجاج فيها بالاجرة عند ذهابهم الي عرفة أو عودتهم منها ، وهى ملك جماعة من اشراف مكة واغنيائهم . أما معظم الحجيج فانه يكون مخيما بالفضاء الذى يحيط بها . وفى غير الموسم لا يكون فيها أحد غالباً . وفيها شارعان متوازيان على طول الوادى . وفى شارعها العمومى ترى مثالي الشيطانين الصغيرين واحدا في وسط الطريق والآخر على يمين السالك الى عرفة.

و بعد هذه المساكن ترى الوادى يتسع على طول اثنين كيلو متر وتشاهد به على يمينك مسجد الخيف ، ثم المصطبة التى تنصب فيها خيم الشريف والوالى مدة اقامتهما فى منى زمن الحج . ومن ثم يضيق الوادى و يسمى بوادى محسر ، حتى اذا وصل الي المزدلفة وهي على مسافة ساعتين من منى أخذ فى الاتساع . وهنا لك ترى على يمينك المشعر الحرام الذى يجب الوقوف عنده فى النزول من عرفة وفيه (٢) مسجد على جبل قزح عمره السلطان قايتباي ، ومن هناك يضيق الوادى ثانيا و يسمى بوادى عرنه (بضم العين وفتح الراء والنون) حتى اذا قرب من مسجد نمره (بفتح النون وكسر الميم وفتح

---

(١) لا يبعد أن يكون العرب أخذوا هذا الاسم من جزيرة منا التي فيها هيكل بوذا قرب جزيرة سيلان .

(١) الموجود من هذا المسجد الحائط الغربى (الذى هو جهة القبلة) فقط .



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

قافلة الحجاج وهي مارة من منى الى عرفة

الراء) انفتحت ارجاؤه الى الشمال والجنوب . ومسجد نمرة (و يسمى مسجد عرفه) مسجد كبير قد احاطت به البواكي في جهاته الاربع من داخله وعمره قايتباي عمارة تشكر . وهذا المسجد نصفه الغربي (أي الذي الى مكة) في الحرم والنصف الآخر في الحل ، و بوسطه مجرى ماء يسير اليه زمن الحج من مجرى عين ز بيدة . و بعد هذا المسجد بقليل الى الشرق ترى العلمين : وهما عامودان من البناء بعيدان عن بعضهما بارتفاع نحو خمسة امتار في عرض نحو ثلاثة قد اقيما في فضاء الوادي للدلالة على حدود عرفة ، وهنالك تجد الجبل قد حاق على الوادي وقفله امامك الى الشرق بشكل قوس كبير ، وعلى طرف القوس من جهة اليمين الطريق الى الطائف على كرا . وهذا الجبل هو ما يسمونه عرفه وفي جهته الشمالية ترى صخرة عالية برزت عنه الى الغرب وتسمى جبل الرحمة وسفحه الجنوبي هو حد عرفة من الشمال ، وهي التي كان يقف عليها الرسول صلوات الله عليه في حجه ليخطب في قومه وهي مكان وقوف الخطيب الى الآن وفي أعلى جبل الرحمة منارة يعلق فيها ليلة عرفة مصابيح لارشاد السالكين اليه وفي اسفله مصلى يسمى مسجد الصخرات (يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه) ، و بجوار هذا المسجد ترى مجرى عين ز بيدة الذي سيرته الى مكة .

الوقوف بعرفه

عند وصول الحجاج الى هذا الوادي ينزل ركب المحملين بخيامهم قريباً من جبل الرحمة يليهما مضارب الحجاج على اختلاف أجناسهم . وعلى سفح عرفة من عاليه الى جبل الرحمة ترى حجيج الاعراب محتشدين الى جوف الجبل بعضهم فوق بعض كالحجر المرصوص ، أما باقي الحجيج فانه ينصب الخيام في بطن الوادي الذي يحشر اليه الناس حتى لا تكاد ترى فيه مكانا خالياً من واقف أو قاعد ، وجمالهم وحميرهم مربوطة بجوارهم ، وترى الكل في صعيد واحد حتى يتعذر على الانسان السير الى أي جهة أراد ولو لضرورة في نفسه . ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادي عرفة الى

أحذية افقية يقسمها شارع راسي،و يخصص كل حذاء لسكنى جماعة من الحجيج، وجمالهم من ورائهم ، وتوضع لذلك علامات من البناء لا يتجاوزها الحجاج في وضع مضاربهم ولا الجالة في ر بط جمالهم ، و يمين لهذا النظام من يحفظه مع الدقة لكان له شكر الله والملائكة والناس أجمعين . وعلى كل حال ففى سعة الوادى ما يضمن لدولته اقامة الكل على الراحة التامة ، لان هذا التزاحم انما سببه القرب من مجرى الماء ومن السوق الذى تراه بجوار مسجد الصخرات (و يباع فيه بعض الاغذية الضرورية) . وربما كان لتزاحمهم سبب آخر وهو خوفهم من الاعراب الذين يكون لهم من سعة هذا الرحاب عون على النهب والسلب . وبسبب هذا التزاحم ترى الناس يضلون عن امكنتهم اذا تركوها لامر ما ، ولذلك تراهم ينادون على بعضهم اما باسمائهم أو بالفاظ يكون قد اصطلح عليها أهل كل جهة حتى اذا سمعها واحد منهم أجابه بصوت عال و يقصد مصدرالصوت . وهذه الحركة لا تكاد تنقطع مدة الاقامة بعرفة .

ويجدر بدولة مولانا الشريف (١) اصدار أمره الكريم بالعناية التامة بملاحظة فتحات مجرى عين زبيده وتعيين خدمة مخصوصين لها لايدعون أحدا من الحجاج يعبث بها ويستحم فيها (وخصوصاً اولئك المجذومين الذين ينتسلون فى الحوض الذى يسمونه بحوض المجذومين زاعمين أن فيه شفاءهم ، وهم بعملهم هذا انما يضرون اخوانهم المسلمين بنقل العدوى اليهم) . ولا يعزب عن فكره السامى ان علماء البكتريولوجيا

---

(١) وياحبذا لو يأمر دولته بوضع طلمبات على فوهات مياه مجرى عين زبيدة وخصوصاً فى مكة وعلى بئر زمزم وتكون هذه الطلمبات كبيرة بحيث تكفى لحاجة الحجاج من جهة ، ومن أخرى تجعل ماءها بعيدا عن التلوث بانواع البكتريا التى تكثر منها الحميات في الحجيج وتودى فى الغالب بحياة الكثيرين منهم .

وعندى نصيحة للذين من عادتهم العناية بأمر ماء الشرب : ذلك أنهم اذا أرادوا الحج أخذوا معهم ما يكفيهم من المياه المعدنية أثناء الطريق ، أما مدة وجودهم فى مكة والمدينة فحسبهم غلي الماء المخصص لشربهم، ولو اضافوا عليه من برمنجانات البوتاسا لكان احفظ لصحتهم. ويجب ان يستمدوا فى طريق الصحراء على فلترسفرى يتصون الماء بواسطته عند الضرورة

الحجاج في ميدان جبل عرفات في ٩ الحجة سنة ١٣٢٠



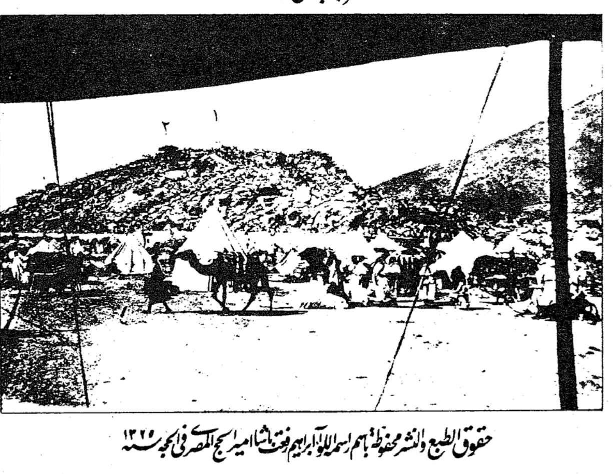
BOEHME & ANDERER, CAIRO.

ذهبوا الى أن الماء أنما هو أكبر موصل للعدوى وخصوصاً في وباء الكوليرا : نسأل الله تعالى السلامة منه لعباده .

ويوم الوقوف هو التاسع من ذى الحجة مع قليل من ليلة العاشر باتفاق المسلمين فاذا ثبت هذا اليوم عند القاضى بالصفة الشرعية وقف جميع المسلمين على اختلافهم في الجنسيات والمذاهب من غير أن يكون للشك تأثير عليهم ، الا الشيعة من الاعجام فانهم لو حصل عندهم أدنى شك فى رؤية هلال الحجة ، بمعنى أنه لم يشاهده منهم العدد الجم ، وقفوا يوم التاسع والعاشر احتياطاً . وفى عرفة ترى الناس مشتغلين كل بشأنه ، وهم وان انفصلوا فى هيا كلهم فان قلوبهم مرتبطة ارتباط ذرات الجسم الواحد بعضها . وبعد صلاة العصر يحرك المحملان بحرسهما الى منحدر جبل الرحمة ويصعد خطيب عرفة (وهو في الغالب قاضى مكة الذي يتعين من قبل السلطان) بناقته من طريق حلزونى الى صخرة في صدر هذا الجبل ، ويخطب نيابةعن السلطان خطبة يعلم الناس فيها مناسك الحج ويكثر فيها من الدعاء والتلبية ، ومن دونه مبلغون بأيديهم مناديل يشيرون بها فى كل تلبية الى الواقفين دون الصخرة فيقول الكل « لبيك اللهم لبيك » بصوت يكاد يصعد بالاحشاء الى عنان السماء . فيالها من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالمرة عن أنفسهم فلا يكادون يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة ، وقد تغلب وجدانهم على وجودهم وظهرت روحانيتهم على جسمانيتهم ، حتى كانهم فى لباسهم الابيض الطاهر النقي ملائكة لله في هذا الوادى الذى يردد صدى أصواتهم وابتهالاتهم الى واجب الوجود ، الى الملك المعبود ، الى الواحد الاحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد ، ثم يعود اليهم صدى هذا الصوت فيحدث فى نفوسهم هزة تدق لها قلوبهم وتضطرب منها أفئدتهم خشية من رب الارباب ومالك الرقاب ، فتسوخ النفوس في ظروفها وتنكمش الجسوم على هيا كلها من رهبوت هذا الملكوت ، وحشاشات قلوبهم تتصبب من آماق عيونهم أسفاً على ما اقترفوه من ذنوب وعيوب !! وهنالك تتلاحق الارواح الى التعلق بأستار رحموت رحمانها تائبة مستغفرة ضارعة اليه تعالى بقبولها فى ساحة غفرانه مؤملة في عظيم كرمه

واحسانه ولا تلبث ان تتراجع وهى على يقين من قبولها فى ساحة الرحيم الرحمن ، وقد وقر فى نفوس ذويها حب الفضيلة و بغض الرذيلة وحسب الانسان من فضيلة الحج هذه الحسنة الجميلة . و يستمر الناس على هذه الحال حتى اذا غابت الشمس فى الافق اطلق صاروخ من قبل الخطيب اعلانا بتمام الموقف ، وهنالك تتحرك المحامل بين ضرب المدافع وعزف الموسيقات وأصوات الابتهالات وكثرة الدعوات وانهمال العبرات ، و يكون كل حاج قبل ذلك قد حل حوله واستعد للافاضة ، فتنفر الناس مرة واحدة من عرفات مسرورين هاتفين بهتاف الفرح والحبور حتى اذا وصلوا الى ذينك العلمين خرجوا من بينهما . وهناك ترى الزحام لا يوصف والناس فى حركة هائلة الى المزدلفه فاذا وصلوها نزلوا بها وأقام بها الحنفية الى ما بعد صلاة الصبح ، والشافعية الى ما بعد نصف الليل ، أما المالكية فحسبهم من الاقامة بها قدر ساعة يجمعون فيها جمارهم من الحصى الموجود في أرضية واديها : وهي تسع وأربعون حصاة على قدر الفولة يتناولها الحاج من رمال تلك الصحراء الواسعة ليرجم بها فى منى التى ينزل اليها من ليلته . وأغلب الحجاج يقلدون مالكا و يسرعون فى النزول اليها حتى يجدوا لهم فيها مكانا يقيمون به على راحتهم . وفى صباح النحر وهو يوم العيد الاكبر يكون عموم الحجاج وصلوا الى منى . ويخيم المحمل المصرى فى شمال المصطبة التى فيها مخيم الشريف ، والمحمل الشامي الى جوار مسجد الخيف : وهو مسجد كبير ذو فضاء واسع مربع يحيط به سور متسع والى حائطه الغربى رواق على طوله قام سقفه على أعمدة من البناء . و باب هذا المسجد الى الشمال وفى وسط صحنه تجاه الباب قبة كبيرة اقيمت على مكان يصلي الناس فيه ، وهو المكان الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبجوار هذه القبة مأذنة صغيرة بناها السلطان قايتباى سنة ٧٨٤ . و بنى بجانب هذا المسجد دارا كان ينزل اليها أمير الحاج المصرى فاندثرت ولكن المسجد باق على حاله الا أنه يحتاج من داخل سوره وخارجه الى عناية ذوى الشأن حتى يكون نظيفاً بعيدا عن عبث العابثين ان لم يكن لموجبات الدين فلموجبات الصحة العمومية وخصوصاً فى منى التى تكتب فيها صحيفة الحاج الصحية وتساق على أجنحة البرق الى جميع أقطار المسكونة و بمجرد

منظر جبل عرفات



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

وصول الحجاج الى منى يقصدون من فورهم جمرة العقبة فيرمونها و ينحرون و يحلقون أو يقصرون ثم يلبسون ملابسهم : وعندها يحل لهم كل شئ ما عدا النساء والطيب .

وذبائح القربان تذبح قريباً من حفرة في شرقى منى وتلقى فيها ويكون لها بعد الحج رائحة كريهة جدا ، ولو كانوا يأخذونما يتراكم فيها من العظام مع ما يتخلف منها حول مكة و يبيعونه لاحدى الشركات بجدة و يصرفون ثمنه فى تحسين طرق الحجاج ونظافة شوارع مكة لكان فيه فائدة كبيرة .

و يقيم الحجاج بمنى الى عصر اليوم الثالث عشر من الحجة ثم ينزلون الى مكة لاداء الركن الباقى من أركان الحج وهو طواف الافاضة والسعي لمن لم يكن سعى بعد طواف القدوم ومن الناس من ينزل الى مكة أول يوم بعد رمي جمرة العقبة لاستكمال جميع مناسك الحج ، ثم يرجعون من يومهم الى منى فيقيمون فيها مع اخوانهم ثانى وثالث أيام التشريق يرجمون في كل يوم منها الجمرات الثلاثة وفى عصر اليوم الثالث ينزلون الى مكة .

الرجم

الرجم فى اصطلاح الحجيج رمى غرض مخصوص فى منى بسبع حصيات فى حجم الفولة وهذا الغرض يسمى جمرة . والجمرات ثلاث جمرة العقبة والجمرة الوسطى والجمرة الصغرى (و يسميها العامة ابليس الكبير والوسطانى والصغير) . ولكل جمرة مكان مخصوص (مذكور فى وصف الطريق الى عرفة) ورميها واجب باتفاق المذاهب : فيرمى الحاج فى أول أيامه بمنى (يوم الاضحية) جمرة العقبة وحدها ، ثم يرمى ثلاثتها في كل يوم من اليومين التاليين فيكون جملة ما يرميه سبع حصيات فى سبع (٤٩ حصاة) ومكان الجمرات الثلاث تراه على الدوام غاصاً بالرامين فلا تصل اليه الا بمشقة عظيمة ، وكثيرا ما تشاهد بين هؤلاء الرماة اناساً يجمرون بنشف شديد ، ومنهم من يغلو فى

ذلك فيرمى هذا الغرض برصاص طبنجته كأنما يرمي عدوا ألد ، والكل يتخيل انه أنما يرمى ذلك الشيطان الرجيم الذى لا تخفى عداوته لبني الانسان ، فكأنما هم بهذا الرمى يشهرون عليه حرباً عوانا لما سبق من اغوائه لهم ، و يقطعون كل صلة بينهم و بينه .

وحيث ان الناموس الطبيعي يقضي بأن يكون كل معنى من المعانى مصدره المادة ، فهذا الرمى المادي يوصل بلا شك لمعنى دقيق جليل فى ذاته هو تربية ملكة جديدة فى شخص الرامى وهي مخالفة شيطان النفس والابتعاد عن مسالك الشرور .

والرجم أمر قديم فى الامم : قال الله تعالى فى سورة الشعراء فى اجابة قوم نوح على نصائحه لهم « لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين » : وقال تعالى فى سورة هود فى جواب أهل مدين على نصيحة نبيهم شعيب لهم « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز »

وكان الرجم فى بني اسرائيل ، وقد ورد فى الآية ٢٤ و ٢٥ من الاصحاح السابع لسفر يشوع ما نصه : « فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب و بنيه و بناته و بقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم الي وادي عخور فقال يشوع كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة » .

والنصارى يرجمون مكان شجرة التين التي لعنها المسيح حينما أراد أن يأكل منها ولم يجد فيها ثمرا ، انظر آية ١٩ من الاصحاح الحادي والعشرين من انجيل متى (ومكان هذه الشجرة على طريق الذاهب من بيت المقدس الى نهر الاردن في الوادى الذى ينزل على يسار جبل الزيتون) .

والعرب كانوا يرجمون في الجاهلية من سخطوا عليه حياً وميتاً : فكانوا يرجمون الزانى المحصن حياً لشناعة عمله وتابعتهم عليه الشريعة الغراء ، كما كانوا يرجمون قبور من ينقمون عليهم : فهم يرجمون من القرن الاوّل قبل الهجرة الى الآن قبر أبى رغال في المغمس (بين مكة والطائف) لأنه كان يقود جيش ابرهة الى مكة فمات في هذا المكان قبل وصوله اليها : قال جرير يهجو الفرزدق .

منظر رمي الجمار بالجمرة الوسطى بمنى سنة ١٣٢٥



اذا مات الفرزدق فارجموه كما يرمون قبر أبي رغال

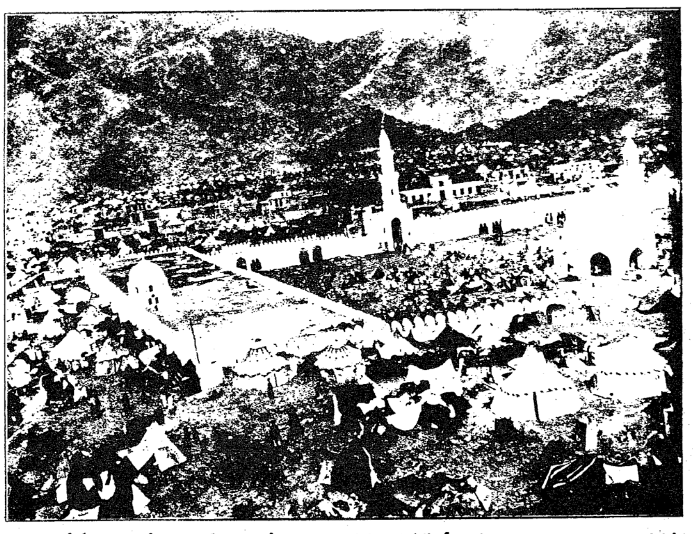
والمسلمون يرمون قبر أبي لهب خارج مكة لأنه عدو نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ويرمون قبر ابي جهينة في طريق العمرة لأنه كان من حكام مكة الظالمين ، ويرمون قبر يزيد بن معاوية في دمشق (١) لسوء سيرته وشناعة فعله مع آل البيت رضوان الله عليهم ، ويرجمون قبر مسلم بن عقبه (٢) في ثنية المشلل بين مكة والمدينة لأنه فتك بأهل المدينة ولم يراع حرمة رسول الله في صحابته وجيرته .

(١) قبر يزيد بن معاوية بدمشق الشام في حارة النحالية شرق مقبرة الباب الصغير يفصل بينهما طريق. وهو مكان مسور يبلغ طوله نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة وعليه تل من حجارة الرجم يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتـار ، وأهل دمشق يبغضونه . وبهذه المناسبة أذكر لك أني زرت في هذه المقبرة قبر معاوية بن أبي سفيان وهو في قبة بسيطة وقد دفن الى جواره بعض التابعين ، وقبر عبد الملك بن مروان بجواره يحيط به سور مهدم من الطوب النئ ولا سقف له ! ! وهنالك مرّ بخيالي عظم ملكهم وفخامة سلطانهم وكبير ابهتهم وجليل مظهرهم في حياتهم وهو ما لا ينطبق على ما نراه من حقارة منازلهم الحالية التى لم تقم لها من مبدأ حكم العباسيين قائمة ! ! سبحان من بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء .

(٢) مسلم بن عقبة هو أعور بني مره سيره يزيد بن معاوية الى مكة لقتال عبد الله ابن الزبير وأمره أن يجعل طريقه على المدينة ، وكان أهلها قد نبذوا طاعته، وقال له ان هم أطاعوه تركهم الى مكة وإلا حاربهم واوقع بهم . فلما وصل اليهـا أقفلوا أبوابها في وجهه وكانوا قد خندقوا عليها لما بلغهم تحركه اليهم . فدخلها عنوة في يوم الثلاثاء ٢٧ الحجة سنة ٦٣ وأخذ يقتل في صحابة رسول الله وتابعيه حتى قتل منهم نيفاً وأحد عشر الفاً ونهب المدينة ثلاثة أيام : ويسمون ذلك اليوم المشئوم بيوم الحره . ثم ارتحل عن المدينة قاصداً مكة فمات في الطريق ودفن فى ثنية المشلل . فأتت أم ولد ليزيد بن عبد الله ابن زمعه وكان قد قتله مسلم فيمن قتل فنبشت قبره وصلبته على المشلل ورجمته ولا يزال قبره يرجم للآن .

الآثار في منى

يوجد فى منى غير مسجد الخيف غار قريب منه فى الجبل الجنوبى كان يتعبد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونزلت فيه عليه سورة المرسلات (و يسمى بغار المرسلات) و يقصده الناس للزيارة والتبرك به . وفى الجبل الشمالى منها مغارة يقولون ان ابراهيم عليه السلام سكن فيها مع هاجر ، و يبلغ طولها ٤ متر وعرضها متران ونصف ، وعلى يمين الداخل فيها كهف نقر فى جوف الجبل ، ومن خارجها مصلى فى مكان مذبح اسماعيل ، و بجوارها صخرة كبيرة فى جوف الجبل فيها فلح كبير يزعمون ان تلك السكين التى أراد ان يذبح بها ابراهيم ولده فلتت من يده رحمة بالذبيح فغاصت فى هذا الصخر ففلحته وهذا الاعتقاد باق الى يومنا هذا ! ولو ادعوا ان هذا الفلح انما هو ناشئ عن حادث طبيعى ، واختاره ابراهيم مذبحا ليسيل فيه دم ولده حتى يسمع صوته فى عالم السموات اعلانا بصدعه بامر الله وكمال طاعته له ، لكان أولى ، و بقرب هذه المغارة يقيم حجاج الهنود ولهم فيها اعتقاد هائل ، فتراهم هنا لك وقد فرشوا على الحصباء خارج خيامهم وداخلها شطرات نيئة من لحم الاضحية و بعد جفافها يحتفظون عليها و يأخذونها معهم الى بلادهم هدية مباركة مقدسة لمن كان عزيزا عليهم . ولو علموا ان اجرامهم من ذلك انما هو ما يصيبهم من الامراض التى تنشأ عما يحدث من ميكروباتها الضارة لكانوا القوا بها الى بطونهم من يومها خصوصاً وسوادهم فى حاجة اليها لكثرة الفقراء فيهم . وعلى كل حال ففقراء حجاج الهنود في غاية من الوساخة ومن وسطهم تظهر الامراض والاوبئة وتفتك بهم فتكا ذريعا ولا قدرة لهم على مقاومتها لان غالبهم فى سن الشيخوخة .



مسجد الخيف بمنى وموضع القبة صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس أوقات في حجة الوداع   حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم اللواء ابراهيم رفعت باشا امير الحج المصري في الحجة سنة ١٣٢٠

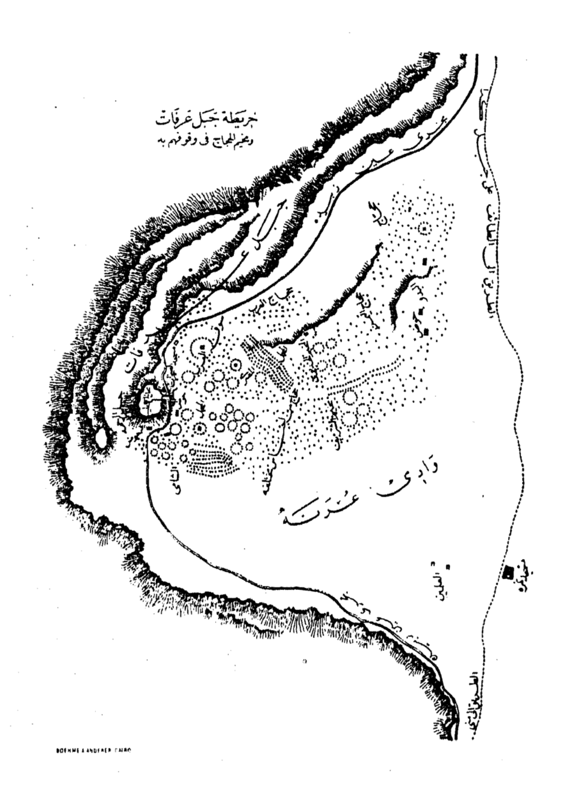
خروج الجناب العالى الى عرفه

وافاضته منها

في صباح يوم التروية خرج الجناب العالي من مكة الى عرفة وهو بملابس احرامه راكباً جواداً كريماً ، وسار في موكب رهيب ومن خلفه رجال معيته الكريمة من ملكيين وعسكريين يتقدمهم دولة البرنس كمال الدين والكل محرمون . وكان في رفقة سموه سعادة عبد الله بك نجل الشريف ومعه كثيرون من علية الاشراف وحضرة مكتوبجي الولاية وياوران دولة الشريف وفي مقدمة هذا الركب الميمون فصيلة من عساكر الحرس الخديوى السوارى بمزاريقهم تخفق عليها البنود ومن ورائها فرقة من جند البيشة على هجنهم وهم يضربون نوبتهم ويوقعون عليها أناشيدهم ويحيط بالركب فرقة اخرى من الحرس . ولما تجاوز حفظه الله المعلى مرّ على جنود الدولة وهي واقفة وقفة الاحتشام لتقديم واجب السلام والاعظام وطلقات المدافع تدوي في فضاء هذا الوادى احتفاء بمقدمه الشريف ، فحياهم سموه تحية الشاكر وسار حتى اذا حاذى جبل النور وقف برهة مستقبلا فيها هذا الأثر النبوي الكريم قرأ فيها الفاتحة ودعا الله تعالى بما شاء ، وما زال حتى وافى صيوان الشريف الخصوصي بمنى ، وقد كان خصص لجنابه العالي ، والى يمينه صيوان سموه الخصوصي يتلوه صيوان دولة البرنس ، ثم صواوين الشريف والوالي وحاشيتهم وكانت خيم المعية السنية وباقي الحاشية قد نصبت في الجانب الاخر من

الطريق على يسار السالك الى عرفة فنزل حفظه الله في صيوانه يحيط به الجلال وتحفه الكرامة ، وقبل الزوال ركب وسار في حاشيته الكريمة الى مسجد الخيف فصلى به الظهر ثم سار لزيارة دولة الوالدة بمنزل دولة الشريف الذي جهز لاقامتها فيه بمنى ، وعاد سموه الى مقره بعد صلاة العصر ، وما زال هناك والمحامل وجيوش الحجيج تمر بين يديه الكريمتين الى عرفة ، حتى ركب حفظه الله بعد صلاة الصبح يوم ٩ الحجة في موكبه الحافل قاصداً عرفة وسار تحدوه العظمة والفخامة ، وفرقة الأعراب من أمامه تضرب نوبتها ويوقعون عليها بنشيدهم الرخيم ، وأصوات الخلق فيما بين ذلك تعلو بالتلبية وراء التلبية وقد عرج فى طريقه على مسجد نمره وبعد زيارته له سار الى عرفة فوصلها فى الساعة الرابعة العربية نهاراً ونزل الى الصيوان الذي أعده لسموه دولة الشريف في الجهة الجنوبية من هذا الوادى والى جانبه صيوان دولة الوالدة وخيم حاشيتها يتلوها خيم المعية السنية والى جانبهم غرباً صيوان مولانا الشريف وخيم حاشيته وأمضى الجناب الخديوي يومه معتكفاً في صيوانه وبعد صلاة العصر بنحو ساعة ركب جواده وسار والى يساره دولة الشريف ومن خلفهما دولة البرنس وعطوفة وكيل الولاية وجم غفير من كبار الاشراف ورجال الدولة حتى وقفوا حذاء جبل الرحمة وما زالوا واقفين هناك حتى نفر الناس فنفروا معهم .

وكانت افاضة الجناب العالى حفظه الله من عرفات من الفخامة مما لم يشاهد له مثيل بالمرة : فانه بمجرد ماتحرك المحملان سار حفظه الله والى جانبه حضرة الشريف ثم من في معيتهما من الامراء والعظماء يحيط بالجميع سياج



BOEHME & ANDERER CAIRO

من الحرس الخديوى ، يتلوه آخر من حرس الشريف ثم انتظم الموكب فسار وفي مقدمة الركب كوكبة من عسكر البيشة بهجنهم ، وفي وسطهم فرقة منهم تدق نوبتهم والباقي يتغنون بنغمات تدخل رناتها في القلوب فتملؤها سروراً وحبوراً ، ومن ورائهم شرذمة من عسكر الحرس ، يتلوها الجناب العالى وحضرة الشريف ، يتلوهما حاشيتهما ، ومن ورائهما فرقة الموسيقى العربية تعزف بنغماتها الشجية ، ثم رجال الاشراف من حضر وبدو ، وسار الجميع في هذا الموكب الرهيب حتى وصلنا الى المزدلفه ونحن على غاية ما يكون من الراحة .

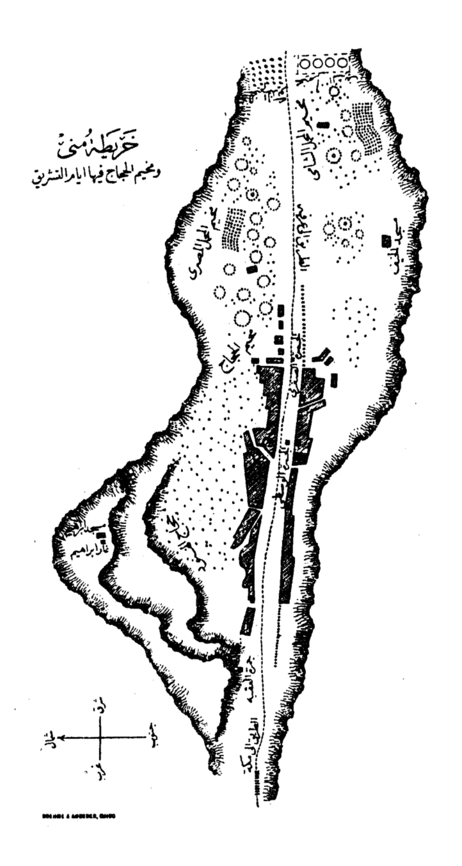
وكان موكب ذات الجلال والعظمة والدة الجناب الخديوى الأكرم وصاحبات الدولة البرنسيسات يسير بعد ركب الجناب العالى ، وكان مما يأخذ بالالباب بهاء وسناء ، وكانت جنود الحرس المشاة والخيالة تحيط بعرباتهن يتقدم الجميع فرقة من عسكر الدولة وجند البيشة بموسيقاها يتبعها هوادج الحاشية ، وآلاف المشاعل في جوانب الركب تملأ الجو نوراً ، وغناء الضاوية والخدم وزغردة نساء الحجيج تزيد الأفئدة سروراً . وقد قطعنا المسافة من عرفة الى المزدلفة في ساعتين ، كان الجناب العالى في اثنائهما محل انظار الناس على اختلاف اجناسهم ، والمصريون منهم يرفعون له كلما مرّ عليهم أصوات الدعاء وعبارات الولاء . وكانت قد اعدت هناك الخيام ونصبت الصواوين لنزوله حفظه الله اليها مع دولة الوالدة وحاشيتهما فقضوا فيها ليلة النحر فى صفاء وهناء . وبعد صلاة الصبح نزل في موكبه الى منى ، فرمى جمرة العقبة ، وذبحت الضحايا الكثيرة بحضوره حفظه الله ، وتحلل (لبس ملابسه) ، ثم نزل الى مكة بموكب حافل ومعه دولة أمير مكة ، فصليا العيد في الحرم الشريف

بالمقام المالكي ، ثم طافا طواف الافاضة . وتناول سموه طعام الغداء في دار الامارة ، وعاد بعد صلاة العصر الى منى في موكبه الفخيم .

أيام الجناب الخديوى بمنى

والاحتفال بتلاوة فرمان الشريف بها

ما بزغت شمس يوم الجمعة ١١ ذي الحجة الموافق ٢٤ ديسمبر حتى التفت الجنود التركية والمصرية حول المصطبة الكبرى التى كانت عليها سرادقات سمو خديوينا المعظم ودولة الشريف وسعادة وكيل الولاية ، يتقدم كل فرقة موسيقاها استعداداً للتشريفات بحفلة تلاوة فرمان دولة الشريف . وفى الساعة الثانية العربية نهاراً اصطفت رجال المعية السنية في الجهة اليمنى من الصيوان الكبير المعد للجناب العالى الخديوى . وكان دولة الشريف أرسل بعض حاشيته لمقابلة الوفد الحامل للفرمان والخلعة السنية ، ثم سار الى صيوان الجناب العالى وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث ، حتى اذا وصل الوفد الى سلم المصطبة خف الجناب العالى ومعه مولانا الشريف نحو السلم ، واستقبلا الفرمان بتقبيله ثم قصد الكل الصيوان الخديوى وجنابه العالي في مقدمتهم . ولا نخالك ما فى هذا الترتيب من المعنى الدقيق اللطيف الذى يشير الى علو مكانة جنابه الرفيع ، وان مقامه هنا هو المقام الاول ، ومنزله هو المنزل الأجل . فجلس حفظه الله فى صدر المكان وعن يساره دولة الشريف ، ثم نائب الوالى


خريطة منى
ومخيم الحجاج فيها ايام التشريق

ثم أنجال الشريف ثم علية الاشراف، ومن خلفهم مشايخ القبائل العربية وصاحبا الفضيلة قاضي ومفتي مكة وكثير من علمائها وأعيانها ، ثم رجال العسكرية العثمانية وفي مقدمتهم سعادة ناظم باشا قومندان قوة الحجاز . وجلس على يمين الجناب العالى دولة البرنس كمال الدين باشا ثم اصحاب السعادة شفيق باشا وعزت باشا وخيري باشا ثم موظفي المعية السنية يليهم مستخدمو قوة المحمل الشريف المصرى . وهنالك توسط ساحة الصيوان عزتلو مكتوبجى الولاية وأخذ في تلاوة الفرمان الذى كان يمسك بطرفيه رجلان من التشريفاتية فتلاه بالتركية ، وعندما أتى على لفظة الخلعة السنية التي قدمها جلالة السلطان محمد الخامس الى دولة الشريف فكها أحد المهمندارين من غلافها الاطلسي وألبسه اياها . وبعد تلاوة الفرمان قام كاتب يد الشريف وتلا ترجمته المرسلة معه بالعربية : وفحواها ان مولانا السلطان حفظه الله لما يعلمه في دولة الشريف ، من اصالة الرأى وعلو الكعب في حسن الادارة ، وكمال الدراية ، ومحاسن الاخلاق ، وواسع المعرفة وكريم السجايا ، ومحامد الخصال ، ومعالى الفضائل ، وجه لدولته مركز الشرافة العظمى ، وهو يرجوه على الدوام مساعدة حجاج بيت الله الحرام والقيام بكل مافيه راحتهم وصحتهم مع تأمين الطرق وتسهيل المواصلات والضرب على أيدي الخارجين من الاعراب عن الصراط السوى المستقيم ، ولفت نظره الى الدقة فى صرف المرتبات وتوزيع الصدقات على أربابها بكل ضبط ، مع مساعدته لمأمورى الدولة من عسكريين وملكيين على اداء وظائفهم . وكان كلما ذكر اسم كل واحد منهم ألبسوه كركا ، حتى اذا تمت الحفلة أمر الجناب العالى فاديرت اكواب الشربات على الجميع ، وبعد

شرب القهوة انصرف الشريف مودعا من الجناب السامى بكل تجلة واحترام.

ومما يجمل بنا ذكره تلك الألقاب التى وردت فى هذا الفرمان موجهة من قبل صاحب الخلافة العظمى الى دولة الشريف حتى تعرف مكانته السامية :

« جناب الامين الامجد ، الأجل الاوحد ، المقتفي آثار أسلافه الأشراف من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف ، وأجداده الحميدى السير الجميلى الاوصاف ، فرع الشجرة الزكية النبوية ، طراز العصبة العلوية المصطفوية ، المنتمى الى أشرف جرثومة علا عنصرها ، والمنتسب الى أنفس أرومة غلا جوهرها ، زبدة سلالة الزهراء البتول ، عمدة آل بيت الرسول ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى من أعاظم وزراء سلطنتنا السنية ، الحامل النيشان المرصع الافتخار العثمانى والمجيدى ، وزيرى سمير الفطانة أمير مكة المكرمة الخ »

وعلى هذا يجدر بنا ان نسوق اليك شيئاً من الألقاب التي كان يكتب بها الى أمير مكة فى عهد الدولة الجركسية : فقد ورد في صبح الأعشى في رسم المكاتبة الي أميرها هذه العبارة « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمي ، العادلي ، المؤيدى ، العضدى ، النصيرى ، الذخري ، العوني ، المقدمى ، الأوحدي ، الظهيرى ، الزعيمي ، الكافلى ، الشريفي ، الحسيبي ، النسيبي ، الأصيلى ، الفلاني (الحسيني مثلا) ، عز الاسلام والمسلمين ، سعد الامراء في العالمين ، جلال العترة الطاهرة ، كوكب الاسرة الزاهرة ، فرع الشجرة الزكية ، طراز العصابة العلوية ، ظهير الملوك والسلاطين ، نسيب أمير المؤمنين ، لا زال حرمه أمينا ، ومكانه مكيناً ،

وشرفه يبيض له بمجاورة الحجر الاسود عند الله وجهاً ويضيء جبيناً ، صدرت هذه المكاتبة من المجلس العالي تحمل اليه سلاما تميل اليه الركائب الخ » .

ومنه ترى ما كان وما يكون لمركز الشرافة العظمى من جليل المقام وعظيم الاحترام لدى الملوك والسلاطين. وليس هذا بغريب في بابه فحسب هذه الاسرة فخاراً ان عائلة اشراف مكة اقدم(١) اسرة شريفة في العالم

(١) لان هذه الاسرة الشريفة تصعد حلقات سلسلتها من غير شك الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وكل فرع من فروع هذه الشجرة الكريمة النبوية ، يترك الوالد منه الى ولده من مبدأ الاسلام الى يومنا هذا ، نسبته الى هذه العترة المباركة ، ارثاً ثميناً لا يضاهيه عنده في منزلته شيء بالمرة . ويوجد كثير من هذه الفروع في بلاد الاسلام وعلى الخصوص بمصر التي كانت محط رحال آل البيت رضي الله عنهم ، ولكل فرع سلسلة نسب توصلهم الى أحد سبطي النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : السادة الحسنيون ، أو الحسينيون مثلا . وهذه النسب مسجلة في دفاتر مخصوصة عند نقيب الاشراف ، ولاربابها مرتبات تصرف اليهم سنويا في مواعيد يعلن عنها في الجرائد اليومية . ومن هذا تعلم من غير شك أن نسب هذه العائلة بوصوله الى النبي صلى الله عليه وسلم يصعد الى اربعة عشر قرنا تقريباً .

وحيث ان النسابين والمؤرخين قد حققوا بالاجماع ان نسبه عليه الصلاة والسلام يصعد الى عدنان فلا يمكن ان يكون هناك أي شك في تحقيقهم ، لان الانتساب كان من الخصيصات التي امتازت بها العرب على سائر الامم ، وهو من خصائصهم الى الآن ، وكلما كان انتسابهم الى جد اعلى (اعني كلما كانت حلقات سلسلة نسبهم اكثر) كان مجدهم اعظم ، واصلهم اكرم . وقد اجمع المسلمون من مبدأ الاسلام الى يومنا هذا على صحة هذا النسب العالي وهم يحفظونه عن ظهر قلب من نعومة اظفارهم ، وهاك هو : محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وحيث انه من الثابت في التاريخ أنه كانت لعدنان واقعة مع بختنصر في مبدأ القرن السابع قبل المسيح ، فتكون المسافة بين حلقة السلسلة الحالية والحلقة العدنانية نحو ٢٦

وبعد تلاوة الفرمان خرج سمو أفندينا الخديو حفظه الله مع دولة الشريف الى رصيف المصطبة ، وفي أثرهما جميع رجال المعية السنية ورجال الشريف والدولة وموظفو المحمل الشامي ، حيث استعرضت جنود القوة الحجازية يتبعها حرس المحمل الشامى ، ثم الحرس الخديوى يتبعه حرس المحمل المصرى . أما الترتيب والنظام في القوتين الاخيرتين فقد كانا مما دهش له جميع المتفرجين من ملكيين وعسكريين وخصوصاً رجال الدولة ، حتى أن رئيس قوة الحجاز رأى أنه لا يحسن سكوته عن الاعتراف بذلك ، وأبدى اندهاشه من النظام العسكري المصري . وكان دولة الشريف وسعادة وكيل الولاية يبديان اعجابهما مما شاهداه ، وشكرا للجناب العالي الخديوي عنايته

قرنا . واذا جارينا النسابين الذين اوصلوا نسب عدنان باسماعيل بن ابراهيم ، وقالوا ان عدنان بن اد بن ادد بن الهميسع بن سلامان بن بنت بن حمل بن قيدار (نابت) بن اسماعيل كانت المسافة بين الحلقة الحالية من هذا النسب الكريم والحلقة الاسماعيلية اكثر من سبعة وثلاثين قرنا .

على انا لو وقفنا بنسب هذه الاسرة الشريفة الى الحلقة النبوية فانها تكون اعرق الاسر (العائلات) الموجودة على ظهر البسيطة حسباً ، واقدمهم نسباً : لان الاسر التى يحترمها التاريخ في أوربا ويجلها الفرنجة عامة ويعظمون شأنها لمجرد اصالتها في حسبها ، وعراقتها في نسبها ، لم تظهر الا بعد أسرة الاشراف بمكة بقرون عديدة ، اذ لا يخفى ان أسرة البربون (Bourbon) التي هى اقدم أسرة أوربية ، والتي تشعب حكمها في فرنسا وايطاليا واسبانيا ، لم يبتدئ تاريخها الا في سنة ٩١٣ بعد الميلاد ويتلوها أسرة هابسبورج (Habsbourg) التي لها الحكم الآن في النمسا ويبتدئ تاريخها من سنة ٩٥٤ ميلادية ثم أسرة السفواى (Savoie) التى منها ملوك ايطاليا الحاليون وتبتدئ من سنة ١٠٢٧ . ثم أسرة ملوك آل عثمان وتبتدئ من سنة ١٢٨٧ . ثم أسرة قياصرة الروسيا وهى أسرة رومانوف (Romanov) وتبتدئ من سنة ١٥٤٧ ميلادية .



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الجناب العالي الخديوي وهو متوجه لرد الزيارة لدولة الشريف الذي كان في انتظاره امام مخيمه بمنى

الـكبري برق حكومته السنية . ومما يذكر بالمنة للجناب العالي أثناء ذلك انه لاحت منه التفاتة فرأى عسكر علي بن دينار (سلطان دارفور) ، مع رئيسهم الذى أتى بحملهم ، وراء صفوف العساكر من بعد ، فارسل فاستحضر رئيسهم ، وبعد أن لاطفه وحياه بما يليق بكرمه ، أمره حفظه الله بأن يسير بجنده في هذا الاستعراض ، فسار يتقدم رجاله الذين كانوا يحركون حرابهم على نغمة الموسيقى كأنهم يتحركون الى حرب أو طعان .

وفي نهاية الاستعراض قصد الجناب العالي صيوانه ، وبعد ما استراح قليلا ابتدأت التشريفات العيدية لجنابه الرفيع : فتقدم العسكريون يتلوهم الملكيون من رجال المعية السنية ، وغيرهم ممن حضر لاداء هذا الواجب من وجهاء المصريين ، ثم موظفوا المحمل الشريف ، وتشرف الكل بلثم راحته الكريمة ، داعين بطول العمر وكمال السعود والرفاهية ، ومهنئين بفريضة الحج الشريف . ثم تلا ذلك العدد الجم من الأشراف وعظماء مكة وغيرهم من كبار الحجيج ، وكانوا يفدون على سموه بواسطة دولة الشريف ، فيقدمهم الى جنابه العالي تارة أحد انجاله الكرام واخرى أحد رجال تشريفاته أو ياورانه ، وكان حفظه الله يقابل الجميع بصدر رحب ، وثغر باسم ، ووجه باش ، مما جعل الكل يخرج من حضرته داعياً شاكراً . وفى أثناء هذا كانت تعزف في أطراف المصطبة موسيقات الحرس الخديوى ، والمحمل المصرى ، والشامى ، وموسيقى القوة العسكرية الموجودة بمكة ، والى جانبها الزمار البلدى ، تتخلل نغماتها طلقات المدافع وهتاف الحجيج باصوات السرور والحبور من كل جانب بما لا يمكن وصفه .

وبعد تمام التشريفات قصد الجناب العالى صيوان الشريف لرد الزيارة وتقديم واجب التهاني ، فاستقبله دولته من خارج الخيمة بكل ماءكن من واجيات التبجيل والتعظيم ، وأجلسه فى صدر المكان وجلس عن يسار سموه . وهنالك دخل رؤساء الديوان الخديوى يتبعهم جميع الموظفين المصريين عسكريين وملكيين لتهنئة دولته ، وكان الجناب العالي حفظه الله يقدمهم لسيادته واحداً واحدا كلا باسمه ، وبعد شرب الشربات انصرفوا الى أماكنهم وتوجه الجناب العالي محاطاً برؤساء معيته السكرية الى خيمة وكيل الوالي ، فاستقبله بغاية الاجلال والاحترام ، وبعد أخذ المرطبات وشرب القهوة توجه حفظه الله الى صيوانه ومكث فيه يستقبل وفود المهنئين الذين كانوا يتقدمون اليه بواسطة دولة الشريف أو بعض حاشيته .

وبعد الظهر زار دولة الشريف ومعه عطوفة وكيل الوالى معسكر المحمل المصرى ، فقوبلا بما يليق بمقامهما من الاحترام بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقى بالسلام الشاهاني . وبعد صلاة العصر ركب الجناب العالى ومعه دولة الشريف في موكبهما الفخيم لرمى الجمرات ثم عادا الى مقرهما . وفي المساء كان الجناب العالى الخديوى قد أعد وليمة فاخرة لسيادة الشريف ومعه ثلاثون مدعواً من عظماء قومه ، وبعد صلاة العشاء حضر المدعوون يتقدمهم سيادة الشريف فاستقبلهم الجناب العالى بما جبل عليه من الايناس ، وكان رجال التشريفات الخديوية يقومون بالخدمة اللازمة ، وبعد ما أكلوا ما لذ وطاب هنياً مريا رفعت الموائد وجلس القوم للسمر ساعة من الزمان ، خرجوا بعدها من الحضرة الخديوية شاكرين لكرمه ذاكرين لفضله داعين مبتهلين الى الله

BOEHME & ANDERER, CAIRO.

رسم الجناب العالي الخديوي ومن كان بمعيته السنية من ملكيين وعسكريين ومعهم امير الحاج المصري وضباطه (بمنى)

بأن يكثر من أمثاله في امراء المسلمين وملوكهم . وكانت فى أثناء هذه الحفلة موسيقى الحرس الخديوى تشنف أسماع الحاضرين وسهام الألعاب النارية تشق كبد السماء فتزيدها بدراريها زينة على زينتها ، وسواقيها النارية تنثر في فضاء الارض تبرها المتلهب فتزيدها نوراً على نورها . وكان آلاف المتفرجين من عرب وعجم ومغاربه ومصريين وسودانيين وأتراك وجاوه وهنود وغيرهم فرحين مبتهجين مهللين مندهشين لهذه المظاهر البديعة التى لم يسبق لها نظير فى منى بل وفي جميع هذه الديار . وكان أكثرهم دهشة من سبق له الحج قبل هذه السنة : وحقيقة فان هؤلاء هم الذين يحسون بالفارق بين الحج فى السنين الماضية ومظاهره فيهذه السنة المباركة . وما زال الناس فى سرور وحبور الى نصف الليل وانصرفوا وكلهم داع بعزة الاسلام ونصرة امرائه .

وقد أمضى الجناب العالي يوم ١٣ الحجة في تزاور مع دولة الشريف ووكيل الولاية واستقبال بعض الزائرين ، وبعد صلاة العصر نزل الى مكة في موكبه الفخيم .

وبالجملة فقدكان سموه بمنى محطاً للرحال ، ومكانا لتحقيق الآمال ، ومنهلا للخيرات ، ومصدراً للحسنات ، وكان صيوانه على الدوام غاصاً بالزائرين من عظماء الحجيج على اختلاف أجناسهم .



مواكب الشريف

يركب دولة الشريف فى مواكبه الرسمية على النظام الآتى :

تتقدم فرقة من الخيالة والقرابة ثم جماعة من الهجانة من عرب البيشة ثم بعض السياس يتلوهم الجنائب : وهي جملة افراس عربية يتلو بعضها بعضاً ، يقود كلا منها سائسان واحد الى اليمين والآخر الى اليسار ، ومن وراء الافراس بعض البغال ، وعلى الكل الرخوت الذهبية ، ويعقب ذلك عربة يقودها زوج من الجياد ، ومن خلف العربة بمسافة خمسين مترا دولة الشريف علي فرس مرخوت يحيط به الخدم والحشم وغيرهم من الخزنجية (الخزندارية) ، ومن على يساره مائلا الى الوراء قليلا حامل الشمسية على حصانه : وهى شمسية كبيرة من الحرير الغالى المزركش بالقصب، والكنتير المذهب، وقطع التبر المثقب (الترتر) مع الفصوص الجميلة ، ولها وضع خاص بها ، تكاد تكون نصف كرة منتظمة قطرها نحو متر ونصف وقائمها من المعدن الابيض ويطول حتى يرتكز فى ركاب حامله أثناء السير ويثبت فى الارض امام صيوان الشريف اشارة على وجوده فى مخيمه وهذا يغني عن رفع العلم عليه . (واستعمال هذه الشمسية للملوك والامراء في بلاد الشرق من زمن بعيد ، وكانت تسمى عند الخلفاء الفاطميين بالمظله ، وحاملها كان من كبار القوم وله مكانة مخصوصة ، ويسمى بحامل المظله)

ويسير من وراء الشريف الجم الغفير من السادة الاشراف يتلوهم اعيان مكة على خيلهم أو حميرهم والكل بملابسهم الرسمية ونياشينهم ، يتخلل ركابهم الخدم والحشم والعبيد ، ومن خلفهم ضاربو النوبة وهم موسيقيون عربيون راكبون على خيلهم يضربون بالمزمار البلدى والنقرزان ، يحيط بهم عرب البيشه على هجنهم وهم يتغنون من وقت الى آخر باغنية حماسية على نغمة الموسيقي ، ولا يزال الموكب حتى يصل الى المكان الذى يقصده دولة الشريف . ونظام هذه المواكب عادة قديمة فى ملوك الشرق ، وقد كانت تركب فيها على المثال المتقدم الخلفاء من العباسيين والفواطم وملوك الجراكسة

وغيرهم مما تراه مبسوطا فى المقريزى وغيره . وقد رأيت في تاريخ السودان لشقير بك في الكلام على دارفور ، ان أميرها علي بن دينار يركب في احتفالاته الرسمية بما يقرب من هذه المواكب واليك نص عبارته تحت عنوان ركوب السلطان « وقبل الظهر بساعتين يركب السلطان جوادا مزركش العدة ، وامامه العساكر الحاملو الاسلحة النارية مشاة ، ومن ورائه الخصيان راكبين الخيول و بينه و بين الخصيان بعض الجياد بسروج الرهط كاملة العدة يقودها السياس خلفهم صفا واحدا ، وعن جانبي السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمل مظلة واسعة تظلله وتظلل جواده ، وهي مصنوعة من نسيج متين مطرز بالقصب ومبطن باطلس مختلف الالوان كل شقة بلون تتدلى من اطرافها شراريب قصب ولها يد طويلة من خشب متين مغشاة بنسيج ملون كل شبر بلون ه » .

سفر الحجيج من مكة

بعد النزول من عرفة يستريح الحاج فى مكة قدر عشرة أيام يجهز نفسه فيها للسفر الى المدينة المنورة ، أوالى بلده ان كان سبق بالزيارة قبل الحج أو شغله عنها شاغل، فينزل مع القافلة الى جدة ومنها الى حيث يريد . وعلى كل حال فمن عشرين الحجة تكون مكة فى حركة هائلة بالجمالة وجمالهم التى تكتظ بها شوارعها فتراها على الدوام فى تلك الآونة مجهزة للحمل غادية رائحة ليلا ونهارا في طرق مكة بشقادفها (١) ومحفاتها وسحلياتها ، لان هذا هوالموسم الوحيد الذى يستمد منه هؤلاء الاعراب حياتهم بواسطة هذه الجمال التى هى رأس مالهم الوحيد بل هى حياتهم بجميع معانيها : فهم من البانها

(١) الشقدف عبارة عن سريرين من الخشب وقاعدتهما من الحبال على مثال العنجريب وعلى حافة كل سرير من الجنب الخارجي والخلف شبكة من عيدان الأشجار بحيث إذا ضم السريران الى بعضهما على ظهر الجمل بحبال متينة يكونان قبة يغطونها في الغالب بشيء من الاكلمة المغربية أو التركية فتقي الراكب من الشمس والمطر ، ولو كانوا يغطونها فى الشتاء

ولحومها يأكلون ، ومن أوبارها وجلودها يلبسون ، وبروثها وبعرها يدفئون ، وهي مركبهم ومحملهم في هذه المسافات الواسعة الشاسعة التي لا يمكن غيرها من جنس الحيوان (١) أن يقوم بالمأمورية التي تقوم هي بها في وسطهم . ولذلك يجدر بنا ان نذكر لك كلمة عن فسلوجيتها :

الجمل

الجمل (٢) سفينة الاسفار في القفار وله قدرة على احتمال مشقات الحياة الصحراوية ، خلقه الله مقوس الظهر لاحتمال الاثقال وجعل خفه واسعا مدورا طريا حتى لا ينزلق على الاحجار ولا يسوخ في الرمال ، يحتمل العطش أياما (وزعم بعضهم أنه يحتمله شهرين)

بشيء من المشمع كانت الفائدة أكبر وأعظم . والشقدف يسع نفرين ويمكنهما أن يناما فيه كما يمكن أن يجلس فيه الراكب على راحته بواسطة مخدات صغيرة خفيفة يضعها على ما يحب . والمحفة هي كرسيان من الخشب إذا ضما الى ظهر الجمل جلس فيهما راكبان على مثال جلوسهما على الكراسي ووجهما الى رأس الجمل ، وأغلب ما ترى المحفات في الركب الشامي أما السحلية فهي سرير من اسرة الشقدف يشد على ظهر الجمل مستعرضاً ويجلس فيه نفران وهو في الغالب من غير مظلة ويركبه الفقراء من الناس وخصوصاً من الجنود الذين يحتملون حرارة الشمس .

(١) يوجد غير الجمل في مدن الحجاز وخصوصاً في مكة والمدينة كثير من الحمير الحساوية (الحصاوية) المتينة ويؤتى بها اليها من بلاد الحسا في شرق بلاد العرب وهي مع ما هي عليه من السرعة في السير تحتمل المشي في هذه الصحراء ثلاثة أو أربعة أيام متتابعة ويمكنها أن تمشي في اليوم نحو مائة كيلو متر من غير أن ترى عليها أثراً كبيراً من التعب . وغالب هذه الحمير لا يخلو جلدها من البرص . ويوجد هناك أيضاً بغال متينة يؤتى بها اليها من بلاد الشام على الخصوص والخيل في هذه المدن قليلة وهي تحتمل أيضاً مشقة السفر هناك أياما متوالية وجنسها ليس بالجيد لان الجنس الطيب محصور في جهة نجد ولا يفرطون فيه إلا بأثمان غالية .

(٢) وجمال الحجاز صغيرة ضئيلة في الغالب والتي لقبائل حرب منها هي المتعودة على الحمل . أما التي لغيرها من القبائل وخصوصاً البعيدة عن مكة والمدينة فانها غير معتادة على الاحمال ويعاني ركابها مشقة جسيمة وخصوصاً ركاب الشقادف .

وذلك لان القدرة الالهيه جعلت له اربع معدات لهضم الغذاء ، يعقبها تجويف كبير يخزن به الماء ، فاذا نفد ما فيه رجعت اليه عصارة مائية من الاوعية الكثيرة التى حوله مما يأتى اليها من رشح البدن (وتقدر بعشرين لترا) . ويساعده على احتمال العطش انه كثيره من المجترات له خاصة اخراج الغذاء من معدته الي فيه ، بواسطة ضغط عضلات المعدة على بعضها ، فتتقلص وتطرد الغذاء الى فمه فيلوكه . ومن هذه العملية تتنبه غدد الفم واللسان والزور فتفرز من اللعاب ما يلطف من غلته ويخفف من عطشه .
والجمل يحتمل الجوع أيضا أياما متعددة بتغذيته من الدهن الذى فى سنامه ، ولهذه المزية الكبرى استخدم فى الحروب من زمن بعيد جدا ، ولفرق الهجانة المصرية فى فتوحات السودان شأن يذكر فيشكر . وغذاء الجمل فى بلاد الحجاز أما من الحشيش أو نوى البلح أو اللبن ، وقد رأيت بعضهم يلقمه الثريد المصنوع بمرق اللحم . والعرب يقولون ان أنثى الجمل تعرق من جميع جسمها أما الذكر فانه لا يعرق الا من دوماته وهى مابين أذنيه ، والبدو يشبعون فتيلة قدبحتهم بعرق جمالهم فتصير سريعة الاشتعال بمجرد ضرب الزناد عليها .

الطريق الى المدينة

تقوم قوافل الحجاج من مكة الى المدينة المنورة فسيرون فى واحد من اربع طرق بحسب تبعية المقوم والجالة اليها . وهذه الطرق هي : — السلطانى — والفرعي — والغاير — والشرقى .

والطريق السلطانى هو أحسنها سيرا وأكثرها ماء ، فاذا قامت القافلة منه خرجت من باب العمرة وسارت الي الشمال الغربى وتمر على المحطات الآتية :
وادى فاطمة — وفيه نهر ماء عذب يأتى من جبال الطائف وفيه مزارع كثيرة و يسكن فيه عرب الاشراف من (ذوى حسين) ويسكن فى المنطقة التى بينه

و بين مكة الى بحرة بنو لحيان .

عسفان — ماؤه قليل وفى طريقه عقبة لا تسع الا جملا جملا ، والدرب التى تسكن فى هذه الجهة بشور (بشر) وحمران .

خليص — بها بئر التفلة وماؤها غزير و يسكنها قبائل ز بيد .

القديمه — (القضيمة) قرية على البحر ومساكنها أكواخ صغيرة وماؤها من الحفر التى يخزنون فيها ماء الامطار ، واهلها من ز بيد ويشتغلون فى الغالب بصيد البحر ومنها يتجه الطريق نحو الشمال .

رابغ — وهي قرية على البحر الاحمر وفيها قلعة بها بعض الجند العثمانى وماؤها من الحفر والآبار وأهلها من ز بيد . ويأتى الى مياهها بعض السفن الصغيرة لمشترى ما يصيده أهلها من الاصداف وغيرها و ينزلون اليها خفية كثيرا من الدخان وغيره من الاشياء الممنوعة .

مستوره — ماؤها غض (ومنها طريق الى بدر الى الصفراء يسمونه الملف) ، و يسكن هذا الطريق قبائل صبح فى بدر ، والاحامدة فى الصفراء .

بئر الشيخ — و تسكنه قبائل صبح . والمياه على طول هذا الساحل لا ترغي الصابون .

ديار بنى حصانى — ماؤها غض و يسكنها صبح ، والحوازم .

الحمراء — وهي قرية بها نهر عذب وفيها بساتين ونخيل و يكثر فيها البرتقال والليمون والموز و يزرع بها كثير من الخضر كالقثاء والبطيخ وغير ذلك ، و يسكنها الحوازم ومنها ينثني الطريق الى الشمال الشرقى .

الجديده — وهي قرية ماؤها عذب و بها قبر ولي الله سيدى عبد الرحيم (١) البرعى المصري، و يسكنها قبائل الحوازم والاحامدة. ومنها يميل الطريق قليلا نحو الشرق

بئر عباس — و يسكنه جانب من الحوازم وصبح والاحامدة وماؤها قليل ، ومنها يميل الطريق الى الشرق قليلا .

(١) وهو المقصود بقول بعض الشحاذين في أغنيتهم « يا سعد قل للنبي عبد الرحيم نحاش » ولعل المرض دهمه في طريق المدينة فمات ودفن بهذا المكان وله ديوان شعر مطبوع

بئر درويش — ويسكن هذه الجهة قبائل الاحامدة والرحله (بكسر الراء وفتح الحاء).
آبار علي — ويسكنها قبائل عوف وعمرو وماؤها عذب وهي على مسافة نحو خمسة كيلومترات من المدينة المنورة ، ويترك فيها القوافل شقادفهم وسحاليهم حتى لا يدفعوا عليها قوشانات في دخولها المدينة ومن يريد ان يدخلها بمحمله دفع عليه الرسوم المعتادة من جيبه . وربما طلب منه الجمال اكثر من اللازم فليتدبر :

الطريق الفرعي

والطريق الفرعي يبتدئ من رابغ متجها الى الشمال الشرقي ويمر على المحطات الآتية :
وادي حرشان —
نقر الفار — وهو محجر ضيق منحدر تمر منه الجمال جملا جملا ويسكنه بنو سالم .
بئر رضوان — وماؤه عذب .
ابي ضباع — وماؤه عذب ويسكن فيه بنو عوف ،
الرياض — (وادي سرحان) وماؤه عذب وشجره كثير ويسكنه بنو عمرو .
الغدير وفيه مجرى ماء
وادي المعظم — ماؤه عذب
بئر الماشي — ماؤه حلو ويسكنه عوف
آبار علي —
المدينة .

طريق الغاير

وطريق الغائر يبتدئ من رابغ أو من مستوره ويقطع جبل الغاير الى الشمال وهو اقل هذه الطرق مسافة . فاذا وصل المسافر الي الغابر صمد من عقبة عالية تشرف على هاوية عميقة طريقها ضيق جدا بحيث لا يسع الا دابة دابة وهذا

الطريق خطر فى صعوده وهبوطه وخصوصاً على الركاب ، ومع ذلك تسير فيه الدواب بسهولة لانها متعودة عليه ، ومسافة الصعود الي ظهر هذه العقبة لاتقل عن ست ساعات. ويسكن الغاير ومنحدراته (١) قبائل اللهبة ومسروح وهما اشر العرب على الحجاج . وهذا الطريق يسمونه الطريق المدنى ، لان أهل المدينة يستسهلونه فى حجهم لقربه ، فيركبون هجنهم أو حميرهم أو خيلهم ويسيرون فيه قوافل ، قوافل . ولهم منازل ينزلون فيها حيث يكون الماء ويقيمون بها ريثما يأكلون ويستريحون ويصلون ثم يستأنفون السير الى مكة . وكثير من الحجاج الاقوياء الخفاف الاثقال وخصوصاً من المصريين يصحبونهم من المدينة الي مكة ، او من مكة الى المدينة عقب ايام التشريق مباشرة وينتظرون بالمدينة حتى اذ جاءت القوافل اليها انصرفوا معها الى ينبع .

وكل حارة من المدينة تكوّن قافلة تسير تحت زعامة شيخ هذه الحارة ويسمون ذلك ركبا فيقولون « ركب فلان حضر الي مكة أوقام منها فى يوم كذا » وكذلك الحال فى زيارة أهل مكة للمدينــة المنورة قبيل شهر رجب .

الطريق الشرقي

والطريق الشرقى يخرج من مكة من باب المعلى ويتجه الى البياضـية ثم يسيرفى طريق شمالي طريق منى ويتجه الى الشرق ويمر علي المحطات الآتية :

بئر البارود — ماؤها عذب.

وادى اليمون — ويكثر فيه شجر الليمون والنارنج والايمون الحلو ويزرع فيه البطيخ والخضراوات وفيه ماء جار ينزل اليه من جبال الهدى يسير فى مجرى مبني الى بساتينه وغياضه ، ومنها يتجه الطريق نحو الشمال .

الحفـاير — (الضرية) مياهها عذبة وقريبة من سطح الارض .

بركة سمرة — لا ماء فيها مدة الصيف .

بركة المسلح — (حارة) ماؤها غزير وعذب وبساتينها كثيرة .

---

(١) جل القبائل الموجودة فى هذه الطرق الثلاثة (بطون من حرب)

الحيـط — (الضيعة).
سفينـة — (صفينة) وبها نخل وآبار عذبة .
السورجية— .
الحجـرية — والماء يبعد عنها بنحو ربع ساعة .
غرابة — .
الغـدير -- (الحنك) ماؤه عذب .
سيدناحمزة — .
المدينةالمنورة —

وعربان هذا الطريق من الزيود (١) واللهبة (٢) وعتيبه(٣) ومطير(٤) والرحلة (٥) وهم ابعد الاعراب عن الحضارة .

نظام القوافل

قلنا ان الحجاج لا يخرجون من مكة الى المدينة الا فى ركب القافلة التى تكون جمالتها من أهل الطريق الذى يسيرون فيه ، وغالبا ما تكون جمال الحاج تابعة لجمال واحد وهوالاحسن،أما لوكانت تابعة لجمالين فتكون مشغوليته اكبر وتعبه بينهما اعظم .

---

(١) والزيود شيعة ينسبون الى سيدنا زيد ومن عوائدهم أنهم لايختتنون بل يسلخون جلد عانتهم وقضيبهم ويموت من جراء ذلك منهم خلق كثير .واطفال مكة يعيرونهم بذلك

(٢) اللهبه مشهورون بالغدر والخيانة .

(٣و٤) هما من اكبر قبائل بلاد العرب قوة ومنعة وأكثرها عدداً وأمتنها شجاعة ، وأغلبهم لا يلبس الا المئزر ونساؤهم على جانب عظيم من الشجاعة وقد بلغ من العتيبية أو المطيرية انها تمسك بذيل الفرس الذى يجرى وتجرى معه ثم تضغط على ذيله بيدها وتقذف بنفسها فوق ظهره ! وهي كذلك تركب الجمل فى عدوه !

(٥) وعرب الرحلة لا يقيمون في محل واحد بل تراهم كما يشير اليه اسمهم متنقلين وراء الكلأ من مكان الى آخر .

وعلى كل حال فعليه ان يجتهد فى تخفيف احماله واثقاله . فاذا كملت شحنة القافلة نهضت الجمالة بجمالهم وأخذوا يقطرونها فى بعضها قطارا أو قطارين بجوار بعضهما ، وفى المقدمة يكون غالبا اكبر الركب وجاهة وعصبية . وجمال كل رجل تسير من خلفه مقطورة في جمله ، ومنهم من يرى تقدمها على جمله حتى تكون على الدوام تحت نظره خوفا عليها من عبث العابثين . والجمل عندهم ينقسم الى قسمين جمل الشقدف ويركبه اثنان ومعهما اللازم من فراشهما ومؤنتهما اليومية ، وجمل الحمل ويقال له العصم يحمل المتاع ويركب فوقه رجل واحد أو رجلان ان كان المتاع قليلا . واجرة العصم فى الغالب ثلثا أجرة جمل الشقدف الذى يكون من الجمال المتينة القوية حتى يتيسر له حمل ما فوقه . وليس لهذه الاجرة من رابطة بل يقدرها الشريف كل سنة (وربما كان باتفاقه مع الوالى) ، وينادى بها المنادى فى الاسواق . وعليه فالاجرة تكون على حسب اهوائهما وتحت رحمتهما بضيوف الله : ولذلك تراها كالترمومتر ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ولاة الامور بمكة . ولقد كانت أجرة جمل الشقدف فى هذه السنة (١٣٢٨) ست ليرات عثمانية من مكة الى المدينة الى ينبع ، أما قبل الدستور فقد بلغت ١٣ جنيهاً مصريا ونصفاً ، كانت تؤخذ من الحاج فى مكة بواسطة المطوف ، وهذا عدا ما كان يصيبه من الجمال فى طريقه من طلبه زيادة على الاجرة المذكورة ، مدعياً بأنه لم يصله شئ من اجرته.

وعليه فاذا كان الحاكمون فى بلاد العرب من الاخيار البيعدين عن المطامع كانت الجمالة على أخلاقهم ، والعكس بالعكس (والناس على دين ملوكهم) .

والمطوفون بعد أن يتفقوا مع الجمالة على حمل حجاجهم يسافرون الى المدينة فى الغالب فى قافلتهم بحجة المحافظة عليهم وكثيرا ما يغرر الجمالة بضعاف الحجاج فيأخذون الاجرة منهم ويخبرونهم بأن الجمال خارج البلد ويرجونهم فى أخذها من هناك حتى يوفروا عليهم دفع القوشان (كلمة تركية معناها المكس) وهي عوائد تأخذها الحكومة على الجمال الخارجة من مكة أو جدة أو المدينة أو ينبع ، وأظنها ريالان عن كل جمل ، فاذا خرجوا أعطوهم جمالا ضعيفة ضئيلة ينالهم منها مشقات جسيمة ، وكثيرا ما يتركونها ويسيرون على أقدامهم مسافة الطريق جلها أو كلها .

والقافلة لا تنتظم عادة الا بعد أول محطة حيث ينظم الجمالة جمالهم و يرتبون قطاراتهم التى لا يخالفونها طول سفرهم .

والجمالة فى الغالب نحيفو الجسم رفيعو الساقين قصار القامة يكاد ان لا يكون في جسمهم عضل بالمرة أما عظمهم فهو الحديد أو اكثر صلابة، ولهم قدرة على العدو بحيث لا يلحقهم فيه أحد ، ولقد رأيت رجلا منهم يعدو وراء جمل شارد حتى تعلق بذيله فعاقه عن الجري ثم أمسك بزمامه . أما ملابسهم فهي قميص عليه حزام من الجلد به عادة سكين طويل أو سيف صغير وفي يدهم عصا غليظة قصيرة وعلي رؤوسهم تلك الطاقية (الكوفية) (١) التي يلفونها باشكال مختلفة . وبعض عرب الشروق يستعملون غير الطاقية شيئاً من الخوص يشبه البرنيطة ان لم يكن هو هى و يسمونها الظلة .

و بعض الجمالة يلبس نعلا فى رجله تقيها من حرارة الارض و حصباتها. أما نظافة ملابسهم فلا يمكنني أن أقول لك عنها غير انها اذا اتصلت بجسومهم فلا يخلعونها مطلقاً حتى تخلع هي عنها وهذا لا يكون الا اذا اكل عليها الدهر وشرب ، والمترفون منهم يغيرون ملابسهم كل سنة مرة فى موسم الحج، وبعضهم يلبس عليها عباءة من الصوف أيام الشتاء تقيهم شدة البرد يسمونها مشلحاً ، ولون هذه الملابس كلون الجبال أو الرمال : فتراها صفراء قاتمة أو حمراء طوبية ، وربما كان اختيارهم لهذه الالوان حتى لا ترى بسهولة من بعد بل يشكل فيها الأمر على الرائى، وفى ذلك ما لا يخفاك من الفكرة التى أساسها الخبث والغدر ! ! وربما اخذ من هذا تغطية الاستحكامات الجديدة فى اوروبا بطبقة ترابية تشبه أرض المنطقة المحيطة بها . و بعض كبراء الحجيج يعطون جمالتهم عباءة من الجوخ الاحمر فيفرحون بها فرحا عظيما وتقع في نفوسهم موقعاً حسنا و يتباهون بها على أقرانهم.

والجمالة يلحفون للحجاج بعد الابتعاد عن مكة فى السؤال و يغلظون لهم في الاقوال فترى أصواتهم هنا وهناك قائلين لركابهم (جرجوش ـ هللا ـ سكر ـ جرش) . فيجيبه هذا الحاج أنت أخذت، و يقول الآخر ما بقى شئ أو ما فى معنى ذلك ، و يكثر بينهم

(١) اظن ان تسميتها بهذا الاسم نسبة الى الجهة التى كانت تعمل فيها وهي الكوفه.

الاخذ والرد الذى ينتهى بأخذ الجمالة ما يريدون .

وعلى طول الطرق ترى كثيرا من حجاج الفور (التكرور) مشاة باطفالهم وكثيرا ما ترى الام حاملة طفلها فى شبه كيس ملتصق بظهرها بحيث لا يظهر منه غير رأسه ، وعلي رؤوسهم بعض أمتعتهم وفي أيديهم صفيحة أشبه بالكشكول يضعون فيها غذاءهم واذا كانت لهم حاجة الى السؤال سألوا ركاب القوافل بلطف وأدب وما رأيتهم يطلبون غير الماء لانه يصعب عليهم حمله وخصوصاً في مدة الصيف الذى تجف فيه القرب وتنشف الركايا . فاذا مرت القافلة قرب بيوت قبيلة من القبائل وجدت كثيرا من الأعراب ينادون على البطيخ الكبير بقولهم برطيخ وعلى صغيره بقولهم الخريز وأصلها قربوز بالتركية وينادي بعضهم الما الما ، خبز خبز . التمر ، الفجل . فاذا قربت من ديارهم وجدت شرذمة من أولادهم يحيطون بك وأيديهم ممدودة للعطاء وهم يتغنون بقولهم : يا حاج سلامات ، يافندى سلامات ، يابويا سلامات ، ان شاالله سلامات ، ان شاالله عرفات، ان شاالله بركات — و بعضهم يقول ، حج حجيج (حجّ الحجيج) بيت الله : والكعبة ورسول الله الخ .

وكأنى بهم واللقمة تهضم فى اكفهم والحسنة تضيع بين أصابعهم لا يعرفون الحسنة الا وقت امتداد يدك بها اليهم ، فاذا انقضت حركتها صارت كأنها ما كانت ! !

وللجمالة أغنية يتغنون بها في طريقهم وهي فى الغالب على النغمة العراقية والرومية التي أخذوها عن حجاج الاتراك والشوام . وجمالهم ترتاح الى هذه الاغنية وتتسمع لها فتنسيها لحظة ما هي فيه من التعب والعناء . وهذه الاغنية لا يكاد يعرفها من يسمعها لأنها أقرب الى الرطانة منها الى العربية ، على انها لا تخلو من معانى دقيقة لطيفة وأغلبها غرامية تمثل حكاية عن محب ومحبوب أو عاشق ومعشوق ومنها ما هو مدح فى المطايا ودونك شيئاً منها :

« يا حبيبي لو ترى حالى والىّ جرى لى بعد فرجاك (فراقك)
والله ما غبت عن بالى ولا نسيت الحصافة ذاك »

« يا سيد وايش غربك فى دايرة الحفا والشوك ، يا رهيف ، يامرود العين يا ريت خدي يجسم نعلين . — الله يحاسبهم كما حاسبونى ، كما رمونى بجوف الوجيدة (الوقيده) وأنا حي » .

« لو اهني بالحج واوفى جماره ، واجف (واقف) على العيرات ساجدين مع الريع، (الجبل المرتفع) صبح أربع تمسى شعيب الخضارة ، مع مثلهن يمسى بوادي الربيع ، مع مثلهن كل تهنى بداره ، وأدى النعيم اللي عذوجه (عذوقه) مهاييع ».

« يالله يا راد كل غريب بلاده والذوق (النوم) بعد الجسا (القسوة) (يمني التعب الشديد) ،حمت اليمن والشام وكل دايره جيت من وراها ، لى فى اليمن سيد ولي فى الشام باشا ، ان جيت عند اللي في لمن (اليمن) يحى (يبق) يملكنى ، وان جيت عند اللى في الشام يبجى يحكمنى » .

وصغار الحجاج من المصريين لهم أغنية يتغنون بها في طريقهم وعلى الخصوص نساؤهم . وهى لا تخرج عن ذكر الطريق للحج وذكر البيت وعرفة وزمزم ، وخصوصا ذكر النبى عليه الصلاة والسلام . وكلها عبارات بسيطة ليس فيها شئ من المعانى العالية نذكر لك شيئاً منها :

« أنا أمدح محمد ، والحسن والحسين والقاسم أحمد ، بلغ العاشقين يارب زيارة محمد ، مديح باشتياق أنا ما أمدح الا النبى ، يا هنا اللى انوعد .

يا ليلة ان برزوا و باتوا لبره ، و بات قلبي فى حنين ، و يطلب من الله يرجعوا سالمين بنصره من الله ، يا هنا اللى انوعد .

وان جيت حبيبى يا ورور وان جيت حبيبى، لا كنسك وأرشك و بالشمع أقيدك، مروق بخوخه يا بحر ، يا بحر مروق بخوخه ، لا يمسك عكار ، ولا ريح بدوخه ، تحت ظل القلوع أبو شال وجوخه ، في رابغ نوى الاحرام ولبس احترامه ، يا نهار الهنا يوم خلوه يفك احترامه ، يا فرح قلبي يوم طلوع الجبل ، والخطيب على الجمل ، والمبلغ يرق ، يا فرح قلبى ساعة النفره ، وفرحت عيونا ونزلنا بفرحه ، وفوتنا من بين العلمين

كان الفجر لايح ، يوم دخولنا منى ونصبنا الخيم وذبحنا الذبايح ، وافتكرنا العيال و بقى الدمع سايل ، و بعد ثلاث أيام حملنا لمكة ، وطفنا طواف الوداع وبرزنا ، والجمال حملنا ، وعلى أبو ابراهيم سرنا ، وصلنا قبة المصطفى والاعتاب زمرد ، حول مقام النبى قال الطواشى منين يا جماعه ، زوروا النبى زوروا واطلبوا الشفاعة » .

ووقت تحميل القافلة وتنزيلها تكثر السرقات من الجمالة انفسهم ، وقد يتفق جمالك مع جمال آخر فيحضر فى هذا الوقت الذى يلبيك فيـه بصريخه وصياحه فى حين ما الاخر ينقض على عفشك و يسرق منه ما تصل اليه يده ، حتى اذا هدأ روعك شعرت بما نقص من متاعك . وهنا لك يكثر الصياح فيقول هذا : خرجي ، و يقول الآخر : ملابسي ، وغيره يصيح : لحافي وهكذا ، و بعد هرج ومرج من غير فائدة يسكت الصائحون شاكين أمرهم الى الله ، و يشتغلون بتجهيز شؤونهم . وليست الجلبة قاصرة على هؤلاء بل ترى الصراخ من انحاء القافلة بتمامها فهذا يصيح قائلا : ياحاج فلان ، وذلك ينادى يا حاجة فلانه ، وآخر يقول اندر ، وغيره يوهم بانه يشاهد الحرامي فيقول : شايفك ، وآخرون يشتغلون بنصب خيامهم فيدق هذا بمطرقته ، و يتصارخ الآخر مع جاره الذي زحزحه عن مكانه ، وهو فى أثناء ذلك يزعق مع الذى من ورآئه لانه يزاحمه على محله ، وتسمع فيما بين ذلك اصوات الاعراب هذا يقول : الحطب الحطب ، وآخر يقول : الماء الماء وهكذا ، وما هم الا سارقون ما تصل اليه أيديهم و يفرون من حيث لا يشعر بهم احد . و بالجلمة فتستمر هذه الجلبة صاعدة فى هذا الفضاء الى عنان السماء نحو ساعة من الزمان ، أعنى ريثما ينزل الحجاج حولهم ، و ينصبون خيامهم ، و يمهدون فراشهم بين رحالهم ، ويحيطونها بشقادفهم التى تلتف بها جمالهم وجمالتهم . وهنا لك يبدأ هذا فى جلب الماء بنفسه أو بواسطة جماله وآخر يستقضى الخشب ، وغيره ينصب القدر لطبخ بعض الاغذية الجافة كالعدس والارز أو اللحم المجهز (وذلك فى المحطات الصغيرة التى لا تطول الاقامة فيها أما المحطات الكبيرة فيشترون منها اللحم الطري الذى يذبحه بعض اعرابها) و بعد العشاء يشربون قهوتهم و ينامون بعد ان يعطوا الجمالة عشاءهم ، والرفقاء من الحجاج

يتناوبون السهر على حراسة عفشهم ، ومن يسهر منهم تراه على الدوام يصرخ بكلمات الاضطراب والانزعاج كقولهم ، «شايفك» « ابعد » «لا تقرب»وهكذا . والحجاج يقضون حاجتهم بين رحالهم فى الغالب ، ومن ابتعد عنها لا بد أن يكون معه أنيس يحرسه عند اشتغاله بنفسه ، والا فانه لا يحرم واحدا من الاعراب ينقض عليه و يضربه فى رأسه بعصا يابسة قصيرة تخمد معها انفاسه !! وهنا لك يشلحه من ملابسه أو يكتفى بقطع كره من حزامه أو من ذراعه . فاذا استغيبه صحابته قاموا للبحث عنه فيجدونه أما فاقدا للحياة فيوارونه التراب على حاله ! ! وأما فاقدا للشعور فيأخذونه ويقومون بشأنه ، وقليلا ما ينجو من هذه الضربة . وعلى كل حال فالناس فى القافلة تراهم جلوسا قياما نياما مع ماشيتهم وخدمهم وجمالتهم وتبعهم بلا فارق بين الجميع ، بل ترى السيد على الدوام يبالغ فى السؤال عن خدمه والاهتمام بشأنهم حتى لكأنه يتقرب بذلك منهم، وفى هذا الطريق تحتق مسألة السادة الصوفية (سيد القوم خادمهم) . وقد يقطع الجمالة بعض الجمال من القافلة اثناء سيرها ،و يتظاهرون باصلاح حمولها حتى اذا ابتعدت القافلة عنهم أوقعوا بركابها وهم يستغيثون ولا يغاثون،وسلبوهم متاعهم وكثيرا مايجهزون عليهم و يفرون بجمالهم الى حيث أرادوا

وبالجملة فركب القوافل لا ضمانة له بالمرة ، وهو بين يدى المقومين والمطوفين كالطيرة الضعيفه فى يد الطفل ان شاء اكرمها وان شاء اهال عليها المصائب والمتاعب من كل جهة،لانهم طبعا فى هذا الفضاء ، ارباب الحكومة والقضاء ، وهم الذين يفصلون فيما عسى ان يقع من الحجاج من الشغار أو الصغار الذي هو شأن الطبقة السافلة منهم على الدوام : اذ لا تسمع منهم على طول الطريق الا عبارات تافهة أو مشاجرات أساسها شيء لا قيمة له بالمرة ربما ادت الى أخذ البعض بخناق الآخر ، وذوو العصبية منهم هم الغالبون . أما اذا كان الشجار بين بعض الحجاج والجمالة ، فان كان الحاج ضعيفا احتمل الاهانة لاول مرة والا دافع برفع لسانه و يده بسرعة يعقبها رد فعل بالاعتذار اليهم والاستكانة لهم . ولا يعدم الحاج المتشاحن في هذه الحال من اخوانه من يعنفه على شجاره مع الجمالة منتصرا اليهم لا بلسان الحق ولكن بعبارة الملق والمداهنة اللذين

اساسهما الجبن والنفاق والعياذ بالله ، مما يجعل روح ذوى الاحساس الرقيق تتردد بين حناجرهم وخناصرهم! واذا فمن يريد بنفسه خيرا فعليه ان يصم اذنيه ويربط لسانه عن أمثال هذه المهاترة ، فترتاح روحه ويطمئن قلبه وان كان ضميره فى ألم مستمر .

وعلى كل حال فيجب ان يكون الناس فى طريق القافلة كلهم عيونا تحافظ على حياتهم ومتاعهم . وعندى أنه يجب على حجاج كل قافلة ان تكون لهم بصيرة على انفسهم : فيرتبون أمورهم وينتخبون لقافلتهم رئيسا منهم قبل قيامهم من مكة . وهذا الرئيس يرتبهم فى خارجها ، فيعين منهم خفراء بالنوبة يقومون بحراسة القافلة فى أثناء سيرها وفي اقامتها ، فاذا حدث حادث فى القافلة أثناء المشي أوقف سيرها ونظر فيما فيه صالحها . وهذا اظنه أولى من تسليم زمام أمرهم الى مقومهم . وما على حكومة الحجاز اذا رتبت لكل قافلة خفراء من العسكر تقوم بحراستها فى نظير رسوم مخصوصة تتقاضاها من ركاب القوافل ، فذلك يكون فيه شيء من الضمان للحجاج اللهم الا اذا صادفوا منه ضغثا على ابالة .

من غص داوى بشرب الماء غصته ... فكيف يصنع من قد غص بالماء

على انا سمعنا ونحن نكتب هذه الكلمات ان حكومة الحجاز مهتمة بتسيير السكة الحديدية بين مكة وجدة . فاذا تحققت هذه الامنية سهل على الحجاج الطريق الى الحرمين الشريفين بواسطة السكة الحديد . وهنا نرجو الحكومة الحجازية ان لا تجعل هذه السكة ضيقة مثل السكة بين الشام والمدينة حتى لا تصادف شيئا يعوق سرعة سير القطارات عليها والله تعالى يوفقها عنه وكرمه الي ما فيه الخير العام .



سفر الجناب العالى

من مكة الى الوجه

أمضى الجناب العالى بمكة يوم ١٤ الحجة وهو يستقبل زواره ، ويفيض نضاره ، على البائسين ، والمحتاجين ، بعضهم بواسطة رجال المعية السنية وبعضهم بواسطة حضرة مأمور التكية الذى احيل عليه البحث في الالتماسات الخاصة بالمرتبات اليوميه او الشهرية . وفي ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله فسارت حملة الحاشية الكريمة الى بحره ومعها كثير من فقراء الحجاج المنقطعين مصريين وغير مصريين ممن صدرت الارادة السنية بتسفيرهم الى بلادهم بناء على التماسهم على نفقة الخاصه الخديوية . ثم قامت في عقبها حملة دولة الوالدة فوصلت حفظها الله بحرة فى منتصف الساعه الثالثة بعد الغروب .

وبعد صلاة العشاء طاف الجناب العالى طواف الوداع ، وركب سموه وفي ركابه الفخيم من بقي فى خدمته من رجال معيته ، وبمجرد ماخرج من باب مكة وجد دولة الشريف وحضرات وكيل الوالى وكثير من الاشراف والكبراء قد اجتمعوا لوداعه ، وساروا فى موكبه ساعة شاكرين له همته السامية ، وآدابه العالية ، مكررين آيات الثناء على فضائله وفواضله . فشكرهم جنابه العالى مودعا . وسار وفى خدمته اصحاب السيادة انجال الشريف ، وسعادة مكتوبجى الولاية والشريف ناصر الذى تعين من قبل الشرافة العظمى مهمندارا لجنابه العالى مدة وجوده في ارض الحجاز ، ووصل ركابه العالى بسلامة

الله الى بحرة في منتصف الليل . وامضى فيها يوم ٢٧ ديسمبر ، وبعد صلاة العشاء ركب الى جده .

وكان حفظه الله كلما مر في طول الطريق على طابية ، وجد عسكرها نزلوا من طوابيهم ، لاداء واجب التعظيم ، وضرب نفيرهم منبئا للطابية التي بعدها بقرب تشريفه اليها . ولما اقترب من جدة وجد سعادة قائمقامها وحضرات قومندان عساكرها مع كثير من اعيانها في انتظار تشريف جنابه العالى ، وسار الكل فى ركابه حتي وصل الي سلم الكورنتينة في نحو منتصف الليل . وهنا لك سلم عليهم سموه شاكرا لهم عنايتهم وآدابهم ، وركب الزورق البخارى الى وابور المحروسة مع بعض رجال معيته . وكانت دولة الوالدة قد سبقت اليه مع حاشيتها ، أما باقى رجال الحرس والمامية السنية فقد نزلوا الى وابور الرحمانية الذى كان في انتظارهم .

وفى صباح يوم ٢٨ ديسمبر قابل الجناب الخديوى في يخته اصحاب السيادة انجال الشريف وسعادة قائمقام جدة وحضرات قومندان عساكرها ، ثم قناصل الدول الموجودين في هذا الثغر ، وكانوا قد حضروا بصفة رسمية لتوديع جنابه العالي ، فشكرهم سموه على آدابهم ، وارسل تلغرافات الامتنان والشكران الى جلالة السلطان ، ومقام الصدارة العظمى ، ودولة الشريف ، وحكومة الحجاز ، على ما لاقاه حفظه الله من كمال العناية منذ حضوره الى هذه الاراضى المقدسة . وفي هـذه الاثناء كان ينظر حفظه الله في أوراق حكومته التى أتت الى جده مع آخر بريد ، وبعد ان اصدر أوامره السنية في الشؤون الهامة ، أمر حفظه الله فسارت مركب المحروسة وقت الظهر

تماما قاصدة الوجه : وهي ميناء في ساحل بلاد الحجاز على البحر الاحمر، وتبعد عن جده شمالا بمسافة ٢٤٠ ميلاً فوصلها ركابه العالى ظهر يوم ٢٩ ديسمبر ، وفي يوم ٣٠ وصلت مركب الرحمانية ، وهنا لك أخذ في اجراء الاستعداد اللازم لسفر سموه براً من الوجه الى محطة البدايع للسفر منها الي المدينة المنورة بطريق السكة الحديد الحجازية .

الوجه والسفر منه الى المدينة المنورة

الوجه قرية على عرض ٢٦ درجة و ١٤ دقيقة وطول ٣٦ درجة و ٢٧ دقيقة ، وفيها نحو أربعين بيتا صغيرا . وعدد أهلها لا يزيد عن خمسمائة نفس كلهم تقريباً عائلة واحدة تسمى عائلة البديوى، ويشرف على القرية تلة من ورائها ، عليها قلعة حصينة ، وفي هذه القرية على صغرها ثلاثة مساجد يقصدها في أيام الجمع كثير من العربان التى في ضواحيها من قبيلة بلي . وكان للوجه اهمية عند ما كان يمر عليه ركب المحمل مدة سفره على البر : فقد كانت تنصب فيه الاسواق وتفرق فيه العوائد على العربان . أما الآن فحياة أهله من صيد الاسماك وتجارة السمن والاصواف التى تأتي اليه من وراء الساحل ، والفحم الخشبي الذى يؤتى به من داخل البلاد . واغلب تجارته مع السويس ، ومنها تقوم اليه في كل خمسة عشر يوما بوسطة على احدى مراكب الشركة الخديوية .

ولقد كانت هذه القرية مدة وجود الجناب العالى بمياهها على اكمل ما يكون من معالم الافراح : فكنت ترى الرايات الحمر على بيوتها وعلى سوارى

فلايكها ، والعلم العثماني كان يخفق طول هذه المدة فوق قلعتها . وفى الليل كانت القرية تلوح كأنها الثريا زهاء وبهاء لمصابيح الزينة التى كانت على دورها ، وخصوصاً دار القائمقام والقلعة . وبالجملة فقد كانت البلد في حركة هائلة لم ترها طول عمرها .

ومن سنة ١٣٢٧ للهجرة رجع المحمل المصرى الى الوجه من جدة لتأدية واجب الزيارة بالطريق الحديدى من محطة العلا . وسبب ذلك تعرض عربان الدرب الطويل ودرب ينبع له بغير حق . ولعلهم يرجعون عن غيهم فيعود الى مجراه الاصلى (١) .

وفى يوم السبت الموافق آخر شهر ديسمبر نزل الجناب الخديوى الى البر ، وكان في انتظاره حضرة قائمقام الوجه وسليمان باشا ابو رفادة شيخ قبائل بلى والمتعهد بحملة الركاب العالى ، فركب حفظه الله الهجن مع حاشيته وسار الى جهة الشرق فى ركب حافل من علية عربان هذه الجهة ، وفي مقدمتهم نحو خمسين نفرا من عرب عقيل على هجنهم (وهم جند للدولة من العرب مثل جنود الهيشه) وفى أيديهم مزاريق مرفوع عليها العلم العثماني ، وعلى راسهم ضابط برتبة صاغقول أغاسى ، وامامهم فرقة منهم تضرب نوبتهم بالنقرزان على طول الطريق . وما زال حفظه الله سائرا بموكبه وفى خدمته حضرة قائمقام الوجه وبعض مأمورى الدولة هناك فى واد يقال له ابو عرايش حتى وصلوا بعد مسيرة اربع ساعات ونصف الى ماء يسمى رأس حرامل ، وفيه

(١) خصوصاً وقد يظن أن الحاج الشامى سيتخذ طريق الوجه الى المدينة وهو لا يحتمل ركب المحملين .

مكان يسمي الرحبة . وقد كانت حملة الخيام سبقت اليه واستعدت فيه لقدومه الشريف ، نزل الي سرادقه ومن في معيته كل الى خيمته .

أما دولة الوالدة حفظها الله فقد ركبت مع صاحبات السمو والعصمة كريمتى الجناب العالى ، ودولة البرنسيس فاطمة هانم افندى ، ودولة والدة البرنسيس نازلة هانم افندى حليم ، وبعض حاشيتها عربات صنعت بصفة خصوصية للسير في طرق الجبال بجر كل واحدة منها ثمانية من الجمال ، ومن ورائها تختروانات تحملها البغال ، على جملة اشكال ، حتى اذا تعبن من هـذه استرحن فى تلك . وكان خلفهن هوادج لمن كان في معيتهن من القلفوات ، يتلوهن باقي حملة الركاب الخديوى من حرس وخدم وحشم ، يتقدمهم رجال المعية السنية . وما زالت هذه الحملة سائرة حتى وصلت الى المكان الذى فيه المخيم الخديوى في مسافة عشر ساعات .

وفى يوم أول يناير ركب سمو الجناب العالى بعد صلاة الفجر وسار بركبه فى وادى السرسر حتى نزل فى مخيمة بوادى ابى القزاز ، وبه ماء يسمى باسمه ، ومسافة السير اليه على نحو اليوم السابق .

وفي هذا الوادى يكثر شجر المشار والشراة (نوع من السنط) والقريظة (نوع من الحلفة يرتفع عنها وتأكله الابل) والدوم والاراك (السواك) ، وكذلك يكثر فيه نبات العوسج والخروع والضُرمه (تشبه الحلفه الا أنها قصيره) والرمث (نبات كالشيح) والخرمه (مثل البتونيا) والسيال والحنظل وله عندهم فوائد كثيرة وخصوصاً في قطرانه الذى يستخرجونه منه) . والعرب يدقون خشب السيال مع الحنظل ويعملون منه شريطا يضربون

عليه بزنادهم فيورى ناراً ، وهم في غنى به عن الكبريت.

وفي يوم ٢ يناير ركب الجناب العالى بعد صلاة الفجر وسار بموكبه الى مكان يقال له مسيل النجد ، وفيه ماء اسمه البدا ومن هنا تبتدأ الارض في الارتفاع نحو الشرق ، فنزل فيه حفظه الله وقطع اليه المسافة مع ركبه فى مثل الايام السابقة. وقد وجدنا هنالك أورطة من سوارى الجيش العثماني كانت قد أتت لحرس جنابه الرفيع من قبل الدولة العلية ، وكانت تريد السفر الى الوجه لانتظار سموه بها والسير منه فى ركابه العالى فلم تتمكن لانها كانت تظن ان سموه يشرفها بعد هذا التاريخ .

وفى يوم ٣ يناير سار ركب الجناب العالي في وادى النجد ومعه فرقة من خيالة الدولة حتي وصل الى خشم سلع ، فنزل به وبات فيه مع باقي ركابه ، والمسافه اليه كالمسافات السابقة . ويكثر في هذا الوادى شجر العشار والطلح (نوع من السنط) والماء فيه قليل.

وفي صباح اليوم الرابع من يناير ركب حفظه الله بعد صلاة الصبح وسار صاعدا من عقبة سلع (ويسمونها البوق لانها على شكله) الى شرفة النجد في أرض صخرية يكثر مدرها ، ويضخم حجرها ، ويصعب السير فيها على الخيل والبغال ، والحمر والجمال ، بل وعلى النساء والرجال ، حتى ان أحد السوارى الترك كان يسرع فيها بجواده فانقلب به وارتطم رأسه بحجر فانكسر وأخذ الدم يتدفق من أم ناصيته ومن وجهه وأذنه بما فقدمعه هذا الرجل شعوره وكاد يموت حتف أنفه ، لولا ان الدكتور الحسنى طبيب الحرس الخديوى كان قريباً منه ، فقذف بنفسه عن راحلته وتبعته باجزخانتى الخصوصية

فضمدنا جراحه ، واشممناه بعض المنعشات التي افاقته لوقته ، وركب جواده بين اخوانه الذين تلاحقوا اليه وهم شاكرون لرجال الجناب العالى عنايتهم به واستعدادهم لمثل هذه الطوارئ ، ذاكرون لهم حسن خبرتهم وعالي همتهم .

ولقد شاهدت فى الجبل الذى كان على يسارنا بعد مدخل البوق أثر كتابة بالخط الكوفى محفورة حفرا بسيطا في صخرة مشرفة على الطريق ، قرأت منها هذه الكلمات : « بسم الله ما شاء الله باسم الله . . . المستنصر بالله » وانى لا أدرى اذا كان ذلك كتب فى مدة المستنصر بالله الفاطمى في مبدأ النصف الثانى من القرن الخامس للهجرة ، وقتما وقع بمصر ذلك الغلاء الفاحش الذى بلغ فيه ثمن الاردب القمح مائة وعشرين ديناراً والذى أكل الناس فيه بعضهم بعضا: اذ لا يبعد ان يكون هجرها في ذلك الوقت جماعة الى المدينة المنورة، وساروا من هذا الطريق وقيدوا تاريخ مرورهم، والاشارة لعلة هجرتهم، بذكر باسم الخليفة لذلك العهد. كما يصح ان يكون ذلك حصل في مدة المستنصر بالله العباسى الخليفة ببغداد في نحو سنة ستمائة وثلاثين هجرية، على مدة الملك الكامل صاحب مصر ، والذى خلف صلاح الدين الأيوبى في محاربته للصليبيين، حيث لا يبعد أنه سير فى هذا الطريق فرقة من عساكره (١) لترود الطريق من الشام، الى بيت الله الحرام وبيت نبيه عليه الصلاة والسلام، خصوصاً بعدما كان الافرنج قد ملكوا أيله (العقبة) واجلاهم عنها صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ

وبعد ذلك أخذ الوادى في الانفراج حتى تخيلنا انه اقفل امامنا . ولم نزل سائرين فيه الي الشرق حتى وصلنا الى مدخل بين جبلين شاهقين احمرين

(١) وربما كانت هذه البعثات هي التي سهلت طريق البر لحج شجرة الدر .

(لون كربونات الحديد) تخللهما طبقات قاتمة سوداء أو صفراء تتقابل مع بعضها في موازاة واحدة فى الجبلين مما يحكم معه الرائى لاول وهلة انهما جبل واحد قد تمزق عن بعضه بحادث طبيعي ، ويسمون سلسلة هذه الجبال حرّة العوير قال الشاعر :

واشرق اجبال العوير بفاعل　　اذا خبت النيران بالليل أوقدا

﴿ وقال أيضاً ﴾

حتى وردن ركيات العوير وقد　　كاد الملاء من الكتان تشتعل

والعوير احدى لابتي المدينة اللتين حرم عليه الصلاة والسلام ما بينهما فقال « حرام ما بين لابتيها » وفي الصحاح « أنهما حرتان تكتنفانها » . ويظهر ان نيران هذا الجبل البركاني كانت تظهر أحيانا من قبل وبعد الاسلام ، والعرب تعرف ذلك كما قال القطامى في شعره السابق من قصيدة يمدح بها يزيد ابن معاوية ، ويسمون نارها بنار الحجاز وقد ورد ذكرها في الحديث الشريف .

وفي الظهر وصلنا الى رأس الحرة ، وهي قمة عالية سوداء تشرف على واد ضيق فرشت ارضه بحجارة صوانية حمراء وصفراء ، وفي جهته الشمالية ممر للسيول فيه بعض شجر الطرفاء ونبات الأرطى (تأكله الابل) ، ويكثر في هذا الوادى البعثران الذى يعطره بروائحه الزكية . وما زلنا سائرين في هذا الوادى الضيق ونحن فى شدة ما يكون من الحر حتى نزلنا منه الى واد متسع يسمى وادى الدهيث ، وليس فيه ماء ، ولكن يكثر فيه شجر الغضا وهو نوع من الطرفاء ناره شديدة يضرب بها المثل ، وصعدنا منه الي وادى بوبلى (ابي بلى) وهو واد حصباؤه كثيرة ، ومدراته كبيرة ، وزلطه كالبطيخ فى

حجمه ، وفيه يكثر شجر الشراة والسنط . ومن هنا يأخذ الطريق في العلو ، والجبال في الدنو ، وقد ضرب لونها الاحمر الي السواد ، واخذت تتجزأ الى اشلاء هرمية ذكرتنا بمصر التى تجلت صورتها الي افئدتنا ونحن في سبيلنا الي الله تعالى ورسوله باجمل صورة ، وانغم مثال! وهل هي الا وطننا العزيز الذى بمحبته يكمل الايمان، ويرضى الديّان ؟ نعم ذكرنا هذا الوطن العزيز ونحن في ركاب مليكه ، وفي خدمة هذا الروح الأمين الذي منه حياته ، وفيه خيراته ، وبركاته ، نعم ذكرناه في هذه القفار ، التى ترسل عليها الشمس شواظا من نار، يشوى وجوه السفار. نعم ذكرناه، وذكرنا رياضه وغياضه، ونحن نسير في ارض نبتها المدر، وغرسها الحجر، وثمرها الصخر، وزهرها الوعر ، ومساكنها القفر ، وساكنها الفقر، ونسيمها لهيب الجمر ! نعم ذكرنا مصر وذكرنا نيلها ، وظلالها ، وليس هنالك ماء الا ما يتصبب عرقا من جسومنا ، حتى لكأنها شماع باستور ، أو مرشح شوق ، وليس من ظل الا ظل عوسجة أو طلحة يكاد يلتهب من شدة ما يحيط به من الحرارة في شهر يناير ! نعم ذكرنا مصر هنا وذكرنا أهلها وما فيهم من اخلاق قويمة ، وعواطف كريمة ، وسجايا سليمة ، وآداب لا يصل اليها الاعراب ! ! !

وما زلنا سائرين في هذا الوادى حتى وصلنا الى مضيق دخلناه فوجدناه كثير التعاريج ، يلتوى على بعضه كطريق الثعبان ، وأرضه غير معتدلة ، وفيها ثنيات كثيرة ، صادفت العربات فيها مشقات كبيرة . وينتهي هذا الطريق بعقبة كؤود صخرية في أرضها نتوءات جمة يصعب السير فيها على كل من مر فيها!! لذلك انتظر فيها الجناب العالى حفظه الله لمساعدة قافلة الركب الخديوى، في

المرور منها وبحسن نظره الثاقب وهمته العلياء مرّ الركب جميعه منها على أحسن حال ، وسار الى مخيمه الذى نصب في مكان اسمه النجوة وراء هذه العقبة التي تدّعى قبيلة بلى ان جدها مدفون فيها .

وفي صباح يوم ٦ يناير ركب الجناب العالى وتبعته عربات دولة الوالدة وباقى حملة الركاب الخديوى وسار حفظه الله في هذا الوادى الذي يسمونه وادى حلاوة . ومن هنا أخذت الجبال تتقطع أشلاء على جانبيه حتى انتهينا الى مفرق بين جبلين فصعدنا اليه فنحدر رملى ميْلُه يبلغ ٣٠ فى المائة ، ونزلنا من الجانب الآخر في واد واسع أرضه رملية خشنة ذات لون أحمر . وما زال حفظه الله سائراً بهذا الوادى حتى نزل منه الى وادى العلا الذي يسير من الشمال الى الجنوب ، ويكثر فيه شجر الطرفاء ونبات الحمض (تأكله الابل) وان كانت أرضه مسبخة ، وفي وسطه محطة البدائع التي وصلها حفظه الله في الساعة العاشرة صباحاً ، حيث كان في انتظار ركابه العالى ، سعادة محافظ المدينة المنورة وحضرات مدير وخازندار الحرم الشريف ، والبكباشى فؤاد بك الذى تعين مهنداراً لجنابه الفخيم ، وأصحاب السيادة الشريف شحات وكيل امارة مكة في المدينة المنورة ، والشريف محسن والشيخ عبد الله شيخ ناحية العوالى ، والشيخ ابراهيم أسعد شيخ خطباء الحرم المدنى ، والسيد حسن أسعد ، والشيخ يحيي الدفتر دار امام الحرم الشريف ، وعزتلو حضرة صالح بك وكيل ادارة السكة الحديد الحجازية ، وحضرات قائمقام محطة العلا وشيخ عربانها وقاضيها وشيخ مشايخ عربان عنزه وشيوخها وشيخ قبيلة بني سليم (من حرب) .

وبمجرد ما شرف الركاب العالي تقدموا جميعاً نحو سموه بواجب التحية

والتعظيم ، وهنئوا جنابه الفخيم ، بقدومه بسلامة الله . فشكرهم حفظه الله ، وسار معهم الى صيوانه الخصوصي . وكانت قد اصطفت على طريقه فرقة من الجند البيادة العثماني وأمامها حضرات ضباطها لاداء واجب السلام . وبعد أن استراح جنابه العالى قليلا استقبل وفود المهنئين بما جبل عليه من اللطف والايناس ، فخرج الكل شاكراً ذاكراً ما لقيه من سموه .

وأمضى حفظه الله ذلك النهار بالبدايع بين توارد آى التهاني من كل جهة، واصدار الأوامر بالاحسانات على فقراء هذه القبائل، وخصوصاً من كان في ركابه العالى منها ، كما أصدر أمره الكريم بتوزيع الكساوى على من كان في خدمة الركاب الخديوى من الضاوية والسقائين والعكامة والفراشين والخيمية، وبالجملة فقد كان يوماً كله حسنات ودعوات وابتهالات بحفظ جنابه الفخيم. وبعد ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله بسفر الحرس السوارى الخديوى وبعض بلوكات البيادة الى محطة العلا لانتظار عودة جنابه الرفيع بها ، كما أمر بتجهيز قطار مخصوص لجانب من الحرس والخدمة وبعض رجال المية السنية ومعهم الخيام والصواوين اللازمة لنصبها في المدينة المنورة. فسار هذا القطار اليها مساء ذلك اليوم . أما قطار الجناب العالي ودولة الوالدة فقد تحرك من البدايع صباح يوم ٧ يناير.

وما زال القطار الاول سائراً فى واد يسمونه وادي الحمض لكثرة ما به من هذا النبات حتى وصل صباحاً الى محطة الجداعة وهناك استوقف لان السيول كانت قطعت جسر السكة على بعد كيلو مترين منها . وقد اخطر الجناب العالي تلغرافياً بهذا الحادث ، ولكنه حفظه الله بمجرد وصوله الى محطة هدية (قبيل الغروب) ، اوقف قطاره هناك ، وسار بالقاطرة الى محطة

الجداعة التي تبعد عنها بنحو عشرين كيلو متراً ، وبعد أن تقدم الى القطع ورآه بنفسه عاد قائلا (ليس من الممكن اتمامه قبل يومين) ولذا أمر سموه بتأخير القطار الاول الى محطة هدية ليكون الكل في حماه ، حفظه الله .

وهدية مكان به محطة مبنية بالحجر الاصم الازرق على شكل قلعة صغيرة في محيطها مزاغل لتكون مكان دفاع للعمال ، وسط هذه الجبال ، اذا لزم الحال. وبجانبها بناء كبير عليه أحواض من الحديد لتستقي منها القطارات ، ويصعد الماء اليها بواسطة آلة رافعة تدار بالبترول كما هو الشأن في جميع المحطات الرئيسة في هذا الخط . ومن خلف هذا البناء عشش بعضها بالحجر وبعضها بالطوب التي يسكنها عمال المحطة وبعض العساكر المحافظين على السكة الحديد . وعلى جانبي الطريق الحديدي ، فوق ذروة الجبل الشرقي والغربي ، قلعتان يصعد الى كل منهما قره قول من عسكر الدولة لحماية المحطة ويقيم بها طول النهار ، وينزل في المساء الى سكناه من هذه العشش ، وهنالك يصنعون الخبز لأنفسهم وقد رأيناهم يعملونه بحال نظيفة . وهو أشبه شيء بما كانوا يسمونه بالصامولى عند العساكر المصرية .

ولقد أمضينا جميعاً ليلتنا بعربات السكة الحديدية مشمولين برعاية الجناب العالي الخديوى حفظه الله . وما أسفرت شمس يوم ٨ يناير حتى أخذ الكل يستعد لهذا العيد السعيد الذى هو عيد مصر الحقيقي ، ولكنه حفظه الله رأى عدم تكليف عبيده المخلصين بما لا تسعه حال هذه البادية ، وعندها اجمع الرأى بتكليف هذا العاجز بكتابة كلمة اخلاص رفعناها الى أعتابه السنية وها هي بنصها :

ولي النعمة ومليك الامة ،

انا لنرجو أن يسمح لنا سيدنا ومولانا بأن نردد في هذا اليوم السعيد الذي هو عند مصر والمصريين أكبر عيد ، صدى صوت رعيتك حيثما كانوا وأينما وجدوا ، في ابتهالهم الى الله تعالى بحفظ شخصك المحبوب ، الذي استولى بفضله وكرمه على الارواح والقلوب . ثم نرفع لاعتابكم السنية ونحن هنا في هذه البقعة الطاهرة ، بين يدي الله تعالى ورسوله ، ما تكنه ضمائرنا لذاتكم العلية ، من صادق الاخلاص والعبودية . ثم نرفع لسموكم ما بين جنوبنا من أفئدة كلها صدق وولاء لجنابكم العالي ، حتى اذا تشرفت بتقبيل الأعتاب الكريمة ، تضرعت الى الله تعالى بأن يحفظ هذه الطامة العباسية تاجاً على مفرق الزمان ، وأن يجعل من فضلها ونوالها نعمة في عنق كل انسان .

مولاي ،

لقد بارحت دار ملكك ، وخرجت الى الله تعالى ورسوله ، فأبى الا أن يظللك السحاب في هذه القفار ، وأن تغسل طريقك الامطار ، وتنبت مع خطاك حياة هذه الديار ، بعد أن قضت سبع سنين لا ضرع فيها ولا نبات: وهل هذا أيها العزيز الا برهان الله الاكبر بقبوله لك يورده لعباده ؟

وبعد ان اتممت حجك المبرور ، وسعيت سعيك المشكور ، يممت شطر رسول الله المصطفى . فعلوت متن البحار ، وامتطيت صعاب القفار ، ثم ركبت سنام البخار ، حتي اذا كنت على مرحلة منه صلى الله عليه وسلم ، أراد من فضله وكرمه ، ان ينفع بك في حرم حبيبه كما نفع بك في حرمه ، فأنزل الغيث مدرارا ، وسير البحار أمطارا ، وأسال من سيولها انهاراً ، اوقفتك في طريقك

لحظة شمت فيها نيل بلادك يسعى بين يديك ، ليروى بفيضه مواطن اقدامك ، فى هذه البرارى التى يشهد اهلوها بأنهم لم يروا مثل سنتهم هذه فى خيرها وبرها . وهل تريد يا مولاي دليلا غير هذا يعبر لك به رسول الله صلي الله عليه وسلم ، بانك قدمت عليه وعلى قومه خير مقدم ، ونزلت منه فى المكان الاول المحترم ؟؟

وانا لنسأل الله تعالى بعد تمتعك بزيارة السيد المصطفي ان يردك الى بلادك ومن معك من آل بيتك الاكرمين فى اكمل صحة وأتم عافية ، تكلؤكم عين الله تعالى وترعاكم عين رسوله ، كما نرجوه جل شأنه ان يشكرك معنا على نعمتك التي نسير فى بحبوحتها ، وان يحمدك على نوالك الذى نتفيأ فى ظلاله ، وان يجزيك عنا خير الجزاء .

وقضينا هذا اليوم المبارك في وسط هذه الفلاة ، التي لم نرَ في أرضها أثراً لذى حياة ، اللهم الا عمال الطريق الحديدى . فيا لله من هذه البلاد التى لا نرى بها من جنوبها الي شمالها ، ومن غربها الي شرقها ، غير صحراء حجرية ، وجبال صخرية ، ونفود رملية ، واحقاف من بحار الرمال ، تسوخ فيها الاقدام كما تسوخ فى الماء ، لولا أنها تخلص من هذا بسهولة ولا يدين لها على الحركة في تلك ! يا شكرانك ربي وحمدانك على نعمتك التى انعمت على عبادك في جميع الاقطار والامصار ! فلقد جعلت في طبيعة ارضهم ما يكفل لهم حياتهم : فليس من أرض حتى فى منازل الثلوج ومراقد الجليد الا وفيها فصل ينبت فيه النبات ، وتقدم لاهلها به شيئاً من لوازم الحياة ، الا هذه الارض التى اسكنت في جوفها من ذرية خليلك ، فاقام بها بيتك ، وقام بنوه بشرف

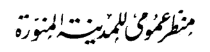
خدمته . فهوت اليهم قلوب زائريه من العرب . الى أن اصبح يأتيه الناس من كل فج ، حتى اذا ارسلت من ذريتهم الطاهرة ، وسلالتهم العاطرة ، نبيك الامين ، ورسولك الاميّ الذى هجر الى هـذه الديار أهله ووطنه ، ليتمكن من القيام برسالتك ، والدعوة الى طريقتك ، ضرب الكفر ضربة لم تقم له بعدها قائمة . وسار على أثره الشريف صحابته والقائمون بعدهم بخلافته ، فقام شأن الاسلام واستولى المسلمون فى أقل من ربع قرن على ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، وبلغوا سويداء الهند ، ومجاهل افريقا ، وصحارى بلاد المغرب . لذلك كان من الواجب الطبيعى الذى لا مندوحة عنه ان فرض على المسلمين الحج لبيت الله على ما كانت عليه ملة ابراهيم ، شكراً له عزّ وجل على ما هداهم الى هذا الدين القويم الذى أنقذهم من همجيتهم الاولى ، وفك ما كان في رقابهم من سلاسل المظالم وما كان في أرجلهم من قيود الذلة والهوان. وما زالوا كذلك حتى امتد ملكهم في القرن الثاني من بلاد الصين شرقا ، الى مدينة بواتييه (Poitier) قرب باريس غربا . وبالجملة فقد جمعت حكومتهم بين دفتيها ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، والمصريين ، والاشوريين ، والبابليين ، والفنيقيين ، والقرطاجيين ، والبربر ، والفرنجة ، وغيرهم . واستمرت دولتهم الطويلة العريضة نحو سبعمائة سنة وهي كالمشكاة تنير دياجير المعمورة بنبراس المدنية الصحيحة التي من أجل آثارها ، وهو ما لا ينكره عليه اعداؤها ، رقي الاخلاق ، والاخذ بناصر الفضيلة التى انما هي عمار الكون ، ونظام الوجود .

فيا لله من كان يظن ان هذه الفيافى والقفار يخرج من جوفها هذا النور

الذي اضاء الكائنات ، وتلك اليد القوية التي ضربت على أيدي المظالم التي كانت تسقطها الملوك على رؤوس رعاياهم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في القرون الوسطى؟ من كان يظن ان أحقاف هذه الرمال ، وأجلاف تلكم الجبال ، تنشئ هذه المدنية التي يرفل في بحبوحتها العالم أجمع ؟ هذه المدنية التي خدمت العلم خدمة تذكر فتشكر : نم خدمت العلوم الطبية ، والكيماوية ، والطبيعية ،والفلكية والنباتية والرياضية ، حتى أن فرنسا كانت تستمد من مدرسيهم ، كما هو الحال في الممالك الشرقية الآن مع أوروبا ! ! ولقد بلغ من عمران الدولة العربية في الشرق والغرب ما لا يبلغه عمران أي دولة قبلها . انظر الى الأمويين في دمشق والاندلس ، والعباسيين في بغداد ، ترى من رقيهم في الصناعات ومعارج العرفان ما لا يقوي الافرنج على انكاره ، ودونك كتاب مدنية العرب (Civilisation des Arabes) تأليف « جوستاف لوبون » فانك ترى فيه المعجب والمطرب . فهل تريد بعد ذلك كله برهاناً على صحة دين الاسلام ، وحجة على حقيقة من اهتدينا بهديه وانتهجنا سبيله ؟

لذلك كان من اللياقة ، ان لم نقل من الواجب ، التوجه لزيارة هذا النبي المصطفى ، الذي قضى حياته جميعها فى سبيل خدمة الانسانية العامة ، وانارة سبلها المدلهمه بمشكاة هذا الدين المتين ، دين الحرية ، دين الاخاء ، دين المساواة ، دين العدالة ، دين الفضيلة دين الحياة الصحيحة .

وفي ظهر اليوم التاسع من يناير وصل الخبر باستعداد الخط . فأمر حفظه الله بسيرة القطار الاول فقام من محطة هدية في الساعة الثامنة عربى ولما وصل محطة الجداعة (وهي في الكيلو ١١٥٦) سار الهوينا



منظر عمومي للمدينة المنورة

BOEHME & ANDERER, CAIRO.

حتى غادر مكان القطع الذى كان طوله نحو الفي متر ، والذى أبلت في اصلاحه عساكر الدولة التي استدعيت اليه من المدينة بلاء يذكر فيشكر . ومياه هذا السيل كانت آتية من جبال الطائف بما يدل على كثرة الامطار التى نزلت في تلك الجهة ونزل منها مجار كثيرة الى مكة والمدينة والطريق الذى بينهما .

واستمر القطار سائرا في وادى النعام الذى يبتدئ من مجرى السيل ، ويكثر فيه شجر السنط ، ومرّ على محطة النعام ثم محطة عنتر وفيها قلعة قديمة على قمة الجبل الغربي ، ولعلها كانت على طريق الحاج أيام سيره على البر ويسمى الجبل بهذا الاسم ولا أدرى لهذه التسمية من سبب ، غير أن ديار عبس كانت شمال المدينة مع شرق ، وربما كان هذا الوادى من منازلها أو كان لها فيه واقعة باسم بطلها الذى كان يعيش في القرون الاول قبل الاسلام (وكان عليه الصلاة والسلام يسر بحديث الناس في سيرته). ومازال القطار سائراً حتى وصل الى محطه الحفيرة والتى عصا التسيار فيها للمبيت بها. أما الجناب العالى فقدبات فى المحطة التي قبلها وتسمى محطة البوير . والمحطات من هدية الى المدينة المنورة لم تكمل عملية البناء بها ، وكان العمل فيها جاريا على قدم وساق ، وكان يعمل فيها كثير من المصريين وأغلبهم من مديرية قنا وجرجا ، وكانوا في شدة الفرح بمقدم مليكهم المحبوب. وكانت العساكر على طول السكة الحديدية يقفون في كل محطة لاداء واجب التعظيم للجناب العالي الخديوى من البدائع الى المدينة . وقد كان عدد العساكر بهذا الخط قبل تشريف الركاب العالي ثلاث اورط عثمانية للمحافظة عليه ، فزادوا عليها أربع اورط قبل تشريفه أيضاً للمحافظة على ركابه الفخيم ، فكنت تراهم منتشرين هنا وهناك وفوق الجبال على طول السكة.

وما زلنا حتى مررنا على القطع الثاني الذى كانت أحدثته السيول في الجسر قبيل المدينة المنورة بنحو خمس كيلومترات. وهناك شاهدناقبة سيدناحمزة رضي الله عنه ، ثم أهلّة مآذن الحرم الشريف . وعندها أخذت الاعناق تتطاول ، والابصار تتجاول ، في هاتيك الارجاء ، مستطلعة أنوار القبة الخضراء . حتى اذا تجلت لنا بفخامتها امتلأت القلوب أفراحاً ، والصدور انشراحاً ، والعيون قرة ، والافئدة مسرة ، وزاولت الارواح أن تخرج عن نظامها ، وتطير من من جسومها ، الى نور الانوار ، وسيد الابرار ، ومصدر سعادة العالمين في جميع الامصار ، لولا أن الجسوم كانت تتعلق بها ، ناهضة بركبانها ، ضاربة آباطوابورها ، مهللة ، مكبرة ، داعية ، ملبية.

ثم ثم كنت ترى الأرواح ترفرف بظروفها ، والقلوب ترجف في تجاويفها ، لتسبق الركاب ، الى ذلك الجناب . وهنالك كنت ترى نفس الجنان ، وحقيقة الوجدان ، يتطايران ، من اطراف اللسان ، في صورة تحيات خالصات ، وتسليمات سنيات ، الي سيد الكائنات. وجميع الحواس مهيأة الى التمتع بهذه المنة الكبرى والنعمة العظمى ، والعين تفتخر عليها بشرف سبقها الى هذه السعادة التى لا نهاية لها ممتنة عليها بانها هي التي زفت اليها بشرى الوصول ؛ الى غاية المأمول .

وما زال القطار حتى دخل بين بساتين المدينة ونخيلها النضرية.

واخذ يسير بنا الهوينا حتى وصلنا الى محطة المدينة المنورة في الساعة الخامسة عربى نهارا ، وكان العدد الجم من الاهالى نساءً ورجالا على جانبي الطريق الحديدى الى المحطة التي اكتظت ساحتها بوفود الناس على اختلاف

BOEHME & ANDERER, CAIRO.

باب العنبرية (الباب الرشادي) بالمدينة المنورة

طبقاتهم وفى مقدمتهم سعادة على رضا باشا محافظ المدينة وقومندان عموم القوة العسكرية الموجودة بها ، ومعه كثير من المأمورين العسكريين والملكيين الذين كانوا يقومون بأمر النظام العام استعداداً لمقدم الجناب العالى الخديوى . وكانت غاية القوم على رصيف المحطة يتقدمهم حضرات شيخ الحرم ونائبه ونقيب الاشراف وصاحبا الفضيلة قاضى ومفتى المدينة .

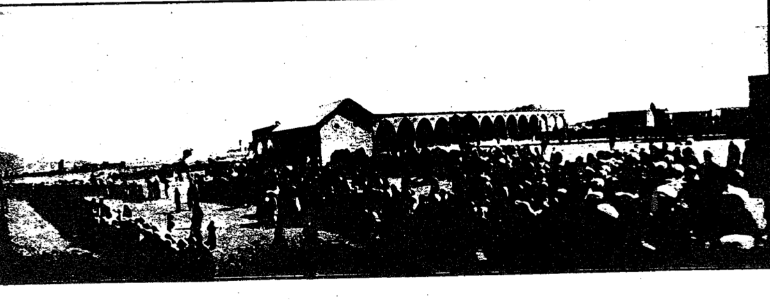
وفى الساعة السادسة تماماً ضربت المدافع ايذانا بوصول الركاب العالى فتشارفت الاعناق ، وتماددت القامات لمشاهدة القطار من بعد ، وما زالت الابصار تلمحه حتى وقف فى رحبة المحطة (لان رصيفها ما كان كمل بناؤه) وهنا لك صعد سعادة المحافظ الى صالون الوابور لتأدية واجب الاعظام ، وتبليغ جنابه العالى سلام الدولة العلية ، وتهانى الحكومة المحلية . ثم صعد شيخ الحرم ونقيب الاشراف ، وبعد واجب السلام نزل حفظه الله من القطار وسلم على أعيان المدينة الذين قدمهم حضرة المحافظ الى جنابه العالى واحداً بعد الآخر ، وسار ومن خلفه سعادة المحافظ ودولة البرنس كمال الدين ورجال معيته السنية يتلوهم شيخ الحرم واعيان المدينة المنورة بين صفوف العساكر التى كانت تؤدى التعظيم ، وموسيقاها تضرب السلام الخديوى ، فدخلوا من باب العنبرية وهو باب عال مشيد يبلغ ارتفاعه نحو عشرين متراً منقوش بالليقة الذهبية ويسمونه الآن بالباب الرشادى تيمنا باسم صاحب الخلافة العظمى . وما زال الكل سائراً حتى وصلوا الى الصيوان الخصوصى الخديوى الذى كان قد نصب في مقدمة خيام حاشيته الكريمة داخل سور المدينة الكبير . وهنا لك استقبلهم جنابه العالى بكرمه وايناسه كما استقبلوه بصنوف تحياتهم وتهانيهم .

ولقد كان الصيوان الخديوى حافلا بكبراء القوم ، وكانت رؤساء المعية السنية يقدمون اليهم كل ما فيه راحتهم ، وهنا لك قام الشعراء والخطباء ، هؤلاء يرتلون أي الثناء والدعاء وأولئك يصوغون التهاني ، فى اسلاك المثالث والمثاني ، حتى كان يخيل الينا أننا بين وفود العرب على الرشيد ، فى يوم عيد. ومما يذكر من آداب القوم أنهم لما فرقت عليهم السيكارات اكبروا المقام على التدخين ، وبعد ساعة انصرفوا شاكرين ، وبكرم الجناب الخديوي متحدثين.

الجناب العالى الخديوى بالمدينة المنورة

بعد ان استراح الجناب العالى من عناء السفر ، امتطى صهوة جواده بعد صلاة العصر ، وقصد الحرم الشريف لأداء واجب الزيارة ، ومعه دولة البرنس وفضيلة الاستاذ المفتي وسعادة محرم باشا وبعض رجال المعية السنية ، فدخل حفظه الله من باب السلام وبعد تأدية الزيارة وصلاة المغرب بالحرم الشريف ، ادى واجب الخدمة بالمقصورة الشريفة ، ثم قصد زيارة دولة الوالدة وكانت اقامتها مدة وجودها بالمدينة فى بيت شيخ الحرم الذى هو دار عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، ثم عاد حفظه الله الى مقامه فى معسكره .

وقد كنت توجهت الي الحرم مع بعض اخواني من المعية السنيه ، وكان يبعد عن مخيمنا الذى كان بجوار باب العنبرية بنحو ثلث ساعة سيراً على القدم ، فدخلنا كالعادة من باب السلام ، وصلينا ركعتين في الروضة الشريفة تحية للمسجد ، ثم خرجنا الى الرواق القبلي واتجهنا الى المقصورة الشريفة ، وتمثلنا



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

استقبال الجناب العالى الخديوى بمحطة السكة الحديد بالمدينة المنورة

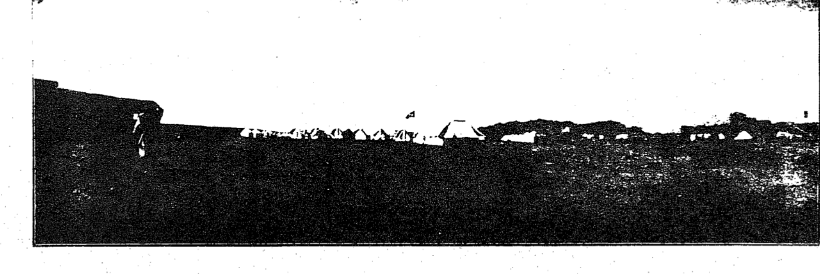
بمنتهى ما يمكن من الخضوع والاستكانة امام أول باب منها تجاه مسمار من الفضة جعل امام الكوكب الدرّى الذى وضع فيما يحاذى الوجه الشريف . هنا لك وقفت النفس بالمركز الذى ينبغي لها تلقاء هذا الجلال وهذه العظمة : فكنت ترى الروح بمجموعه ، والقلب بخشوعه ، والطرف بدموعه ، واللسان بخضوعه ، ترفع عبارات السلام ، الى سدة سيد الأنام . وبعد ان دعونا الله بما شاء الله ، انتقلنا الى مقام سيدنا أبي بكر بالشباك الذى يليه ، فسلمنا ودعونا ، ثم انتقلنا الى مقام عمر بجواره ، فسلمنا ودعونا ، ثم اتجهنا الى حائط المقصورة الشرقي ووقفنا بباب فاطمة ، فسلمنا ودعونا ، ولست فى حاجة لان أردد القول بأن جلالة المكين ، وفخامة المكان ، لهما على الانسان ، مهما كان ، تأثير يقف به فى موقف الخاضع الخاشع . وعلى كل حال فالكل يرى نفسه فى موقفه هذا قد وصل الى غايته ، وبلغ منتهى سعادته .

وكان الجناب العالى مدة وجوده بالمدينة المنورة يكثر من الصلاة في الحرم . ولا اذكر أنه انقطع عنه فى صلاة الفجر والعصر والمغرب والعشاء . وكان حفظه الله يؤدى شرف (١) خدمة اسراج القناديل فى الحجرة الشريفة مساء ، واطفائها صباحا ، طول مدة الاقامة بها . ولقد سعدنا بالدخول في معيته السنية الى هذه المأمورية الشريفة غير مرة : فكنا اذا صلينا المغرب لبسنا

(١) هذه الخدمة يقوم بها الامراء والعظماء وغيرهم من اعيان المسلمين فى زيارتهم للرسول عليه الصلاة والسلام . ولا تكون الا بتصريح من شيخ الفراشة النبوية الذى يصدر فرمانا لمن يتشرف بالانتظام فى سلك هذه الخدمة . ومن عادة هؤلاء الامراء ان ينيبوا عنهم ، في أثناء المدة التي يكونون بعيدين فيها عن المدينة ، أناسا من أهلها يقومون بادائها عنهم في مقابل مرتب يرسلون به اليهم سنويا .

قروجيات بيضاء ، وشددنا عليها احزمة ، ولففنا على رؤوسنا عمامة على نظام خدمة الحجرة ، ثم تشرفنا بالدخول، من باب البتول ، وبعد مرورنا على حرم السيدة الزهراء ، دخلنا من باب في غربه إلى الحجرة الشريفة بقدم متلمس، وطرف منخفض، وقلب خافق، وفؤاد مضطرب ، ومثال متأدب ، ووجدان متغلب ، وروح ينكمش خضوعا ،ونفس تذوب خشوعا ، وحشاشة تصبب دموعا ، وألباب ترفع لاعتاب ذلك الجناب ، آيات السلام ، بكل اجلال واعظام . وبعد ان أدينا ما يسره الله تعالى من شرف الخدمة . خرجنا من باب في الجهة الشرقية ، الى حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها ، فقرأنا ما تيسر من القرآن، ثم بارحنا المكان ، والجنان واللسان ، لا يستطيعان، تصوير ما كان . وغاية ما كنا نشعر به انما هو قوة تجددت في روحنا الذى امتلأ سرورا وحبوراً ، وراحة تمددت في وجودنا كنا نرى فيها كل يمن وسعادة .

وفي يوم الثلاثاء بعد صلاة الفجر في الحرم الشريف ، أدى الجناب العالي خدمته بالحجرة الشريفة ، ثم قصد زيارة البقيع وهو مقبرة المدينة، فابتدأ بزيارة قبة سيدنا عثمان بن عفان وهي في الشرق ، ثم قبة سيدنا الامام مالك وهي في وسطها ، ثم قبة سيدنا ابراهيم ابن النبي صلى الله عليهما وسلم ، ثم قبه زوجات الرسول عليهن رضوان الله ، ثم قبة سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي في الزاوية القبلية الغربية بالبقيع،وهي أفخم القباب الموجودة به ومقصورة سيدنا الحسن فيها فخيمة جداً وهي من النحاس المنقوش بالكتابة الفارسية ، وأظن أنها من عمل الشيعة الفارسيين . ثم زار حفظه الله كثيراً من قبور الصحابة والتابعين والصالحين. وبعد الظهر زار التكية المصرية وأثنى على مأمورها لما رآه من



مخيم الجناب العالي بالمدينة المنورة

BOEHME & ANDERER, CAIRO.

حسن نظامها، ثم ركب حفظه الله وقصد دار الحكومة العثمانية ليرد الزيارة الى سعادة محافظها فاستقبل بما يليق بمقامه العالي من مظاهر الاجلال والاعظام .

وفي يوم الاربعاء بعد صلاة الفجر واداء الخدمة في الحجرة الشريفة قصد الجناب العالى زيارة مسجد قباء مع بعض رجال معيته السنية ، ثم عاد حفظه الله قبيل الظهر الى المسجد الشريف ، فصلى الظهر فيه ، ثم رجع الى مخيمه وأمضى بقية النهار في استقبال زائريه من رؤساء المدينة وأعيانها .

وفى يوم الخميس أدى الخدمة على حسب عادته ، ثم قصد زيارة سيدنا حمزة ، وكان السيل قد قطع طريقه على زائريه ، ولكن ذلك لم يوقف همة جنابه العالي عن تنفيذ عزيمته ، فدفع بجواده فى الماء الذى كان على ارتفاع نحو متر ، قاصداً عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحظى بزيارته ، ووصل الى بغيته ، ولا غرو فعزائم الملوك ملوك العزائم .

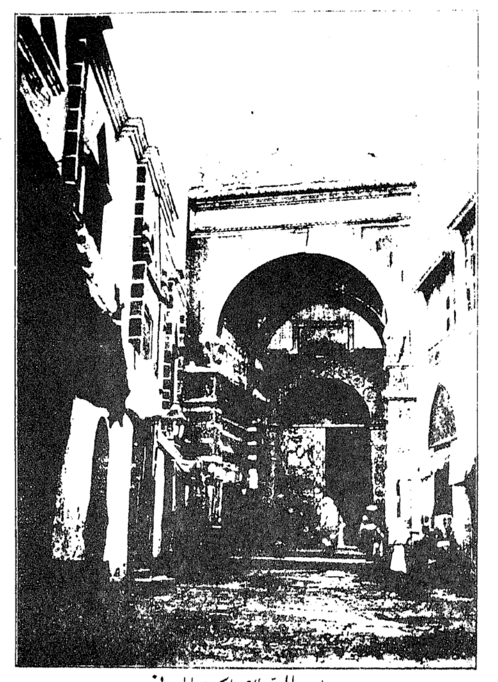
وفى يوم الجمعة بعد اداء جنابه السامي خدمته بالحجرة الشريفة صباحاً رجع الى المعسكر الخديوى، واستمر الى قبيل الظهر في استقبال زائريه، ثم قصد الحرم الشريف لصلاة الجمعة ، وبعدها زار دولة الوالدة ، ثم قصد منزله الشريف وأمضى يومه فى توزيع الصدقات ، واسداء الاحسانات، والنظر في ترتيب المرتبات، لذوى الحاجات، من أهل المدينة والمجاورين، مصريين وغير مصريين وكان في أثناء ذلك يصدر أوامره الكريمة بتجهيز حملة ركابه العالى للسفر الى تبوك فى اليوم التالى. وبالجملة فقد كان حفظه الله مدة اقامته بالمدينة محط الآمال ومكان الاعظام والاجلال، من جميع الطبقات وكانت . وسيقى المحافظة الحربية تحضر يومياً نهاراً وليلا أمام الصيوان الخديوى وتشنف الاسماع بنغماتها الشجية

الحرم المدني

الحرم المدنى وهو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، واقع في وسط المدينة يميل الى الشرق ، وهو لطيف الشكل ، جميل المنظر ، على هيئة مستطيل متوسط طوله من الشمال الى الجنوب مائة وستة عشر مترا وربع ، وعرضه من الشرق الى الغرب من جهة القبلة ستة وثمانون مترا وخمسة وثلاثون سنتيمترا ، ومن جهة الباب الشامى ستة وستون مترا . وينقسم في وضعه الى قسمين المسجد والصحن : والمسجد يبتدئ من قبلة عثمان أى من الحائط القبلى الى الصحن من جهة ، وفى طول مابين باب الرحمة و باب النساء من جهة اخرى . وهذا القسم جميعه مسقوف وفيه المقاصير التي اقيمت على ارتفاع نحو اثني عشر مترا على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب . والقسم الثانى وهو الصحن ، ويسمونه الحصوة ، شكله مستطيل الى الباب الشامى ويحيط به من جهاته الثلاث ، أروقة ثلاثة فيها أعمدة تحمل قواصير رفعت عليها قباب تناطح السحاب !

وعدد جميع أعمدة الحرم الشريف بما فيها الملتصقة بحوائطه يبلغ ثلثمائة وثلاثة وعشرين عامودا . وفى مدخل الباب الشامى المدرسة المجيدية ، وفيها كتاتيب لتعليم القرآن على الطريقة القديمة فى ريف مصر ، لولا أن القرآن لا يحفظ فيها عن ظهر قلب بأجمعه(١). ويوجد في الدور الثانى كتاب يقال انه يدرس فيه غير القرآن المجيد شئ من الحساب . ولهذا المدخل باب للحرم من الداخل يسمونه باب التوسل ! والى جانبه من جهة الغرب محل للاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف ، وفيه ميضاتهم وامكنة راحتهم . والى جواره مخزن الزيت المخصص لتنوير الحرم ، ثم باب لمدرسة (على ما

(١) لم يوجد في بلاد العالم الاسلامي من يحفظ القرآن بأجمعه عن ظهر قلب إلا مسلموا مصر أما باقى الجهات الاخرى فيقرءونه فى المصاحف . لذلك ترى لفقهاء المصريين فى البلاد الأخرى وخصوصاً في الاستانة مكانة مخصوصة كلها اجلال واحترام .



باب السلام بالحرم المدني

أظن) وهذه الابواب الثلاثة فى الرواق الشمالي . وفي وسط الصحن يميل الى الشرق حظيرة صغيرة سورت بدربزين من الحديد ، وفيها بعض نخل صغير نبت حول نخلة عالية ، يقال انه كله أثر نخلة كانت فى هذا المكان للسيدة فاطمة رضي الله عنها. وقبلى هذه الحظيرة بئر ماؤها لذيذ اسمها بئر النبي و بعضهم يسميها زمزم المدينة، ومن وراء هذه الحظيرة اقيمت شبكة من خشب الشيش على طول الرواق الشرقى اشارة الى أنه مخصص للنساء ، ففيه صلاتهن واقامتهن فى الحرم. وفي جنوب هذا الرواق دكة للاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف : وهى مصطبة مسطحها نحو ١٢ مترا طولا فى ٨ متر عرضاً وترتفع عن الارض بمسافة نحو اربعين سانتى مترا ، وكانت في عهده صلى الله عليه وسلم مكانا لاهل الصفة (١) وهم قوم من العفاة والمتقاعدين كان يصرف اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كان يقوم بحياتهم من غذاء وكساء وكان منهم أبو هريرة وأبو ذر الغفارى رضى الله عنهما : وتجاه هذه الدكة من الجنوب دكة اخرى أصغر منها متصلة بالمقصورة الشريفة من جهة الشمال ،وكان يتهجد في مكانها النبى صلى الله عليه وسلم . ويفصل بين الدكتين طريق الى باب جبريل شرقاً، وعلى يمين الداخل منه دكة صغيرة يجلس عليها شيخ الحرم ، والى جوارها مخزن للادوات الخاصة بالمقصورة الشريفة التى توجد في الجهة القبلية الشرقية من الحرم.

والروضة الشريفة فى غرب المقصورة الشريفة : وهي مسافة مابين القبر الشريف ومنبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقوله « ما بين قبرى (٢) ومنبرى روضة من رياض الجنة» ، وهى تبلغ اثنين وعشرين مترا طولا فى نحو خمسة عشر عرضاً . و يفصل الروضة عن زيادتى عمر وعثمان اللتين في جنوبها ، دربزين من النحاس الاصفر ارتفاعه نحو متر.

والروضة على الدوام غاصة بالناس لشرف مكانتها . وفيها مما يلي هذا الدربزين

(١) وكان بالمدينة غير الصفة دار تسمى دار القرى أو دار المضيف كانت توجد في الجنوب الغربي للمسجد وكانت مخصصة أيامه صلى الله عليه وسلم لنزول ضيوفه اليها.

(٢) وفى رواية اخرى : ما بين بيتي ومنبرى الخ .

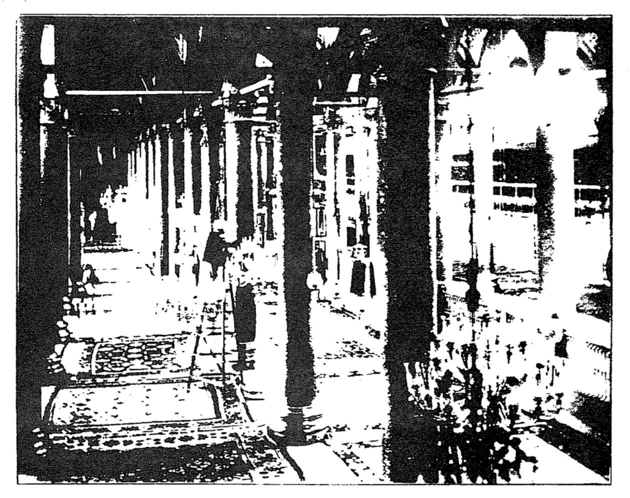
ربعات قرآنية كثيرة ، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم ، منها ما هو بحروف الطبع ، ومنها ما هو بخط اليد الجميل ، والى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات، وكل ذلك موقوف عليها للقارئين من الزوار . وفى غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم ، وهي آية من آيات الله فى كمال بهجتها ، وجمال صنعتها ، وهي على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة ، وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عند ما أمره الله تعالى بالصلاة الى الكعبة المكرمة . والى غرب القبلة المنبر الشريف(١)، وهو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية فى الجمال ودقة الصناعة ، ارسل هدية من السلطان مراد الثالث العثمانى الى الحرم سنة تسعمائة وثمان وتسعين للهجرة ، فوضع فى مكان المنبر الذى كان به لقايتباى ، وهو نفس المكان الذى كان به منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما ينبغي الاشارة اليه انا صلينا الجمعة فى المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والتحية ، وكان الزحام شديدا ، و بعد أن زار الخطيب المقصورة الشريفة واستأذن للخطبة ، من الحضرة النبوية ، على حسب عادتهم حضر لابساً قاووقا يسمونه كودابان (٢) ، تحف به الاغاوات من كل جانب ، ثم صعد المنبر ومال الى جهة

---

(١) وكان صلى الله عليه وسلم يخطب على جذع نخلة ثم عمل له منبر من خشب الاثل مركب من ثلاث درجات أو اربع ووضع في مكان الجذع الذى دفن في شرق المكان الذى كان فيه حذاء عامود القبلة الغربي . وكان معاوية اضاف درجتين على هذا المنبر فاحرق في حريق المسجد الاول الذى حصل في سنة ٦٥٦ وما بقي منه وضع في صندوق ودفن جوار الجذع ، ووضع مكانه منبر من عمل الملك المظفر صاحب اليمن ، ثم استبدله بغيره الظاهر بيبرس ، ثم غيره الملك المؤيد بآخر احرق في الحريق الثانى سنة ٦٨٦ هـ ، وعمل بدله الملك قايتباى المنبر الذى نقل الي مسجد قبا (ولا يزال به الى الآن) بعد ان استبدلوه بالمنبر الحالي

(٢) وقد رأيت الخطيب فى المسجد الاقصى يلبس مثل هذا القاووق في الخطبة وهو من لباس القرن العاشر الهجرى فى الدولة التركية .



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الروضة الشريفة وما يليها غربا من الحرم النبوى

اليمين أعنى الي المقام الا شرف الاقدس النبوي ، و بعد أن سلم بغاية الادب ، حمد الله ، وجعل خطبته كلها مبنية على سرد كثير من الاحاديث الشريفة فى موضوع الحج والزيارة ، وضرورة توحيد القلوب ، وتقوية الوصلة والرابطة بين أفراد المسلمين . وكان يستند فى نصائحه على أحاديث نبوية : فكان يقول مثلا ورد عن فلان عن فلان عن نبيكم هذا ، ويشير بيده الى الحجرة الشريفة ، ثم يسرد الحديث، فكان لخطبته تأثير على القلوب لا يمكن تكييفه ولا توصيفه.

ويوجد بالحرم نحو خمسين خطيباً ، يتولى الواحد منهم خطبة الجمعة مرة واحدة فى السنة ، طبقاً لترتيب مخصوص لا يتعدونه .

ولهؤلاء الخطباء وكلاء كثيرون يتناوبون الخطبة عند غياب الخطيب . أما الذين يقومون بحراسه الحجرة الشريفة والخدمة فيها فهم الاغاوات،وأول من رتبهم للخدمة فيها نور الدين الشهيد ، وكانوا اثنى عشر ، واشترط أن يكونوا من حملة القرآن الكريم وحفظته ، وجعل عليهم شيخاً منهم . وزادهم يوسف صلاح الدين الايوبى اثنى عشر آخرين . ومن ثم أخذت الملوك والسلاطين تزيد فى عددهم الى الآن وقد وصل عددهم الى اكثر من مائة شخص ولهم أوقاف مخصوصة ومرتبات تأتيهم سنويا من الاستانة وغيرها ، ولهم دور بالمدينة يسكنون بها . وللحرم غير الاغاوات عدد كثير جدا من الخدمة وأغلبهم من غير مرتبات ويعيشون من خيرات ذوى البر والاحسان. والقاعدة فى خدمة الحرم الشريف : ان من يموت منهم توزع وظيفته ومرتبه على أولاده جميعاً : فاذا مات الخطيب مثلا وكان مرتبه مائة قرش تعين بنوه فى مركزه ووزع مرتبه عليهم وتولى العمل مكانه اكبرهم وهكذا باقى الخدمة : لذلك ترى مرتبات الكل غير كافية بمعاشهم .

والحرم مفروش بأنواع السجاد العجمي الثمين ، وفيه شئ كثير من الابسطة المصنوعة بفوريقة هركه الشهيرة ، وخصوصاً فى الروضة الشريفة . وبالجملة فهو آية من آيات الله فى نظافته ، ولطافته ، وحسن بهائه ، ورونقه حتى أن الذى يدخله لا يود أن يبارحه مطلقاً .

وله خمسة أبواب ، وهي باب السلام ، وباب الرحمة ، في الغرب . والباب المجيدي في الشمال ، وباب النساء ، وباب جبريل ، (أو باب البقيع) ، في الشرق . وتقفل هذه الابواب كلها بعد صلاة العشاء الى قبيل الفجر ، وهو سنة من عهد عمر رضي الله عنه ويوجد بجوار باب الرحمة وباب السلام من الخارج حنفيات للوضوء من عمل السلطان عبد المجيد كما توجد امكنة للحاجة على بعد منها

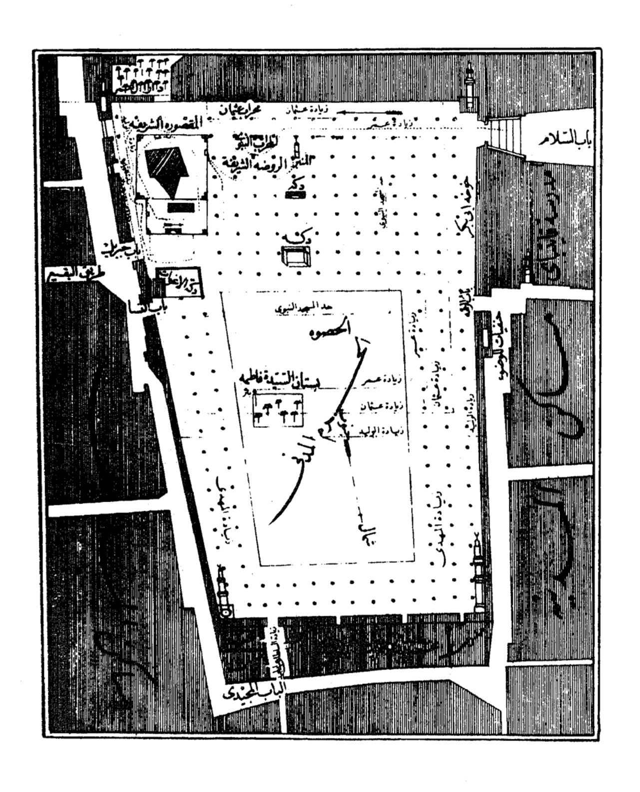
أصل الحرم المدني وعمارته والزيادة فيه

الحرم الشريف يحتوي الآن على مسجده صلى الله عليه وسلم ، وعلى بيت عائشة التي دخل عليها فيه في الشهر السابع للهجرة ، وعلى حجرات زوجاته رضى الله عنهن ، مع الزيادة التي زيدت فيه . وكان يحيط بمسجده الشريف في مدته صلى الله عليه وسلم مساكن زوجاته ، وأصحابه رضى الله عنهم ، فكانت مساكن أزواجه في الجهة الجنوبية وفي بعض الشرقية من الحرم ، وكان يفصل بينه وبينها طريق عرضه خمسة أذرع.

وكانت دار أبي أيوب الانصارى ، ودار عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، في جهة الشرق ، ولا تزالان موجودتان الى الآن ، وان كانت صورتهما قد اختلفت عما كانت عليه في صدر الاسلام . وفي زاوية دار عثمان المقابلة للحرم الشريف حجرة فيها شباك عليه لوحة من الخارج مكتوب فيها «مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه» ويسكن شيخ الحرم عادة في هذه الدار .

وكانت منازل (١) آل عمر رضى الله عنهم الى جنوب المسجد الشريف ، وبجوارها من الغرب دار العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دار مروان ابن الحكم وكانت على يمين الداخل من باب السلام ، وكان في غرب المسجد دار أبي بكر رضى الله عنه ، والى جوارها شمالا مما يلي باب الرحمة دار عبد الرحمن بن

(١) ويوجد إلى الآن بستان ملاصق للحرم في اتجاه الحجرة الشريفة من جهة القبلة جعل حرماً له وبه باب في خارجه مكتوب عليه « ديار آل عمر ».



محراب عثمان
زيادة عثمان
زيادة عمر
المقصورة الشريفة
المحراب النبوي
المنبر
الروضة الشريفة
دكة
دكة
باب السلام
باب جبريل
طريق البقيع
دكة الأغوات
باب النساء
حد المسجد النبوي
الحصوة
بستان السيدة فاطمة
زيادة عمر
زيادة عثمان
زيادة الوليد
زيادة المهدي
زيادة عمر
زيادة عثمان
زيادة الوليد
زيادة المهدي
الباب المجيدي

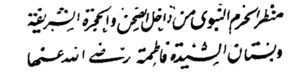
عوف . وهذه الدور كانت لها فتحات على المسجد ، فقال صلى الله عليه وسلم «لا يبقين في المسجد خوخة الا خوخة أبي بكر» فسدت جميعها الا خوخته رضي الله عنه . ولا يزال في جدار المسجد شمال باب السلام باب صغير (لخزن تجاه المقصورة الشريفة) يمثل هذه الخوخة ، وموضوع عليه لوحة كبيرة مكتوب فيها الحديث المذكور بخط غاية في الجمال.

وأول من جدد في عمارة المسجد النبوي عمر رضي الله عنه ، فبنى حوائطه وغير بعض أساطينه ووسع فيه قليلا . أما عثمان فقد زاد فيه الى قبلته الجنوبية ، و بناه بالجص والحجارة . وفي سنة ثمان وثمانين أرسل الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة عمر بن عبد العزيز ، فزاد في المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وادخل فيه حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، و بنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرخام ، ووشى حوائطه بالفسيفساء (الموازيك) ، وكسا سقفه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر. ثم زاد فيه المهدي العباسي سنة مائة وستين ، وقام بعمارته أحسن قيام ، ثم عمره الخليفة المستعصم ثم الظاهر بيبرس . وفي سنة ستمائة وثمان وسبعين أقام الناصر قلاوون قبة الحجرة الشريفة ، ولم يكن لها قبة قبل ذلك . ثم عمره الاشرف برسباى سنة ثمانمائة واحدى وثلاثين، ثم الظاهر برقوق سنة ثمانمائة وثلاث وخمسين . وفي سنة ست وثمانين وثمانمائة انقضت صاعقة على المسجد فأحرقته جميعه بحال مريعة لم ير الراءون مثلها ، ولم يمكن أهل المدينة أن يقوموا في وجه النار التي لم تكن تبقي على شيء في طريقها ، الا انها لم تمس الحجرة الشريفة بشيء بالمرة ! ! وبمجرد ما بلغ هذا الخبر السلطان قايتباى ملك مصر ، أمر في الحال بأن ينقل الى المدينة جميع عماله الذين كانوا يشتغلون في الحرم المكي ، وما زالوا يشتغلون بهمة فائقة في الحرم المدني حتى أتموه على أحسن هندام ، على هذا القوام الحالي ، و بنوا الحجرة الشريفة على الفخامة والجمال اللذين تراهما عليها الى الآن ، وأقاموا على القبة الشريفة قبة اخرى أعلى منها ، و بنوا في الجهة الغربية من الحرم على شمال الداخل من باب السلام مدرسة عظيمة وأوقف عليها قايتباى الاوقاف الكثيرة وتسمى بمدرسة قايتباى الى الآن . وقد رأيت له باباً كان ارسل من مصر أثناء هذه العمارة ووضع على باب السلام ، ولما وسع هذا المدخل في عمارة

السلطان عبد المجيد تقلوه الى الباب المجيدى : وهو من الخشب الثمين المغطى بالقطع النحاسية المنقوشة أو المكتوبة ، بل هو من افخر ما يرى الناظرون من الصناعة المصرية القديمة التى قبرت من عهد بعيد ! ! وفى سنة ٩٨٠ عمره السلطان سليم الثانى ، و بنى فيه بين المنبر الشريف ومدرسة قايتباي قبلة جميلة وشاها بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب وكتب اسمه على ظهرها بالخط الثلث الجميل ، يشاهده السالك من باب السلام الى الحجرة الشريفة . وفى سنة ١٢٣٣ بنى السلطان محمود القبة الشريفة ، ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الاخضر فى سنة ١٢٥٥ ، ومن ثم سميت بالقبة الخضراء . وفى سنة ١٢٧٠ أمر السلطان عبد المجيد خان رحمه الله بعمارته والزيادة فيه الى الشمال ، فكان ذلك وتمت عمارته على ما هى عليه الآن ، ووشاه بالنقوش والزخارف التى تفوق حد الوصف ، وكتب على جداره مبتدئا من باب السلام الى الشرق ، سورة الفتح بالخط الثلث المجوف ، وفى السطر الذى تحتها سورة أخرى بخط ارفع منه ولكنه اكثر تمليقا ، ومن تحته سطر آخر اصغر من الذى فوقه فيه اسماء النبى صلى الله عليه وسلم ، وقصيدة البردة مكتوبة فى محيط قباب المسجد ، وفى الزوايا التى ترتكز عليها هذه القباب اسماء الله ورسوله وآله و بعض صحابته . وكل ذلك مكتوب بخط غاية فى جماله وحسن تنسيقه ، وكمال وضعه : وحسبك انه أثر ذلك الخطاط الشهير المرحوم عبد الله بك زهدى الذى اوفده السلطان عبد المجيد الى المدينة لهذه الغاية ومكث فيها بضعا وعشر سنين يعمل فى بيت رسول الله بما آتاه الله من احكام فى صناعته ونبوغ فى مهنته . وليس هناك أثر (١)

(١) رأيت عند صديقى الفاضل الشيخ مصطفى الحريرى الخطاط الشهير بمصر لوحة مأخوذة بالفوطوغراف من خط المرحوم عبد الله بك زهدى على باب فى الحرم المدنى فيها هذه الابيات

مفتاح باب الله طه المرتجى	بحر المكارم ملجأ الطلاب
سلطاننا عبد العزيز لجا به	ليفوز بالآمال والآراب
وغدا لسان مقاله متمثلا	اذ كان خادم هذه الاعتاب
ان الوسائل للملوك ببابهم	ووسيلتى العظمى بهذا الباب



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

منظر الحرم النبوى من داخل الصحن والحجرة الشريفة
وبستان السيدة فاطمة رضى الله عنها

يذكر لمن بعده من الملوك سوى ما ادخل اليه من اسلاك النور (١) الكهربائي في زمن السلطان عبد الحميد ، وابتدأت الانارة به في الحرم الشريف رسمياً في يوم الاحتفال بافتتاح السكة الحديدية الحجازية بالمدينة المنورة في ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٦

والمقصورة الشريفة من نحاس أصفر غاية في حسن الصناعة ، عملت في مدة العمارة التي قام بها قايتباي في سنة ٨٨٨ ، ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود ، والى جانبه من جهة الجنوب شباك يفتح عليها يسميه الحجاج شباك التوبة ، وهو الذي يذكرونه في قسمهم «وحياة النبي الذي وضعت يدي على شباكه» ، ولها أيضاً منفذ الى جهة القبلة في المواجهة الشريفة ويفتح عند الامور الهامة للدعاء والاستغاثة .

ويتصل بهذه المقصورة من جهة الشمال مقصورة السيدة فاطمة ، وهي على استقامتها من الغرب ، وتدخل عنها بمسافة متر ونصف من الشرق .

وطول المقصورة النبوية الشريفة من ضلعها الجنوبي والشمالي ١٦ مترا ، ومن الشرقي والغربي ١٥ مترا . وفي زواياها الأربعة اعمدة مزوية عظيمة ، بنيت من الحجر الصلد على ارتفاع السقف ، وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة . أما مقصورة السيدة فاطمة الزهراء فطولها من الجنوب ١٤ مترا ونصف ، ومن الشمال ١٤ مترا فقط ، ومن الشرق والغرب نحو سبعة امتار ونصف . وهي تتصل بالمقصورة الكبرى من الداخل ببابين ، احدهما الى الشرق والآخر الى الغرب ، قد اقيم فيما بينهما ضريح على المكان الذي دفنت (٢) فيه السيدة فاطمة على قول الكثيرين . وفي داخل المقصورة الكبرى الحجرة

---

(١) ومدة زيارتنا للمدينة كان الحرم الشريف منارا بالزيوت والشموع على عادته لان المهندس الكهربائي المخصص لمباشرة الآلة التي تنير الحرم كان اصيب منها بما افقده الحياة فاوقف عملها الي ان يستحضر لها مهندس آخر من الاستانة ! !

(٢) وكانت وفاتها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم بنحو شهرين ويقول بعضهم انها دفنت بقبتها المعروفة الي الآن باسمها في الزاوية الغربية القبلية من البقيع .

الشريفة ، وهي المكان الذى توفي به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم الاثنين ١٢ ربيع أول سنة ١١ للهجرة ودفن فيه عليه الصلاة والسلام في اليوم التالى : لقوله صلى الله عليه وسلم « ما قبض نبيّ الا دفن حيث قبض » ، ورأسه عليه الصلاة والسلام الى الغرب . ولما توفى ابو بكر فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة دفن الى جانبه من جهة الشمال ، ورأسه الى قدمي الرسول عليه الصلاة والسلام . ولما طعن عمر رضي الله عنه استأذن من عائشة ان يدفن مع صاحبيه ، فأذنت له ، فلما مات يوم الاربعاء ٢٧ الحجة سنة ٢٣ للهجرة دفن الى جوارهما ، ورأسه محاذية لمنكبي أبى بكر رضي الله عنهما . وقد اقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على شكل ذى خمسة اضلاع ارتفاعه اكثر من ستة أمتار . وأول من ابتنى هذه المقصورة عمر بن عبد العزيز فى عمارته للمسجد ونزل بأساسها الى غور بعيد ، وجعلها على الشكل المزور المتقدم حتى لا تكون مثل الكعبة في تربيعها خوفا من أن يتخذها الناس قبلة لهم . وكانت الحجرة الشريفة تسع قبرا رابعا ويزعمون أنه مكان قبر عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء فى آخر الزمان ؟؟؟ وقد قيل فيه لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة لو أتيت المدينة وأقمت بها فان مت دفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضى الله عنهما . فقال والله لان يعذبني الله عزّ وجلّ بكل عذاب الا النار أحب الىّ من أن يعلم أنى أرى نفسى لذلك أهلا ! فانظر الى درجة ادب الرجل وتنسكه مع ما كان فيه من سعة الملك الذى حاق على أطراف المعمورة بأجمعها رضى الله عنه .

وفى سنة ٥٥٧ بلغ نور الدين زنكي أن الصليبيين الذين كان مشتغلا بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة ، فأمر باحاطة بناء الحجرة الشريفة ببناء آخر ، نزل بأساسه الى منابع الماء ، ثم صب الرصاص على دائره حتى صار بحيث لا يمكن أن تتناوله يد الزمان . وقد وضع على هذا البناء ستار من الحرير الاخضر مكتوب فيه « لا اله الا الله محمد رسول الله » يحيط بها أحجبة مكتوب فيها قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم . ويحيط بهذا الستر (على ارتفاع مترين



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

القبلة النبوية بالروضة الشريفة

ونصف تقريباً) حزام من الحرير الأحمر عرضه نحو ثلاثين سنتيمترا مكتوب فيه بقصب الذهب اسم السلطان الذي أمر بعمل الستر الشريف . وهذه الكسوة ترسل من الدولة العلية عند تولية كل ملك من ملوكها ، والكسوة الحالية وصلت الى الحجرة الشريفة بعد اعلان الدستور . وأول من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هرون الرشيد ، عند ماقدمت فى حجها لزيارة النبي عليه الصلاة والسلام . وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين . و بين المقصورة المبنية والشبكة النحاسية الخارجة طرقة متوسط سعتها نحو ثلاثة أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبلية ، وفي زاوية هذه الطرقة من الجنوب كرسي موضوع عليه مصحف شريف كبير ، أهداه الى الحجرة الشريفة الحجاج بن يوسف الثقفي ، و يقولون أنه من المصاحف الستة التى كتبها عثمان بن عفان.

وسماء هذه الطرقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة، وخصوصاً في الجهة الجنوبية فيما يقابل الوجه الشريف فان فيها كثيرا من المشاكى الذهبية منها احدى وثلاثون مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ، ومعلقة بسلاسل النضار ، ومجموع مصابيح الحجرة الشريفة مائة مصباح وستة .

وفى مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر كبير من الماس البرلانتى ، يحيط به تركية من الذهب المرصع . وهذا الحجر في حجم بيضة الحمام الصغيرة و يقدرون ثمنه فى ذاته بثمانمائة الف جنيه أما فى شرف نسبته الى الحجرة الشريفة فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن : و يسمون هذا الحجر بالكوكب الدرى لشدة تألقه وعظيم سنائه وبهائه. وهذا الكوكب أهداه للحجرة الشريفة السلطان احمد خان الأول ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان في مبادئ القرن الحادى عشر الهجرى . وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجوهر وفي وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى ، أهداه اليها السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الاول في سنة الف وسبع وأربعين للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جدا بحجارة الماس البرلنتى « لا اله الا الله محمد رسول الله » ، أهدته اليها صاحبة السمو والعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة الف ومائتين واحدي وتسعين هجرية .

وفي هذه الحجرة الشريفة غير هذا ، كثير من الجواهر الفاخرة التى لا تقدر بثمن : منها قطعة كبيرة جدا على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة «فاطمة الزهراء» وهي موضوعة على مقصورتها الداخلية فى الجانب الشرقى ، والى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم ، لا يماثله شئ في عظمه وجوهره . و يوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين ، أهداهما اليها السلطان عبدالمجيد خان في سنة الف ومائتين وأربع وسبعين، وشمعدانان اخريان أهداهما السلطان محمود . والى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ ، ومراوح مرصعة بالاحجار الكريمة ، وهذا عدا ما يوجد فى خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف المرصعة والتحف الفاخرة . و بالجملة فقد قدروا ثمن ما للحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات .

ولقد كانت الملوك والكبراء والعظماء يهدون لها فى كل الازمان كثيرا من الجواهر الفاخرة ، والذخائر الثمينة وكثيرا ما كانت تتطاول اليها يد الاشرار من ولاة المدينة مثل جماز بن هبة الذى نهب فى سنة ثمانمائة واحدى عشرة من ذخائر الحرم المدنى ما قدره السمهودى بعشرين قنطارا من الذهب والفضة . وتبعه فى ذلك الشريف حسن بن زبير المنصورى سنة ٩٠١ هـ. فأخذ منها شيئا كثيرا .وفى مبدأ القرن الثالث عشر الهجرى كانت الحجرة الشريفة عامرة بما لا يحصى من الذخائر الثمينة ، فنهبها الوهابى سنة الف ومايتين واحدى وعشرين ، و باع بعضها الى الشريف غالب بمبلغ خمسين الف ريال .و بعد تتميم الصلح بين ابن سعود وطوسون باشا اشترى منه هذا الاخير بعض ما نهبه أبوه من آثارها الذهبية بمبلغ الفي جنيه مصرى وردها للحجرة الشريفة .

بحث فيما كان عليه بيته صلى الله عليه وسلم بالمدينة

من ينظر الى المقصورة الشريفة الحالية و يعلم أنها اقيمت على مكان بيت النبي صلى الله عليه وسلم (المشهور بيت عائشة) ، و يفكر فى أبوابها ، وتسمية كل باب باسم



BOEHME & ANDERER, CAIRO

باب الرحمة بالحرم المدني

مخصوص ، و يضيف الى ذلك أن بيت السيدة فاطمة كان بجانب بيته صلى الله عليه وسلم ، وانه كان فيه شباك يطل على بيت أبيها ، وكان صلى الله عليه وسلم يستطلع أمرها منه حتى سده محبة فى استقلال كل بيت عن الآخر ، بحكم معي بأن وضع بيته صلى الله عليه وسلم مدة وجوده كان على نحو الشكل الآتى .

والذى ساعدنى على هـذا الوضع ما ورد عن مالك رضى الله عنه « قسم بيت عائشة باثنين ، قسم كان فيه القبر ، وقسم كانت تكون فيه عائشة و بينهما حائط ، وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فضلا (يعنى سافر) ، فلما دفن عمر رضى الله عنه لم تدخله الا وهي جامعة (١) عليها ثيابها ».

ومن ذلك تعلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان به حجرتان . أما بابه فقد قال بعضهم انه للشام ، وقال آخرون انه للغرب ، ولكن يستنتج من رواية ابن سعد ان له بابين حيث قال: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا (أى الصحابة) كيف نصلي عليه ؟ قالوا ادخلوا من ذا الباب ارسالا ارسالا فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر» . ومما ورد أيضاً ان بيت السيدة عائشة كان به صفة الى منزل فاطمة و يؤيد وجود فتحة فى منزل عائشة الى القبلة قول ابن ذبالة: « كان بين بيت حفصة ومنزل عائشة الذى فيه القبر الشريف طريق وكانتا تتهاديان الكلام وهما فى منزليهما من قرب ما بينهما ». وحفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم و بنت عمر بن الخطاب وكان بينها كما لا يخفى على يمين خوخة آل عمر ، أى في جنوب بيت عائشة الى الشرق .

وانى لم أجسر على هذا الوضع الا بعد تدقيق شديد في أقوال الصحابة والتابعين الذين كانوا يتحرون كل مواقفه عليه الصلاة والسلام ، وخصوصاً فى بيته الذى هو أشرف بقعة على سطح الارض باجماع المسلمين . وعلى كل حال فهذا استنتاج لي أورده عليك وأنت حر فى تحسينه أو توهينه ، ولو بدون دليل تقيمه عليه .

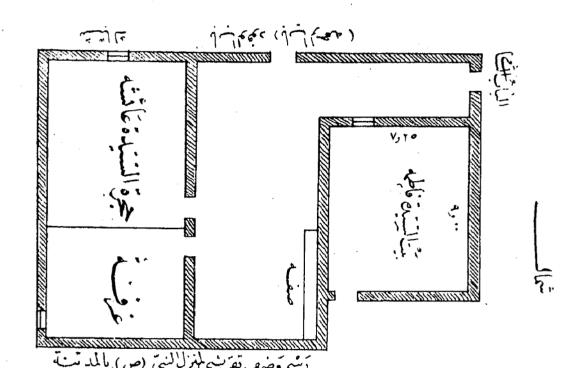
وعليه فيكون بيت السيد الرسول مدة حياته في المدينة على الرسم (الموضوع في

---

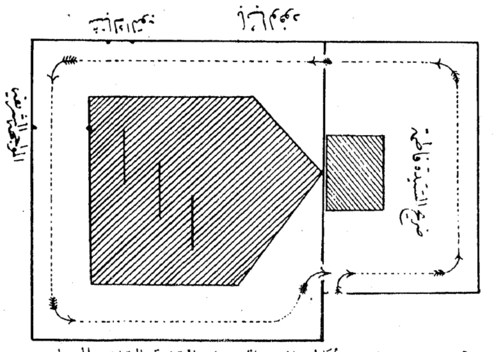
(١) انظر حفظك الله ورعاك الى هذا الادب العالي والحياء الغالي الذى بلغ بكمال القوم رضوان الله عليهم فى المحافظة على الحجاب حتى على الاموات وحتى مع عمر وهو ميت

جنوب المقصورة الشريفة) وهو اكثر بساطة من مسكنه في مكة . وكان من دونه كما سبق منازل أزواجه رضي الله عنهن وكان محيطها مع منزل عائشة مبنيا باللبن ، وقواطعها الداخلة من الجريد المكسو بالطين والمسوح الصوفية . ومن ذلك يمكنك أن تحكم على مقدار بساطته صلى الله عليه وسلم في مسكنه . بحيث أنه ماكان يتعدى فى أي حال من الأحوال الضروري لحياته ، وحياة أزواجه . وقد ورد عن عطاء الخراساني قال: « ادركت حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فحضرت كتاب الوليد يقرأ يأمر بادخالها فى المسجد : فما رأيت يوما كان اكثر باكيا من ذلك اليوم ، فسمعت سعيد ابن المسيب يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناس من المدينة و يقدم قادم من الآفاق فترى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته، ويكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر فيها » .

ومع هذا فانك اذا أنعمت النظر في هيئة المكان على بساطته ، وفكرت فى وضعه الصحي ، وكيف كانت منافذه منقية للهواء ، وأبوابه داعية الى السهولة فى الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفرة الزمن والسرعة الى المقاصد ، مما شرع فيه الآن فى العمارات الكمالية ، عرفت ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القناعة ، والزهد ، وحسن الذوق . ومن يتأمل فى ذلك ير فيه خير درس للناس يتعلمون منه كمال وضع الامور فى مواضعها ، من غير زيادة عن الضرورى ولا نقص عن الحاجى ، وهنالك يرى الغنى فى ماله فضلة يساعد بها الفقراء من عيال الله : فتتبادل عاطفة الحنو والشفقة فيما بينهم ، وتثبت قدم المحبة فى افئدتهم ، فيصبح الكل بين محب ومحبوب وشاكر ومشكور ، وحامد ومحمود ، وهنالك تزول عوامل الحسد وتموت شياطين التنافر والبغضاء ، ويتحد الكل على العمل ، بل ويعمل الكل للكل ، ويكون الناس على اختلاف طبائعهم وعوائدهم كاعضاء جسم واحد تعمل كلها لحياته ووجوده ، واذن يكونون قد قاموا بالمأمورية التى وجدوا من أجلها وهي خدمة الانسانية .



رسم وضعي تقريبي لمنزل النبي (ص) بالمدينة



رسم للمقصورة الشريفة الحالية التي بها قبره عليه الصلاة والسلام والى جواره قبر ابي بكر ثم قبر عمر رضي الله عنهما .

المدينة المنورة

المدينة المنورة ، أو مدينة الرسول ، واسمها طيبة ، كانت تسمى قبل الهجرة يثرب ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦١٩ مترا ، وهي واقعة على طول ٣٩ درجة و٥٥ دقيقة شرقا ، وعلى عرض ٢٤ درجة و١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء ، (أعني على عرض خط دراو التي توجد فيما بين اسنا واسوان) ودرجة حرارتها في الصيف تصعد الى ٤٨ درجة سنتجراد ، وتنزل في الشتاء الى عشر درجات فوق الصفر نهارا ، والى خمسة تحت الصفر ليلا ، وكثيرا ما يرى فيها الماء متجمدا فى آنيته عند الصباح في زمن الشتاء .

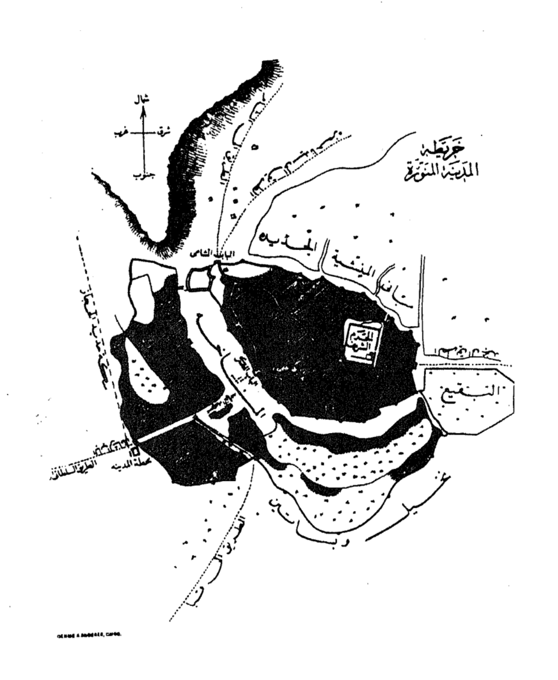
واذا صح ما ذهب اليه بعضهم من ان كلمة يثرب محرفة عن الكلمة المصرية (إتريبس) كان لنا ان نفكر فى ان الذين بنوها انما هم العمالقة بعد خروجهم من مصر ، ولنا فى يهوديتهم مايؤيد قول من ذهب الى ان موسى فى طريقه الى فلسطين ، أرسل فرقة من قومه لتكتشف له تلك الجهة ، فساروا اليها ، و بلغهم موته ؛ فبنوا مدينة اتريبس وأقاموا فيها . وعليه فعمران المدينة يبتدئ من سنة الف وستمائة قبل المسيح أو الفين ومائتين واثنين وعشرين قبل الهجرة : وعلى ذلك يمكنني ان اقول ان لفظ طيبة ان كان مستعملا اسما لها من قبل الاسلام فلا بد أن يكون مصريا أيضاً .

والمدينة مبنية فى وسط واد شاسع ، واغلب مبانيها من الحجر المجلوب اليها من المحاجر القريبة منها . وشكل الابنية فيها هو بعينه ما رأيناه بمكة وجدة ، لولا أن منازلها اصغر ، وشوارعها اضيق ، وخصوصاً ما كان منها حول الحرم الشريف وكان يجب ان يكون حوله ميدان متسع يساعد على تنقية جو المدينة من جهة ، وعلى سهولة الوصول الى الحرم من جهة اخرى . واحسن شارع في المدينة غرب الحرم و يسمونه بحارة الساحة وهي اطول حاراتها ، وفيها احسن مبانيها ، وبها مكان المحافظة فى قلعة على السور الداخلي . ومما ينبغي ذكره انى رأيت بهذه الحارة منزلا (للسيد هاشم) مشغولا بأعمال الأوية بما استوقفني أمامه باهتاً لجمال صنعته ودقتها ، وهي من صناعة جاوة : و بكل

اسف اقول ان هذه الصناعة البديعة قد انقطعت عن المدينة بالمرة . وفي هذه الحارة زقاق يدخل منه الى مقام سيدنا عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان قد أتى الى المدينة قبل الاسلام امرل له فمات فيها ، ودفن بها عند اخواله من بني النجار في بيت رجل منهم يقال له النابغة . وهذه الحارة تسمى الابواء ، او زقاق الطوال ، وفيها منازل آل أسعد .

وأغلب حارات المدينة يسمونها لضيقها أزقة : منها فى شمال الحرم ، زقاق البقر ، وزقاق الخياطين ، زقاق الحبس ، وزقاق عنقينى ، وزقاق السماهيدي ، وزقاق البدور ، وزقاق الاغاوات ، وزقاق ياهو ، وزقاق الكبريت ، وزقاق القماشين ، وزقاق حيدر ، وزقاق الحجامين ، وزقاق مالك (ابن انس) الخ

وعلى كل حال فحارات المدينة نظيفة وضيقها يساعد كثيرا على تلطيف الحرارة فيها زمن الصيف ، كما هو الشأن في اغلب بلاد الشرق . وسوق المدينة يبتدئ من الباب المصرى الى الحرم الشريف في شارع ضيق ، يقطعه على المسارة تقابل جماين فيه مع بعضها ، والحركة فيه تكاد تنحصر في مدة الحج ، والموسم الرجبى : وهو موسم الزيارة الرسمية فى بلاد العرب . وتجارة المدينة مدارها على وارداتها الخارجية ، لاسيما واردات جاوه والهند والشام ، وعلى الخصوص في الاقمشة القطنية والصوفية والحريرية والسبح والليف الأبيض والحناء والبسط والسجاجيد والحنابل العجمية (الاكلة) والمندية والمغربية والاناضولية ، واثمانها اغلى منها في مكة بل وفى مصر ، وانما ابتياع الحجاج لها على سبيل البركة وسهولة الصرف في هذه الجهات . وتجارة البلح فيها هى اكبر التجارات واوسعها لان ضواحيها فيها كثير من المزارع والبساتين وفيها نخيل كثير تنتج نحو سبعين صنفاً من التمر واحسنها البلح العنبرى ثم الچلبى ثم السكرى وهو اكثرها حلاوة ثم بلح السبح ويكثر نخله فى جهة الخيف بين المدينة والحمراء وكيفية تجهيزه : هى ان ينظم في خيط ثم يلقى به في الماء المغلي زمناً ما ثم يجفف في الشمس . ولقد اشترينا منها شيئاً من دكاكين اقيمت خارج الباب المصرى بالمناخة ، وكان البائع يروج تجارته باحاديث يسردها ، وينسبها الي النبى صلى الله عليه وسلم ، في مدح بعض انواع البلح


خريطة
المدينة المنورة
شمال
شرق
غرب
جنوب
الباب الشامي
الحرم النبوي
البقيع
محطة المدينة
الطريق السلطاني

المتقدمة . فعجبت من ان القوم لا يستحون من الكذب على الرسول حتى وهم بين يديه الشريفتين ، وقلت له ياهذا انا نشترى منك بلحاً لا أحاديث وأريته أن مصيبة المسلمين أساسها الجرأة في التقول على الله ورسوله ! ! فاعتذر الرجل بجهالته قائلا انه أخذ هذا عن غيره من الباعه السابقين أو بعض المتمشيخين .

وكانت المدينة في القرن الأول للهجرة في غاية الرقى الأدبى والمادي . وكانت بساتينها تملأ الفضاء المحيط بها وعلى الخصوص من الشمال والشرق والجنوب . وكان للقوم بها رياض زاهرة ،وقصور باهرة ، في وادي العقيق الذي كان يغزر ماؤه و يبهر رواؤه،وتزهو ارجاؤه ، و يكثر زهره،و يفوح عطره، ويجني ثمره . وكان اغلبها لازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن اماكنه المشهورة الزغابة ، واضم ، والغابة ، وحضير والحليفه ، والجثجاثة ، وكلها كانت لعبد الله بن الزبير و بنيه. وجراء الاسد. وكان بها قصور لغير واحد من القرشيين ، وخاخ وكانت للعلويين وفيها يقول الأحوص :

لها منزل بروضة خاخ   ومصيف بالقصر قصر قباء

وثنية الشريد ، والغراء ، والمعرس ، والبيداء ، وكان في جميعها منازل الاشراف من قريش وخصوصاً على سفح جبل عير على يمين المقبل من مكة . وكان في الجهة الاخرى مكان اسمه الجماء وتجاهها في ضيق حرة الوبرة ، على أربع أميال من المدينة الى ضفيرة ، أرض عروة بن الزبير وبها قصره المشهور بقصر العقيق ، و بئره المشهورة باسمه وفيها يقول الشاعر :

كفنوني ان مت في درع أروى   واستقوا لي من بئر عروة ماء

وكان يوجد أسفل هذا القصر ، تجاه الجماء ، مكان يقال له العرصة وبه كان قصر سعيد بن العاص الذي يقول فيه أبو قطيفة :

القصر ذو النخل فالجماء بينهما   أشهى الى القلب من أبواب جيرون

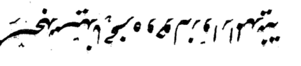
ويقال ان آثار هذا القصر موجودة الى الآن . وكان سعيد عاملا لمعاوية على المدينة . وكان هذا القصر فى أيامه آية في جماله وفخامته، بل كان آية من آيات القرن الاول الهجرى ، واعجوبة من أعاجيبه، حتى فضله الشاعر عن أبواب جيرون (دمشق)

التي كانت في ذلك العهد عاصمة الخلافة، ومكان فخامتها وابهتها . وهي الى اليوم آية من آيات الله في جمالها وبهائها: لأن القادم عليها من الجنوب يخترق الغوطة وما أدراك ماهيه جنة زاهية، واذا قدمها من الغرب يخترق المرج وهو نزهة الزائرين وبهجة الناظرين .

وكانت أبنية المدينة الى أول القرن الثامن الهجري محصورة داخل سورها الذى بناه عليها في منتصف القرن السادس الامير جمال الدين وزير صاحب الموصل ، وزاد فيه نور الدين بن زنكي سنة خمسمائة وثمان وخمسين أثناء عمارته للحجرة الشريفة وهذا السور باق للآن ، وهو في طريق باب العنبرية ، وعلى محيطه المزاغل والابراج المشحونة بالمدافع والذخائر الحربية لصد هجمات الاعراب الذين كثيرا ما كانوا ولا يزالون يعتدون على حرم رسول الله . وقد كانت عمارة هذا السور موضع اهتمام سلاطين الحرمين، وخصوصاً سلاطين آل عثمان ، لا سيما في مدة السلطان محمود والسلطان عبد المجيد. وأما سورها الخارجى فليس بذي أهمية تذكر ، وهو مهدم في كثير من جهاته وفيما بين السورين ، يعنى فيما بين الباب المصري وباب العنبرية ، فسحة كبيرة يقال لها المناخة : لان أغلب الحجاج ينيخون جمالهم فيها ، ويقيمون بها مدة الزيارة ، وفيها مقام ركب المحمل المصرى مدة وجوده بالمدينة . وحول المناخة ، من جهتها الخارجية ، ابنية كثيرة أحسنها ماكان على الشارع العمومي وهو شارع محطة السكة الحديدية ، ويسمى الآن بالشارع الرشادي ، وفيه التكيه المصرية ، ولها مرتبات من مصر ، وتعمل بها الشوربة يومياً للفقراء على النظام الذى تقدم في تكية مكة ، ثم قشلاق العساكر الشاهانية وهما من بناء المرحوم ابراهيم باشا جد العائلة الخديوية .

وفي المدينة وضواحيها مزارات كثيرة أشهرها مسجد قبا ، ويبعد عن المدينة بمسافة خمسة كيلو مترات ، وهو أول مسجد بني في الاسلام ، بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنوب الغربى للمدينة عند دخوله اليها في هجرته ، وقد جدد بناءه السلطان عبد الحميد الاول ، وبوسط صحنه قبة اقيمت على مبرك ناقته صلى الله عليه وسلم . ومسجد سيدنا حمزة ويوجد في شمال المدينة في وادى (١) أحد ، ويقرب منه قبة السن -

(١) وهذا الوادي مشهور بالواقعة التي حصلت بين المسلمين والمشركين في ١٥



یہ تصویر ۲/۱/۹/۳ء ۶۵ بجے وبقیہ بخیر

ثم البقيع وله عند المسلمين مكانة عظيمة و يقال له بقيع الغرقد ، لانه كان يكثر فيه هذا النوع من الشجر ، وبه دفن نحو عشرة آلاف من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم اجمعين ، وكثير من آل بيت النبوة صلوات الله عليهم ، منهم سيدنا على زين العابدين بن سيدنا الحسين، وولده محمد الباقر وولده جعفر الصادق ، والاخيران في قبة سيدنا العباس . وكان بالبقيع قباب كثيرة هدمها الوهابيون . ثم مسجد الراية . ومسجد الفتح . ومسجد القبلتين . ومسجد السقيا . ومسجد الغمامة . (بالمناخه) ومسجد على (فى طريق قبا) . ومسجد المائدة . (امام البقيع من جهة الشرق) . ومسجد الاحزاب (وراء جبل سلع الذى هو على يسار الخارج من الباب الشامى) .

وأهل المدينة يشربون من آبار كثيرة : ولكن ماؤها الذى عليه مدار سقياها يأتى اليها من مواسير من عين غربى مسجد قبا . وهذه العين تسمى العين الزرقاء، نسبة الى مروان بن الحكم الذى اجراها بأمر معاوية رضي الله عنه وقت ان كان عاملا له على المدينة ، (وكان يسمى الازرق لزرقة عينيه) . وماؤها عذب لذيذ ، وهي موضع عناية كل الملوك والسلاطين الى هذا الزمان، وقد تفرع منها فروع كثيرة فى جهات

شوال سنة ٣ للهجرة ، وابلى فيها المسلمون بلاء حسناً ، واستشهد فيها سيدنا حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت فيها رباعيته صلى الله عليه وسلم اليمنى وشج وجهه وكلمت شفته السفلى ودخلت حلقتان من مغفره فى وجنته : وعن عائشة رضي الله عنها ان أبا عبيدة بن الجراح نزع احدى الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الاخرى فسقطت ثنيته الثانية ، فكان ساقط الثنيتين . وقد كان أهل المدينة نقلوا بعد انتهاء هذه الواقعة بعض قتلاهم لدفنهم فيها ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم قائلا « ادفنوهم حيث صرعوا » وعليه فقد دفن حمزة فى مصرعه الذى عليه الى الآن قبة يقال لها قبة المصرع ، شرق مسجده الحالي الذى نقلت جثته اليه فيما بعد لما عبث السيل بقبره الاول . ومن حوله قبور الشهداء الذين قتلوا فى هاته الواقعة وعددهم نيف وسبعون . وفى نهاية الوادى الي الشمال جبل احد وهو جبل صخرى من الجرانيت، وهو وان كان من السلسلة الجبلية التي تخترق بلاد العرب الا أنه يكاد يكون منفصلا عنها وطوله من الشرق الي الغرب نحو ستة كيلو مترات .

المدينة ، ولها خزانات تنزل عن سطح الارض بنحوعشرة أمتار يملأ منها السقاءون ، وينزل اليها بسلالم من حجر .وهناك عيون أخرى اتصلت بها تتزيد فى مائها : مثل عين النبي صلى الله عليه وسلم التى فى جهة قبا.

وفى المدينة حامان تركيان احدهما داخل المدينة وهو من عمل السلطان سليمان القانونى ، والثانى بالمناخه .

وفيها كتبخانات كثيرة احسنها كتبخانة شيخ الاسلام عارف حكمت ، وهي قريبة من باب جبريل الى جهة القبلة ، وهذه الكتبخانة آية فى نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها ، وارضها مفروشة بالسجاد العجمى الفاخر ، وفى وسط حوشها نافورة من الرخام ، فيها حنفيات للوضوء ، وفيها كتب ثمينة جدا . ولقد رأينا بها شيئاً من غرائب الصناعة النادرة فى بابها : وهو كتاب أشعار فارسية مكتوب بالخط الابيض الجميل للآشاهى ، وبينا نحن نعجب من جودة الخط واتقان الصناعة ونظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها ، لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة الى ان حروف الكتابة انما هي ملصوقة على الورق . فتأملناها فوجدنا شيئا يبهت الطرف لرؤيته ويعجز اللسان عن نعته ، خصوصا عندما اخبرنا انهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ، ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم ، ثم يلصقونها على ورقة أخرى ! ! !

وفى باب السلام كتبخانة للسلطان محمود ، وهي وان كانت اصغر من كتبخانة عارف واقل منها نظاما الا أنها جميلة ومرتبة . وفيها أيضاً كتبخانة بشير اغا ، فى زقاق الخياطين . وقد بلغني ان هناك كتبخانات أخرى منها واحدة فى رباط عثمان حافلة بنفائس كتب مذهب مالك . ولو جمعت كل هذه الكتب فى دار واحدة وعمل لها نظام مخصوص لكان ذلك انفع والفائدة منه اكبر.

وفى المدينة جريدة اسمها (المدينة المنورة) تصدر باللغة التركية والعربية على مطبعة البالوزه كلما كان هناك داع لصدورها ، ومديرها حضرة الفاضل الشيخ محمد مأمون ، وكانت تصدر مدة وجود الجناب العالى بها ، شارحة حركاته اليومية ، وناشرة كل ما كان يقدم لذاته السنية من المدائح نظما أونثرا ، ومن ضمن مارأيت فيها قصيدة لحضرة



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

البقيع وهو جبانة المدينة المنورة وفيه قبة سيدنا عثمان على اليسار وعلى يمينها قبة الامام مالك
ثم قبة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ثم قبر سيدنا ابراهيم بن النبي ثم القبة الكبرى وفيها قبرا
سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهم اجمعين

مديرها تهنئة للجناب العالى بقدومه وفى تاريخها (جوالمدينة للعباس قدسطما سنة ١٣٢٧)

وليس فى المدينة من المدارس ما يستحق الذكر ، والذى يدرس في الحرم شيء بسيط من الفقه والتفسير . وفيها بعض رباطات لسكنى الفقراء والمساكين وعليها أوقاف ضعيفة جدا لا تقوم بحياة من يلجأ اليها ، وللمدينة المنورة حرم مثل حرم مكة يبلغ قطر دائرته نحو اثنين كيلو مترولا يجوز لاحد الصيد فيه اجلالا له وتعظيما .

واهل المدينة يبلغ عددهم ستين ألفا منهم كثير من المجاورين الاجانب ، واكثرهم من الهنود والاتراك . وأغلبهم يعيش من وراء خدمة الحرم وخصوصاً في الموسم ومنهم كثيرمن المزورين وهؤلاء في المدينة يؤدون وظيفة المطوفين في مكة ومنهم من يعيش من التجارة البسيطة ، وأهل المدينة يعبرون عن الجهات : بالشام للشمال ، والبحرى للغرب (لانه الى جهة البحر) ، والشرق للشرق ، والقبلى للجنوب (لانه جهة القبلة) . ومنهم أخذ المصريون هذه التسمية واستعملوها فى غير محلها فى اطلاق القبلى على الجنوب ، لان القبلى عندهم انما هو الشرق الجنوبى كما لا يخفى .

ومناخ المدينة صحي جدا وربما كان ذلك من الاسباب التى ساعدت على رقة أهلها ولطافة امزجتهم التى اذا اضفت اليها ماهم عليه غالبا من الصلاح والورع والادب وحسن المعاشرة ، حكمت لهم بانهم أحسن أهل بلاد العرب على الاطلاق فى مكارم الاخلاق . وليس ذلك بعجيب فمجاورتهم لسيد الرسول اكسبتهم كثيرا من اخلاقه الكاملة ، على أن من يفكر فى أن الرسول عليه الصلاة والسلام انما اختصهم بالهجرة الى بلدهم يحكم حكما قطعيا بأن مكارم الاخلاق فيهم من زمن بعيد ، وقد زادها الاسلام جمالا على جمالها وكمالا على كمالها . وحسبك ان السيد الرسول « بعدان أدى مأموريته من اظهار الدعوة ونشر راية الدين الاسلامى وتقوية دعائمه بحال لا يدخل معها الوهن الى أي جانب من جوانبه » اظهر فى حجة الوداع أنه لا يريد الموت الا بين ظهرانى الانصار ، الذين نرى اليوم احفادهم على سنتهم رضي الله عنهم أجمعين .

فائدة تاريخية

الانصار وهم الأوس والخزرج بطنان من الازد ، وكانت ديارهم مأرب باليمن ، فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم فى القرن الثانى عشر قبل الاسلام ، ومروا على يثرب : وكانت قرية فيها اسواق يقصدها اهل الجهات المجاورة ، واهلها كانوا يهودا ، وكانوا من بنى النضير ، وقريظة ، و بني قينقاع وغيرهم ، وكان لهم بها حصون يلجئون اليها عند الشدة . فنزل عليهم الأوس والخزرج على ان يكونوا تحت حكمهم ، وما زالوا كذلك حتى كان ما كان من سوء سيرة الفيطون أحد ملوك اليهود بيثرب وظلمه وغشمه . فاستغاث الاوس والخزرج بملوك غسان ، فساروا لنصرتهم ، وأوقعوا بيهود يثرب . ومن ثم صار الحكم فيها للأوس والخزرج ، وشاركوا اليهود فى املاكهم ، واصبحت لهم عصبية عظيمة . ولهم حروب مشهورة لها أيام معدودة من أيام الجاهلية : منها يوم سمير ، و يوم كعب ، و يوم الربيع ، ويوم البقيع .

وكانت الاوس والخزرج اصحاب نجدة وهمة وشجاعة وأمانة ، وقد كان أتى مكة بعض منهم للحج فى مبدأ ظهور الدعوة الاسلامية ، فقابلهم النبى صلى الله عليه وسلم عند العقبة ، ودعاهم للاسلام ، وقرأ عليهم شيئاً من القرآن ، فاجابوه وقالوا له ان بين قومنا شرا وعسى الله ان يجمعهم بك ، فان اجتمعوا عليك فلا رجل اعز منك . فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم. وفى العام التالى وافى الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا ، فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة الاولى ، فبايعوه البيعة الاولى ، وكان من ضمنهم رافع بن عجلان وعبادة بن الصامت ، وانصرفوا الى المدينة . و بعث رسول الله صلي الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير ، وامره ان يقرئهم القرآن ، و يعلمهم قواعد الاسلام ، فوصل المدينة واجتمع عليه رجال ممن اسلموا ، وسمع به سعد بن معاذ واسيد بن حضير وهما سيدا بني الاشهل ، فذهب أسيد للايقاع به ، فقال له مصعب أو تجلس فتسمع ؟ فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكرهه . فقال أنصفت ثم جلس . فكلمه

مصعب فى الاسلام وقرأ له شيئاً من القرآن . فقال ما أحسن هذا ! واسلم ، وانصرف واحتال على سعد حتى أخذه الى مصعب . فقال له مقالته الى أسيد ، وقرأ عليه قرآنا فاسلم سعد ، وباسلامهما أسلم القوم الا عددا قليلا اسلم بعد الهجرة . وعندها اتفق جماعة منهم على المسير الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فساروا الى مكة واجتمعوا عليه ليلا بالعقبة دون ان يعلم بهم أحد ، وعاهدوه على ان ينصروه : فسماهم الانصار . وهنا لك أمر النبى صلى الله عليه وسلم اصحابه بالهجرة الى المدينة ، وكان أول من قدمها مهاجرا أبو سلمة بن عبد الاسد . وفى شهر ربيع الاول من هذه السنة هاجر الرسول الى المدينة ، وقدمها لاثنتى عشرة ليلة خلت منه ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وقدم بهما دليلهما على قباء ، فنزل صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن الهدم ، وأقام بينهم ثلاثة أيام ، بنى فيها مسجدهم ، ودعا الناس فيه لصلاة يوم الجمعة ، وهي أول جمعة فى الاسلام ، وخطب فيهم عليه الصلاة والسلام . ثم سار الى المدينة ، فلما وصل الى مكان مسجده وكان مربدا لبنى النجار ، قال ثامنونى به . فقالوا لا نبغى به الا ما عند الله . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبنى مسجدا ، واقام هو فى دار أبى (١) أيوب الانصارى حتى بنى مسجده وبيته (بيت عائشة) . وكان يبنى فيه بيده الشريفة هو والمهاجرون والانصار .

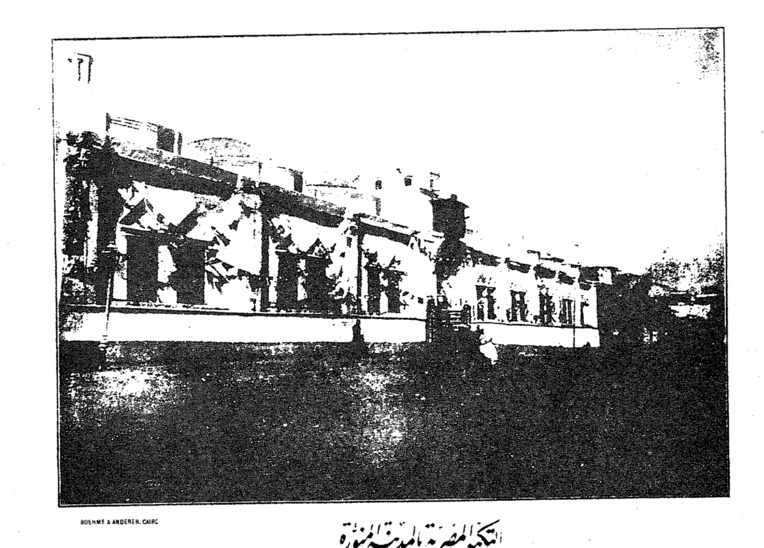
ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين الانصار احدى عشرة سنة ، كان فيها لهم وللمهاجرين كلية كمالية علمية وعملية : تعلموا فيها الاخلاق الفاضلة ، والمزايا العالية ، والسيرة الحميدة ، والتربية القويمة ، والبلاغة فى الاقوال ، والمبالغة فى محاسن الاعمال . فبعد صيتهم فى جلائل الصفات ، ومكارم الاخلاق ، والشجاعة ، والقوة ، والمنعة ، وشدة البأس ، التى ظهروا بها فى جميع المواقع التى أمرهم رسول الله بها ، أو

(١) أبو ايوب الانصارى مات فى حصار القسطنطينية سنة ٦٨٨ مسيحية أي فى نحو السنة السابعة والاربعين للهجرة وكان سار اليها مع الجيش الذى سيره معاوية لفتحها ، وله فيها مسجد شهير في نهاية خليج قرن الذهب وهو محترم جداً لدى المسلمين والنصارى واليهود على السواء فى عموم الاستانة . وأهلها يسمونه السلطان أيوب .

شهدها هو معهم : وأهمها بدر الكبرى فى السنة الثانية للهجرة ، وأحد فى السنة الثالثة ، والخندق فى الخامسة ، وخيبر فى السابعة ، وفتح مكة وغزوة حنين فى الثامنة ، وغزوة تبوك فى التاسعة ، وفى السنة العاشرة اكمل الله له دينه ، واظهره على الناس كلهم: وبذلك تمت دعوته صلى الله عليه وسلم ، وحج حجة الوداع ، وفيها سجل دعوته على المؤمنين . ورجع الى المدينة حيث مرض عليه الصلاة والسلام فى أواخر صفر، وتوفى نصف نهار يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الاول سنة احدى عشرة للهجرة . ودفن فى بيته حيث هو الآن بمسجده الشريف . صلوات الله عليه وسلامه .

سفر الحجيج من المدينة الى مصر

الطريق من المدينة ينقسم بالنسبة للحاج الى اربعة طرق، طريق نجد ولا يسلكه الآن الا عرب تلك الجهات غالبا وطريق الوجه ، وهو الذى سلكه المرحوم سعيد باشا والى مصر سنة ١٢٧٧ هجرية حينما قصد زيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومحطات هذا الطريق هي المدينة المنورة ، ثم آبار عثمان . (وفيها ماء ومزارع وبساتين) ، ثم محطة الضمينى (وماؤها قليل) ، ثم محطة المليح (وماؤها حلو) ، ثم محطة الشجوى (وماؤها كثير) وكانت مجتمع ومفترق المحملين الشامى والمصرى فى سفرهما معابرا ، ثم محطة ابى الحلو (لحلاوة مائها) ، ثم محطة الفقارات (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الفقير (وماؤها عذب) ، ثم محطة مطر (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الخوثله (وماؤها عذب) ، ثم محطة ام حرز (ولا ماء فيها) ، ثم قرية الوجه ومنها كانوا يسيرون الى السويس برا أو بحرا . والطريق الى ينبع هو الطريق الاكثر استعمالا ومنه يرجع سواد الحجيج المصرى والروسي والمغربى، والسودانى ، واليمنى ، والجاوى ، والهندى ، وغيرهم . وهذا الطريق ينقسم الى شعبتين شعبة قبيل الحمراء تمر على ينبع النخل ومنها الى ينبع البحر وعربان هذا الطريق من جهينه ، وارضه رملية ناعمة . والشعبة الاخرى بعد الحمراء وتمر على قبّ الفار (نقب على) وهو ممر صعب بين جبلين شاهقين فى طريقه كثير من



BOEHME & ANDERER, CAIRO

التكية المصرية بالمدينة المنورة

الاحجار الضخمة ومنه الي ينبع البحر . وهذا الطريق للحوازم والاحامدة ومتوسط المسافة بين المدينة المنورة و ينبع ٢٣٠ كيلو مترا فاذا اضفنا اليها ٤٥٠ ما بين المدينة ومكة و٤٠ من مكة الى عرفة ذهابا وايابا و٨٠ من جدة الى مكة ، يكون مجموعها ثمانمائة كيلو متر وهى كل ما يركبه الآن الحاج المصرى برا .

فاذا وصل الحجاج الى ينبع انتظروا بها المراكب التي تنقلهم الى بلادهم وغالباً ينتظرون فيها اياما كثيرة لعدم انتظام حركة نقلهم الناشئ عن قلة المراكب . وهنا لك يكثر عناؤهم و يسوء حالهم وتشتد فاقتهم ، وتفتك فيهم الامراض لكثرة الاقذار التى تحيطهم من فضلاتهم ، وخصوصاً من عدم صلاحية مياه الشرب .

وقد رتبت الحكومة المصرية لهم كوندانسه فى زمن الموسم ترشح لهم ماء البحر ولكن عملها غير منتظم وماؤها لا يصرف الا باذن خصوصى لا يصل اليه فقراء الحجيج . ولا اظن الا ان هذا من تعنت العمال الذين يجدر بحكومتنا السنية ان تشدد عليهم كل التشديد فى القيام بواجبهم .

و ياحبذا لو انتبهت الي ذلك الحكومة العثمانية الجديدة ، واسعفتها شركات السفن وخصوصاً الشركة الخديوية ، فانهم يخففون عن الحجاج المساكين كثيرا من عنائهم مما تشكرهم عليه الانسانية .

ومن ينبع يصل حجاج مصر الى الطور لتمضية ايام الكورنتينا (١) ان كان هناك حجر صحي: وهى مكان فسيح على طول ٣٣ درجة و٣٧ دقيقة وعرض ٢٨ درجة و١٤ دقيقة وبينه و بين السويس ١٢٥ ميلا ومن هناك تأتى بشائر الحجاج بوصولهم الى مصر بالسلامة على لسان البرق أو البريد وكانت قبلهما تصل عن يد بعض الافراد الذين كانوا يحضرون

---

(١) لفظ كورنتينه أو كاراتينه اصله فرنساوى (Quarantaine) ومعناه الشئ الذى يبلغ عدده تقريباً الي اربعين . والافرنج يقولون ان جمهورية فينسيا لما رأت ان الاوبئه كانت تأتى الى أوروبا من طريق الشرق ومن بلاد المغرب بشمال افريقيا اهتمت لهذا الامر ، لان مراكبها هي التي كانت تصل الشرق بالغرب ، وعينت لاول مرة سنة ١٣٤٨ مسيحية ضباطا صحيين كانوا يقومون بتفتيش السفن التي كانت تأتى من الخارج الي ثغورها . وفى

من مصر لهذا الخصوص و يعودون من الطور أو الوجه بما يبشر أهل الحاجاج بسلامتهم نظير البقاشيش التى كانوا يأخذونها .

والطور قرية صغيرة على شاطئ خليج السويس الشرقى واغلب سكانها من الاقباط والاروام وفي ضواحيها كثير من البدو و يقرب منها عين ماء ساخن عليها بناء لعباس باشا الاول يسمونه حمام موسى و يقولون أنه نافع للامراض الروماتزميه . وعلى مسافة يومين بالجمال من هذه القرية دير الطور المشهور وفيه بساتين تنتج كثيرا من الفاكهة وفي شماله بشرق جبل المناجاة الذى كلم الله عليه موسى وذكره في القرآن الكريم في غير موضع ، ويقصد هذا الدير حجاج الروس بعد نزولهم من بيت المقدس نيزورونه ثم يرجعون الى بلادهم . وفي شرق هذه القرية محجر الطور وهو فى نقطة صحية جدا وفيه مباخر وافية بالغرض واحذية مرتبة وبناؤها نظيف وفيه اسبتاليات على غاية من النظام ولكل مرض قسم مخصوص منها . ولقد اصبح هذا المحجر بعناية الحكومة المصرية أحسن محجر صحى فى العالم . ولا شك ان بعض الصعوبات التى يلاقيها فيه الحجاج لابد وأن تزول قريبًا بحسن عناية الحكومة واستمرارها على الاهتمام براحة الحجيج.

سنة ١٤٠٣ اقامت أول محجر صحى سمته لازاريت (Lazarette) وجعلته فى جزيرة صغيرة (قريبة منها) بالبحر الادرياطيقي اسمها سانت مارى دونازاريه (Sainte Marie de Nazareh) وكانت تحجر فيها على البضايع والاشخاص القادمين على بلادها من الشرق . ومشى على أثرها فى القرن الرابع عشر والخامس عشر ثغور البحر الابيض المتوسط المعظمى فاقامت جنوه محجرا صحياً سنة ١٤٦٧ واقامت مرسليا محجرا فى سنة ١٥٢٦ . وأول من اتخذ الاحتياطات الصحية ضد الطاعون فى بلاده هو الملك رينيه (René) ملك نابولي فى سنة ١٤٧٦ . وزادت العناية بها فى سنة ١٦٥٦ التى فشا الطاعون فيها ببلاد ايطاليا كلها حتى أنهم كانوا يحرقون الموتى لعدم استطاعتهم دفنهم .

ولما ظهر الوباء الاصفر فى كاتالونيا (مقاطعة باسبانيا عاصمتها برشلونه) اهتمت أوروبا لهذا الامر وعملت فرنسا قانونا للكورنتينات فى ٣ مارث سنة ١٨٢٢ وهو اساس النظامات الصحية للمحاجر . وقد ادخل على هذا القانون تعديلات مهمة فى ١٧ اغسطس سنة ١٨٤٧ ثم فى ١٠ اغسطس سنة ١٨٤٩ ثم فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٥٠

أما الطريق الرابع .فهو طريق السكة الحديدية الي الشام وهو الذي افتتحته الدولة العلية رسمياً باول قطار للمدعوين الى هذا الاحتفال وصل الى المدينة المنورة في ثالث شعبان سنة ١٣٢٦ الموافق ٢٨ اغسطس سنة ١٩٠٨ . وتسافر عليه الآن حجاج الشام والترك والروسيا وكثير من المصريين وخصوصاً برسم الزيارة . ولقد تقرر أخيرا سفر المحمل

هذا ما كان فى أوروبا بخصوص الكورنتينات أما بمصر فان محمد على ذلك المصلح الكبير فكر فى ضرورة انشاء مجلس صحي بها وشكل فى سنة ١٨٢٠ ميلادية مجلسا كانت اعضاؤه من حكماء الجيش وصيدليته . وفى سنة ١٨٢٥ ادخل كلوت بك على هذا المجلس نظامات جمة وسماه مجلس الصحة العمومي . ولما دخلت الكوليرا فى مصر سنة ١٨٣١ زادت عناية محمدعلى بهذا المجلس وادخل اليه نظامات الكورنتينات باوروبا خدمة للامور الصحية والتجارية فى جميع البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط، فجمع قناصل الدول وشكل منهم لجنة للنظر فى الامور الخاصة بالكورنتينات واصدر بذلك دكريتو فى ٨ اكتوبر سنة ١٨٣١ وفى سنة ١٨٣٢ بنى بالاسكندرية أول محجر صحى (Lazarette) فى الشاطي ولا يزال الاسكندريون يسمونها مغاريطه أو الأظاريطه الي الآن .

وكان من ضمن هذا المجلس عضو مصرى اسمه طاهر بك وكانت له الكلمة العليا فى اعمال المجلس لثاقب فكره وكبير همته والعناية التى كان يبذلها فى مصادمة ذلك الوباء الذي ذهب باغلب السكان فى الوجه البحرى وفى أواخر سنة ١٨٣٩ الغى محمدعلى هذا المجلس القنصلي ولم يحفل باحتجاجات الدول عليه فى هذا الصدد وشكل ادارة الصحة العمومية بمصر وجعل رئيسها ناظر الاشغال العمومية والتجارة وجعل لها سبعة أعضاء منهم طاهر بك السابق ذكره وستة أنتخبتهم الحكومة المصرية من أعيان التجار . وفى مدة عباس باشا الاول اهملت هذه النظامات الصحية فطلبت منه الدول الرجوع الى النظامات الاولى القنصلية فلم يجب طلبها بل ولم يعرها أية التفاتة . فاخذت فرنسا تسعي جهدها فى تشكيل مؤتمر دولي صحي من الدول ذوات المصلحة فى البحر الابيض المتوسط تم لها ذلك واجتمع هذا المؤتمر فى باريس وكان فيه اعضاء من فرنسا ومرسايا والنمسا واسبانيا وايطاليا واليونان والبورتوغال وسردنيا والروسيا وتسكانيا وتركيا وعملوا قانونا في ٤ يونيه سنة ١٨٥٣ راعوا فيه السهولة في الحجر خصوصاً على البضايع لان العلم كان وصل باكتشافاته المفيدة الى ان اغلب الاوبئة ليست معدية . ولم توافق انكلترا على قرارات المؤتمر واتخذت احتياطات خصوصية لموانيها.

المصرى بعد الاحتفال به في القاهرة الى الاسكندرية وعمل له فيها احتفال عظيم يوم السبت ٥ نوفمبر سنة ١٩١٠ حضره الجناب العالى الخديوي بحوش سراي رأس التين العامره ومنها ركب البحر الى حيفا ليسافر منها على السكة الحديد الحجازية الى المدينة المنورة و بعد الزيارة يسافر من الطريق الفرعي الى مكة و بعد تأدية فريضة الحج يعود الى جدة ويركب منها البحر الى الطور ثم الى السويس وهي ولاشك فكرة ثاقبة صائبة .

وكان من نتيجة هــذا القانون ان تشكل مجلس صحى دولي فى الاستانة ومجلس فى الاسكندرية ووظيفتهما اعلان أمر الاوبئة عند ظهورها وعمل الاحتياطات اللازمة للوقوف فى وجهها (حتى لا تصل الى أوروبا) . ولقد تقرر أيضاً تعيين بعض اطباء يركبون البحر على الدوام الى الشرق الأقصى ليرسلوا الى المجلسين بملاحظاتهم الصحية على البلاد التى يمرون عليها .

وعليه فقد اهتم سعيد باشا وشكل في سنة ١٨٥٤ مجلسا صحياً والحقه بنظارة الداخلية في ٣١ أبريل سنة ١٨٥٧ وجعل من حقه النظر فى الامور الصحية من داخل البلاد كما شكل لجنة للنظر فى الامور البحرية الصحية (الكرنتينه) وكانت يد هذه المصلحة الاخيرة مغلولة عن التصرف بدون ارادة الحكومة المصرية الى سنة ١٨٨١ التي صدر فى ٣ يناير منها دكريتو بفصل ادارة المصلحتين عن بعضهما وذلك بناء عن اتفاق من الدول مباشرة وسميت الاولى مصلحة الصحة العمومية وجعل مقرها مصر وسميت الثانية مجلس الصحة البحرية والكورنتينات المصرية وجعل مقره بالاسكندرية . ثم تغير هذا الدكريتو بدكريتو آخر صدر بتاريخ ١٩ يونيه سنة ١٨٩٣ بناء على قرارات مؤتمر باريس المنعقد في السنة المذكورة .

وهذه الكورنتينات كلها لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج لان سفرهم من والي مكة كان على طريق البر وكانوا يفتكرون ان طول مسافة هذا السفر مطهرة لهم من الاوبئة الا ان شدة كوليرا سنة ١٨٥٨ في بلاد الحجاز جعلت اغلب الناس يفر منها الى مصر من طريق البحر على القصير . فاحتاطت الحكومة المصرية لهذا الامر وضربت الحجر على الحجاج لاول مرة في بئر عنبر في وسط المسافة بين القصير وقنا . أما الحجاج الذين سافروا مع القافلة عن طريق العقبة فانها منعتهم من الدخول الى السويس وضربت عليهم الحجر في عجرود .

ومن هذا العهد رأوا ضرورة اقامة محجر صحي في الطور الا ان مؤتمر القسطنطينيه رأى الاستغناء عن الطور بالوجه لان سواد الحجاج كان يسافر غالبه براً واستمر الحجر فيه

وانا تتميما للفائدة نقول لك ان المسافة بين المدينة المنورة ودمشق الشام تبلغ ١٣٠٢ كيلو مترا والى حيفا ١٣٣٣ كيلو تقطعها الوابورات فى اربعة أيام تقريباً ومتوسط سيرها فيها ٨٠ ساعة . وسير القطارات من الشام الى معان على متوسط ٣٠ كيلو فى الساعة ومن معان

أو في رأس ملعب على ركاب القوافل ، وفي الطور او عيون موسى علي ركاب البحر كما كانت تقضي به الضرورة الى سنة ١٨٧٧ التي منها كثر سفر الحجاج من طريق البحر. وهنالك أخذت الحكومة المصرية في اكمال الاستعدادات في الطور حتى صارت في سنة ١٨٩٣ وافية بالغرض منها . ومن ثم اصبحت هى المكان الوحيد الذى تعمل فيه الكورنتينا على الحجاج المصريين او الذين يمرون على مصر ولا تزال الاصلاحات تدخل اليه من وقت الى آخر .

ومن المعجب أنه قد ورد في مادة لازاريت (Lazarette) بقاموس لاروس الكبير « ان بعض الافرنج قال ان أصل هذا اللفظ أتى من الكلمة العربية (الازهرية) وذلك لان الازهر بمصر انما هو ملجأ للعميان والشيوخ المتعاقدين » وهو كلام اساسه الجهل المطبق أو التحامل على الازهر والازهريين ولو أنصف القوم لعرفوا لهذه الجامعة الاسلامية حقها فى خدمة العلوم على اختلاف أنواعها . فكم لها آيات من العرفان على بنى الانسان تذكر فتشكر . ولا غرو فاهتمام الجناب العالى الخديوى وحكومته السنية بالازهر الآن لا بد وان تجعله يوما من الايام فى مقدمة الجامعات الكبرى نظاما وأحكاما .

أما كلمة لازاريت (Lazarette) فهي لاطينية معناها (Ladre) يعنى الابرص أو المجذوم . وكانت الدولة الرمانية تبالغ فى الحجر على المجذومين بل كانوا يضعونهم تحت الحجر طول حياتهم وكان عقاب من يخرج عن نطاقه منهم ان يضرب بالرصاص وهو قانون حق لولا أنه مبالغ فى شدته وقد ورد فى الحديث الشريف « فر من المجذوم فرارك من الاسد »

هذا هو تاريخ الحجر الصحى عند الافرنج . ولكن يرى المطلعون على التاريخ ان المسلمين رأوا ضرورة هذا الحجر قبلهم . فقد ورد فى تاريخ بن الاثير في اخبار السنة الثامنة عشرة من الهجرة ما نصه :

وكان عمر بن الخطاب قدم الى الشام في مدة ذلك الطاعون (وهو طاعون عمواس الذى فتك باهل الشام فتكا ذريعاً) فلما كان بسرغ وهو موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك لقيه امراء الاجناد منهم أبو عبيدة بن الجراح فاخبروه بالوباء وشدته وكان معه كثير من المهاجرين والانصار لانه خرج بهم غازيا . فجمع المهاجرين الاولين والانصار فاستشارهم

الى المدينة على متوسط ١٥ كيلو في الساعة . واجرتها في الدرجة الاولى من حيفا الى المدينة ذهابا وايابا اربع عشر جنيها ، وفي الدرجة الثالثة نصف هذا القدر ، وليس فيها درجة ثانية

إلا ان عربات الدرجة الاولى ضيقة وفي كل عين منها ست مقاعد منفصلة بحواجز (مساند) ثابتة والمسافر فيها إلى المدينة يصادف مشقات كبيرة وخصوصاً في الليل الذى يقضيه كما يقضى النهار جالساً . وكان الاولى بها أن تكون ذات اربع مقاعد يمكن تجهيزها ليلا الى أربعة أسرة لنوم المسافرين . لذلك ترى كثيراً من الركاب يفضلون ركوب الدرجة الثالثة وخصوصاً عربات البضاعة حيث يمكنهم ان يفرشوا بها فراشهم وينامون ويجلسون على راحتهم . وأملنا فى رجال الدولة حرسها الله ان يفكروا في ذلك حتى تكون عربات الدرجة الاولى وافية براحة المسافرين في هذه المسافة الطويلة

﴿ وهاك جدولا بمحطات الطريق الحديدى من دمشق الى المدينة ﴾

فاختلفوا عليه فنهم القائل خرجت لوجه الله فلا يصدك عنه هذا ومنهم القائل أنه بلاء وفناء فلا نرى ان تقدم عليه فقال لهم قوموا ثم احضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه واشاروا بالعود فنادى عمر فى الناس أنى مصبح على ظهر فقال أبو عبيدة افراراً من قدر الله ؟ فقال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة (يعني لانتقمت منه) نعم نفر من قدر الله الى قدر الله . أرأيت لو كان لك أبل فهبطت واديا له عدوتان احداها مخصبة والاخرى مجدبة اليس ان رعيت المخصبة رعيتها بقدر منه وان رعيت المجدبة رعيتها بقدر منه ؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فحضر فاخبر أنه سمع من النبى صلى الله عليه وسلم حديثاً في ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم «اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه» فكان ذلك الحديث موافقا لما رآه عمر رضي الله عنه فانصرف بالناس الى المدينة . وقد ورد هذا الحديث بالبخارى فى الجزء الرابع بكتاب الطب بهذا النص : حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبه قال اخبرنى حبيب ابن أبى ثابت قال سمعت ابراهيم بن سعد قال سمعت اسامة بن زيد يحدث سعدا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا سمعتم بالطاعون بارض فلا تدخلوها واذا وقع بارض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » .
وقال شراح الحديث ان المنع من الدخول لا يتناول من كانت للمرضى مصلحة في دخوله كالاطباء وغيرهم . وهل هذا الحديث الشريف إلا قانون صحي وضع للناس قبل أول قانون وضعته ڤينسيا (البندقية) بثمانية قرون ؟

اسماء المحطات	المسافه بالكيلو	ارتفاعها عن سطح البحر بالمتر	المحطات التى فيها ماء
قدم شريف	٠٠	٦٨٦	✿
كسوه	٢١	٧٣٥	✿
دير علي	٣١	٧٠٠	
مسجد	٥٠	٦٢٠	✿
جباب	٦٣	٦٤٣	
خبب	٦٩	٦٢٤	
محجه	٧٨	٦٠١	
شقره	٨٥	٥٩٩	
أذرع	٩١	٥٨٧	
خربة الغزاله	١٠٦	٥٧٥	
الدرعا	١٢٣	٥٢٩	✿
نصيب	١٣٦	٥٨٦	
المفرق	١٦٢	٧١١	✿
خربة السمرا	١٨٥	٥٥٨	
الزرقاء	٢٠٣	٦١٧	✿
عمان	٢٢٢	٧٣٧	✿
القصر	٢٣٤	٩٤١	
لوبن	٢٤٩	٧٧٢	
الجيزه	٢٦٠	٧٢١	✿
الضبعه	٢٧٩	٧٥٢	
خان زبيب	٢٩٥	٧٨٢	
سواقه	٣٠٩	٧٥٨	
قطرانه	٣٢٦	٧٨٣	✿
منزل	٣٤٨	٨٤٠	
فريفره	٣٦٧	٨٩٣	
الحسا	٣٧٨	٨٢٢	✿
جروف الدراويش	٣٩٧	٩٥٨	✿
عنزه	٤٢٣	١٠٥١	
وادي الجردون	٤٤٠	١٠٨٠	
معان	٤٥٩	١٠٨٤	
غدير الحج	٤٧٥	١٠٠٠	
بئر الشيديه	٤٨٧	٩٩٦	
عقبه	٥١٤	١١٥٢	
بطن الغول	٥٢٠	١١٢٥	
وادي الرتم	٥٣٠	٩٩٤	
تل الشحم	٥٤٦	٨٥٠	
الرمله	٥٥٥	٨٠٦	
المدوره	٥٧٢	٧٣٤	✿
حالات عمار	٥٩٥	٧٦١	
ذات الحج	٦٠٨	٦٩١	✿
بئر هرماس	٦٣٢	٧٤٧	✿
الهنم	٦٥٤	٧٥٤	
المحطب	٦٧٧	٧٥٠	
تبوك	٦٩٢	٧٧٥	✿
وادي الاثيل	٧٢٠	٨٤٤	
دار الحج	٧٤٤	٩٠٤	
مستبغه	٧٥٥	٩٥٠	
الاخضر	٧٦٠	٨٨٢	✿
جبيس	٧٨٢	٩٠٨	
دي يسعد	٨٠٥	٩٦٤	
المعظم	٨٢٢	٩٨١	✿
خشم صنعا	٨٥٣	١٠٣٣	
الدار الحمرا	٨٨٠	١١٠٣	
المطلع	٩٠٤	١١٥١	
ابو طاقه	٩١٨	٩٦٦	
المرجم	٩٣٠	٩١٤	
مدائن صالح	٩٥٥	٧٨١	✿
العلا	٩٨٠	٦٨٤	✿
البدايع	٩٩٩	٦٠٣	✿
مشهد	١٠١٢	٦٧٠	
سهل المطران	١٠٣٤	٦٠٠	
زمرد	١٠٤٩	٧١٤	
البئر الجديد	١٠٧٢	٧٣٩	
الطويره	١٠٩٠	٦٧٠	
المدرج	١١١٦	٤٦٠	✿
هديه	١١٣٣	٣٨٥	
جداعه	١١٥٥	٤٥٧	✿
ابو النعم	١١٤٣	٤١٨	
اسطبل عنتر	١١٨٩	٥٣٠	✿
بوير	١٢٠٨	٤٧٢	
ديار ناصف	١٢٢٨	٤٨٩	
بواط	١٢٤٧	٥٣١	✿
الحفيره	١٢٦٨	٥٤٠	
المحيط	١٢٨٧	٧٥٠	✿
المدينه المنوره	١٣٠٢	٦١٩	

ومن محطة الدرعا يخرج فرع حديدي الى حيفا ومحطاته هي : المزيريب ، تل شهاب ، زيزون ، وادي كليب ، القارن ، شجره ، صماخ ، الحمه ، جسر المجامع ، بيسان ، الفوله ، العفوله ، حيفا.

الطريق الى الحرمين فى غابره وحاضره

ولقب الحاج عند عامة المسلمين

كانت طريق الحجيج الى بيت الله الحرام كلها مشقات واخطار فى الزمن السابق بما كانت تلقيه يد الطبيعة في سبيلهم من الشدائد الطبيعية التى كانت تفتك بسوادهم في الطريق من حر الصيف وقر الشتاء ، أو جفاف ماء الآبار في هذه الصحراء المحرقة ، وما كان يدهمهم فيها من السيول التي اشد ما حصلت في سنة ١١٩٦ حيث اجتاحت نصف الحجيج المصرى بين مكة والمدينة . وعدا هذه الشدائد الطبيعية فكثيرا ماكانت توقع بهم يد اشرار الاعراب واقسى ما وقع لهم فى سنة ١٢٠٠ هـ : وكان أمير الحاج المصرى امسك بعض لصوص حرب فى طريق المدينة ووسمهم بالنار على خدودهم . فصرخت صرختهم وتلاحقت به قبائل حرب وحملوا عليه فهرب مع عسكره ووقعت الحجاج بين أيديهم فافنوهم عن آخرهم وأخذوا ما كان معهم من سلب وذخيرة . وكثيرا ما كان تجاذب السلطة بين اشراف مكة و بعضهم ، أو حربهم مع قبائل الاعراب ، أو اختلاف أهل مذهب مع أهل مذهب آخر ، يقفل فى وجوه الحجاج ابواب مكة أو المدينة بعد وصولهم الى هذه أو تلك فيرتدون عن الأولى من غير تأدية المناسك وعن الثانية بدون زيارة السيد الرسول و يعودون الى بلادهم وقد اضافوا على متاعبهم الاولى مشقات جديدة تزيد فى شدتها عليهم آلامهم المعنوية من حرمانهم من أمنيتهم فتضعف قواهم وتخور عزائمهم ، وغالبا ما كانت تشتتهم يد الفوضى وتعرض بهم حال الضعف الى النهب والسلب ! ! كل ذلك كان يحصل لحجاج بيت الله الحرام والناس لا يمنعهم عنه مانع ولم يسمع أنهم انقطعوا عنه من انفسهم في سنة من السنين اللهم الا ما قعد ببعضهم من غير جزيرة العرب أيام القرمطى والوهابى لان الطريق كانت مقطوعة عليهم ولم يسمع بان جميع المسلمين اهملوا هذا الواجب مطلقا ولم يقف أحد منهم بعرفة من مبدأ الاسلام الى الآن الا فى سنة ٦٥٤ التي لم يحج فيها أحد للفتنة التى كانت بين الاشراف

على امارة مكة . لذلك كانت الحجاج اذا طلعوا الى اداء هذه الفريضة كانوا أول ما يستعدون على سلاحهم كأنهم سائرون الى دار حرب لا الى دار قد أمن الله فيها حياة الانسان والحيوان بل وحياة الاشجار ، فاذا عادوا الى بلادهم استقبلهم أهلوهم وذووهم بالطبول والزمور فيقيمون لهم الافراح والليالى الملاح بعد ان يعدوا لهم كل مافيه راحتهم ورفهيم من نقش الدور وتجديد ماقدم عهده فيها من فرش وغيره لا فرق فى ذلك بين أمير أو فقير . وكانت الطبقة الصغرى ، وهي سواد الحجاج واكثرهم مشقة طبعا ، تزوق لهم وجهات منازلهم : فيرسمون عليها صورة المحمل وقافلته وحرسه ويرسمون الى جانبها نخلة قد ربط الى جذعها سبع وضبع فى سلسلتين من حديد ويقرب منهما رجل قد اشهر سيفه فى يده اشارة الى ان صاحبنا حفظه الله تغلب بقوته وشجاعته على ما صادفه في طريقه هذا من المخاطر والمهالك .

لذلك كان ولا يزال لقب الحاج عند سواد المسلمين اشرف الالقاب التى يتحلى بها صدر اسماء الطبقة الصغرى وهو يدل على مايمتاز به الشخص من صفات الشهامة فى الشبان فاذا قيل لواحد منهم يا حاج فلان يعني أيها الشهم الشجاع ، أما اذا لقبت به الشيوخ والكهول فانما يكون ذلك اشارة لكمال يقينهم ومتانة دينهم الذين تحملوا فى طريقه الاهوال التي تشيب منها الاطفال .

على ان طريق الحاج أصبح اليوم أقل صعوبة منه فى أمسه ، لذلك ترى الحاج فى عودته يستقبل بابسط مما كان يستقبل به في الزمن السابق . وقليلا ماتراهم بمصر يرسمون شيئا على دور الطبقة الفقيرة اللهم الا محملا يسير في جنده والى جانبه مركب بخاريه أو قطار سكة حديد مما لا شئ فيه من معنى المشقة التى كان يصادفها الحاج في طريقه فى الزمن السابق . وفي الحقيقة فان طريق الحاج اليوم اقل صعوبة واكثر أمنا منه بالامس ، بل لا نسبة بين الحالتين بالمرة . وما دام طريق الحرمين اصبح محل اهتمام دولتنا العلية فلا بد أن يأتى يوم قريب يتذلل مابقى فيه من الصعوبات خصوصاً اذا تحقق خبر تسيير الطريق الحديدي بين المدينة ومكة وبين هذه وجدة ، والله الهادى الى سواء السبيل .

سفر الجناب العالى

من المدينة الى مصر

فى فجر يوم السبت ١٥ يناير سنة ١٩١٠ الذى قرر الجناب العالي سفره فيه من المدينة المنورة الى تبوك ، قصد حفظه الله الحرم الشريف ، وبعد صلاة الصبح ، أدى خدمته فى الحجرة الشريفة ، وزار زيارة الوداع ، ثم قصد المحطة التي اكتظت رحباتها بجموع الأعيان والأشراف والمأمورين الملكيين والعسكريين ، وفي مقدمة الكل حضرات العلماء ونقيب الاشراف والمفتي والقاضى وخازندار الحرم الشريف ومديره وسعادة رضا باشا محافظ المدينة المنورة . فصافحهم حفظه الله واحدا واحداً ، وركب صالونه الخصوصى ، شاكراً لهم ما لقيه من آدابهم ولطف إخلاقهم أثناء اقامته بالمدينة ، وركب في خدمة جنابه العالي سعادة دفتردار المحافظة وحضرة المهمندار الخصوصى الذى تعين اسموه من قبل حكومة الحجاز ، ثم تحرك القطار فى شروق الشمس تماما قاصدا تبوك ، بين طلقات المدافع وعزف الموسيقى وهتاف الاهالى .

وكان قطار المعية السنية قام اليها قبل القطار الخصوصي بساعتين ، وكان قد ركب فيه نحو خمسين عائلة من مصريين وشوام وأتراك ومغاربة كان قطعهم في المدينة ضيق ذات يدهم ، فأمر حفظه الله بتسفيرهم الى بلادهم بناء على التماسهم .

ومرّ القطار في منتصف الليل على محطة العلا ، ثم على مدائن صالح (١) التي تبعد عنها بنحو خمسة وعشرين كيلومتراً ، ووصل حفظه الله الي حذاءات كورنتينة تبوك في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالي (الأحد) ، فدخل القطار الخصوصي الى الكورنتينة ، وبقيت فيه دولة الوالدة مع حاشيتها ، أما

(١) ومدائن صالح (وتسمى الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم) نسبة الى نبي الله صالح الذى ارسل الى قوم ثمود ، وكانوا يسكنون فى هذه الجهات الى يثرب . وهم قوم من العرب ذهب بعض المؤرخين الى أنهم من اليمن ، نفروا الي شمال شبه جزيرة العرب مع من هجرها بعد سيل العرم ، وكانت مساكنهم فيها بحضرموت قرب مساكن عاد ، ودليلهم على ذلك ما وجدوه على بعض آثارهم فى العلا من الخط المسند (الحميرى) . وقد ذكر المقريزى في الكلام على أيله ما ملخصه ان حمير الاكبر بن سبأ الاكبر أمر بطارد قوم ثمود من اليمن لظلمهم لمن جاورهم ، فنزلوا من أيله الي ذات الآصال (اطراف نجد) نقطعوا الصخور ونحتوا من الجبال بيوتا وتكبروا وطغوا فبعث الله فيهم صالحا نبياً ورسولا فكذبوه وسألوه ان يخرج لهم ناقة من صخرة هناك ، فاخرجها لهم فعقروها فاهلكهم الله بالصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين (مصعوقين) .

وذهب بعضهم الي ان الثموديين من عماليق الشمال الذين أتوا من العراق وسكنوا مدينة بطره وكانت لهم بها دولة واسعة فى القرن الرابع قبل المسيح ، ويستدلون على ذلك بما وجدوه على كهوف الحجر من الخط الآرامي الذى هو كتابة الانباط .

ومن ذهب الى الرأي الاول يقول ان الثموديين لم يكتبوا هذا الخط الا بعدما تبعوا لحكومة الانباط فى القرن الثانى أو الاول قبل الميلاد بحكم تغلب لغة المتبوع على التابع . وعندى أنه لا يبعد أن يكون اصلهم من عرب الرعاة الذين طردهم الملك تحوتمس في سنة ٢٠٥٠ قبل الميلاد ، ومن المصريين تعلموا كيف ينحتون الجبال والصخور . قال تعالى « وثمود الذين جابوا (نحتوا) الصخر بالواد » . وربما كانوا من قوم موسى الذين خرج بهم من مصر في سنة ١٦٢٥ ق م ، فأتوا واقاموا في المنطقة التى بين الحجر والمدينة ، بدليل ان ديانتهم كانت اليهودية . ثم كان لهم مع نبيهم صالح ما حسبك منه ما ذكره الله تعالى في الربع الرابع من سورة الاعراف . « والي ثمود (ارسل) أخاهم صالحا قال

الجناب العالي فانه نزل بمعيته الى الحذاء الذي ضربت فيه صواوينه الخصوصية وخيام حاشيته من ملكيين وعسكريين . ومكث حفظه الله في الكورنتينة خمسة أيام كان يتردد في أثنائها من الصيوان الخصوصي الى صالون قطار السكة الحديد ، وكان الهواء في تلك الاثناء بارداً جداً يتراوح بين ١٥ درجة

يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما ارسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين»

وفي تفسير روح المعاني ان ثمود كانت ديارهم من الحجر الى وادي القرى جنوبا ، وقد جاء فيه في تفسير قوله تعالى أخذتهم الرجفة : « قال الفراء والزجاج أي الزلزلة الشديدة ، وقال مجاهد والسدّي هي الصيحة ، وجمع بين القولين بأن أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم » .

ولا يبعد ان هذه الحركة كانت ناشئة عن ثورة بركانية حصلت في حرة العويرض (جبل بركاني تقدم ذكره) ، فكانت منها تلك الهزة العنيفة التي خسفت بالقوم في ديارهم من غير ما يشعرون . يؤيد ذلك ما حصل أخيراً في كالابريا التي كانت حركتها ناشئة عن ثوران بركان فيزوف . (وكانت حادثة ثمود حوالي بعثة عيسى عليه السلام) .

ولقد مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر في غزوته لتبوك في السنة التاسعة للهجرة ومنع قومه من الدخول إلى ديار ثمود والشرب من مياههم . وأرى ان ذلك لسببين مهمين الاول أدبي وهو مبالغته عليه الصلاة والسلام في السخط على هؤلاء الاقوام لعصيانهم ربهم ومخالفتهم لنبيهم حتى كان من أمرهم ما كان . والثاني صحي وذلك لأن كهوفهم المتروكة من زمن بعيد ، وهي بمثابة مقبرة لهم ، لا شك يكون هواؤها فاسداً وماؤها مضراً بمن يشربه .

ستجراد نهاراً و ٥ تحت الصفر ليلا ، أما الرياح فقد كانت شديدة جداً لا تستقر معها الخيم ثابتة في امكنتها ، بل كنت تراها متزعزعة على الدوام وخصوصاً في اليوم الأول والثاني ، وكثيراً ما كنا نشاهد خيام الكورنتينة التي في الحذاءات الاخرى تطير من أماكنها فيسرع أربابها بالجرى وراءها

أما النقوش التي شاهدوها على ما وصل الينا من هذه الديار فأغلبها بالخط الارامي وهي لاتخرج عن عبارات دينية مما ينقش عادة على قبور كثير من الامم الى الآن . نذكر لك منها ترجمة عهد كتبه على قبره رجل اسمه عائذ بن كهيل (انظر صحيفة ٨١ من الجزء الأول من تاريخ العرب قبل الاسلام لصديقنا المؤرخ الفاضل جورجي افندي زيدان) :

« هذا القبر الذي بناه عائذ بن كهيل بن القيس لنفسه وأولاده وأعقابه ولمن يكون في يده كتاب من يد عائذ يبيح له ولأي واحد يخوله عائذ في حياته أن يدفن فيه . في شهر نيسان السنة التاسعة للحارث ملك الانباط محب شعبه (وذلك حوالي سنة ١٨ بعد الميلاد) ولعن ذو الشرى ومناة وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئاً آخر ويدفن فيه أحداً إلا الذين كتبت أسماؤهم أعلاه ان القبر وما كتب عليه فهو حرم مقدس ، حسب القاعدة التي يقدسها الانباط والسلاميون إلى أبد الآبدين » .

ومن هذا ترى ان القوم غيروا يهوديتهم بوثنية النبطيين الذين كان من آلهتهم ذو الشرى ومناة وقيس وهبل واللات وغيرها ، ومنهم أخذ العرب وثنيتهم .

ولقد اهتم الجناب العالي الخديوي بخدمة العالم التاريخي بنقش ما بقي من آثار الحجر فأوفد الى هذه الجهة البروفسور هيس أحد المستشرقين السويسريين ونزيل مصر الآن فعاد منها ببعض صور غير مهمة مما أبقته فيها يد السراق . ويوجد كثير من آثار القوم في متاحف لندن وباريس وبرلين والاستانه . وقد بلغني أنه يوجد منها شيء كثير في صناديق محفوظة في مدينة حيفا منذ سنتين على ذمة متحف القسطنطينية ولا أدرى ماهي الحكمة في عدم ارسالها اليه الى الآن . وعلى كل حال فان المشتغلين بالآثار النبطية والثمودية لا بد وأن يزيدونا يوما من الايام معرفة بهؤلاء الاقوام .

ويتعلقون بأطنابها فيوقفونها عن سيرها بعناء شديد ويرجعون بها ثم يزاولون نصبها وهم في عراك مع الرياح يزهق الارواح .

وفي هذه الكورنتينة اثنا عشر حذاءً جويا تحيطها وتفصلها عن بعضها شبكة من السلك ، وهي ستة في مقابلة ستة اخرى ، يسير فيما بينها شريط الطريق الحديدي ، وطول كل حذاء مائة متر في عرض ٧٥ متراً ، وليس فيها أبنية أصلا ، اللهم الا مبخرة واحدة في جوار الحذاء الاول ، أخذ اليها عسكر الحرس والخدم فتبخرت ملابسهم وظلوا في أثناء التبخير عرايا في حوش المبخرة وهم يرتعدون من شدة البرودة ولا شك في أن دولتنا العلية ستزداد عنايتها بهذا المحجر [1] حتى يكون كافلا لراحة حجاج بيت الله الحرام .

وكان حضر الى تبوك أثناء الحجر جناب منيسر باشا الالماني باشمهندس الخط الحديدي الحجازي وسعادة وفا بك قائمقام معان وعلى بك فؤاد باشكاتب المتصرفية للسلام على الحضرة الفخيمة الخديوية ، فلم يقابلهم جنابه العالي قياما بواجب قانون الكورنتينات ، فبقوا في ضيافته بادارة المحجر ، حتى انقضت مدة الحجر في صباح يوم الجمعة ٢١ يناير ، فحضروا الى المخيم الخديوي ونالوا شرف المثول بين يدي حضرته العلية . وهنالك أبتدئ في شحن القطارات ، وتحرك الركاب الخديوي في الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم ،

---

(١) هذا المحجر لايزال خاصاً بأهل تركيا والشام أما أهل مصر فانه لا بد لهم من تمضية الحجر الصحي في الطور قبل دخولهم إلى الثغور المصرية وقد حصلت مخاطبات رسمية في اعتبار كورنتينة تبوك كورنتينة عامة بحيث يكفي الحجر فيها على المصريين وغيرهم ولكن لم يتقرر شئ بهذا الخصوص إلى الآن .

فمر على محطة تبوك : وهي محطة صغيرة تبعد عن الحذاءات شمالا بنحو الف متر وفى الكيلو ٦٩٣ من الشام ، وبينها وبين البلدة نحو ثلثمائة متر . ومساكن هذه القرية على مرتفع من الارض وسط الصحراء يحيط بها النخل وبعض غيطان مزرعة ذرة ، وبعضها مبني بالطوب النيئ وبعضها بالدبش ، وقد رأيت فيها بيتين موشيين بالجير من خارجها ، ومن أبنيتها ماهو بالطوب المدهوك من الداخل والخارج بالشهبه (طين به مادة جيرية) . وفيها مسجد اقيم على المكان الذى صلى فيه عليه الصلاة والسلام حين خروجه الى هذه الجهة ، وعلى باب هذا المسجد على يمين الداخل اليه بئر من أثر السيد الرسول نبع ماؤها بين يديه صلى الله عليه وسلم في وقت كان هو ومن كان معه في شدة الحاجة الى الماء ، وهي التي يشيرون اليها ضمن معجزاته صلى الله عليه وسلم بأن « الماء نبع من بين أصابعه » وماء هذا البئر عذب جداً ، وقد وضع عليها أخيراً ناظم باشا الذى كان مدير أعمال السكة الحديد الحجازية ، طلمبة تحفظ ماءها نظيفا بعيداً عن عبث العابثين ، فجزاه الله خيراً .

وما زال القطار سائراً حتى مرّ على محطة ذات الحج ، وفيها قلعة قديمة كانت تخزن اليها مؤن المحمل الشامى حين سفره فى البر ، ثم وصل الى محطة معان في نحو نصف الليل : وهي اكبر محطة بين المدينة المنورة والشام ، وعلى كيلو ٤٥٩ من دمشق ، وفيها ورشة كبيرة لتصليح الوابورات ، وبيوت لمستخدمي هذا الخط الحديدى منها منزل جميل لمنيسر باشا .

وقرية معان تبعد عن المحطة بنحو ٢٠٠٠ متر الى الغرب بانحراف الى الشمال ، ولا تظهر للمسافر من المحطة لانها فى جوف الجبل ، وسكانها نحو

الف شخص يشتغل معظمهم في اعمال الطريق الحديدي ، وقد كانوا قبلا يهاجرون للتجارة البسيطة ولا يشتغل بالزراعة منهم الا القليل فيما لا يبعد عن قريتهم لخوفهم من عرب الحويطات الذين يوجدون بكثرة في تلك المنطقة ، وكثيراً ما كانوا ينقضون عليهم وينهبون مزارعهم . وفي شمال هذه القرية على مسافة ثلاث ساعات خرائب كثيرة اكبرها اسمه بسطه (وأظن انها أثر مصري) ثم اذرح (اضرح) وفيها تلال قديمة تخللها آثار عتيقة . وفي تلك الجهة مياه كثيرة عذبة وأراض زراعية مما يدل على عمرانها فى قديم الزمان . وجل هذه الخرائب من آثار [1] مدنية النبطيين .

---

(١) والمنطقة التي في غرب السكة الحديد فيما بين معان وعمان إلى نهر الاردن والبحر الميت وما يليه جنوبا غنية جداً بالآثار القديمة التى بعضها للنبطيين والفلسطينين والعرب والرومان والمصريين (البطالسة) . وأفخم هذه الآثار مدينة بطره (Petra) (كلمة يونانية معناها حَجر ومنه قولهم (Arabi Petra) يعني بلاد العرب المتحجره) وهى تبعد عن معان غربا بمسافة ٣٥ كيلو متراً تقريباً وعن العقبة جنوبا بمسافة ١٣٠ كيلو وترى بها إلى الآن كثيراً من المباني الفخيمة الاثرية ، وهي فى واد ترتفع الصخور إلى ٥٠ متراً على مدخله الذى تختلف سعته من ٣ إلى ٩ أمتار ، وقد نقر فيها هيكل فخيم جداً على ارتفاع عشرين متراً ، وفيه كثير من النقوش الجميلة ويسمونه بخزنة فرعون ، ويظن بعضهم انه للرومان ، أقاموه بعد تملكهم المدينة لمعبودهم ايزيس .

ويوصل طريق هذا المدخل الى واد واسع يقطعه مجرى ماء من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقى كانت فيه المدينة . ولا يزال اطلالها به إلى الآن ويسمونه وادى موسى . وعلى جانبيه قبور نقرت في الصخر ، والتى على يمين الوادى منها يعني إلى جهة الشرق كانت لاشراف القوم : لما تشاهده عليها من النقوش والرسوم التى تزيد في فخامتها ، أما التي على يساره (فى الجهة الغربية) فهى لعامة الناس . وعدد هذه القبور لا يقل عن ٧٥٠ قبراً ، وكلها منقورة في الصخر . ويقرب منها تياترو قد نقر فى الجبل بمرسحه



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

خزنة فرعون في بطره

وفى صباح يوم السبت ٢٢ يناير أمر الجناب العالى حفظه الله فسارت حملة الجمال والهجن التي كانت في ركابه السامى ومعها بعض الحرس الخديوى تحت قومندانية حضرة البكباشي ابراهيم أفندى أدهم من معان الى العقبة، ومسافة ما بينهما ١٣٠ كيلو متراً ، واستمرت في سيرها الى السويس من طريق البر .

وفى الظهر تناول سموه الغذاء في دار منيسر باشا . وفي مبدأ الساعة الثالثة تحرك قطاره قاصداً حيفا ، فسار في صحراء واسعة ترى فيها الجبال على افق البصر من الجانبين الشرقي والغربي ، والأرض في هذه المنطقة رملية

ومقاعده ، وفيه ٣٣ مدرجا على هيئة أنصاف دوائر تسع ٣٠٠٠ شخصاً .

ويقصد بطره سنويا فى فصل الربيع قوافل السياح من الافرنج وعلى الخصوص من الامريكان . ولا بد لزيارتها من اذن خصوصي من ولاية الشام وهو ما (كان) لا يسهل على كل انسان الحصول عليه .

وكانت هذه المدينة عاصمة لحكومة الانباط : وهي حكومة عربية كبيرة كانت توجد مدة القرن الرابع قبل المسيح . وكانت لها مدنية عالية ، وجيوش قوية ، ساعدت الاسكندر الاكبر في استيلائه على بلاد الفرس وعلى مصر . ولقد حاربها انطيغونوس (Antegon) خليفة الاسكندر في سنة ٣١٢ قبل الميلاد ، فانهزم أمام جندها الباسل، وقال أنه لم يمارس في حروبه في الشرق والغرب رجالا مثل رجالهم . ثم حاصرها ديمتريوس وانقلب عنها خائباً

وكانت مملكة النبطيين في القرن الثاني قبل المسيح قوية جداً وضربت ملوكهم السكة باسمهم ، ومن أكبر ملوكهم الحارث الذى ملك فى سنة ١٦٩ م ، وامتد ملكه الى وادى القرى جنوباً ، ودخل في حكمه العلا والحجر وما والاهما شرقا إلى حدود العراق ، وغرباً إلى بحيث جزيرة سينا . وكانت مدينة بطره المركز التجارى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب إلى مبدأ القرن الثانى بعد المسيح ، حيث ساق عليهم الامبراطور تراجان الرومانى جيوشه فهدم مدينتهم ، واكتسح ملكهم ، ومزقهم كل ممزق ولم تقم لهم بعدها قائمة . حتى أن مؤرخى العرب لم يذكروا عنها كلمة واحدة في فتوح العرب للشام .

تكثر فيها الحجارة الصوانية السوداء ، وكانت رؤوس الجبال الغربية التى يسمونها جبال الشيخ (وهي حلقة من حلقات السلسلة الجبلية التى تصل جبال لبنان بجبال السراة التى تقطع بلاد العرب من جنوبها الى شمالها) تلوح لنا بيضاء

وإلى النبطيين ينسب الرقي الذى حصل في الكتابة التدمرية حتى كانت الحروف النبطيه أمهات للحروف العربية ، وحسبهم بذلك فخاراً .

والعرب تسمى هذه المدينة من زمن بعيد بالرقيم . واخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس « ان الرقيم واد دون فلسطين قريب من أيله ، والكهف في ذلك الوادى ، فهو من رقة الوادى أى جانبه » . وأظن أن الرقيم بمعنى مرقوم ، لما هو مكتوب ومنقوش على كهوفها وربما كانت هذه الكهوف هى المعنية بقوله تعالى فى سورة الكهف « وترى الشمس إذا طلعت تزاور (تميل) عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم (تبعد عنهم) ذات الشمال » . وإلى شمال هذه المدينة على الجبل قبر هارون أخى موسى ، ويقصده العرب من قديم الزمان لزيارته ، وقد ابتنى الصليبيون قلعة إلى جواره .

وتحت جبال الشيخ أثر يقال له قلعة يناس ، ويظنون أنه من أعمال الغسانية . وفى الكرك هيكل الشمس . وفي اراك الامير هيكل من هياكل الامونيين يقال له هيكل العبد وفى ميدبة ، التى تبعد عن عمان نحو عشرة كيلو مترات ، آثار جميلة يسمونها خربة القال . وفى حصبان التي تبعد عنها إلى الشمال الغربى نحو خمسة عشر كيلو متراً آثار من آثار مملكة يهوذا ولم يحفظ منها إلا صهاريج جميلة منقورة في جوف الجبل ، ولها فتحات من أعلاها يدخل منها الماء اليها . ويوجد فى محطة القصر قامة طيفنا . وكان بمحطة مشاتا آثار جميلة ومن ضمنها قصر من القرن السابع قبل المسيح وكانت له وجهة من الفخامة بمكان أخذها الالمان هدية من السلطان عبد الحميد ونقلوها إلى برلين سنة ١٩٠٤ . وفى عمان آثار جميلة جداً . واهم مافيها القلعة التي هي من هياكل الامونيين وفيها كثير من المغائر والقبور المنحوتة فى الصخور ، وعلى كل حال فهذه البلاد ملآى بآثار الاقدمين التي يهتم بها الاجانب ولا يكاد يعرفها أهل البلاد أنفسهم وأكبرها فخامة قلعة بعلبك الشهيرة ، أما آثار تدمر (بالميرا) في الشمال الشرقي لدمشق فحدث عنها ولا حرج والطريق اليها من حمص .

من الثلوج كانها قد شابت ناصيتها من وحشة الوحدة في هذه البيداء الجافة .

أما الجهة الشرقية فكان يلوح لنا فيها من آن الى آخر ، بعد ميل الشمس عن خط الزوال ، بحيرات كبيرة من الماء على دائرة افق هذه الصحراء ! وكنا كلما اقتربنا منها زاد صفاؤها وتحرك ماؤها على بعضه بتموجاته البلورية ، وكانت تظهر في وسط هذه البحيرات أحيانا جزر قامت عليها غابات من الاشجار تزيد في جمالها ، حتى اذا تاقت لها النفس ، وصارت منك على متناول اللامس ، وجدتها احدى القيعان ، سكن فيها الشيطان : فاذا وصلت الى جنابه للحظوة بشرابه ، وجدته كأن لم يكن ! !

ومع أني بمجرد ما وقع بصري على هذه البحيرات كشفت مستورها ، وعرفت ضميرها ، ولكن كان يلذ لي النظر اليها على الدوام حسن منظرها ، والتفكر في مخبرها : فكنت آنا أفتكر ان هناك منخفضاً من الارض مليء بالهواء ، وقد انعكست في مرآته قطعة من السماء الصافية ، وانكسرت على سطحه ظلال مافي دائرته من الاعشاب ، وأخذت تتحرك بحركة تماوجاته ، فتعددت صورها بما تكونت معه هذه الغابات الناضره ، وسط تلك البحيرات الباهره !!

وزد على ذلك ان العين التي لم تمتر في الصحراء الا على مناظر جافة ، تعظم ما تراه فيها من الصور اللطيفة ، وتنقله الى الوهم حقيقة مجسمة .

وكنت أحيانا اتخيل انها شيء من البحر تسرب ، ومنا اقترب ، حتى اذا خلب اللب بسنائه ، وجذب القلب بلألائه ، واشتقت أن تنال من مائه ، فتح فاهه ، وابتلع مياهه ، ضاحكا من سذاجتك وبساطتك ! وكنت أتوهم آونة ان الصحراء ، أرادت ان تخفف عن أبصارنا منظر ذلك الجفاء ، فلبست

لباس البحار ، وسط هذه القفار، وأخـذت تلون تلون الحرباء ، وهل يبعد على شيطان الطبيعة أن يتشكل بما شاء ؟ حتى اذا اقتربت منه ضرب في الهواء ، وطار طير العنقاء .

لا لا بل هو السراب الذى « يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً » ، أخبرنا به القرآن قبل ثلاثة عشر قرنا ، ولم تعرفه اوربا الا في القرن السابع عشر ، بل لم تحقق من أمره الا تلك الحملة العلمية التى دخلت مصر مع نابليون بونابارت فى رأس القرن التاسع عشر .

ولا غرابة فى ذلك فان السراب لا يوجد الا في صحارى البلاد الحارة : ذلك ان الشمس اذا ارتفعت حرارتها سخنت الرمال التى على سطح الارض فتسخن به طبقة الهواء التى تلامسها ، وهذه الطبقة تسخن التى فوقها، وهذه تسخن التي تلوها ، وبذلك يتمدد الهواء فى جميع هذه الطبقات بنسبة حرارة كل واحدة منها ، ويحدث من انتقال الطبقة الساخنة منه الى أعلى ، ومن نزول الكتلة الباردة لتشغل محلها ، تموجات تنعكس فى صفائها صور الاشباح القريبة منها ، وهذه الصور تنعكس بمجموعها فى منخفض من هذه الرمال المتبلورة فتراها من بعد كأنها حقيقة مجسمة .

أما مونج (Nonge) وهو أول من شرح نظرية السراب ، وكان من أعضاء الحملة العلميه الفرنساوية السابقة الذكر ، فقد ذهب الى أن السراب انما هو صورة أشباح حقيقية يشاهدها الرائى من بعد ، فيخترق شعاعه البصرى الذى ينقل صورتها اليه طبقات الجو التي تختلف فى حرارتها وكثافتها كلما اقتربت من أرض الصحراء التى سخنتها حرارة الشمس ، ويأخذ فيها سيراً

طبيعياً على خط منحن تتصل دائرته بالارض فى نقطة تنطبع فى رمالها اللماعة صورة الشبح المرئي ، وهنالك يتخيل للرائى انما يشاهد الشبح من هذه النقطة وليس كذلك .

والطريق الحديدى فى هذه الجهة كثير المنحنيات بل تراه في حالات كثيرة مثل حرف (S) ، أى على شبه قوسين متضادين أخذا بطرفي بعضهما ، وذلك يكون فى حال صعوده على الجبال ، أو قطعه لها من جهة الى جهة اخرى . وما زال السير على هـذا المثال حتى وصلنا الى محطة قطرانه ، وهي الثغر الحديدى لمتصرفية الكرك التي تبعد عنها غرباً بنحو ٣٠ كيلومتراً ، وكان حضرة متصرفها قدحضر مع بعض رجاله لاستقبال الجناب الخديوى . وبعد تأديتهم الى مقامه الفخيم واجب التسليم والتعظيم استأنف القطار مسيره حتى وصل الى محطة الدرعا فى منتصف الليل ، ومنها يتفرع الطريق الحديدى إلى شعبتين : شعبة تسير نحو الشمال الى دمشق الشام ، والاخرى تسير نحو الغرب الى حيفا . وكانت في هذه المحطة زينة لطيفة لمقدم سمو الخديو المعظم وكان كثير من أهل الدرعا (التي تبعد عن المحطة بنحو الفي متر) قد حضروا للتمتع بمشاهدة طلعة الجناب العالي. ولقد مكثنا فى هذه المحطة الى فجر اليوم التالي ، ثم سرنا في أرض زراعية من يميننا وشمالنا حتى وصلنا محطة تل شهاب ، ومنها يبتدئ الطريق الحديدى يسير في جوف الجبل ، فكنت ترى القطار صاعداً ، نازلا ، منجداً ، متهما ، داخلا في نفق ، مشرفا على هاوية ، قاطعاً قنطرة الى الشرق ليمر على كوبرى الى الغرب ، ذاهباً ، آيباً ، مقبلا ، مدبراً ، كأنه الغزال في لفتاته ، أو الثعلب في روغانه ، متخطياً مجارى الماء ، متباعداً عن مساقط السيول !!

وبالجملة فهذا الطريق صورة صغرى من طريق السمرنج فيما بين تريستا وڤينا . وما زلنا سائرين بين هذه الهضاب ، وهاتيك الشعاب ، التي تحيرت في جمالها الالباب ، مندهشين من جلال طبيعة هذه الجبال ، وفخامة ما صنعته بها يد الدولة من عظيم الاعمال ، متمتعين بما على سفوحها من الخضرة التي يكثر فيها بصل النرجس فيعطر الارجاء بعبيره ، والتي يرعى في كلئها آلاف من قطعان الابقار والاغنام حتى نزل الوابور الى الوادى فشاهدنا بعض الفلاحين يشق الارض بمحرانه (وهو أصغر من المحراث المصرى كثيراً) . وبعد كيلو ١٣٥ كثرت الخيام في جوف الوادى الذى ابتدأ يعمر بالسكان . وفي الكيلو ١٠٠ غزرت المواعي : فكنت ترى معالي الجبال ومواطيها مفروشة ببساط أخضر سندسي يتلون منظره في ارتفاعاته ، وانخفاضاته وشمسه ، وظله ، بألوان مختلفة ذكرتني بتغيرات مناظر البوسفور الجميلة . وهذا الوادى يسمى بوادى الساسابان ويبتدئ من محطة صماخ (١) التي يبتدئ منها جفلك السلطان عبد الحميد ، وفيه خمسون قرية ، وأرضه غاية في الجودة يشقها الطريق الحديدى ومياهه غزيرة جداً . وكان القمح فيه على ارتفاع شبر من سطح الأرض ويستمر هذا الجفلك الى محطة العفوله ، التي بمجرد ما تركناها شاهدنا بكل فرح وسرور مباني حيفا . وقبل الوصول اليها ببضعة كيلو مترات شاهدنا على

(١) ويقرب منها قرية حطين المشهورة بواقعتها الكبرى التى حصلت فى سنة ٥٨٣ هجرية بين صلاح الدين الايوبى والصليبيين وانتصر فيها صلاح الدين عليهم نصراً مبيناً كان فاتحة لانتصاراته المتوالية عليهم . ويقرب من حطين قرية يقال لها خياره بها قبر شعيب النبي . وصماخ تشرف على بحيرة طبريه وتسمى فى التوراة بحر الجليل ، وهي أعظم بحيرات سوريا ، وطولها من الشمال إلى الجنوب ١٤ ميلا ، وأعظم عرض لها ثمانية أميال

يسارنا طريقاً بالمكدام لفسحة القوم قد خرج اليه بعض الناس في عرباتهم لاستقبال أميرنا المعظم ، وعلى حافته قهاوٍ قد اكتظت بالمتفرجين على مقدم هذا المليك الأكرم . وما زال القطار حتى وصل الى رصيف المحطة التي رفعت عليها أعلام الزينة ، واحتشد الى رصيفها صنوف المستقبلين من علية القوم ، يتقدمهم مأمورو الدولة بين عسكريين وملكيين ، وقناصل الدول ، والعلماء يتقدمهم فضيلة القاضي والمفتي وأمين الأشراف . وكان جناب المتصرف ووكيله وقومندان عموم القوة العسكرية قائمين بحفظ النظام . ولما وقف القطار الخصوصي ضربت المدافع ، وعزفت الموسيقى العسكرية بالسلام الخديوي ، وصعد سعادة المتصرف الى الصالون مسلما على الجناب العالي بالنيابة عن الدولة العلية ، ودعاه الى بهو المحطة الذى اعد لاستقبال سموه بصفة رسمية . فنزل حفظه الله وسار في وسط هذه الجموع التى لا يحصى عددها حتى دخل قاعة الاستقبال . وهنالك ابتدأت التشريفات : فدخل الكبراء والعظماء للسلام على جنابه العالي ، وكان يقدمهم الى سموه سعادة القائمقام . وبعد ذلك قدمت المتصرفية الى جنابه الشاي ثم القهوة ، وعندها قام باشكاتب

وكثيراً ما كان المسيح عليه السلام يعيش على ضفافها . وقد ورد فى دائرة المعارف ان النصارى يقولون ان السيد المسيح سوف يخرج من البحيرة فيعرج على طبريه ، ثم يسير الى صفد فيقيم عرشه على أعلى قمة الجبل . أما اليهود فيعتقدون فى طبريه أنها رابع المدن المقدسة . ويقرب من هذه البحيرة حمامات كبريتية حارة قديمة ، رممها المرحوم ابراهيم باشا جد العائلة الخديوية حين استيلائه على الشام ، وبنى إلى جوارها قصراً لا تزال آثاره بها . والناس يقصدون هذه الحمامات للاستحمام بها ، والاستشفاء بمياهها الكثيرة الفائدة خصوصاً في الامراض الروماتزميه ، وموسمها في فصل الربيع حيث تكون حرارة مياهها مرتفعة .

المحكمة الشرعية ، والتي خطابة طويلة مرحباً فيها بمقدمه السعيد ، مهنئاً تلك الديار بشرف حلوله في ربوعها ، ثم تلا قصيدة غرّاء في مدح فضائل الحضرة الفخيمة الخديوية ، فشكره الجناب العالي . وقد كان حفظه الله مدة وجوده في هذه الحفلة يتكلم مع هذا بالتركية ومع ذاك بالعربية ، ثم مع كل قنصل بلغته ، متنقلا من موضوع الى آخر بعبارات كلها بلاغة وحكمة حتى أدهش الحاضرين عموماً من كمال معارفه ، وواسع مداركه ، وعظيم آدابه . وبعد نحو نصف ساعة ركب القطار الى الأسكله ، وركب معه رجال الدولة مهنئين ؛ مودعين ، شاكرين لجنابه ، مثنين على آدابه ، فشكرهم حفظه الله ثم سلم عليهم ونزل في الزورق البخاري لوابور المحروسة ، فبلغها بسلامة الله الساعه خمسة بعد الظهر من يوم الاحد ٢٣ يناير سنة ١٩١٠ . ونزل في ركابه العالى من كان في خدمته من رجال المعية السنية . أما رؤساء الحجاج المصريين الذين سافروا على نفقة الجناب العالى فقد أمر حفظه الله بتسفيرهم الى بورسعيد مع بعض رجال الحرس الخديوى على أحد وابورات الشركة الخديوية الذى كان منتظراً بالميناء .

وفى منتصف الساعة العاشرة مساء تحركت سفينة المحروسة باسم الله مجراها الى ثغر الاسكندرية الذى ابتدأت تظهر معالمه في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الاثنين ٢٤ يناير سنة ١٩١٠ ، وهنالك ابتدأ يتأثر وجودنا بعامل السرور والحبور ، وما زلنا حتى تجلى لنا شاطئ الثغر ، يتعانق مع ماء البحر ، وأخذت تأتينا منه نسمات تترى ، حاملة روائح ذكية ، أحيت النفس ، وأنعشت الحس ، فكان ريحها ـ نا كريح يوسف من يعقوب : نعم كانت تحمل الينا ريح الاوطان ، والبنين والاهل والخلان ، فضممناه لأنه أحاط بجسوم

الاحباب، ونقل الينا من عواطفهم ماحرك فينا الاشجان، وأهاج عبرة الولهان، وما زالت بنا المحروسة حتى ألقت مرساها داخل الميناء في الساعة الخامسة مساء . وهنالك اطلقت المدافع من طوابي المدينة بين هتاف الآلاف من المصريين الذين كانوا قد ركبوا الزوارق وساروا بها الى ظهر البحر للتمتع برؤية مليكهم المحبوب . وهنالك حضر دولة الأمير محمد على باشا مع حضرات النظار وصحبتهم السير الدن غورست على زورق بخارى واستأذنوا فى الصعود الى الركاب الخديوى . ولما تشرفوا بالمثول بين يديه الكريمتين أخذوا يرتلون آى حمد الله على وصول مليكهم العزيز بكمال الصحة والعافية . فأبدى لهم حفظه الله شكره وامتنانه ، ثم نزل وهم فى ركابه العالى الى زورق المحروسة ويمم سراي رأس التين العامرة ، وتبعته دولة الوالدة وحاشيتها ، ثم رجال المعية السنية فى زوارق أخرى .

وكانت السراي الخديوية غاصة بكبار الموظفين ، وعظماء الأجانب ، وأعيان البلاد من أقصاها الى أقصاها . وهنالك جرت التشريفات على غير موعد ، وتشرف الكل بحضرة الجناب العالى ، واستلموا يد هذا الأب البار الكريم ، مهنئين أنفسهم بسلامته ، وانصرفوا شاكرين ما لاقوه من كرم سموه وعظيم ايناسه . وقد استمرت التشريفات الى مبدأ الساعة التاسعة ، وبعدها تناول الجناب العالى طعام العشاء بالسراي العامره .

وكانت المدينة كلها كأنها قطعة من نور للزينات التى أقامها الاسكندريون في أطرافها ، والتي أقامها المجلس البلدى من سراي رأس التين الى آخر شارع رشيد ، مخترقة المدينة من طرف الى آخر . وكانت ثريات الكهرباء في طول

هذا الطريق على شكل أقواس نصر تجمع أطرافها أوتار تتعانق أشعتها ، وتتعاكس في مرآة صفاء هذا الجو ، حتى كان يخيل لك أن الدرارى قد نزلت من أفلاكها لتساعد الاسكندريين على معالم الزينة احتفالا بمقدم أميرهم المحبوب . وعدا ذلك فكنت ترى الدكاكين والمنازل على طول الطريق وخصوصاً في ساحة المنشية ، وشارعي شريف ورشيد ، قد قامت عليها معالم الزينة بأشكال بديعة ، تختلف في مناظرها ، وتتفق في حسن تنسيقها . وكنت ترى بين تلك الأنوار ، الاعلام على اختلاف جنسياتها ترفرف بين هذه الاضواء ، فتكسبها رواء على رواء .

وكان الناس على جانبي الطريق كالبنيان المرصوص ، تتقدمهم رجال البوليس ، ويتخللهم عمال المجلس البلدى حاملين في أيديهم ثريات الشموع انتظاراً لتشريف الجناب العالي الذى تفضل فوعد بزيارة دار البلدية بناء على التماس المجلس البلدى .

وفي نهاية الساعه التاسعة ركب حفظه الله عربة خديوية والى يساره سعادة محمد سعيد باشا (رئيس النظار) وكان ناظراً للداخلية ، ومر على زينة العروة الوثقى التي كانت في مبدأ شارع رأس التين . وكان أعضاؤها مجتمعين في سرادق غاية في البهجة والجمال انتظاراً للركاب العالى . فتنازل جنابه الفخيم ووقف لحظة شكر فيها أعضاء الجمعيه ، ثم سار بين دعاء الاهلين وهتافهم الى ميدان المنشية ، فشارع شريف ، فشارع رشيد . وكان كلما مرّ هتف الناس له بأصوات السرور والحبور ، بما كان يتردد في جميع الارجاء ، ويرتفع الى عالم السماء . ولما وصل حفظه الله الى سراى المجلس البلدى استقبل بما يليق

بمقامه الكريم ، من الاجلال والتعظيم . وبمجرد ما استقر بالصالون الذي اعد لجنابه الفخيم ، قام رئيس المجلس وتلا بين يديه الكريمتين خطبة رحب فيها ، نيابة عن الاسكندريين بمقدم سموه من حجه المبرور ، وسعيه المشكور ، وهو على ما يرجو الكل له من الصحة والعافية . فشكره الجناب العالي ، ثم قام حفظه الله الى البوفيه فأخذ شيئاً منه وبارح المكان بين مظاهر الاجلال والاعظام ، وعاد الى سراى رأس التين العامرة من الطريق الذى حضر منه وكان احتفال الاهالي به في ذهابه لا يقل عن احتفائهم به فى ايابه .

وفي صباح يوم الثلاثاء ٢٥ يناير قصد الجناب الخديوى محطة الباب الجديد فى كوكبة من حرسه ، وكانت المحطة غاصة بأعيان الاسكندريين ، وكبار الموظفين ، وكثير من سراة البلاد ، فلثموا يده الشريفة ، وركب حفظه الله يحف به حضرات النظار ، وسار القطار على بركة الله الى مصر . وكانت زينات المحطات على طول الطريق الحديدى مما لم يسبق له مثيل خصوصاً في دمنهور ، وطنطا ، وبركة السبع ، وبنها ، التي احتشد على أرصفتها عمد وأعيان البحيرة والغربيه ، والدقهليه ، والمنوفيه ، والشرقيه ، والقليوبيه ، يتقدمهم حضرات المديرين ، وكبار المستخدمين . وشرف القطار الخديوى محطة مصر في مبدأ الساعه الثانية بعد الظهر : وكانت المحطه غاصة بأعيان القاهرة ، والعدد الجم من أعيان الوجه القبلي ، وقناصل الدول ووكلائها ، وكبار مستخدمي الحكومة السنية وفي مقدمتهم العلماء الاعلام ، والامراء الكرام ، والذوات الفخام ، وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية يتقدمهم دولة البرنس حسين باشا (وكان دولته رئيساً لهما) . وبالجملة فقد كان هنالك كل ذى حيثية كبرى

وكان كل من صاحب السعادة محافظ مصر وحكمدارها يقوم بالنظام العام ولما وقف القطار نزل الجناب العالى الى رصيف المحطة التى كانت كالعروس في زينتها ، وسلم على الحاضرين واحداً واحداً ، ثم سار تحف به رجال حكومته حتى ركب عربته والى جانبه سعادة رئيس النظار ، بين دوى طلقات المدافع وعزف موسيقات فرق الجيش المصرى ، وجيش الاحتلال ، التى كانت واقفة في رحبة المحطة لاداء واجب التعظيم . وقصد حفظه الله سراى عابدين بين جموع الخلق الذين لا يحصى عددهم والذين وقفوا صفوفاً يتلو بعضهم بعضاً فى عرض الطريق وطوله الى السراى العامره ورجال البوليس أمامهم لحفظ النظام .

وكانت كلما مرّت عربة الجناب الخديوى هتف الناس هتاف السرور لمشاهدة مليكهم المحبوب ، بما كانت ترتج له أطراف مدينة القاهرة ، بحال لم يسبق لها مثيل بالمرة . وكانت الدكاكين والمساكن التى على جانبي الطريق رافعة أعلامها على اختلاف جنسياتها ؛ حتى اذا وصلت العربة الى ميدان الأوبره كان الناس فيها على بعضهم : هذا على رجله وذاك واقف في اتومبيله وآخر على عربته ، والبالكونات والشبابيك قد ملئت بملية المتفرجين من الاجانب والأهلين نساء ورجالا ، والكل يهتف بأصوات الفرح . ولم يصل الركاب العالي الى السراى العامرة الا في منتصف الساعة الثانية تماما .

وفي المساء لبست المدينة حلة من الانوار ، وبدت زينة لجنة الاحتفال بعيد الجلوس المأنوس في أبهى مظاهرها ، كما تجلت الزينات الخصوصية التي أقامها الاهلون والاجانب من جميع انحاء القاهرة . وبالجملة فقد كانت المدينة

فى زينة باهرة ، وكانت كلها من ثريات الكهرباء على شكل أقواس نصر متتالية من السراى العامرة الى المحطة ، وكان اتصال هذه الاقواس بحيث كنت ترى الطريق قد تغطت بخيمة صيغت من قباب من نور .

وقد أقامت لجنة الاحتفال في ميدان عابدين سرادقا فخيا جداً كانت تتلألأ أنواره ، وتتألق أزهاره ، وتتصل اشعة اضوائه الى منافذ السراى العامره ، حاملة عواطف الرعية الصادقة الى هذا المليك المحبوب . وتنازل حفظه الله بتشريفه صيوان اللجنة في منتصف الساعة العاشرة مساء . فاستقبله حضرات أعضائها بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاعظام ، وتلا حضرة رئيسها عثمان بك مرتضى المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية خطاباً بليغاً بالنيابة عن اللجنة ، حمد الله فيه على وصول هذا المليك الكريم بسلامة الله من رحلته المباركة ، ثم رفع الى مقامه السامي عبارات الشكران والامتنان على تنازله بتشريف الاحتفال . فشكره الجناب العالى وأثنى على همة اللجنة التي تمثل هذه الامة المخلصة بخطاب كله درر وغرر . وعندها قدمت المرطبات لجنابه السامي فتناول منها شيئاً ، وأمر حفظه الله فادبرت على عموم الحاضرين وعند ذلك قام حضرة الشاعر المصرى النابغة حافظ افندى ابراهيم وتلا عن ظهر قلبه فى هذا المكان الرهيب قصيدة آية في البلاغة هنى فيها مصر بوصول الجناب العالى بسلامة الله . فشكره سموه ، ثم كرر شكره لحضرة رئيس لجنة الاحتفال وأعضائها ، وركب حفظه الله عربته وسار مخترقا طريق هذه الزينات الباهرة ، وآلاف الناس على جانبيه مكررين آيات الهناء والدعاء ، حتى وصل بسلامة الله تعالى الى سراى القبة العامرة في مبدأ الساعة الثانية عشرة مساء .

وفي يوم الخميس ٢٧ يناير كانت المقابلات الخديوية : فكنت ترى السراى العامرة قد ضاقت رحباتها عن جموع المهنئين من الأجناس المختلفة والالاف من وفود الارياف من اصوان الى الاسكندرية يردون الى عابدين أفواجاً أفواجاً لتقديم واجبات التهاني الى الأعتاب الخديوية ، والسراى الخديوية تموج بهم بحال لم يسبق لها نظير ، وكان الجناب العالي حفظه الله يقابل الكل بلطفه وايناسه . وفي مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر تمت التشريفات وانصرف الناس وكلهم ألسنة ثناء ودعاء لحفظ هذه الذات المباسية المأنوسة المحروسة درة في جبين الدهر ، وتاجاً على مفرق هذا العصر ❊



تقريظ صاحب الفضيلة شيخ المشايخ الاعلام مولانا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمد الشاكرين ونصلي ونسلم على صفوة خلقك اجمعين وآله الطيبين وصحابته الطاهرين . وبعد فان اسمى ما خطه يراع وسمى به ابداع ونمقه بنان وأظهره بيان من ضروب القول وصنوف الكلام ما كان متصلا بحج بيت الله الحرام وزيارة حضرة المصطفى عليه الصلاة والسلام . وقد اطلعت فى هذا الباب على السفر الجليل الموسوم بالرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمى باشا الثانى خديو مصر ، الذى وضعه حضرة الكاتب الماهر والمنشئ البليغ سعادة محمد لبيب بك البتنونى ، فوجدته من احسن ما كتب الكاتبون فى هذا الموضوع النبيل والمقصد الجليل ومن خير ما دون فى وصف تلك البقاع الطاهرة والمعاهد المباركة . واذا كان قد سبق هذا المؤلف كثير من فحول العلماء والمؤرخين فى الكلام عليها والكتابة فيها فكتبوا واوسعوا وأطالوا فاشبعوا فان كتبهم لم تتناول جميع الاغراض التي انفسح لها هذا الكتاب فطرقها من أحسن الأبواب : فقد قصر بعضهم كتابه على جغرافية البلاد وغيره على تاريخها العمرانى والبعض لم تتجاوز كتابته مواضع العبادة ومناسك الحج . وأنت بمرور نظرك على عنوانات هذا الكتاب ترى ان واضعه بارك الله فيه قد بلغ الى الغاية من كل ما يريد القارئ ان يتعرفه فى جزيرة العرب مما يتعلق بأمر دينه أو أمر دنياه ببيان يسحر الألباب واسلوب يعجز الكتاب ، فهو وان جاء متأخرا عمن تقدمه فى مثل هذا التصنيف فقد سبقه فى ان جمع الى حسن الاختيار سبك التأليف . وجملة القول أن هذا السفر جاء برهانا واضحاً وحجة ناطقة بما لمؤلفه الفاضل من سعة الاطلاع وغزارة المادة . هذا واذ صحبه التوفيق ، وانه لنعم الرفيق ، فجرى قلمه بما جرى تسطيرا لرحلة الداوري الافخم والامير المعظم ولي النعم محيي الهمم عزيز مصر ، فليواصل معنا الدعاء الى الله تعالى أن يديم ذاته السنية ملحوظة بعين العناية الربانية وان يحفظ ملكه ويخلد أيامه ما دارت الافلاك واستنارت الاملاك آمين

شيخ الجامع الازهر
سليم البشرى

تقريظ صاحب الفضيلة وشيخ الأدباء والكتاب الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان

بسم الله الرحمن الرحيم

لبيك اللهم لبيك نحمدك على ما أنعمت وأعطيت ونشكرك على ما تفضلت وأوليت ونصلى ونسلم على المبعوث لتكميل مكارم الاخلاق فكانت بعثته عامة لكل الناس فى كل الآفاق سيدنا محمد وآله وصحابته والتابعين له العاملين على سنته ما طلع النيران وتعاقب الجديدان .

و بعد فمن المعلوم للعموم أن تفاضل العلوم فى المرتبة والشرف انما هو بشرف موضوعاتها وتفاوت غاياتها، فكلما كان موضوع العلم أعلا وغايته اسما كالتوحيد كان هو بالنسبة لغيره فى المرتبة الاولى،وعلى هذا أيضاً تتفاضل الاعمال الصادرة من خيرة الرجال فكلما كان العمل أعم وغايته اهم وموضوعه أرفع وثمرته أجمع ونتيجته انفع كان هو بالنسبة لغيره من الاعمال ارقى واعظم واعلا واشرف كما هو مشاهد للعيان .

اسعدنى الجد ففتحت هذه الرحلة الحجازية التي كتبها الفاضل محمد بك لبيب البتنونى وقرأتها كلمة كلمة وتتبعت غايتها خطوة خطوة فاذا موضوعها حج مولانا ومولانا عباس حلمى باشا الثانى خديو مصر الحالى أدام الله أيامه واعلا أعلامه ، ومن الواضح الجلى ان هذا المضاف وهو الحج هو فى ذاته عمل دينى بدنى منيف وركن من أركان الدين الحنيف فهو فى حد ذاته عمل شريف وأن هذا المضاف اليه وهو الجناب الخديوى الاعظم هو ذلك الذات الاكرم أشرف ذات فى الاقطار والامصار وليس من يدانيه أو يضاهيه فى شرف المحتد والعنصر والاصول ولا من يشبهه فى حسبه ونسبه أو فى مركزه وعلو مقامه، فالعمل الذى قام به الجناب العالى فى هذه الرحلة المباركة من اشرف الاعمال (خصوصاً أنه فعله على ما أوتيه وقتاً ما من ابهة الملك وجلال السلطان) والعامل وهو جنابه الفخيم هو أشرف الرجال، فموضوع هذه الرسالة من اشرف الموضوعات،ولذلك نحكم بان تأليفها عمل من افخر الاعمال يبقى حجة على ان حج مولانا العباس خير كله للناس ببقاء الدهور والازمان .

ربنا ساعد على قبول العمل وتعميم النفع به ما يكون لعامله من المنزلة بين أهل فنه

ومعرفتهم بانه كفؤ للعمل ومخلص فيه والحمد لله قد استجمع الكاتب لهذه الرسالة هذه المزايا فمنزلته بين افاضل الكتاب بمنزلة المجيد وكفاءته كفاءة القادر المجتهد وأخلاصه فى عمله هذا لا يحتاج الى برهان .

لا يمترى واحد ولا يختلف اثنان فى أن الغاية من هذا السفر الواجب الذى انشأه مولانا العباس هى من أشرف الغايات واكمل المقاصد لانه أدّى به واجباً من واجبات الدين المفروضة على كل مستطيع من المؤمنين وتحبب فيه بالزيارة لسيد المرسلين، وفوق هذا القصد قد ضمنّ سفره المبارك فوائد اجتماعية عامة النفع فجمعت رحلته الميمونة بين المفروض والمسنون ومصالح العباد وأهمها ان تقتدى بعمله هذا عامة أمراء المسلمين وكبار السرات والمثرين فى قصد هذه المنازل المقدسة وأسداء المبرات وارسال الحسنات والخيرات فتعمر بها هاتيك البلدان .

ولا نذكر للاستدلال على ان للجناب العالى حفظه الله مقاصد عاليات غاليات أ كثر مما جاء فى ارادته السنية التى أصدرها قبيل سفره الى رئيس نظاره اذ ذاك فقد جاء فيها ما نصه (وأنا لنرجو ان يكون توجهنا الى تلك الاقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعثاً فى المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم). وقد حقق الله رجاء جنابه الفخيم واتخذت الاحتياطات الكاملة لراحة الحجاج فى هذا العام أ كثر مما كانت فى غيره من الأعوام وما تغيير خطة السفر وتبديل الطريق الا احدى هذه النتائج المباركة التى تعود على الحجاج بالخير والبركات ان شاء الله وليست هذه وحدها بل قد علمنا أنه عقب عود سموه من السفر السعيد أرسل وفدا من خيرة الرجال لينظروا فى حال الطريق من جهة الوجه فذهبوا ورسموا واشتغلوا وحكموا وعادوا الى مصر فعرضوا عملهم علي أنظاره السامية وسيكون من وراء ذلك كله الخير الجزيل فيكون الحجاج فى اسفارهم على أحسن ما يكون من الامن والاطمئنان .

ربما عددنا تأليف هذه الرسالة من خير نتائج هذه الرحلة المباركة فانها جاءت فى بابها محكمة الوضع متقنة الصنع مفيدة لمن يتصدون الحج بمعرفة مسالكه ومناسكه على المذاهب الاربعة، ولمن لم يسافر بمعرفة هذه المواطن وما فيها من عجائب القدرة وما

كان لها من شرف فى الجاهلية والاسلام، وهذا من أشرف ما يقصده القصاد ويطلبه الروّاد ويعمله ذووا الفضل والعرفان .

اشتملت هذه الرسالة أولا و بالذات على وصف تنقلات الركب الخديوى من مصر الى السويس فجده فمكة المكرمة فالوجه فالمدينة المنورة ومنها الى حيفا الى الاسكندرية فى العود وما بين هذه المواطن الكبرى من المنازل الصغرى. فقد وصف الكاتب فى كل من هذه الامكنة وصفاً تفصيليا ما كان للجناب العالى من الحفاوة بتقدمه المبارك رسمياً وغير رسمى حتى لكأنى بالقارىء لهذه الاوصاف يعد نفسه حاضرا مشاهدا بنفسه هذه الاحتفاءات فى تلك الاستقبالات فيعظم من قدرها كما عظمها الحاضرون و يتمنى ان لو كان له فيها خدمة شخصية حتى يشارك أهلها فى أداء الواجب لهذه الذات الجليلة المستحقة لكل اعظام واحترام ولكنه يعود فيكتفى بما شاهد فى الرسالة و يلتزم التعظيم القلبى الوجدانى والدعاء بظهر الغيب بأن يحرس الله هذا الجناب للبر والمعونة والفضل والاحسان .

وصف هذا الكاتب البليغ هذه المشاهد وصفاً حقيقياً ولم تفته دقيقة فى تبيان الزينات والاستقبالات والاستعداد للملاقاة على اكمل الهيئات وما كان للخاصة من الحفاوة اللائقة بمقامه الكريم وما كان للعامة من الاجتماعات حول ركبه المهيب وضجيجهم بصالح الدعوات وقد تنقل الكاتب فى ذلك من أسلوب الي اسلوب ومن تعبير الى تعبير ولا غرو فالمجال فسيح والقائل فصيح وما هي الا كتابة ما يمليه الواقع وتصوره المشاهدة فما على الكاتب الا نقل ما شاهدت العينان الى البيان وتفاوت الكتاب فى هذا الباب أنما هو فى القدرة على التصوير وما اقدر كاتبنا على تصوير هذه المناظر حتى جلاها للقارىء مجسمة المعانى تكاد تلمسها اليدان .

وكما أبدع الكاتب فى وصف هذه الهيئات الدنيوية اغرب في وصف ما كان للجناب العالى حين تأديته للمناسك المفروضة من عظيم التواضع وكبير الخشوع حتى ان جنابه لم يبال بالمظاهر الدنيوية وأدى مناسكه كلها من احرام وطواف واستلام وسعي ووقوف بعرفة ورمي للجمرات كما يؤديها من عاش عمره فى شظف العيش وخشونة البدن ولم يحفل بتعب الجسم فأدى السعي ماشياً على القدمين مع صحة ادائه راكباً

حتى لا تفوتهم مثوبة المشقة ولا أجر التعب وكذلك ادى المسنونات على وجهها الا كمل كما يؤديها عامة الناس ، ثم بعد هذا نفع الفقراء والمساكين من أهل هذين الحرمين الشريفين بما نفحهم به من الصدقات واعان الحجاج المقلين بتسفيرهم على نفقته الخصوصية فجزاه الله عن دينه وفقراء عبيده افضل ما يجزى به انسان .

ولقد اشتملت هذه الرسالة تيمناً على فوائد تاريخية لأشهر البلدن ولاشهر الرجال ولاشهر الاعمال ، ففي كل بلد من البلاد الكبيرة كجدة ومكة والمدينة تكلم عن أوصافها أوصافاً جغرافية من جهة تجارتها وعمرانها وعلومها وسكانها ومقابرها ومزاراتها وآثارها و بيّن على الخصوص تاريخ مكة القديم والحديث ومن له اليد الطولى فى عمارتها ثم تاريخ الكعبة ومن بناها والازمان التى بنيت فيها وكسوتها ومن كساها داخلا وخارجا وعين زبيدة ومنافعها وما للاسرة الخديوية من منافع مادية وأدبية فى تلك البلاد وحروب الوهابيين وانقاذ المدينة ومكة منهم . وأحسن شئ يستلفت النظر ما تكلم به عن قبر امنا حواء فى جدة فانه لا يبقى معه للشك مجال فى أن هذا القبر هو على اسمها فقط كما يوجد كثير من الاضرحة فى بلادنا باسم البعض من الصالحين وليسوا فيها على التحقيق . وألطف من هذا انه نبه على ماينتقد فى مكة من جهة الامور الصحية (خصوصاً فى عين زبيدة و بئر زمزم وجهة المسعى) وغير الصحية بأدق عبارة وطلب الاصلاح باشارات مؤدبة للغاية وهذا هو اللائق برسالة الفت لغرض شريف هو بيان رحلة اكبر أمير اسلامي فانه لايليق بها الا الكمال في التأدب والتلطف فى البيان .

ثم أنه وصف الطريقين القديم والحديث بين الحرمين و بين مصر فأجاد وأفاد وذكر تاريخ الاسفار ومقدار ما كانوا يقاسونه من وعورة الطريق وطول الزمان ، ثم وصف الحرمين الشريفين وصفاً مدققاً من جهة الحدود والسعة والتاريخ وما تجدد في كل منهما من العمارات كل ذلك بعبارة في نفسها واضحة ومؤيدة بالقول والنصوص من الكتب المعتبرة مما لم يسبق اليه هذا الكاتب المجيد ، وما على من وصلت اليه هذه الرحلة الا تتبعها واستيعابها ليتضح له صدق ما قلناه و يثني على كاتبها بكل لسان .

لقد حمدناه عند ما بين سنة الطواف وأصلها وعند ما أوضح احترام بعض الاحجار

للناس من قديم الزمان حين الكلام على استلام الحجر الاسود وعند ما تكلم عن احترام الحمام فى كل صوب وناحية قديمًا وحديثًا حين الكلام على حمام الحمى وهو الحمام الذى يأوي الى بيت الله الحرام فيكون آمنًا وعند ما تكلم عن لباس الاحرام واصل استعماله قديمًا بين امم كثيرة من البدو والحضر الى غير ذلك من الفوائد التاريخية التى تناسب كتابًا مثل هذا الكتاب، ولقد اعجبني كثيرا بيان الحدود والمسافات وتعداد المحاط من مدينة الى اخرى كما بين مكة والمدينة أو بين المدينة وحيفا مما يحتاج اليه فى مثل هذه الاسفار الطوال، كل هذا أقوله بعبارة مجملة تنوه عما تضمنته هذه الرسالة من نضرة العلم ونور العرفان .

ومن المباحث التى تعجب كل قارئ ما استظهره المؤلف في أصل وضع الروضة الشريفة والحجرة النبوية المنيفة من أنها هي بذاتها ما كان دارا له فى حياته عليه الصلاة والسلام، وان ما استدل به على ذلك من الأحاديث الواردة فيه منتج لما استظهره فيما أعلم، وكذلك كلامه على الكورنتينة وقوم صالح وما حققه المحققون فى نبأهم وتاريخهم وكيفية مجيئهم الى وادي مدائن صالح فكله مقبول ومعقول تؤيده ما أورده من النصوص والنقول فلا نطيل فيه القول ولا نؤيده بغير ما أيده به من البرهان .

ولقد اطلعت على الخرائط الكروكية والرسوم الفوتوغرافية التي وضعها للحرمين الشريفين (خصوصًا ما كان عليه الحرم المدنى فى غابره وحاضره) ليحلي به جيد هذه الرسالة من مناظر المواقع ومناظر الحفلات الرسمية في كثير من الاستقبالات وكلها رسوم جلية واضحة تمثل تلك المشاهد للعيان .

ظهر من هذا المختصر الذى ذكرناه ان هذه الرسالة قد شرف موضوعها (حج الجناب العالى الخديوى) الشرف الذى لا يضاهيه شرف وشرفت غايتها كما سلف وارتفعت منزلة كاتبها عند كل من ذاق وعرف، فلم يبق الا أن نصفها حقًا بأنها أشرف رسالة ألفت فى هذا العهد لهذا القصد، فليدم الله سبب تأليفها (الجناب الخديوى) فينا نورا ساطعًا وليبق مؤلفها في ظله الظليل عاملا نافعًا ولتكن هي لقرائها دواء ناجعًا ولينتفع بها طلاب الفضل والفضيلة في كل زمان وفي كل مكان (عبد الكريم سلمان)

فهرست الكتاب

دار المناهل للطباعة

٧ ش يوسف السداري - أرض اللواء

بولاق الدكرور

